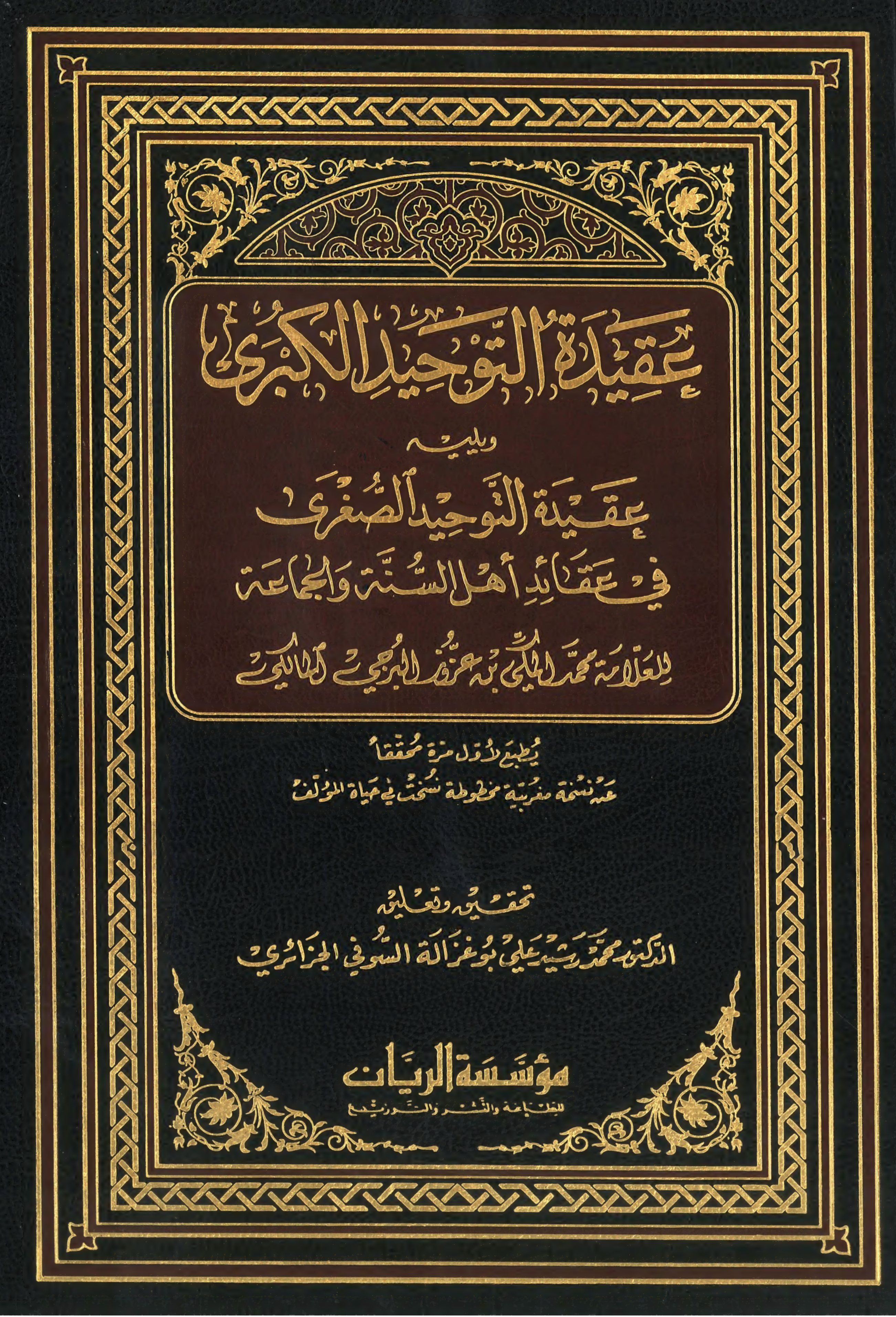

عقيدة التوحيد الكبرى
ويليه
عقيدة التوحيد الصغرى
في عقائد أهل السنة والجماعة
للعلامة محمد المكي بن عزوز البرجي المالكي
يطبع لأول مرة محققاً
عن نسخة مغربية مخطوطة نسخت في حياة المؤلف
تحقيقه وتعليقه
الدكتور محمد رشيد علي بوغزالة السوفي الجزائري
مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع


عقيدة التوحيد الكبرى
ويليه
عقيدة التوحيد الصغرى



الطَّبْعَةُ الأُولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت – لبنان – تلفاكس: (00961 1) 651327 – 655383 ص.ب: 14/5136 الرمز البريدي 11052020
البريد الإلكتروني: Alrayan@cyberia.net.lb الموقع الإلكتروني: http:/alrayanpub.com

عقيدة التوحيد الكبرى

ويليه

عقيدة التوحيد الصغرى

في عقائد أهل السنة والجماعة

للعلامة محمد المكي بن عزوز البرجي المالكي

يطبع لأول مرة محققاً

عن نسخة مغربية مخطوطة نسخت في حياة المؤلف

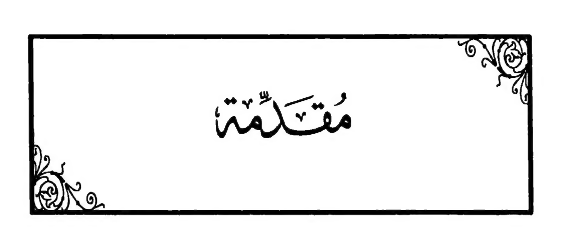
تحقيق وتعليق

الدكتور محمد رشيد علي بوغزالة السوفي الجزائري

مؤسسة الريان

للطباعة والنشر والتوزيع





مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه الأتمَّان الأكملان على الهادي البشير الأمين، محمد بن عبدالله رسول ربِّ العالمين، وخاتم النبيين، وقرَّة عين الموحِّدين، وعلى آله الطَّاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين، وعلى من اهتدى بهديهم، واستنَّ بسنَّتهم، وسار على نهجهم إلى يوم الدين، **أمَّا بعد**:

يُدرك المؤمن بيقين أنَّ تصحيح الاعتقاد هو سبيل الرشاد المُنجي لصاحبه يوم التناد، يوم لا ينفعه العباد. فلا نجاة يومئذ إلاَّ من أتى الله بقلب سليم، واعتقاد قويم وعمل خالص لربِّ العالمين.

لذا عكف الأساطين والأئمة الكبار من أهل السنة والجماعة منذ الصدر الأوَّل على تصحيح عقائد المسلمين، والتصدي لمطاعن الكفَرة الملْحدين، وتحريفات المضلِّين من أهل البدع المُحْدثين، وظلَّت سهام هؤلاء الأكارم منصوبة لطعن كلّ مُحْدث مبتدع، حفاظاً على بيضة الإسلام، وذوْداً عن حياض المسلمين ـ رحمهم الله أجمعين، وأكرم نزلهم يوم الدِّين ـ.

وقد عثرت منذ أكْثر من سنتين على مخطوطة نفيسة تضمّ رسالتين في عقائد أهل السنة والجماعة للعلاَّمة محمَّد المكِّي بن عزُّوز في إحدى خزائن المخطوطات الدفينة في الجزائر، حرَّرهما المؤلف في ذي الحجَّة من عام 1326هـ، وكتبهما الناسخ في حياة المؤلف عام 1327هـ، الأولى أسماها بـ"العقائد الكبرى" ثم اختصرها في الرسالة الثانية وأسماها بـ"العقائد الصغرى" فوجدتهما صغيرتي الحجم غزيرتي الفائدة، لم يستوعب فيهما

المؤلف جميع مباحث الاعتقاد، لكنَّه أكبَّ فيهما على ذكر ما اشتهر فيه خلاف أهل الأهواء لعقائد الأسلاف، فأبرز فيهما عقيدة المسلمين في تلك المسائل بعبارة سهلة جامعة مانعة.

ويعلم الدَّارس لتاريخ الإسلام في المغرب، كيف اشتهرت في القرون المتأخرة العقائد السنوسية (الكبرى والصغرى) في علم الكلام، وتوالت عليها الشروح والحواشي، والتعليقات، والحواشي على الحواشي، والنظم، وشروح النظم... حتى بلغت المئات، وسرت بين العلماء وطلبة العلم سريان النَّار في الهشيم، وكان عليها معتقد عامة أهل المغرب.

وفي نظير ذلك ألّف العلاَّمة محمد المكِّي بن عزّوز رسالته في العقائد الإسلامية (الكبرى والصغرى) في عقيدة أهل السنة والجماعة، صحَّح فيها بعض اعتقادات العامَّة، ورفع فيها لواء الأسلاف والأمجاد، وسلم اللَّواء إلى الأحفاد، فجزاه الله خيراً ورفع درجته يوم المعاد.

فأردت أن أنفض الغبار عن هذه الجوهرة المغربية، وأن أخرجها إلى طلاب العلم كما قصد المصنِّف من تأليفها، ليعمَّ نفعها بين العامة والخاصة، وأردَّ المسائل إلى دلائلها من الكتاب والسنَّة، وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المتَّبعين، وقد بذلت في تحقيقها وشرحها وإخراجها أثمن الأوقات، فلا يبخلنَّ القاريء ومن انتفع بها بدعوات صالحات تنفعنا عند رب السموات، ليرفع بها درجتنا عنده في الجنَّات.

والله من وراء القصد،

وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو ولي الصالحين.

العلامة محمد المَكّي بن عَزُّوز[1]

النسب والنشأة:

هو العلامة المحدِّث المفسر الشاعر الأديب المقرئ الفلكي الفرضي الرحَّالة أبو عبدالله محمد المَكِّي ابن الولي الصالح مصطفى ابن العارف الكبير أبي عبدالله محمد بن عَزُّوز الحسني البرجي الجزائري ثم النفطي التونسي المغربي المالكي.

أصله من مدينة برج عمر بولاية بسكرة بالقطر الجزائري، رحل والده مصطفى بعائلته إلى الجنوب التونسي وحطَّ الرحال بمدينة نفطة وأنشأ بها مسجداً وزاوية سخَّر فيهما نفسه لتحفيظ القرآن والفقه وعلوم الشريعة، وقد زُرتها منذ عهد قريب وهي تعرف اليوم بالزاوية العَزُّوزية، بجوار المسجد الكبير المعروف اليوم بجامع سيدي مصطفى بن عَزُّوز[2].

---

(1) انظر ترجمته في: فهرس الفهارس للكتّاني، ج2 ص 586 ت" 490"، وشجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، ص 423 ت"1683"، والأعلام للزِّركلي، ج7 ص 109.

(2) كانت الزاوية العزُّوزيَّة ومسجدها بعد عهد النشأة قلعة حصينة للفقه والفتوى على مذهب عالم أهل المدينة، ومنارة علم ومعرفة رفع نورها سكون ظلام الجهل المقيت في صحراء تونس والجزائر، ويكفيها شرفاً أن ينبغ فيها العلامة محمد المكي بن عزُّوز - رَحِمَهُ اللهُ - ويشدّك الحنين إلى عهد تليد قد مضى لمّا تقف عند المحراب الذي تقلّب فيه العلامة محمد المكي وأشياخه وطلابه، وتُحدِّق في تلك السواري التي استندت إليها ظهور العلماء والأشراف، ولو زرتَ هذه الزاوية ومسجدها اليوم تعجب من حالهما الذي كان، ومآلهما الذي وصلا إليه، والله لن تجد فيهما ولو كتاباً واحداً في الفقه أو في =

ولد في 15 من رمضان عام 1270هـ في مدينة نفطة بالجنوب التونسي وسماه بـ "المَكِّي" عمُّه العلامة محمد المدني بن عَزُّوز، وكنَّاه بـ "أبي طالب" تيمُّناً بأبي طالب المَكِّي صاحب "القوت".

نشأته وبداية الطلب:

ولد العلاَّمة محمد المَكِّي في بيت علم وصلاح، وكان المسجد الذي بناه أبوه والزاوية التي وقف نفسه فيها قبلة للعلماء وطلاَّب العلم، وفي هذه البيئة ترعرع الولد الصغير على يد الوالد الصالح فحفظ القرآن الكريم وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره.

قرأ في نفطة وضواحيها على عمِّه الشَّيْخ محمد المدني بن عَزُّوز صاحب الأسانيد في الفقه والحديث[1]، وابن عمِّه الشَّيْخ محمد بن عبدالرحمٰن التارزي، ومحمد العربي بن محمد التارزي بن عَزُّوز، وعن العلامة الحاج محمد النوري بن أبي القاسم النفطي، والقاسم بن محمد بن الشريف الخيراني الجزائري ثم التونسي المالكي[2]، وعمر اليزيدي النفطي، وأحمد بن علي النفطي، وإبراهيم البختري قاضي تُوزَرْ، وأحمد السنوسي مفتي قَفْصَة، ومحمد الصالح بن محمد الجمني قاضي نفزاوة من بلاد الجريد التونسي وغيرهم...

= فنون العلم، وانقطع عنهما الأشياخ وطلاب العلم منذ زمن بعيد، يظلان مغلقان ولا يفتحان إلاَّ لدقائق معدودة أوقات الصلوات طبقاً للتعليمات السارية على كلّ التّراب التونسي، والمسجد الذي يجاورها اليوم إنما هو حديث البناء كما يلمسه الزائر، أما المسجد العتيق المحاذي للزاوية والذي نبغ فيه العلامة محمَّد المكِّي، وفي محرابه صلَّى، وفي رحابه درَّس وأفتى فهو مغلق لأنه على وشك الانهيار، وتردَّى سطحه المغطَّى بالجريد، وتنتظر الجهات المعنيَّة انهياره لتسوّي به الأرض، وتُطمس معه حقبة مضيئة من زمن قد انقضى. فسبحان مغيّر الأحوال، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

(1) انظر ترجمته في فهرس الفهارس للكتاني، ج2 ص 550 ت"303".

(2) ناظم متكلِّم له منظومة "العقيدة القاسمية" وشرحها، توفي عام 1307هـ. (إيضاح المكنون، ج2 ص 116 ـ 117).

ثم انتقل إلى تونس وهو في الثانية والعشرين من العمر ليرتع في رحاب الزيتونة، قلعة العلم والعلماء في المغرب آنذاك فأخذ القراءات بأسانيدها عن شيخ القراء محمد البشير التُوَّاتي[1]، وقرأ الفقه والحديث والأصول على مفتي تونس ونواحيها أبي حفص عمر ابن الشَّيْخ[2]، وعلى شيخ الإسلام أبي الثناء محمود بن الخُوجة التونسي[3]، وعلى الشَّيْخ أبي عبدالله محمد بن عثمان النجار مفتي المالكية بالديار التونسية[4]، والشَّيْخ أبي النجاة سالم بن عمر بُوحَاجِب البَنْبْلِي المفتي[5]، ومفتي تونس والإمام الأكبر بجامع الزيتونة أبي عبدالله محمد بن أحمد الشريف التونسي[6]، والشَّيْخ أبي عبدالله محمد الطيِّب بن محمد النِّيفر التونسي[7] وغيرهم...

ومن شيوخه في تونس كذلك الشَّيْخ أبو عبدالله محمد الشاذلي بن عثمان بن صالح التونسي قاضي "بَارْدُو" ورئيس المفتين في عهده[8]، وعبدالقادر بن البغدادي المجاجي التونسي، وإسماعيل حقي ابن إبراهيم الزْعِيمي المَنِسْتِيري، وأبو عبدالله محمد القزاح الشريف المساكني التونسي[9]، وأبو عبدالله محمد بن أبي الحسن السقاط السُّوسي التونسي خطيب الجامع الكبير بـ "سُوسَة"[10]، وأبو عبدالله محمد بن عثمان الرحالة الأديب[11] وغيرهم...

وشيوخه كثيرون يقرب عددهم من الثمانين من المشارقة والمغاربة.

---

(1) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 415 ت "1655".
(2) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 420 ت"1676".
(3) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 439 ت "1721".
(4) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 421 ت"1680".
(5) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 426 ت"1689".
(6) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 413 ت "1651".
(7) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 428 ت "1690".
(8) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 414 ت "1652"
(9) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 418 ت"1667".
(10) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 416 ت "1662".
(11) انظر ترجمته في شجرة النور، ص 416 ت "1663".

توليه للقضاء والفتوى والتدريس:

ظهرت براعة العلامة محمد المَكِّي بن عَزُّوز ونبوغه العلمي وهو في ريعان الشباب، فبعد سنوات الطلب في رحاب الزيتونة عاد إلى نفطة ليدرّس فيها فأُسندت إليه الفتوى فيها عام 1297هـ وهو ابن 26 سنة، ثم بعد ذلك أسند إليه منصب القضاء.

انتقل مع عائلته إلى السُّكْنَى بتونس سنة 1309هـ فانصرف إلى التدريس لفنون العلم بجامع الزيتونة من الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب وغيرها.

وقد تخلَّلت هذه الفترات رحلات للعلامة محمد المَكِّي إلى الجزائر أرض الأرومة والأجداد، منها رحلة في عام 1300هـ، وأخرى عام 1307هـ[1]، التقى فيها بعلماء وفقهاء القطر الجزائري، ويَظهر أنَّه لم يكن يفوِّت في كلِّ رحلة زيارة شيخه في زاوية الهامل قرب مدينة "بوسْعَادة" ـ الواقعة ضمن حدود ولاية المْسِيلة اليوم ـ العلاَّمة محمد بن أبي القاسم الشريف الحسني الخلْوتي، وكان العلامة محمد المَكِّي مولعاً بهذا الشَّيْخ حتى ألَّف في مناقبه وترجمته كتاباً سمَّاه "بروق المباسم في ترجمة الشَّيْخ سيدي محمد بن أبى القاسم"، كما ألَّف في فوائد رحلاته المتعدِّدة إلى الهامل "الرِّحلة الهاملية"، والتقى في زاوية الهامل كذلك بالعلامة الفقيه الأصولي أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن الدِّيسي الهاملي البوسْعَادي.

وأخذ في الجزائر كذلك عن محدث الجزائر ومسندها المفتي أبي الحسن علي بن عبدالرحمٰن بن الحفَّاف، ومحمد المَكِّي بن الصديق الخنْكي الجزائري، وعلي بن عبدالرحمٰن ابن خوجة المعروف بابن سْمَاية جده لأمه، ومحمد بن القزادري وغيرهم...

المحنة الأولى:

العالم هو المجاهد وصاحب الكلمة، وهو الآمر بالمعروف والناهي

---

(1) وأخبرني الشَّيْخ الفاضل مأمون القاسمي الهاملي أنَّ رحلاته إلى الجزائر أكثر من ذلك.

عن المنكر، وهو أحرص الناس على صيانة شرف الأمَّة ووحدتها، وهكذا كان عالمنا الشَّيْخ محمد المَكِّي بن عَزُّوز ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فقد ابتلي بمسؤولية العالم المخلص في أمَّة كانت في حالٍ رهيبة من الضعف في كلِّ شيء، محكومة بسلطان العدوّ الغاصب المتجبِّر، فقد كانت بلاد المغرب في عهده تعيش تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، ونخوة العالم المصلح تأبى مثل هذه الحال، فأعلن العلاَّمة محمد المَكِّي العداوة والمناهضة للاحتلال الفرنسي.

لم أعثر على تفصيل دقيق في كتب التراجم لهذه الحقبة من حياة العلامة محمد المَكِّي، لكن مما أخبرني به الشَّيْخ الفاضل المجاهد أحمد الخرَّاز السوفي الجزائري ممَّا قرأه في بعض الصحف والجرائد القديمة الصادرة عن القطر التونسي أنَّ العلاَّمة محمد المَكِّي ركَّز في مقاومته للاحتلال على المقاطعة الاقتصادية له وخاصَّة في خلال زيارته للجزائر، فحرَّم بعض ما يأتي من فرنسا من السلع[1] فطارده الاحتلال الفرنسي فقرَّر الرَّحيل إلى بلاد المشرق، فهُرِّب مستخفيًا من جهة بلدتنا "وادي سوف" بالجنوب الجزائري، وكانت العائلة التي هرَّبته هي عائلة "حَمَّى موسى"[2] المعروفة في "وَادِي سُوف"، هذا ما أفادني به الشَّيْخ الخرَّاز عن هذه الحقبة من حياة عالمنا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ.

رحلة العلامة محمد المكي إلى المشرق:

رحل العلاَّمة محمد المَكِّي بعد هذه المحنة إلى "بنغازي" بالقطْر الليبي فاستوطنها مدَّة، ثمَّ رحل إلى مصر ثمَّ الحجاز ثمَّ الشام، والتقى بالكثير من علماء هذه الأقطار فأجاز بما عنده واستجاز بما عندهم.

استقرَّ به المقام بعد هذه الرحلة الطويلة في دار الخلافة باسطنبول عام 1316هـ، فتعلَّم اللغة التركية، وعيِّن مدرِّساً للحديث والتفسير في قلعة العلم المشهورة "دار الفنون"، ثمَّ بعد ذلك في "مدرسة الواعظين".

---

(1) ذكر لي الشَّيْخ الخرَّاز أنَّ من بين الأشياء التي حرَّمها الشَّيْخ الدخان، والقهوة.

(2) عندنا في منطقة وادي سوف تطلق كلمة "حَمَّى" في استعمال العامة اختصاراً لاسم "محمَّد"، وعائلة "حمَّى موسى" من أعيان الوادي، وهي معروفة إلى اليوم.

المحنة الثانية:

لم يكد الأمر يستتب للعلاَّمة محمد المَكِّي في دار الهجرة حتَّى ابتلي بمحنة أخرى في سبيل الحق والدِّين، وكان سبب هذه المحنة ـ فيما أخبرني الشَّيْخ أحمد الخرَّاز ـ أنَّ أحد أصحاب النفوذ في الدولة العثمانية ويُدعى "القَرمَانِي" طعن في الشَّيْخ العارف عبدالقادر الجيلاني، فبلغ الأمر إلى الشَّيْخ محمد المَكِّي فحكم بضلاله[1] فسجنه القَرمَانِي.

ومن خلال تمحيصي للوقوف على تفاصيل هذه المحنة وتتبّعي للمصادر التي ترجمت للعلاَّمة محمد المكِّي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لم أقف على ذكرٍ لهذه المحنة فيها، لكنَّ الأمر محتمل، وإليك بيانٌ لذلك.

لمّا كان العلامة محمد المكِّي بن عزُّوز لا يزال في "تونس" ألَّف رسالته المشهورة "السيف الربَّاني في عنق المعترض على الجيلاني" ردَّ فيه على رجل يُدعى القرماني طعن في الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وهذه الرِّسالة مشهورة في ثبت مؤلَّفات العلاَّمة محمد المكِّي.

والقرماني هذا هو "الصيَّادي" محمد بن حسن أبو الهدى، يَنْسِب نفسه إلى الطريقة الرِّفاعية، غَالَى في التصوُّف حتى رفع نفسه إلى درجة الغوثيَّة الكبرى، وجلّ مؤلَّفاته في التصوّف الرِّفاعي كـ"الدرَّة البيضاء"، و"برقمة البلبل"، و" قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر"، و" تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار" وغيرها من الكتب أتى فيها بالعجائب والعظائم من الضَّلاَلاَت، كادعائه أنه يأخذ الأوامر مباشرة من النبيّ ﷺ، وزعم أنَّ الله اختصه بأنَّه أفضل الأولياء في زمنه على الإطلاق، والذي بشَّره بهذا هو محمد ﷺ عن طريق أحمد الرفاعي، بل يزعم أنَّ أحد رجالات الغيب علَّمه لغة البَلابِل وشهدت له بهذا الاختصاص، وأنَّ نوره لا يَعْدِله نور، وتبرَّكت به بتقبُّل قدميه وسألته الدُّعاء،

---

(1) ولعلَّ هذا كان سبب تأليفه لكتابه المشهور "السيف الربَّاني في عنق المعترض على الجيلاني".

بل وصل به الحال إلى الكفر لما ادعى أنَّ الله أنزل الصحيفة المكتوبة، أعلى فيها مقامه وشأنه، وغير هذا كثير كثير....[1].

هذا "الصيَّادي" سكن الآستانة، واتصل بالسلطان عبدالحميد الثاني العثماني، فقلده مشيخة المشايخ، وحظي عنده بالمكانة فكان من كبار ثقاته، وكانت له الكلمة العليا عند السلطان عبدالحميد في نصب القضاة والمفتين، واستمر في خدمته زهاء ثلاثين سنة[2].

ولمَّا سافر العلاَّمة محمَّد المكِّي إلى الآستانة كان لا يزال الصيَّادي هذا نافذا في الحكم، وكلمته تسري في أسماع أهل السلطان، والشَّيخ محمد المكِّي كان وقَّافاً عند الحقّ، ولا يرضى لمثل هذا المفتري أن يتكلَّم في العلْم أو أنْ يتصرَّف في شؤون العلماء، وقد علمْتَ أن محمد المكي كان قد ضلَّله من قبل في "السيف الربَّاني" فلا يبعد أن ينتقم هذا "الصيَّادي" لنفسه من العلاَّمة محمَّد المكِّي فيسجنه.

العلاَّمة محمَّد المكِّي ورحلة البحث عن حقيقة الوهَّابيّة:

كان العلاَّمة محمد المكي بن عزوز رحَّالة المغرب قد جال بلاد الإسلام وشَرب من مختلف الموارد، وعرف الكثير من الأماجد على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم، واستشكل عليه أمر "السَّلفية" لما زار الحجاز ما بين ناصر لمذهبهم وعقيدتهم، وما بين طاعن فيهم ومضلِّل لاعتقادهم. وديْدَن العالم المنصف أنْ يبحث عن الحقِّ ويذود عن حياضه وينصر أهْله.

من هنا بدأت رحلة استكشاف العلاَّمة محمَّد المكِّي لأمر "السَّلفية" بعد أن استقرَّ به المقام في "الآستانة". أرسلَ إلى صديق له في المدينة رسالة ليَسْتَجْلِي منه أمر هؤلاء القوم، ثمَّ أرسل الرِّسالة نفسها إلى "البيطار"

---

(1) انظر شيئا من عجائبه والردّ عليها في "الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنّة" للشَّيخ عبدالرحمٰن عبدالخالق.

(2) انظر ترجمته في فهرس الفهارس، ج1 ص 163، والزركلي في الأعلام، ج6 ص 324 - 325.

علاَّمة بلاد الشَّام يريد منه جواباً شافياً في الأمر، فقال في رسالته إلى البيطار[1]: " كتبتُ إلى حبيب لي في المدينة المنورة ما نصه: سؤال خصوصي: أخبِرْني بإنصاف، واعلم أنك مسؤول في عرصات القيامة عن ذلك، أخبرني عن "الوهابية" الذين ترون معاملاتهم، وحالتهم مع السنة، والحضرة النبوية، فأنا إلى الآن ما اجتمعت بوهَّابي، وقد تناقضت عندي المسموعات بالأذن والمرئيات في الكتب بالأعين؟ وبيان التناقض نقرِّره لك يا حبيب لتعرف كيف تجيبني، فإن المقام خطير: بعض الناس يقولون: الوهابية يحقرون المقام النَّبوي، ولا يرون فرقاً بينه وبين بقعة خالية في الأرض، ويقولون لمن شرب الدخان: أشركت بالله، وهذا لا معنى له، ويضللون من أثنى على رسول الله ﷺ على المنارة، ويكفِّرون من زار قبراً ودعا الله عنده ويستحلون دمه.

وهؤلاء القادحون فيهم يقولون على سبيل القدح: "هم تابعون ابن تيمية أحمد تقي الدين"، فهنا جاء التناقض، فإن ابن تيمية إمام في السنة كبير، وطود عظيم من أطواد العرفان، حافظ للسنة النبوية، ومذهب السلف، يذب عن الدين، ويقمع المارقين؛ كالمعتزلة والقدرية، والرافضة والجهمية، ما فارق سبيل الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة قيد أنملة، وإن كان حنبلياً في الفروع، فهو في أصول الدين جامع لمذاهب الأربعة الأئمة، والأربعة الخلفاء الراشدين ومن سلك سبيلهم.

فإن كان الوهابية حقيقة على منهج ابن تيمية وابن القيم ونحوهما من فقهاء الحنابلة السنية فهم أسعد الناس بالشَّريعة؛ لأن ابن تيمية وأصحابه لم يُسيء القول فيهم إلا القاصرون عن درجاتهم، علماً وتحقيقاً، والراسخون في العلم شهدوا بعلو مكانتهم. وإن كان الوهابية مُتَّصفين بالصفات الذميمة المشار إليها أولاً، فأول خصم لهم ابن تيمية ونظراؤه من أئمة الحنابلة، فليسوا بتابعيهم. وبعض الناس يقولون: الوهابية هم القائمون بالسنة،

---

(1) أثبت هذه الرسالة علامة الشام الجمال القاسمي ـ وهو من رفقاء البيطار ـ ضمن مراسلة له للعلاَّمة محمود شكري الألوسي.

المتجنبون للبدع، المتبعون للحديث الشريف، وعلى مذهب أحمد بن حنبل وطريقة السلف في الاعتقاد. وقد كنت طالعت الرسائل المؤلفة من محمد بن عبدالوهّاب وأصحابه، ورأيت ما كتبه الجبرتي في "تاريخه" من عقائدهم وسيرتهم، فما هي إلا طريق السنة ليس فيها ما يُنكر. ورأيت رسائل القادحين فيهم ينسبون لهم الدواهي والعظائم، والوهابية ينفون ذلك عن أنفسهم، لا يحتجون لحسن تلك القبائح.

تنبَّهْ للفرق بين قول المتنصل مما نُسب إليه وقول محسِّن ما نُسبَ إليه:

فالأول منسلخ من اعتقاد ذلك وفعله، معترف بقبحه، مكذِّب لمن وصفه به.

والثاني معترف باتصافه. تأمل هذه النقطة، وفي الحقيقة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾[1].

فأنا أسألك عن الوهابية الحاضرين في عصرنا، فإنَّ رجلاً أخبرني أنهم يكونون مقيمين في المدينة، ويأتون إلى المسجد ولا يقفون على القبر الشريف يسلمون عليه وعلى الصاحبين ونحو ذلك، فإن صحَّ هذا فما أشبه هذا الجفاء بالعداوة لصاحب القبر الشريف. فأريد منك أن تجتمع بفلان وفلان في محل لا رابع لكم إلا الله، فإن زدتم آخر تعرفونه مثلكم فيما ألاحظه منكم، فذلك عُهدته عليكم، وتقرؤون كتابي هذا بتأمل، وتجيبونني بما تحصَّل لكم، ذاكرين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾[2].

واعملوا أن من البلايا المتسلطة على الدين وإيمان المسلمين أنه صار الذي يصدع بالحديث النبوي الصحيح مقدِّماً له على عصارة المتفقهين يقال له: أنت وهَّابِي. وأحكي لكم لطيفة: كنْت سألت بعض متفقهة مكَّة الحنفية عن رجل أعرفه من أكبر الفضلاء قلت له: كيف حال فلان؟ فقال لي: ذلك

---

(1) سورة البقرة، الآية: 134.

(2) سورة الأنعام، من الآية: 152.

وهَّابي. فقلت له: كيْف وهَّابي؟ قال: يتْبع البخاري!! فلما حكيتها للسيد عبدالرحمٰن الجزولي ـ عليه الرحمة والرضوان ـ وأنا نزيل عنده إذ ذاك ـ ضحك وقال: هل البخاري شيخ الوهابية؟

وقد سمعت كثيراً من الناس يقولون: من يتبع الحديث فهو وهَّابي، ومن يعتقد عقيدة السلف فهو وهَّابي، فقلت لهم: أنا لا أعرف الوهَّابية، وكلامكم يدل على أنهم سُنِّيون صرفاً؛ فقد مدحتموهم مدحاً كبيراً من حيث قدحتم فيهم، نتمنى أن يكون مقلّدة المذاهب كلهم هكذا إن كنتم صادقين فيما تقولون، لكن الجاهل يهرف بما لا يعرف، ولذلك يقال له: (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين)، وقال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[1]. وليكن جوابكم بما شاهدتموه لا بما ينقله المغفلون والأعداء المتعصبون، هدانا الله وإياكم للقول السديد...

وما أشرتم إليه في مكتوبكم من السير على منهاج الكتاب والسنة وعقيدة السلف، فأنفث نفثة مصدور مغتم القلب بما يرى ويسمع من قلب حقائق الأمور. أنتم منَّ الله عليكم بجلساء موافقين لمشربكم في التماس الحقائق، والتزام أقوم الطرائق، ذوق وإنصاف، واتصاف بأجمل الأوصاف، كرفقائكم الذين شرَّفوا منزلنا وأكرمونا بتلك الأخلاق الكريمة، وكالأستاذ الجمال القاسمي وغيرهم ممن لم نحظ برؤيتهم فبلِّغوهم سلامي، وخلوص غرامي، وأما الحقير هنا ـ أي في الأستانة ـ فكما قال القائل:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلَّهم ... الله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحداً

فلا أجد من أطارحه مسائل العلم الصحيح؛ لأن الناس بالنظر إلى هذا المقام على قسمين:

جاهل لم يزاول العلم أصلاً، فهو لا يفقه ما نقول، وحسبه إن سأل

(1) سورة الأعراف، من الآية: 199.

أن أجيبه بزبدة الحكم، وهو أحب إليَّ ممن عرف بعض العلم إن لم يفتنه فاتن؛ لأنه وإن لم أستفد منه مذاكرة تُفكِّه عقلي، وتُنَقِّح نقلي، فقد أفادني من الله أجراً، وقد يكون لغيره سلسبيل تلك الإفادة أجرى.

والقسم الثاني: طالب علم زاول العلم فشمَّ رائحته، وجمد على ما عهد من شيخ مثله، فهذا أحسن أخلاقه أن لا يسمع لقولك ولا يتحدث بما يؤذي، وإنما قلت أحسن، لأن غيره من أهل العناد الحمقى يضللون من خالف ما اعتادوه.

سئلت مرة في مجلس: هل تجوز الاستغاثة بأولياء الله؟ فقلت: لا يُستغاث إلا بالله. وفي المجلس شيخ كبير ممن يعاني تدريس العلم عارضني بأنه يجوز، فقلت له: ما دليلك؟ فقام مغضباً قائلاً وهو ذاهب: دليلي قول اللقاني:

وأثبتن للأوليا الكرامه ومن نفاها فانبذن كلامه

فانظروا الدليل وتنزيله على الاعتراض، هؤلاء لا يفرقون بين معنى الاستغاثة، ومعنى الكرامة، وهو من الضروريات.

وممَّا أتعجَّب منه وأتأسف، ما رأيته في نتائج مخالطاتي لأهل العلم ومناظراتي ومذاكراتي أنِّي أجد الشبَّان والطلبة الصغار أقرب قبولاً للحق، وذوقاً للصواب، وسروراً بالدليل من الشيوخ، وأكثر الشيوخ جامدون على ما أَلِفوه، ومن أحبارهم ورهبانهم عرفوه، ولا أدري هل ذلك لطول قعودهم في أرض التقليد صاروا كمن دُقَّت له أوتاد والتحمت تلك الأوتاد بالأرض، فلا يستطيعون النهوض منها؟ أم لأن غالب الشيوخ أكبر مني سناً؟ فهم يأنفون من أن يستفيدوا ممن هو أصغر منهم؟ أم كيف الحال؟

وعلى كل حال أتذكر عند ذلك قول الشاعر:

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ولن تلين إذا كانت من الخشب

وإني أحمد الله تعالى على أن أنقذني من أسْر التقليد، وصرت إذا رأيت تعنُّتَهم واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله أتلو قوله تعالى مذكراً

لنفسي آلاء الله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾[1]، لأنّي كنت أرى قول فقيه: المعتمد كذا، أو استظهر شيخنا كذا، كأنّه بين دفّتي المصحف، والله بل آكد "أستغفر الله"؛ لأني أقول: الآية لا أفهمها مثله، ونظن كل كلمة قالها مالكي فهي من مقولات مالك أو حنفي فأبو حنيفة أو شافعي...إلخ والخروج عن الأربعة كالكفر ولو أيده ألف حديث.

والحمد لله الذي عافانا مع بقاء احترامهم ومحبتهم في قلوبنا.

وأخبركم أني لما بدأت في الاستضاءة بنور الحديث ووزن خلافات الأئمة والفقهاء بالأدلة، وصرت أصلي بالقبض والرَّفع...إلخ، وذلك سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف، أُلقي لي في المنام قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾[2]، وقمت بها من المنام على لساني. ولا تنسونا من الدعاء، ودمتم بخير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ذي الحجة سنة 1327 حافظ ودكم. محمد المكي بن عزوز التونسي". انتهى نصّ رسالة ابن عزوز للبيطار[3].

العلاّمة محمد المكّي وتجديد المنهج:

عاش العلاّمة محمد المكّي بن عزوز وخاصّة بعد رحلته إلى الأستانة مخاضا فكريًا عسيراً نظراً للاختلاف الكبير بين المحصّلة العلمية والرُّوحيَّة للشيخ محمد المكّي التي حصّلها في بلاد المغرب، وبين فكر ومنهج المدرسة السَّلفية في بلاد المشرق، فكمَا هو معلوم أنَّ مذهب الإمام مالك بن أنس هو السائد في بلاد المغرب عامَّة، وكان تقليده مستحكماً عند العلماء والعامَّة في القرون الماضية، والكلام عن غيره المذاهب أو قراءة مصنفاتها

---

(1) سورة النساء، من الآية: 94.

(2) سورة البقرة، الآية: 142.

(3) انظرها ضمن: الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، جمع الأستاذ محمد العجمي، ص 101 وما بعدها.

يعدّ من المحضورات، وهذه الحال شائعة عند عامّة أهل المغرب تقريباً، بل إلى عهد قريب جدًّا عشنا بعضه.

كما كانت عقيدة الأشاعرة هي السَّائدة، ويدين بها أغلب النَّاس مع شيء من الرُّوح الصُّوفيَّة على اختلافها، فقلَّ أن تجد مغربيًّا إلاَّ وله طريقة ينتسب إليها آنذاك.

في هذه البيئة كانت النشأة العلمية والرُّوحية للعلامة محمد المكِّي - رَحِمَهُ اللهُ - فقد أخذ علومه عن جهابذة المذهب المالكي في عصره، وكفاه بالزّيتونة قلعة المالكية ومنها نهل، وكان أبوه الشيخ مصطفى بن عزُّوز - رَحِمَهُ اللهُ - صاحب طريق صوفيَّة تعرف بالطريقة العزُّوزية، وهي أعدل الطّرق الصوفيَّة المعروفة في بلاد المغرب، قال الشيخ محمَّد مخلوف في ترجمة الشيخ مصطفى بن عزُّوز[1]: "وطريقته لا تشديد فيها إلاَّ من أراد التوغّل في السلوك؛ يأمر النَّاس بأداء فريضة الصلاة، وذكر لا إله إلاَّ الله بقدر الإمكان".

ولا شكَّ في أنَّ هذه الحال قد أثَّرت في المنهج العلمي والرُّوحي للعلاَّمة محمَّد المكِّي - رَحِمَهُ اللهُ - حيث يقول هوَّ عن نفسه[2] واصفاً تأثير النَّشأة في المنهج: " فأنا قد رُبِّيتُ في معهد العلم من صغري، وقد وَسَّع الله علينا من رزقه، ما سهَّل به القراءة زمان التَّعلم والإقراء على شيوخ عديدة على اختلاف مشاربهم وتفاوت درجاتهم تفنناً وأخلاقاً، وارتحلت إلى بلدان عديدة، فجمعت بعض ما كان متفرقاً من العلوم والحمد لله، ولكن لهو الشباب حال بيني وبين الاستكمال في العلم والتهذيب، وأيضاً لا نعرف في بلادنا المغربية إلا التقليد الأعمى، فقد كنا نعدُّ الفتوى بحديث البخاري

---

(1) شجرة النور الزكيَّة، ص 391 ت "1563".

(2) في رسالة طويلة أرسلها إلى الداعية الكويتي وأحد روَّاد النهضة في الجزيرة الشيخ عبدالعزيز الرشيد البدَّاح، نشرها هذا الأخير بنصِّها في مجلَّة الكويت التي كان ينشرها. وهذه الرسالة هي إحدى الرسائل التي أعلن فيها العلاَّمة ابن عزُّوز عن منهجه الجديد في الفكر والعقيدة والفقه.

ومسلم ضلالاً، وكما شدَّد علينا شيوخنا في ذلك، شدَّدنا على تلاميذنا هناك، فالتاجر كما اشترى يبيع ويزيد المَكْسب، فمن ذلك أنّي عند سفري إلى المشرق استعار منّي ابن أختي الخضر ابن الحسين الذي لقيتموه في المدينة "نيل الأوطار" للشَّوكاني، فما تركته حتى أقسم لي بالله أنه لا يتبعه فيما يقول. ومن ذلك أنّي وجدت في عام 1300 كتاب "الروضة الندية" للسيد صديق حسن خان يباع عند كتبي في مسكرة[1]، اسمه الشيخ الأخضر السنوسي العُقْبِي، فنهرته وزجرته، وقلت له: حرام عليك تبيع "الروضة الندية"، فصار يعتذر بمسكنة كأنه فعل خيانة، أما تصانيف "ابن تيمية" و"ابن القيِّم" فوالله ما نظرت فيها سطراً لنفْرة قلوبنا منها، ومن جَهِل شيْئاً عاداه. **لكن في العاجز رائحة استعداد وشوق للدَّليل**".

لكن هذا المنهج لا يرضاه لنفسه العالم النَّزيه المتبحِّر في أنواع العلوم والفنون كالشيخ محمَّد المكّي ـ رحمه الله ـ وتعدّ رحلته إلى المشرق نقطة التَّحوّل في منهج الشيخ، يقول كذلك عن نفسه واصفاً تأثير الرِّحلة في ميلاد المنهج الجديد بعد المخاض العسير الذي لازمه منذ أمد: "فلما ارتحلت إلى المشرق سنة 1316، واطلعت على كتب أهل هذا الشأن باستغراق الوقت لا واشي ولا رقيب، وأمعنت النظر بدون تعصب، فتح الله على القلب بقبول الحقيقة، وعرفت سوء الغشاوة التي كانت على بصري، وتدرجت في هذا الأمر حتى صارت كتب الشوكاني وصديق خان وشروح بلوغ المرام وما والاها أراها من أعز ما يطالع، أما كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم فمن لم يشبع ولم يرو بها فهو لا يعرف العلم.

ويلحق بها كتب السفاريني، وجلاء العينين للسيد نعمان، وآثار إبراهيم الوزير ونحوهم، ومنذ عرفت الحقائق، استرذلت الحكم بلا دليل والحمد لله وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهراً.

ومن اللطائف أن في الشهر الأول والثاني من انفتاح البصيرة، ألقي إلي

---

(1) مسكرة هي ولاية تقع غرب العاصمة الجزائرية، وتُعرف الآن بـ"مُعَسْكَر".

في مبشرة مَنَامِيَّة قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

والحاصل فما ذكر لكم من تلك المناقب لم ألبس منها ثوباً قطّ، وإنَّما أنا محبّ لأهلها، وذاب عنهم، وناصر لهم، ولعلَّه يشملني حديث: «المرء مع مَنْ أَحَبّ»[2] فمن وصفني بما زاد على ذلك، فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم".

وينقل عنه ابن أخته العلامة شيخ الأزهر محمد الخضر حسين يَصِف منهجه الفقهي بعد الرِّحلة بعد أن أذيع عنه في تونس أنَّه يقول بفتح باب الاجتهاد، فسُئِل عن ذلك فقال: "إنِّي مالكي المسائل الاجتهاديَّة، أمَّا إذا ورد حديث صحيح فأعمل به ولو خالف المذهب"[3].

ويظهر أنَّ لرسالة العلاَّمة محمود شكري الألوسي للعلاَّمة محمد المكي دور كبير في دفعه إلى إعادة النظر في المنهج الذي كان يسلكه.

فبعد أن أرسل الشيخ الجمال القاسمي رسالة إلى الشيخ محمود شكري الألوسي وضمَّنها رسالة ابن عزوز إلى البيطار آنفة الذكر، صرَّح الألوسي في جوابه للقاسمي عن مراسلة قديمة من طرفه إلى ابن عزُّوز ـ وكان لا يزال في تونس ـ كانت بخصوص تأليفه "للسَّيف الربَّاني"، فكان من ضمن ما أجاب به الألوسي عن رسالة القاسمي: " سرّني ما كان من المراسلة بين السيد محمد المكي وبين السلفيين في دمشق. وهذا الرجل أعرفه منذ عدة سنين؛ فإنَّ كتابه "السيف الربَّاني" لما طُبع في حضرة تونس أرسل منه لنقيب بغداد عدداً كثيراً من نسخه، فأعطاني النَّقيب يومئذ نسخة منه، فطالعتها فرأيت الرجل من الأفاضل، غير أنَّه لم يقف على الحقائق، فلذلك استحكمت الخرافات في ذهنه فتكلم على السلفيين، وصحَّحَ بعض الأكاذيب التي يتعلق بها مبتدعة الصُّوفية، وغير ذلك من تجويز الاستغاثة،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 142.

(2) رواه البخاري "5816"، ومسلم "2640".

(3) دراسات في الشريعة الإسلامية لشيخ الأزهر محمد الخضر حسين، ص 17.

والتوسل بغير الله، وإثبات التصرُّف لمن يعتقد فيهم الولاية... فأرسلت له كتاب "منهاج التأسيس"[1] مع التتمة المسماة "بفتح الرحمن"، وذلك سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف، وكان إذ ذاك في تونس لم يهاجر بعد، ولم أُعْلِمْه بالمرسل، ويخطر لي أنّي كتبت له كتاباً أيضاً التمست منه أن يطالع الكتاب كله مع التمسك بالإنصاف، ولم أذكر اسمي ولا ختمته بختمي، وأرسلت كل ذلك إليه مع البريد الإنكليزي. وبعد ذلك بمدة هاجر إلى القسطنطينية، وكان يجتمع كثيراً مع ابن العم علي أفندي ويسأله عن كتب الشيخين ويتشوق إليها.

وقد اجتمع به ابن العم في هذا السفر الأخير وأخبرني عنه أنه الآن تمذهب بمذهب السلف قولاً وفعلاً وأصبح يجادل أعداءه، ويخاصم عنه. ولم يزل يتحفني بسلامه، ويتفضل علي بالتفاته"[2].

آثاره العلميَّة:

عُرف عن الشَّيْخ محمد المَكِّي بن عَزُّوز سعة الاطلاع وغزارة المادَّة العلميَّة وتنوّعها، وكان مَيْله إلى الأثر ومدرسة الحديث ملموساً في كتبه، مع دعوته إلى السنَّة، واتباع منهج السَّلف في التوحيد، ونبذه للتقليد الأعمى رافعاً شعار السلف "إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي"، وأثرى منهجه العلمي باطلاعه على الأفكار والتيَّارات المستحدثة في عصره، فلم يكن بمعزل عنها، وهذا هو وصف العالم المصلح في قومه، الذَّاب عن دينه وسنة نبيِّه.

وإذا عرفتَ هذا عن العلاَّمة محمد المَكِّي فلا تستغرب إذا قيل لك إنَّه دارت عليه الأسانيد، وصار حافظ أهل المغرب في وقته، قال عنه صاحبه

(1) وعنوانه الكامل "منهاج التأسيس في كشف شبهات ابن جرجيس" ـ للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمٰن بن حسين بن محمد النجدي الحنبلي فرغ من تأليفه سنة 1280هـ. (إيضاح المكنون، ج2 ص 585).

(2) الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، جمع الأستاذ محمد العجمي، ص 113 وما بعدها.

وتلميذه عبدالحيّ الكتّاني: " هذا الرجل كان مسند أفريقية ونادرتها، لم نَر ولم نسمع فيها بأكثر اعتناء منه بالرواية والإسناد والإتقان والمعرفة، ومزيد تبحر في بقية العلوم والاطلاع على الخبايا والغرائب من الفنون والكتب، والرحلة الواسعة، وكثرة الشيوخ إلى طيب منبت وكريم أرومة، وكان كثير التهافت على جمع الفهارس وتملكها، حتى حدثني بزاوية الهامل الشمس محمد بن عبدالرحمٰن الدِّيسي الجزائري الضَّرير عنه أنه اشترى "ثبت السقاط" وهو في نحو الكراسين بأربعين ريالاً، وهذا بذل عجيب بالنسبة لحاله، وأعجب ما كان فيه الهيام بالأثر والدعاء إلى السُّنة مع كونه كان شيخ طريقة ومن المطلعين على الأفكار العصْريَّة، وهذه نادرة النوادر في زماننا هذا الذي كثر فيه الإفراط والتفريط، وقلَّ من يسلك فيه طريق الوسط والأخذ من كل شيء بأحسنه "(1).

وقال عنه الكتاني أيضاً لما أجازه العلاَّمة محمد المكّي بأسانيده، وألف له كتاب "عمدة الأثبات": " وبوقوفك على "العمدة" المذكورة تعلم وتتحقق أنَّ الأستاذ ابن عزوز كان قد فذَّ عصره في سعة الرواية والاعتناء، وعلوِّ الاهتمام والهمَّة وأنَّ الصِّقع التونسي ما أنجب مثله في هذا الباب منذ أحقاب ولكنَّه ممَّن ضيَّعه قومُه ولله الأمر من قبل ومن بعد "(2).

وقال عنه الجمال القاسمي: " إن حضرة العالم النحرير، سليل العلماء الأفاضل السيد محمد المكي بن عزوز التونسي نزيل الأستانة كان من أشداء المتعصبين للجهميين والقبوريين، ثم بصّره الله تعالى الحق فاعتنقه، وأصبح يدافع عنه وهذا الفاضل لشهرة بيته ونباهة أمره يُعدُّ بألوف "(3).

وحلاه عليه شيخ الإسلام بمكة الشهاب دحلان في إجازته له بقوله: " قد اشتهر في الأقطار بلا شكٍّ ولا مَيْن ولا سيما في الحرمين الشريفين

---

(1) فهرس الفهارس، ج2 ص 856.

(2) المصدر السابق نفسه، ج2 ص 879.

(3) الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، ص 101.

بالعلم والحلم نخبة العلماء الأعيان، وخلاصة الأعيان من ذوي العرفان، سراج أفريقية بل بدر تلك الأصقاع الغربية، الأستاذ الكامل جامع ما تفرق من الفضائل والفواضل..."

قال الكتّاني: "وهذه الحلاة نادرة من مثل الشيخ دحلان يعلم ذلك من تتبع حلاه في إجازاته لأهل المشرق والمغرب وهي كثيرة"[1].

وقال فيه عالم الطائف العلامة عبد الحفيظ القاري أثناء سؤال قدمه له:

من نرتجي للدين يكشف غمة	عمت على الإسلام بالإغماء
غير ابن عزوز إماماً للهدى	بالحق يفتي لا بأخذ رشاء
من مغرب في مشرق يبدي السنا	في المطلعين له ضيا كذكاء
إن كان فينا قائم فهو الذي	بالعلم يرقى ذروة الجوزاء

ولميل العلامة محمد المكي إلى مدرسة الحديث والأثر وهيامه بالأسانيد ينسِب إليه الرافضة تصحيحه لحديث يطعنون به في معاوية رضي الله عنه[2]، والأمر يحتاج إلى تثبّت.

وكان العلامة محمد المكّي - رحمه الله - من أكثر العلماء المتأخرين تأليفاً، ويدلّ لغزارة علمه أنَّ تآليفه شملت مختلف فنون العلم من العقيدة والحديث والتفسير والفقه وأصوله والقراءات والأدب والفلك والزهد والتاريخ.

ومن مؤلفاته[3]:

- إرشاد الحيران في خلاف قالون لعثمان (إيضاح المكنون، ج1 ص 60).
- إسعاف الإخوان في جواب السؤال الوارد من داغستان (ج1 ص 78).

---

(1) فهرس الفهارس، ج2 ص 857.

(2) انظر كتاب من حياة معاوية بن أبي سفيان للأميني، ص 5 - 6.

(3) استقصى جلّها البغدادي في إيضاح المكنون وعليه عوَّلنا وأضفنا ما لم يذكره.

- أصول الطرف وفروعها وسلاسلها (ج1 ص 92).
- إقناع العاتب في آفات المكاتب (ج1 ص 113).
- الإنباه لمعنى الحب في الله والبغض في الله (ج1 ص 129).
- انتهاز الفرصة في مذاكرة متفنن قفصة (ج1 ص 131).
- الإنصاف في تحريم الصور ولو مأخوذة بالفوتوغراف (ج1 ص 134).
- الإيوان في مذاكرة الأحبة بالقيروان (ج1 ص 161).
- برنامج دول الإسلام (ج1 ص 177).
- بروق المباسم في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم (ج1 ص 177).
- بطاقة العقائد ـ ولعلَّه الكتاب الذي نقدِّم له ـ (ج1 ص 185).
- تأسيس الأسانيد[1].
- التخت في إرشاد المنقّب عن معنى البخت (ج1 ص 269).
- تذكرة المنصفين في أن المكتشفات الجديدة لا تكذِّب الدِّين (ج1 ص 277).
- التفريح بحل الإشكال في صلاة التراويح (ج1 ص 301).
- التفهيم لمن جهل معنى القلب السليم (ج1 ص 313).
- التقرار المهذب في شرح الجوهر المرتب في الهيئة. كلاهما للمؤلف مطبوع بتونس سنة 1298 (ج1 ص 313).
- تشنيف السمع أو تلخيص الاسانيد وهو الثبت المختصر (ج1 ص 317).
- تعديل الحركة في عمران المملكة ـ لم يتم ـ[2].

(1) الأعلام للزركلي، ج7 ص 330.
(2) فهرس الفهارس، ج2 ص 860.

- التفصيل الجامع في رفع الأصوات بالأمداح في المجامع ـ لم يتم ـ[1].
- التنزيه عن التعطيل والتشبيه (ج1 ص 329).
- تنظيف الوعا من سوء الفهم في آية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [سورة النجم، الآية: 39] ـ (ج1 ص 330).
- تنوير الحوالك في أن رفع اليدين في الصلاة هو الراجح من مذهب الإمام مالك (ج1 ص 333).
- تهذيب التفاسير القرآنية (ج1 ص 341).
- الجواب المنصور عن سؤال الدقتور (ج1 ص 373).
- الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيّب (ج1 ص 384).
- حزم اليقظان في أن الصلاح والفساد يسريان من الخلّان (ج1 ص 402).
- الحق الصريح في المناسك على القول الصحيح (ج1 ص 409).
- حقيقة الأمر في تحريم البيرة والتداوي بما فيه الخمر (ج1 ص 411).
- ديوان ابن عزوز (ج1 ص 486).
- الذخيرة المكيّة في الخزانة المدنية (ج1 ص 542).
- الرحلة الجزائرية أو الرحلة الهاملية ـ لم يتم ـ (ج1 ص 550).
- ردّ الذاهب فيما يقلد وما لا يقلّد من مسائل المذاهب (ج1 ص 553).
- رسالة تُرْكيَّة (ج2 ص 87).
- الرشفة الهنية في المذاكرة المأمونية (ج1 ص 575).
- رفع اللكة في المحاكمة بين عالمي مكة (ج1 ص 580).
- رفع النزاع في بيان معنى التقليد ومعنى الاتباع (ج1 ص 581).

(1) فهرس الفهارس، ج2 ص 860.

- رفع الهوس في صلاة الصبح وقت الغلس (ج1 ص 581).
- الرياض البواسم في رواية حفص عن عاصم في القراءآت (ج1 ص 600).
- الزاهر في إجابة الأخ محمد طاهر (ج1 ص 607).
- الزلف في ترجيح تفويض السلف على تأويل الخلف (ج1 ص 614).
- السقاية فيما ليس برأس آية (ج2 ص 19).
- السلوى والمن في مواضع حسن الظن وسوء الظن (ج2 ص 26).
- السيف الرباني في عنق المعترض على الجيلاني (ج2 ص 35).
- شارقة الأنوار بالأدعية الصحيحة في الآثار (ج2 ص 38).
- شرح نظم بهجة الشائقين[1] (ج1 ص 201).
- صادق النبا في عقوبة صاحب الربا (ج2 ص 62).
- طبقات المحدثين - نظم - (ج2 ص 80).
- طريق الجنة في تحلية المؤمنات بالفقه والسنة (ج 2 ص 85).
- طريق السلامة في هيئات الناس يوم القيامة (ج2 ص 85).
- طيّ المسافة إلى دار الأمن من المخافة (ج2 ص 89).
- العقائد الإسلامية - الكبرى والصغرى -.
- العلم الأخضر في مطارحات السيد الأخضر (ج2 ص 118).
- عمدة الأثبات في الاتصال بالفهارس والأثبات[2].
- عمدة الشيوخ في الناسخ والمنسوخ - لم يتم -[3].

---

(1) وهي منظومة لوالده الشيخ مصطفى بن عزوز قام بشرحها.

(2) قال في فهرس الفهارس، ج2 ص 877: "ألَّفها باسمنا عام 1330 بالآستانة، ولعلها آخر ما ألَّف".

(3) فهرس الفهارس، ج2 ص 860.

- الفانوس الدائر على أنوار السائر في الفقه (ج2 ص 154).
- الفائدة في معنى وإعراب آية المائدة (ج2 ص 154)[1].
- فتح الخلاَّق في استكمال الإسلام لمحاسن الأخلاق (ج2 ص 161).
- فتح السلام في نجاة من لم تبلغهم دعوة الإسلام (ج2 ص 166).
- فتح القيُّوم في وجوب الفاتحة على المأموم (ج2 ص 169).
- الفرائد في شرح بطاقة العقائد ـ سبق ذكرها ـ (ج2 ص 183).
- القويم القيِّم في حال ابن تيمية وابن القيم (ج2 ص 251).
- كشف الباس في كلمات يقولها كثير من الناس (ج2 ص 357).
- المبرة في أن القبض في الصلاة هو مذهب إمام دار الهجرة (ج2 ص 424).
- مجموع الأسانيد وهو الثبت الكبير (ج2 ص 436).
- المرشد لمن لم يجد المرشد (ج2 ص 467).
- مروي الظِّماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ـ [سورة فاطر، من الآية: 28] ـ (ج2 ص 470).
- مزيل الإشكال في آية: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ في سورة الأنفال(ج2 ص 471).
- المسألة المهمة في سبب اختلاف الأئمة (ج2 ص 477).
- المسك الأزفر في بيان الحج الأكبر (ج2 ص 479).
- مغانم السعادة في أن العلم أفضل أنواع العبادة (ج2 ص 519).
- المقالات العزوزية في الأدب (ج2 ص 533).
- مقامة المفاخرة بين الصيف والشتاء (ج2 ص 539).

(1) ذكره في فهرس الفهارس بعنوان: **"الفائدة في تفسير سورة المائدة"**، ولم يتمه. (ج2 ص 860).

- مناقب الرجال الخلوتية (ج2 ص 561).
- المنبهات لحكم ذبائح القبور والمزارات[1] (ج2 ص 566).
- مورد المحبين في أسماء سيد المرسلين ﷺ (ج2 ص 605).
- النجدة في زجر من يتهاون بأحكام العدَّة (ج2 ص 626).
- النصح المتين في زلقات العامة وبعض المتطلبين ـ لم يتم ـ.
- نظم الجغرافية التي لا تتحول بمغالبة الدول ـ لم يتم ـ.
- نظم جمع الجوامع ـ لم يتم ـ[2].
- النشر والطيّ في حبلى ماتت وجنينها حيّ (ج2 ص 648).
- النفح المسكي في قراءة ابن كثير المكِّي (ج2 ص 668).
- النَّفحة الحجازية في الأجوبة البنغازية (ج2 ص 668).
- الهلال في بيان حركة الإقبال ـ في علم الميقات ـ (ج2 ص 729).
- هيئة النَّاسك في أنَّ السَّدل في الصلاة ليس مذهب الإمام مالك (ج2 ص730).

شـــــعره:

كان العلاَّمة محمد المكي رحمه الله شاعراً من الدرجة الأولى، وله ديوان جمعت فيه جلّ أشعاره، وتنوَّعت أشعاره بين الزهد والمدح والرِّثاء، ومن شعره قصيدة طويلة يصف فيها النفس ومقاماتها قال في مطلعها:

النفـس أنفس من تلفيه يحـميك	أولى وأوفى وأصفى من يصافيك
ومَن كنفسك لو أبقيت فطـرتها	فـأنت صيَّرتـها أعدى أعاديـك
حكَّمت فيك عدوًّا ليس يرحمـها	وتـرتجي ودَّها فالرّشد مخطيك

---

(1) وهو جواب عن سؤال ورد من الغرب للعلاَّمة محمد المكي.

(2) ذكره مع اللذيْن قبله في فهرس الفهارس، ج2 ص 860.

وافتك زاهرة في المجد رافلة	للخِلِّ تألف تؤويها وتأويك
للعهد حافظة بالنُّور مشرقة	للفضل قابلة طوع أياديك

وفاتـــــه:

لمَّا رحل العلاَّمة ابن عزوز إلى الآستانة سخَّر نفسه هناك لنشر العلوم الإسلامية والدعوة إلى الله، ولم يعد إلى أرض المنبت إلى أن وافته المنيَّة يوم الخميس ثاني شهر صفر عام 1334هـ، ودفن في مقبرة "يحيى أفندي" في اسطنبول، فجزاه الله عن أمَّة الإسلام خير الجزاء، ووسَّع عنه في قبره، وأسكنه الفردوس الأعلى، آمين.

قال الكتاني ـ وكانت له معه صحبة عزيزة ـ: " وكلما تذكرت موته أظلمت الدنيا في عيني رحمه الله رحمة الأبرار "[1].

ورثاه ابن أخته وشيخ الأزهر العلاَّمة محمد الخضر حسين بقصيدة قال فيها:

رُبَّ شمس طلعت في مغربٍ	وتوارى في ثرى الشرق سناها
ههنا شمس علوم غربت	بعد أن أبلت "بترشيش" ضحاها
بفؤادي لوعة من فقدها	كلَّما أذكره اشتدَّ لظاها
فقفا لمحة طرف نقتني	عِبرًا من سيرةٍ طاب شذاها
أيُّها الراحل قد روّعتنا	بفراق حرم العين كَراها
لك نفس سرَحت همَّتها	في مراعي العلم من عهد صباها
أينما كنتَ تداعت أممٌ	تتملَّى روضة يحْلُو جناها
و تفاءلْتَ فأزْمعْتَ النَّوى	و"بإستانْبول" ألْقَيْتَ عصَاها
لم تعش فيها غريبًا فقرَا	بة أهل النّبل أحْكمت عُراها
عرَّجَ النَّاعي على أنْديةٍ	كنْتَ إنْ وافيْتَها قُطْبَ رَحاها

---

(1) فهرس الفهارس، ج2 ص 861.

طِبْ مُقَامًا يا ابن عزوز فقد كنْتَ تُعْطِي دعوةَ الحقِّ مُنَاها[1]

ورثاه كذلك رائد الإصلاح في الجزائر العلاَّمة الطيِّب العُقْبِي بقصيدة مؤثِّرة قال فيها:

هي الدَّار في أَحْداثِها تَتَجَرَّمُ سرور فأحزان فعرس فمأتم
حنانيك إنَّا للمنيَّة عُرضة وكلّ ابن أنثى فهو للموت مسْلَم
وكلّ بليغ مصقع فهو عندها إذا طَرَقَتْ يومًا منَ الدَّهر مُفْحَم
وما المكْثُ في دار الغرورِ لِعَالمٍ حقيقتها إلاَّ زعَاف وعَلْقم
عجبت لذي لبٍّ يُغَرُّ بسِلْمِهَا وما سِلْمُهَا إلاَّ خَسَارٌ ومَغْرَمٌ
أَمَات ابن عزوز وأوْدَتْ علومُهُ أم الرّكنُ رُكْنُ الدِّينِ أمْسى يُهَدَّمُ؟

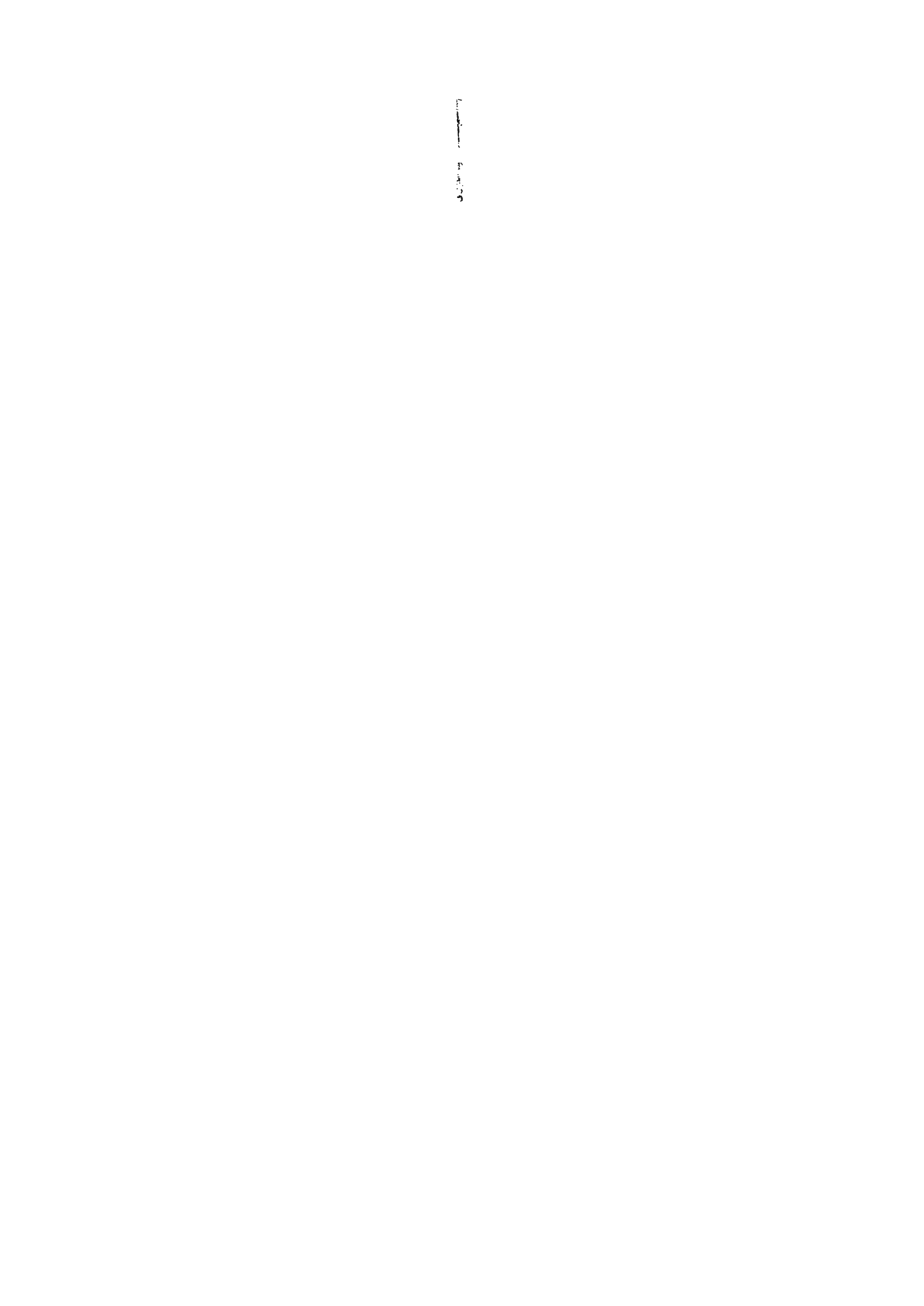
ويقول في آخرها:

سأبْكيك محمود المقاصد ما بَكتْ مُطَوَّقة في أيْكِهَا تترَنَّمُ
وتَسْكبُ عيني عبْرَة بعدَ عبرة تؤازرها أخْرى فُرَادى وتوْأَم
عليك سلام الله حيًّا وميِّتًا فآخر عهدي أنَّني بِك مُغْرمٌ[2]

❀ ❀ ❀

(1) انظر: ديوان خواطر الحياة، لمحمد الخضر حسين، ص 258.

(2) انظر القصيدة في: شعراء الجزائر في العصر الحديث للزَّاهري، ج1 ص 138.



منهج المصنف في تأليف عقائده

قدمنا الكلام على أنَّ العلامة محمد المكي بن عزوز ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ لم يستوعب في رسالته جميع مباحث العقيدة المعروفة، وإنما ركَّز على المسائل المهمَّة التي انحرف فيها أهل الأهواء مبرزاً عقيدة أهل السنة والجماعة، وكان يعرض المسائل على شكل سؤال وجواب بطريقة سهلة يستوعبها القاريء مهما كان مستواه العلمي لذلك لا تجد في عباراته فلسفة المتكلمين المعروفة في كتب الكلام.

ومما يلاحظ كذلك في هذه الرسالة كثرة استشهاد المصنف بالكثير من الآيات القرآنية في عرضه للمسائل، وهذا من أرقى عروض التأليف في مسائل العقيدة وأنفعها.

وتطرّق المصنّف في رسالتيه إلى بعض المشكلات العصرية التي لقيت رواجاً واسعاً في عصره كمسألة كرويَّة الأرض، وسفسطة دارون، مما يدلّك على أنَّ المصنف ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ كان يعيش همَّ حاضره بحرص العالم المصلح، مبرزاً مذهبه استناداً إلى الوحي الصادق، وأعظم دليل على ما نقوله هو استطراده لذكر مسألة الخلافة وما يجب على المسلم تجاه خليفة المسلمين، ولا يخفى عليك أيّها القاريء أنَّ عالمنا محمد المكي عاش المخاض العسير الذي عانت منه الخلافة العثمانية في عهدة السلطان عبدالحميد الذي كانت له معه صحبة ومودَّة، فأبرز موقف أهل السنة والجماعة في مسألة الخلافة، قطعاً لدابر الكائدين، وحفظاً لوحدة المسلمين، وهذا من أعظم غايات علم العقيدة الإسلامية.

وقد يظنَّ القاريء أنَّ مسألة الخلافة لا علاقة لها بالعقيدة، فكيف أدرجها المصنِّف في رسالته، والجواب عن ذلك من وجهين:

الأوَّل: أنَّ إدراج المصنِّف لها في رسالته ليس بدعاً من الأمر، فقد تطرَّق لذكرها الكبار من الأئمة في كتب العقيدة، وخاصة المتكلِّمين، فلا تثريب عليه إذا ذكرها في رسالته.

الثاني: أنَّ مشهور مذهب أهل السنَّة والجماعة أنَّ الخروج على الخليفة لا يحقُّ إلاَّ بخروجه عن عقيدة المسلمين وهو الكفر، فكان هذا مسوغاً له لذكرها.

وكذا ذكر المصنّف مسألة سبب الاختلاف بين أئمة المذاهب، وأوضح موقف المسلمين من اختلافهم، فقد يظنُّ القاريء كذلك أنَّ هذه المسألة لا علاقة لها بعلم العقيدة، فنقول أنَّ المسوِّغ لذكرها هو دحض قول من قال إنَّ اختلافهم كان ناشئاً عن خلفية عقدية وليس اختلاف رأي واستنباط، ويدرك ذلك من يعرف عقلية عامة أهل المغرب حتى إلى عقود متأخِّرة وموقفهم من مخالفة مذهب مالك.

والأمر الجدير بالملاحظة في هذه الرسالة أنَّ قارئها يجد فيها عدم الترابط بين مسائلها، فلم يتبع فيها المصنف النسق المعروف في التأليف في علم العقيدة، والسبب واضح وهو أنَّ المصنف لم يؤلِّف رسالته ككتاب متكامل في علم العقيدة وإنَّما انتقى مسائل مهمَّة من هذا العلم اختصها بالدِّراسة ناصراً فيها عقيدة أهل الحق.



عملي في تحقيق المخطوط

اتجه عملي في هذه الكتاب على إخراج النصّ الكامل للعقيدتين (الكبرى والصُغرى)، إلاَّ أنَّ الشرح والتعليق اقتصر على العقائد الكبرى فحسب، لأنَّ كل مسائل العقائد الكبرى اختصرها المصنف في العقائد الصُغرى، فكان شرحها في الكبرى مغْنٍ عن إعادته في الصُغرى.

وقد سبق الذكر في أنَّ المصنف ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يعرض مذهب أهل السنة والجماعة في المسألة التي ينتقيها بعبارة موجزة جامعة مانعة، فكانت بمثابة السفينة التي تحتملني في بحر المسألة المذكورة، فأرجعها إلى أصلها من الكتاب والسنَّة الصحيحة، ومواطنها في كتب السلف من الأئمَّة، وأذكر قول من حاد عن مذهب الجماعة وأدلَّته وتفنيدها.

وكل مسألة ذكرها المصنِّف أتوسع في ذكر ما يتعلَّق بها من المسائل والجزئيات مما هو مسطور في كتب الأسلاف.

وكلَّ مسألة أذكرها في هذا الشرح أُرجعها إلى مواطنها ممَّا أخذته من كتب الأئمَّة حتى لا أنسب قولاً لنفسي انتحلته من غيري، إلاَّ ما ذهلت عنه فأسأل الله العفو والصَّفح والمغفرة.

ولا أذكر في هذا الشرح الوجيز من دلائل السنَّة إلاَّ ما صحَّ منها، وأخرِّج كلَّ حديث من مواطنه في الصِّحاح والسُّنن والمسانيد، وإذا لم يكن في الصَّحيحين أنسب تصحيحه لمن صحَّحه من الحفَّاظ والمحدِّثين.

وصف النُّسخة الخطِّيَّة:

المخطوطة التي بين أيدينا موجودة في مكتبة جامع سيدي خليفة الكائن بولاية مِيلة بالشرق الجزائري في خزانة تحوي كمًّا كبيراً من نفائس المخطوطات في مختلف الفنون.

وعقائد التوحيد للعلاَّمة محمد المكي تقعان ضمن مجموع واحد؛ في قسمه الأوَّل "عقيدة التوحيد الكبرى" ثمَّ تليه في القسم الثاني "عقيدة التوحيد الصغرى"، وجاء في آخر النسخة الخطيَّة أنَّ مؤلِّفها محمَّد المكي بن عزّوز انتهى من تحرير كتابه عقائد التوحيد (الكبرى والصغرى) في ذي الحجَّة سنة 1326 هِجْرِيَّة، فقد ذُكر هذا التأْريخ في آخر العقائد الكبرى وتكرَّر ذكره كذلك في آخر العقائد الصُّغْرى.

وتاريخ نسخ المخطوطة في شوَّال من عام 1327هـ، إذ كتب ناسخها في آخر العقائد الكبرى: على يد العبد الفقير إلى الله عبْده محمد المكي بن علي الفقون القسنطيني غفر الله ذنوبه، وستر عيوبه، ويسَّر أمره ووالديه، وجميع المسلمين الأحياء منهم والميِّتين، في شعبان عام 1327هـ.

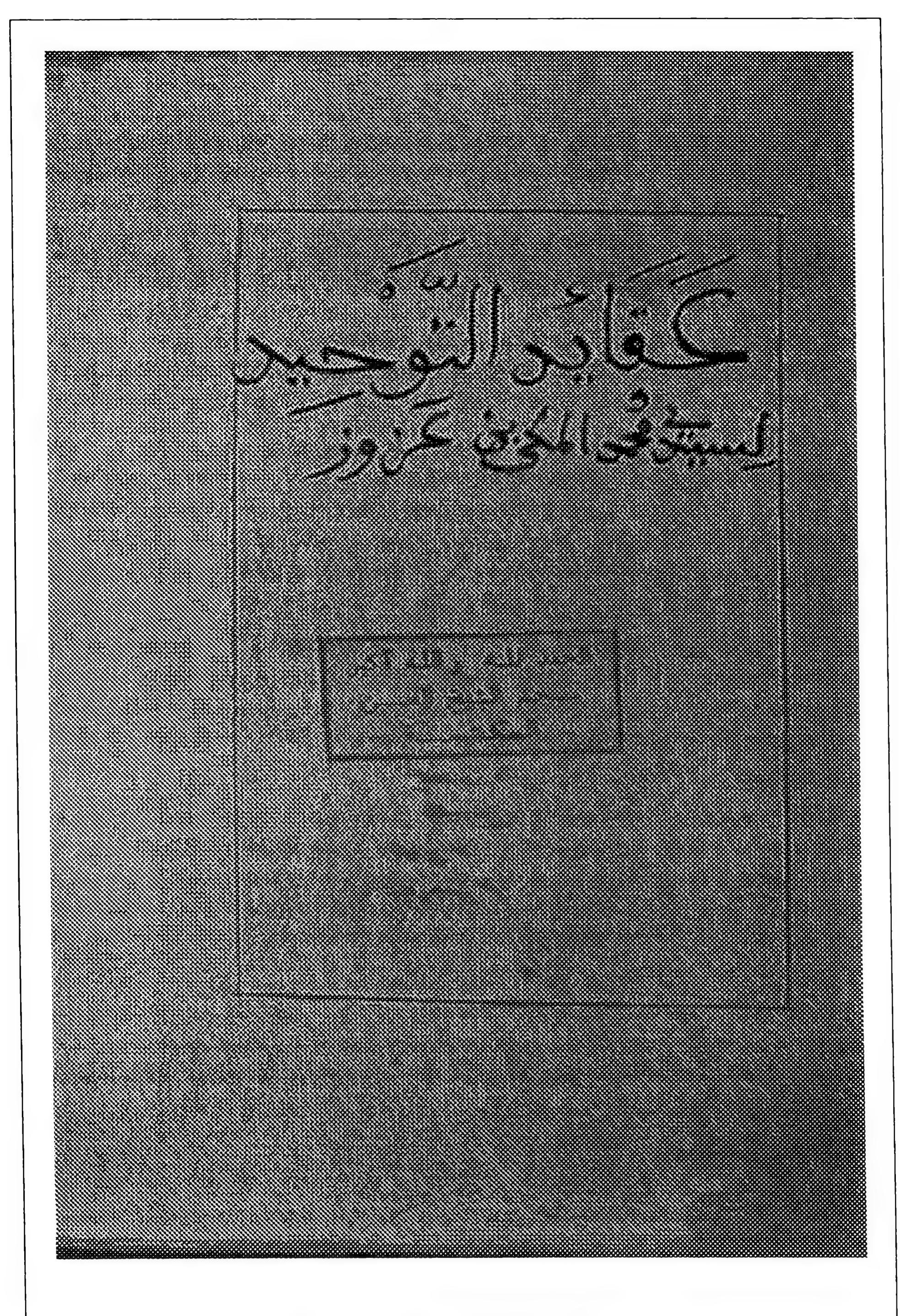
أي أنَّ نَسْخ المخطوطة كان في حياة المؤلِّف ـ رحمه الله ـ ولا أستبعد أن يكون ناسخها من تلامذة المصنف، لأنَّه ينتمي إلى عائلة (الفقون) الشهيرة بالعلم والعلماء في مدينة قسنطينة بالجزائر.

وتحتوي المخطوطة على 25 ورقة على مقاس 180/270 ملم، وفي كل ورقة 19 سطراً تقريباً، وحالة النُسخة ممتازة جدًّا.

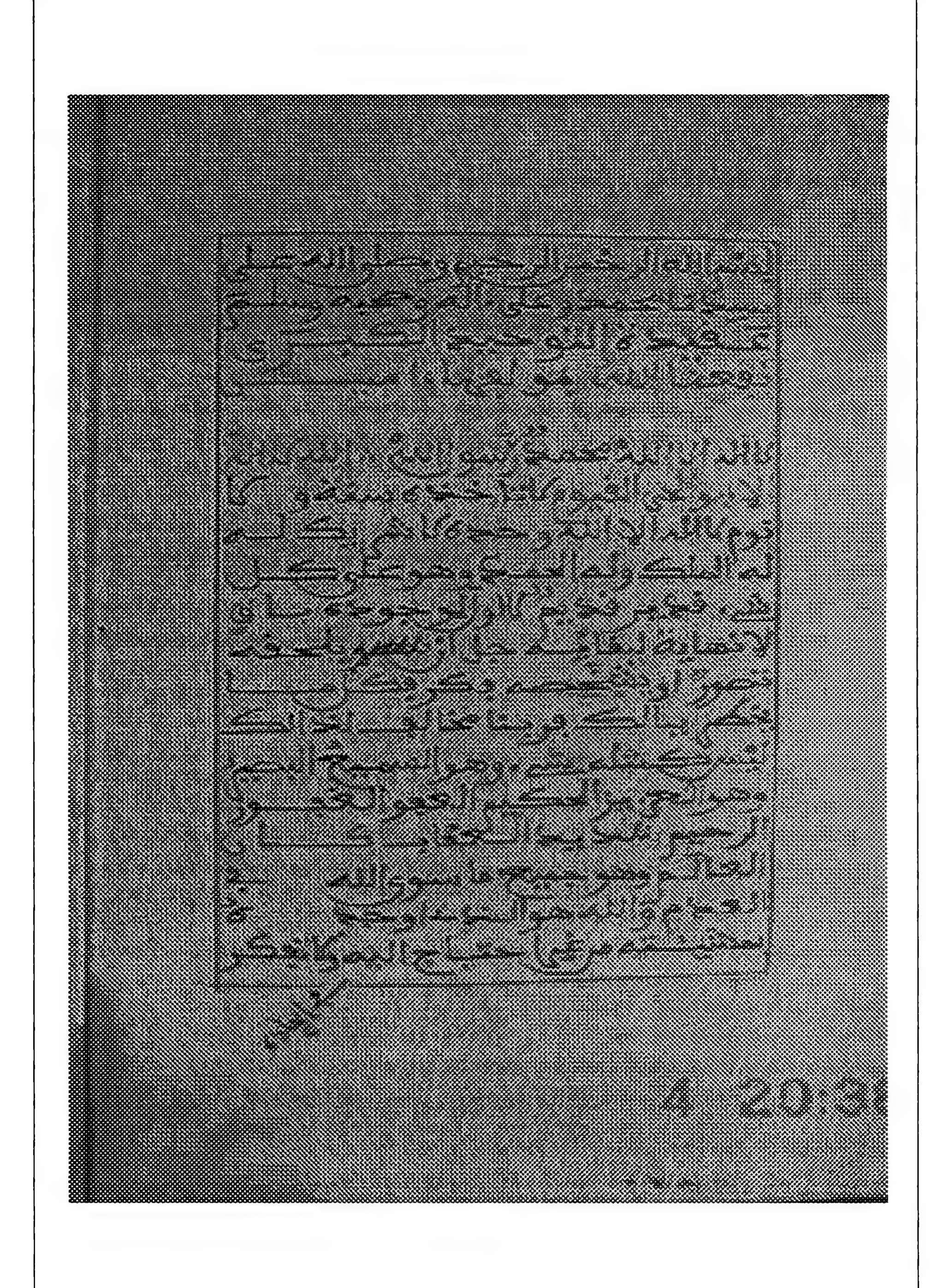
وكتبت بخط مغربي بُنِّي اللَّون، وكتبت السؤالات ورؤوس الإجابات والمسائل بالمداد الأحمر.

والتعقيبة موجودة في كلِّ ورقة من المخطوط.

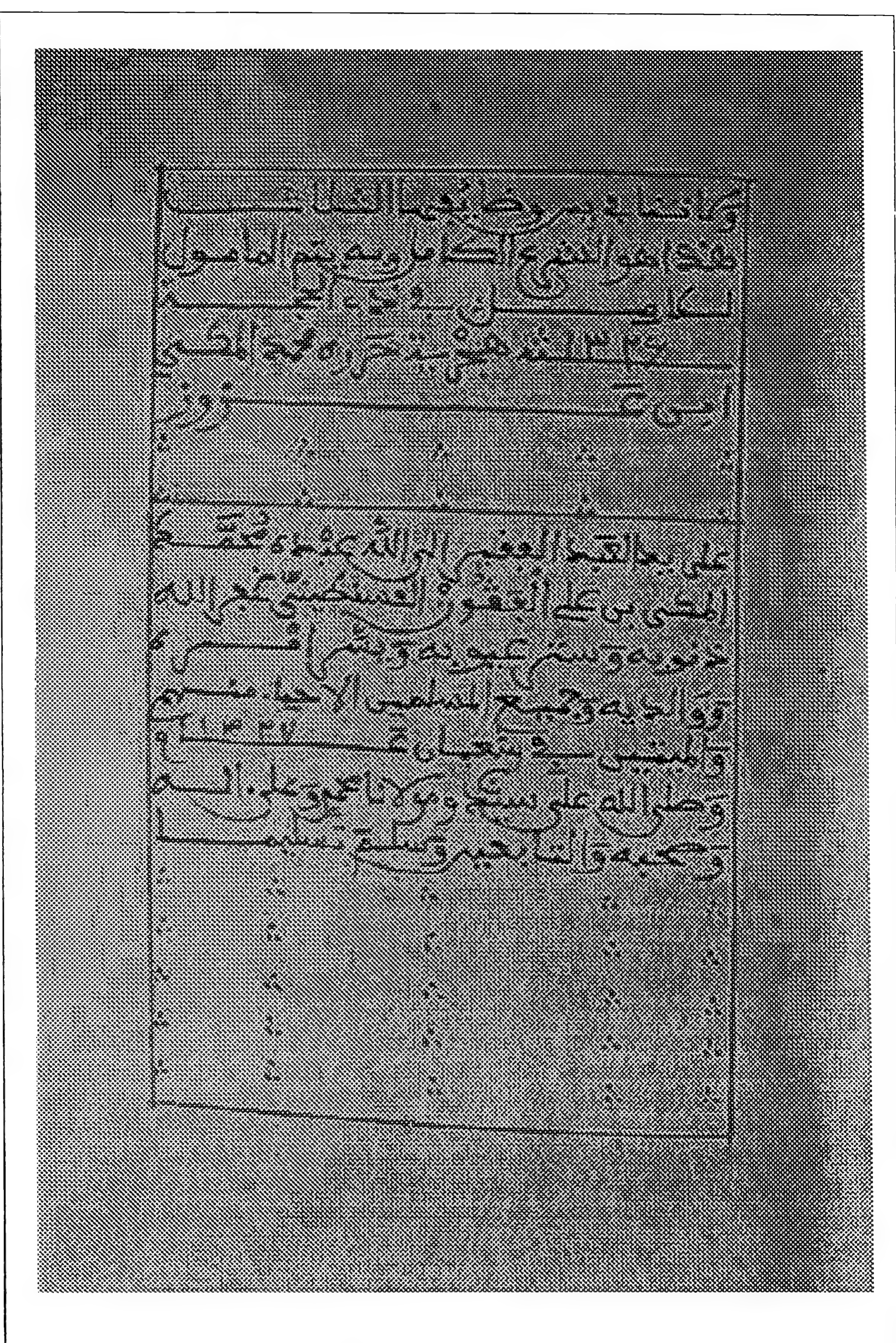




صورة عن عنوان المخطوط (ق ٣ من المجموع)



صورة عن بداية عقائد التوحيد الكبرى (ق ٤ من المجموع)



وكان تمامه بروضة نعم الفلا [illegible]
فهذا هو النسخ الكامل به يتم المأمول
[illegible]
[illegible] ١٣٢٢ [illegible] محمد المكي
[illegible]

على يد الفقير الحقير إلى الله عبده محمد
المكي بن علي البقوري [illegible] غفر الله
ذنوبه وستر عيوبه و[illegible]
ولوالديه ولجميع المسلمين الأحياء منهم
والميتين [illegible] شعبان ١٣٢٧
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله
وصحبه والتابعين وسلم تسليما

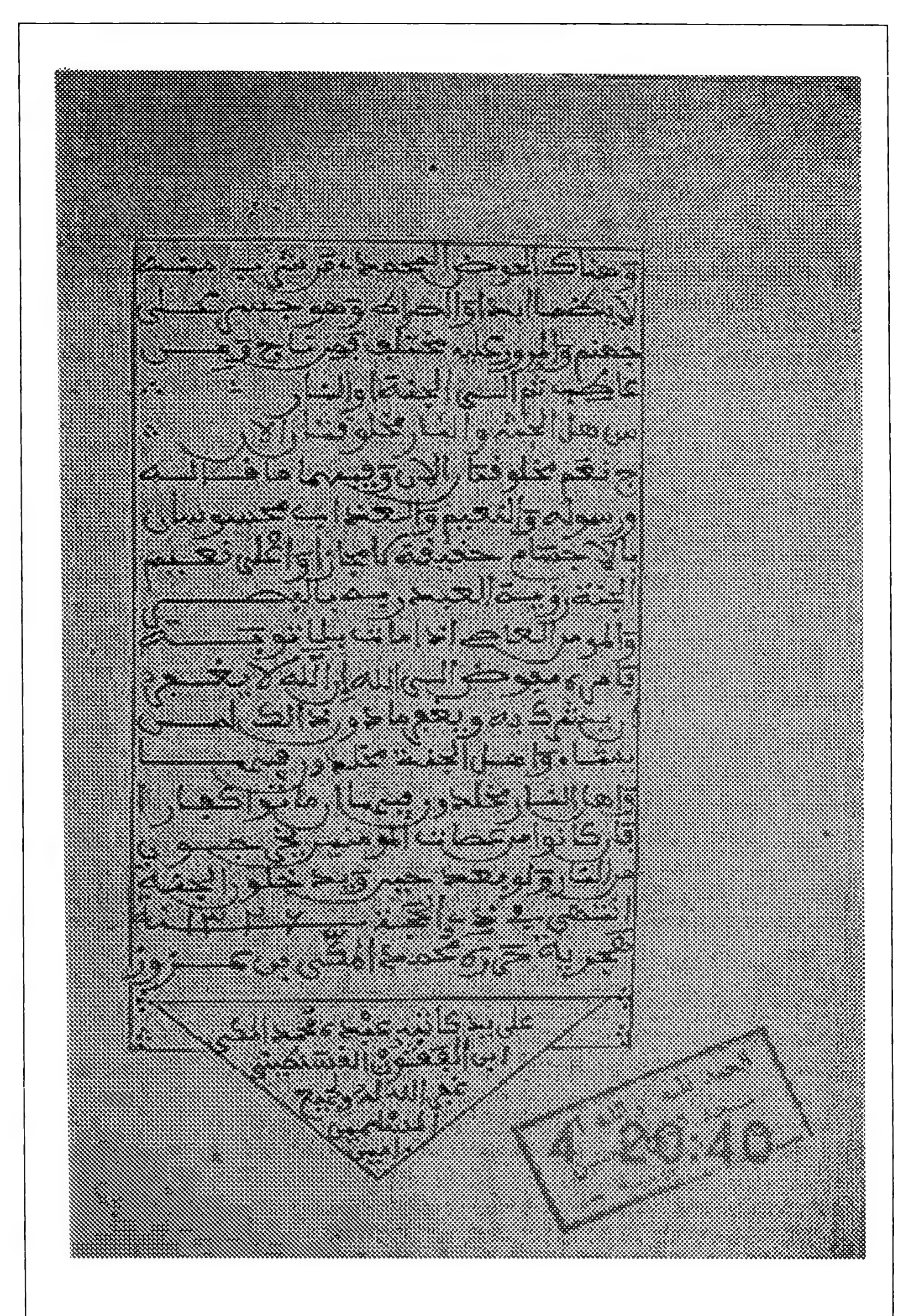
صورة على نهاية عقائد التوحيد الكبرى (ق ١٨ من المجموع)



عقيدة التوحيد
الصغرى

[illegible]
الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه
سنة ولا نوم واحد لا شريك له قديم
لا أول لوجوده باق لا نهاية لبقائه
جل أن يعرفه تصور أو يشخصه
وكل ما يخطر بالك فهو [illegible]
مخالف لذلك ليس كمثله شيء وهو
السميع البصير [illegible]
[illegible]
[illegible] ملكه يتصرف
فيه كما يشاء كل يوم هو في شأن غني عن
كل ما سواه وجميع ما عداه مفتقر إليه
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا

صورة عن بداية عقيدة التوحيد الصغرى (ق ١٩ من المجموع)



صورة على نهاية عقيدة التوحيد الصُغرى (ق ٢٥ من المجموع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم

عَقِيدَةُ التَّوحِيد الكُبْرَى، نَفَعَنَا اللهُ بِمُؤَلِّفِهَا، آمِينَ

لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ(1).

---

(1) **[حقيقة لا إله إلا الله]**: ابتدأ المصنف ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ رسالته بكلمة التوحيد التي هي شعار الإسلام، وأعظم ما ينطق به اللِّسان، وأثقل ما يرجح كفة الميزان، وهي مفتاح باب الجنان، وتعصم بقولها دم الإنسان، ففي حديث جبريل المشهور الذي رواه مسلم في كتاب الإيمان "8"، وابن حبان "173"، والدارقطني "207" وقال إسناد ثابت صحيح: «...فقال ـ أي جبريل ـ: يا محمد ما الإسلام؟ قَالَ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله...».

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند مسلم "22" وغيره أن رسول الله ﷺ قَالَ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله».

فمن أظهر القول بها، فقد عصم دمه، ودخل بها دار الإسلام آمناً حتى وَلَوْ أبطن الكفر، فلم يقاتل النَّبي ﷺ المنافقين لأنهم أظهروا «لا إله إلا الله» رغم أنهم أبطنوا الكفر، ويشهد له حديث أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟! قَالَ: قلت: يا رسول الله إِنَّمَا قالها خوفاً من السلاح. قَالَ: أفلا شققت =

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[1].

= عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فما زال يكرِّرها عليَّ حتَّى تمنَّيت أنِّي أسلمت يومئذ». (رواه مسلم بلفظه "96"، وهو عند ابن أبي شيبة في مصنفه "36631").
نقل ابن حجر في الفتح (ج12 ص 195) عن ابن التين أنه قَالَ: " في هَذَا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة، حتَّى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد ".
وانظر النووي على مسلم (ج2 ص 99).
و"**شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله**" لا يضاهيها شيء في ترجيح الموازين يوم القِيَامَة، مهما بلغت ذنوب العبد إن كَانَ قالها بصدق، يشهد لذلك حديث البطاقة المشهور، الذي رواه ابن حبان "225"، والحاكم "9 و1937" وصححه على شرط مسلم، والترمذي "2639" وحسنه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله سيخلِّص رجلاً من أمَّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كلّ سجلّ مدَّ البصر، ثمَّ يقول له: أتنكر شيئاً من هذا؟ أَظَلمَكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقول: أَفَلَكَ عُذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل ويقول: لا يا ربِّ. فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلْم عليك اليوم، فيخرِج له بطاقة فيها "أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله" فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنَّك لا تُظلم. قال: فتوضع السجلَّات في كفَّة، والبطاقة في كفَّة، فطاشت السجلَّات، وثقلت البطاقة. قال: فلا يثْقل اسم الله شيء».

(1) **[منزلة آية الكرسي]**: من سورة البقرة، من الآية: 255، وآية الكرسي أعظم آية في القرآن لما ثبت، لأنها جمعت التوحيد كلَّه، فعند مسلم في صحيحه "810"، وعبدالرزّاق في مصنفه "6019" عن أبي هريرة ﷺ أنَّه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيه آية سيدة آي القرآن؛ آية الكرسي، لا تقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج».
وروى عبدالرزّاق في مصنفه "5994" عن ابن جريج قَالَ: سمعت ابن أبي حسين يقول: قَالَ عبدالله بن مروان: "إنَّ الله اختار الكلام فاختار القرآن، فاختار منه سورة البقرة، واختار من سورة البقرة آية الكرسي، واختار البلاد فاختار الحرم، واختار الحرم فاختار المسجد، واختار المسجد فاختار موضع البيت".
قال النووي: " قال العلماء إِنَّمَا تميزت آية الكرسي بكونها أعظم، لما جمعت =

لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]، قَدِيمٌ[2] ....

= من أُصُول الأسماء والصفات؛ من الإلهية، والوحدانية، والحياة، والعلم، والملك، والقدرة، والإرادة، وهذه السبعة أُصُول الأسماء والصفات والله أعلم". (شرح صحيح مسلم، ج6 ص 94).

فقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إِلَى توحيد الذات، ﴿ٱلْحَىُّ﴾ أي الباقي الذي لا سبيل عليه للموت و الفناء، ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم بذاته، المقيم لغيره. ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا يعتريه ذهول ولا غفلة عن عباده، فلا تأخذه السِّنة التي هي النعاس فضلاً عن النوم الذي هو أقوى من النعاس. قَالَ في "جواهر القرآن" ج1 ص73 ـ 74: " فقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارة إِلَى الذَّات، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إِلَى توحيد الذَّات، وقوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إشارة إِلَى صفة الذات وجلاله، فإن معنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ هو الذي يقوم بنفسه، ويقوم بغيره، فلا يتعلق قوامه بشيء، ويتعلق به قوام كل شيء، وذلك غاية الجلال والعظمة، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ تنزيه وتقديس له عمَّا يستحيل عليه من أوصاف الحوادث، والتقديس عمَّا يستحيل أحد أقسام المعرفة، بل هو أوضح أقسامها".

(1) **[الدعاء بلا إله إلا الله]**: هَذَا من أفضل الدعاء الذي يناجي به العبد ربه، ومن المأثورات النبوية الصحيحة، ففي صحيح البُخَارِي "3119" ومسلم "2691" عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول ﷺ قَالَ: «من قَالَ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذَلِكَ حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به، إلاَّ أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قَالَ سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حطت خطاياه، وَلَوْ كانت مثل زبد البحر».

(2) **[هل يصحّ وصف الله ﷻ بالقديم]**: لم يرد في التوقيف لفظ "**القديم**" على أنَّه وصف، أو اسم لله ﷻ، وإنَّما ورد من باب الإخبار عن الله ﷻ في كتب المتقدمين والمتأخرين من أهل السنة والجماعة، بل عَدَّه السفاريني في (لوامع الأنوار، ج1 ص 38) من صفات الله ﷻ وأسمائه، لكن عند التحقيق لا يقال عن الله ﷻ بأنه قديم، لا صفةً ولا اسماً، وإنما يطلق عليه من باب الإخبار.

والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضي إِلَى أوَّل ويعبر عنه بأنه "**أزلِيّ**". (المقصد الأسنى للغزالي، ص147). =

لاَ أَوَّلَ لِوُجُودِهِ[1]، ....

= قال الإمام ابن القيم: "ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من باب الإخبار لا يجب أن يَكُون توقيفيًا؛ كالقديم، والشَّيء، والموجود، والقائم بنفسه" إهـ. (بدائع الفوائد، ج1 ص 162).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ويفرق بين دعائه والإخبار عنه؛ فلا يُدْعَى إلاَّ بالأسماء الحسنى، وأما الإخبار عنه؛ فلا يَكُون باسم سيِّىء، لكن قد يَكُون باسم حسن، أو باسم ليس بسيِّىء، وإن لم يحكم بحسنه؛ مثل اسم شيء، وذات، وموجود" اهـ. (مجموع الفتاوى، ج6 ص 142).

وقال في موضع آخر (ج9 ص 300 ـ 301): " والناس متنازعون؛ هل يُسَمَّى الله بما صحَّ معناه في اللغة والعقل والشرع، وإن لم يرد بإطلاقه نصّ ولا إجْماع، أم لا يطلق إلاَّ ما أطلق نص أو إجماع؟ على قولين مشهورين؛ وعامة النظَّار يطلقون ما لا نصَّ في إطلاقه ولا إجماع؛ كلفظ **القديم والذَّات** ونحو ذلك، ومن الناس من يفصل بين الأسماء التي يدعى بها، وبين ما يخبر به عند الحاجة؛ فهو سبحانه إنَّمَا يدعى بالأسماء الحسنى؛ كما قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 180]، وأما إذا احتيج إِلَى الإخبار عنه؛ مثل أن يُقال: ليس هو بقديم، ولا موجود، ولا ذات قائمة بنفسها، ونحو ذلك؛ فقيل في تحقيق الإثبات: بل هو سبحانه قديم، موجود، وهو ذات قائمة بنفسها، وقيل: ليس بشيء، فقيل: بل هو شيء؛ فهذا سائغ" اهـ.

وقال البيهقي في (الاعتقاد، ص 68): " القديم هو الموجود لم يزل، وهذه صفة يستحقها بذاته " إهـ.

والأوجَه أن يوصف الله ﷻ إلاَّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، كما لا يسمى إلاَّ بما سمى به نفسه أو سماه رسوله ﷺ، ولم يرد في كتاب ولا في سنة بأن لفظ "القديم" من أوصاف الله ﷻ أو أسمائه، وعليه لا يَصِحّ وصف الله ﷻ ولا تسميته بالقديم لعدم ورود الدَّلِيل بذلك وإن كَانَ يَصِحّ الإخبار به عنه لأن باب الإخبار أوسع من باب الإنشاء.

وفي الحديث الصحيح: "أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه **القديم**، من الشيطان الرجيم ". (رواه أبو داود "466" وصححه الألباني، وقال النووي في الأذكار، ص 86: "حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد").

(1) [صفة **"الأوليَّة"** لله ﷻ]: معنى هَذَا الكلام إثبات صفة **الأولية** لله ﷻ؛ =

بَاقٍ[1] لاَ نِهَايَةَ لِبَقَائِهِ[2]، ....

= والأولية صفةٌ ذاتيةٌ لله وصف الله ﷻ بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيه ﷺ، ومعناها: الذي ليس قبله شيء، ودليلها من الكتاب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحديد، الآية: 3].

ودليلها من السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «اللَّهم أنت الأوَّل؛ فليس قبلك شيء». (رواه مسلم "2713"، وابن حبان "966"، والترمذي "3400"، والحاكم "2002" وغيرهم).

(1) [صفة "البقاء" لله ﷻ]: الباقي: هو الموجود الواجب وجوده بذاته، ولكنه إذا أضيف في الذِّهن إِلَى الاستقبال سمي باقياً، وإذا أضيف إِلَى الماضي سمي قديماً، **والباقي المطلق**: هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إِلَى آخر، ويعبر عنه بأنه أبدي. (المقصد الأسنى للغزالي، ص147).

والدليل على ثبوت هذه الصفة لله ﷻ قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [سورة الرحمن، الآية: 27].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين، ج3 ص 384): "...**والبقاء** في الآية هو بقاء الربّ ودوام وجوده...".

ويقول الباقلاني في بيانه للدليل العقلي على صفة **البقاء** لله ﷻ: " فإن قَالَ قائل: وما الدَّليل على أن **البقاء** من صفات ذاته، قلنا: من قبل أنه لم يزل **باقياً** إذ كَانَ كائنا من غير حدوث، **والباقي** منا لا يَكُون **باقياً** إلا ببقاء، دليل ذَلِكَ استحالة بقاء الشيء في حال حدوثه، فلو بقي لنفسه كَانَ باقياً في حال حدوثه، وذلك محال باتفاق فصح أنه **باق ببقاء** إذ كَانَ قديماً يستحيل أن تكون ذاته **بقاء** أو في معنى الصفات ". (تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني، ص 299).

(2) [صفة "البقاء" و"الآخريَّة" لله ﷻ]: لأن الله ﷻ وصف نفسه بأنه الآخر الباقي بعد فناء الكون المحدث، فقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحديد، الآية: 3]. يقول البغوي - رحمه الله - في تفسير الآية (ج4 ص 291): "... يعني هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء، بل كَانَ هو ولم يكن شيء موجوداً، والآخر بعد فناء كل شيء بلا انتهاء، تفنى الأشياء ويبقى هو...".

وورد ثبوت صفة **الآخرية** لله ﷻ من السنة الصحيحة في حديث أبي هريرة المتقدم: «... اللَّهم أنت **الأول** فليس قبلك شيء، وأنت **الآخِر** فليس بعدك شيء...». =

جَلَّ أَنْ يَلْحَقَهُ تَصَوُّرٌ، أَوْ يُشَخِّصَهُ فِكْرٌ، فَكُلُّ مَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ فَرَبُّنَا مُخَالِفٌ لِذَلِكَ[1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]، ....

= ويقول الغزالي - رحمه الله - في بيانه للدليل العقلي على صفة **الآخرية** لله عز وجل: " ... لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إمَّا أن ينعدم بنفسه، أو بمعدم يضاده، وَلَوْ جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه، فكما يحتاج طريان الوجود إِلَى سبب، فكذلك يحتاج طريان العدم إِلَى سبب، وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذَلِكَ المعدم لو كَانَ قديماً لما تصور الوجود معه.. . فكيف كَانَ وجوده في القدم ومعه ضده، فإن كَانَ الضد المعدم حادثاً، كَانَ محالاً، إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى يدفع وجوده، بل الدفع أهون من القطع، والقديم أقوى وأولى من الحادث ". (قواعد العقائد، ص157 - 158).

(1) [**الله عز وجل وراء طور العقل**]: فالله - سبحانه - وصفاته وراء طور العقل، فلا يقبل حكم العقل إلا فيما كَانَ في طور الفكر، لأنَّ القوة المفكرة ليس من شأنها إلا التصرف فيما في الخيال والحافظة من صور المحسوسات والمعاني الجزئية، ومن ترتيبها على القانون يحصل للعقل علم آخر بينه وبين هذه الأشياء مناسبة، وحيث لا مناسبة بين ذات الحَقّ - جل وعلا - وبين شيء من ذلك، لا يستنتج من المقدمات التي يرتبها العقل معرفة الحقيقة، فأكف الكيف مشلولة، وأعناق التطاول إِلَى معرفة الحقيقة مغلولة، وأقدام السعي إِلَى التشبيه مكبلة، وأعين الأبصار والبصائر عن الإدراك والإحاطة مُسْملة. (انظر: روح المعاني للألوسي، ج16 ص 158).

(2) [**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**]: سورة الشورى، من الآية: 11. يقول النفراوي المالكي - رحمه الله - في شرحه على عقيدة القيرواني من "الرسالة" بعد أن ساق هذه الآية: " فأوَّل هذه الآية تنزيه؛ ففيه ردٌّ على المجسِّمة، وآخرها إثبات؛ ففيه رد على المعطِّلة النافين لزيادة جَمِيع الصفات، وقدَّم فيها النَّفي على الإثبات وإن كَانَ الأولى العكس في أماكن كثيرة، لأنَّه لو قدَّم الإثبات فيها لأوهم التشبيه بالمخلوق الذي سمعه بأذن، وبصره بحدقة، فقدَّم التَّنزيه ليعرف السَّامع ابتداء أنَّه ليس مشابهاً لشيء من الحوادث، وهذه الآية دليل قاطع على مخالفته تعالى لسائر الحوادث، وهي أقمع آية للشيطان عند تعرضه للإنسان في مقام البحث عن ذات الباري وصفاته" انتهى.(الفواكه الدواني، ج1 ص 40). =

وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(1)، ....

= **وقد يقول قائل**: ما حكمة زيادة حرف الكاف في قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ مع أنَّه يمكن الاستغناء عنها.

والجواب: أن لأهل العلم في ذَلِكَ أقاويل كثيرة، أحسنها ما قاله ابن جنِّي: إِنَّمَا زيدت - أي الكاف - لتوكيد نفي المثل، لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانياً.

وقال الراغب: " إنَّما جمع بين الكاف والمثل لتأكيد النَّفي تنبيهاً على أنَّه لا يَصِحّ استعمال المثل، ولا الكاف، فنفى بـ"ليس" الأمرين جميعاً ". (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج1 ص 488).

(1) [**صفة "العزيز" لله ﷻ**]: **العزيز**: هو الغالب الذي لا يغلب، والمنيع الذي لا يوصل إليه، وقيل: هو القادر القوي، وقيل: هو الذي لا مثل له، وهو من صفات الذات.(انظر الاعتقاد للبيهقي، ص 55).

وأصل (ع ز ز) في الكلام: الغلبة والشدة، ويقال: عزَّني فلان على الأمر، إذا غلبني عليه، وقال الله تعالى ذكره: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أراد - والله أعلم - قوَّينا أمره وشددناه، ويقال: عزَّه يعزّه، والله تعالى هو الغالب على كلِّ شيء، فهو العزيز الذي ذل لعزته كل عزيز. (تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، ص 33 - 34).

[**صفة "الحكيم" لله ﷻ**]: الحكيم: فعيل بمعنى فاعل أو مُفْعِل، وهو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، وقيل: الحكيم ذو الحكمة، عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. (النهاية لابن الأثير، ج1 ص 419).

والحكيم اسم من أسماء المولى ﷻ وصفةٌ من صفاته الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة.

والله تعالى محكم للأشياء، متقن لها، كما قَالَ تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل، من الآية: 88]. (تفسير أسماء الله الحسنى، ص 52).

يقول ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - في " الجواب الكافي " ص81: " فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء، ويأمر، وينهى، ويثيب، ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر".

[**حكمة تقديم "العزيز" على "الحكيم" في القرآن الكريم**]: قال في " بدائع الفوائد " ج1 ص 71 - 72 مبينا حكمة تقديم "**العزيز**" على "**الحكيم**" في التَّنزيل: =

= "**وجه التقديم**؛ أنَّ العزَّة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وهو سبحانه الموصوف من كلِّ صفة كمال بأكملها، وأعظمها، وغايتها، فتقدم وصف القدرة لأن متعلقه أقرب إِلَى مشاهدة الخلق، وهو مفعولاته تعالى وآياته، وأمَّا الحكمة فمتعلقها بالنظر، والفكر، والاعتبار غالباً، وكانت متأخرة عن متعلق القدرة.

وجه ثان: أنَّ النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به، فينتقل منه إِلَى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني.

وجه ثالث: أن الحكمة غاية الفعل، فهي متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها، فالقدرة تتعلق بإيجاده، والحكمة تتعلق بغايته، فقدم الوسيلة على الغاية لأنَّها أسبق في الترتيب الخارجي " انتهى.

(1) [**صفة "العفوّ" لله ﷻ**]: **العفوّ**: هو فعول من العفو، وهو التجاوز عن الذَّنب، وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة؛ يقال: عفا يعفو عفواً فهو عاف. (النهاية لابن الأثير، ج3 ص 265).

والعفوّ: صفةٌ فعليَّةٌ لله ﷻ، ثابتةٌ له بالكتاب والسنة، ومعناها الصفح عن الذنوب، **والعَفُوُّ** اسم لله تعالى.

ودليلها من الكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء، من الآية: 43] وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة، من الآية: 43].

ومن السنة حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «قلت يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها، قَالَ: قولي: اللهم إِنَّك **عفوٌ** كريم تحب العفو فاعف عنِّي». (رواه الترمذي "3513" وقال: حسن صحيح، والحاكم "1942" وصححه على شرط الشيخين).

[**صفة "الغفور" لله ﷻ**]: **الغفور**: هو فعول من قولهم غفرت الشيء: إذا سترته، وفعول موضوع للمبالغة، لأنَّه تعالى يكثر من المغفرة. (تفسير أسماء الله الحسنى، ص 46، والاعتقاد، ص 58).

ومن أسمائه ﷻ **الغفار والغفور** كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر، من الآية: 28]، وقوله ﷻ: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [سورة الزمر، من الآية: 5].

يقول الزركشي ـ رحمه الله ـ في حكمة تقديم **(العفوّ)** على **(الغفور)** في القرآن؛ إن ذَلِكَ لشرف العموم؛ فإن العام أشرف من الخاص؛ فتقديم **(العفوّ)** على **(الغفور)** =

الرَّحِيمُ[1]، ....

= أي: **عفوٌ** عما لم يؤاخذنا به مما نستحقه بذنوبنا، **غفور** لما واخذنا به في الدنيا قبلنا ورجعنا إليه، فتقدم **العفوّ** على **الغفور** لأنَّه أعمّ، وأُخِّرت المغفرة لأنها أخصُّ. (البرهان في علوم القرآن، ج3 ص 254).

(1) [**حقيقة "الرحمن" "الرحيم"**]: **الرحيم**: مشتق من (**رحم**) ومصدره (**الرحمة**) وهي الرِّقة والتعطف. (مختار الصحاح، ص 100).

والرحيم: خاص في رحمة الله ﷻ لعباده المؤمنين بأن هداهم إِلَى الإيمان، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذي لا ينقطع. (تفسير أسماء الله الحسنى، ص28).

قال البيهقي في "الأسماء والصفات" قَالَ الحليمي: في معنى **الرحمن** أنه المزيح للعلل، وفى معنى **الرحيم** أنه المثيب على العمل، فلا يضيع لعامل عملاً، ولا يهدر لساع سعياً، وينيله بفضله ورحمته من الثواب أضعاف عمله. (يقظة أولي الاعتبار، ص 239).

ويرى بعض علماء أهل السنة والجماعة أن **الرحمة والغضب** من صفات الذات، وقال بعض العلماء: **الرحمة والغضب** من صفات الفعل، لا من صفات الذات. (فتح الباري، ج6 ص 292).

وبالجملة فالرحمة صفة عظيمة عامة من صفات الرحمن الرحيم، يَظْهَر أثرها على وجه الكمال إن شاء الله تعالى يوم الدين، وتعم الصالحين والطالحين من المؤمنين، حين يغفر الله سبحانه وتعالى ذنوب المذنبين، ويعفو عن خطايا الخاطئين. ومن نعم الله سبحانه على عباده أن وصف نفسه الكريمة بالرحمة العامة، والمغفرة الشاملة، ووصف رسوله محمداً خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وشفيع المذنبين بقوله في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 107] فوقعت أمته المرحومة بين رحيمين كريمين، والرحيم إذا قدر رحم، والكريم إذا غلب غفر، فالرحمة والمغفرة للعصاة من الموحدين المتبعين للسنة والكتاب، والمقرين على أنفسهم بالقصور عن بلوغ ذروة كمال الامتثال بإتيان صوالح الأعمال، ثابتتان بأدلة القرآن ونصوص السنة، لا سيما أنَّه سبحانه يتوب على التائبين، ويغفر للمستغفرين، ويفرح بتوبة عباده المؤمنين، ويجزى المحسنين، ويحب المتطهرين التوابين، وقد سبقت رحمته على غضبه، ورضاه على سخطه، وعفوه على انتقامه، وهو أحق بذلك وأولى، وقد وردت =

شَدِيدُ العِقَابِ[1].

كَانَ العَالَمُ، وَهوَ جَمِيعُ مَا سِوَى الله فِي العَدَمِ[2]، ....

= في ذَلِكَ أخبار كثيرة صحيحة منها: عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق؛ إنَّ رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش». (أخرجه البخاري بلفظه "7115"، ومسلم "2751").

وعنه أيضاً قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعون، وأنزل الله في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذَلِكَ الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». (أخرجه مسلم "2752"، والبخاري "5654"، وابن حبان "6148"، والدارمي "2758"). انظر: (يقظة أولي الاعتبار، ص240 ـ 241).

(1) **[شديد العقاب]**: الشدة صفة ذاتية لله ﷻ ثبتت بالكتاب والسنة، كقوله ﷻ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [سورة القصص، من الآية: 35]، وقوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [سورة الإنسان، من الآية: 28].

ومن السنة: قوله ﷺ: «اللهم **اشْدُدْ** وطأتك على مضر». (البُخَارِي "771"، ومسلم "675"، وابن خزيمة "617"، وعبدالرزّاق "4031").

و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ صفة مشبهة، وهي تشعر بالدوام والاستمرار، فتدل على القوة ويشبه ذَلِكَ صفات الذات، لأن الله غفور رحيم لمن يستحق المغفرة والرحمة، وشديد العقاب على من يستحقه، مِمَّنْ كفر به، وأشرك معه الشركاء في الملك، وتجرأ على الله بمحاربته وعصيانه.

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان قَالَ: تلا مطرِّف هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الرعد، الآية: 6] وَلَوْ يعلم الناس قدر عقوبة الله، ونقمة الله، وبأس الله، ونكال الله، ما رقى لهم دمع، ولا قرَّت أَعْينهم بشيء. (تفسير ابن أبي حاتم "12146").

(2) **[أين كان الله ﷻ قبل خلق السموات والأرض]**: كَانَ الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء كما وردت به الآثار الصحيحة، فعن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «كَانَ الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء». (رواه البُخَارِي "6982"، وابن حبان "6142").

وعن أبي رزين قَالَ: قلت: يا رسول الله أين كَانَ ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قَالَ: =

والله هُوَ الَّذِي أَوْجَدَهُ بِمَشِيئَتِهِ[1] ....

= «كَانَ في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء». (رواه الترمذي وحسنه "3109"، وضعفه الألباني في المشكاة، وقال: البعض يحسنه. "5725").

ففي الأثرين وغيرهما من الآثار دلالة يقينية على أن الله كَانَ في الأزل ثُمَّ خلق الخلق وأوجده من العدم.

قال يزيد بن هارون: العماء؛ أي ليس معه شيء.

(1) **[حقيقة "المشيئة" بين أهل السنة والمعتزلة]**: ويعبر عنها بالإرادة، وهي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، كقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان، من الآية: 30]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 1].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كَانَ فيهم ثُمَّ بُعثوا على أعمالهم». (البُخَارِي "6691"، مسلم "2879").

فالله ﷻ موصوف بالإرادة المطلقة، فمشيئته أزلية أبدية لا تحكمها الحوادث، ولا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة، بل الحوادث هي التي تجري وفق ما شاء، وما أراد، متى أراد، والزمان والمكان إِنَّمَا يتغيران حسب ما شاء وأراد، فسبحان ربي العظيم.

والإرادة كما يعرفها العلامة ابن الوزير ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: هي الأمر الذي يقع به فعل الفاعل المختار على وجوه مختلفة في الحسن والقبح، وعلى مقادير مختلفة في الكثرة والقلة، وسائر الهيئات والأشكال من السرعة والبطء، وموافقة الغرض ومنافرته في أوقات مختلفة في التقديم والتأخير. (إيثار الحَقّ على الخلق، ص228).

ومذهب أهل الحَقّ أن الحوادث كلها بقضاء الله تعالى وقدره ومشيئته وإرادته، خيرها وشرِّها، نفعها وضررها، حلوها ومرِّها، الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، فما أراد الله سبحانه وتعالى كان، وما لم يرد لم يكن. (الغنية في أُصُول الدين، ص127).

وعن الربيع بن سليمان قَالَ: قَالَ الشافعي: ـ رضي الله عنه ـ المشيئة إرادة الله ﷻ قَالَ الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأَعْلَمَ الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء. (الاعتقاد للبيهقي، ص157).

قال أحمد بن حنبل: وَلَوْ شاء الله أن يزيل فعل الفاعلين مما كرهه أزاله، =

مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَيْهِ، وَلاَ تَفَكُّرٍ فِي إِيجَادِهِ، فَكلُّهُ مُلْكُهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ وَحْدَهُ كَمَا يَشَاءُ(1)، فَلاَ يُنْسَبُ إِلَيْهِ جَوْرٌ(2) ....

= وَلَوْ شاء أن يجمع خلقه على شيء واحد لفعله، إذ هو قادر على ذلك، ولا يلحقه عجز ولا ضعف، ولكنه كَانَ من خلقه ما عَلِم وأراد، فليس بمغلوب، ولا مقهور، ولا سفيه، ولا عاجز، بريء من لواحق التقصير، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [سورة السجدة، من الآية: 13]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 35]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة يونس، من الآية: 99]. (العقيدة، ص 114).

وخالفت المعتزلة؛ فقالت: الرب سبحانه وتعالى مريد لأفعال نفسه، فأما أفعال العباد؛ فما كَانَ منها قربة وطاعة فيوصف الباري سبحانه وتعالى بأنه مريد له، وما كَانَ معصية من أفعالهم أو كَانَ مباحاً فلا يوصف الباري ﷻ بأنه مريد له، فأما ما لا يدخل تحت التَّكْلِيف من معتقدات الأطفال وأفعالهم فلا يريدها الباري تعالى ولا يكرهها.

وهذا من أشنع القول في حَقّ الباري ﷻ، والدليل على بطلان قولهم: أن القائلين بثبوت الصانع اتفقوا على تقدسه عن النقائص، واتفق العقلاء على أن نفوذ المشيئة علامة السلطنة ودلالة الكمال، وضد ذَلِكَ دلالة النقص فإن زعموا أن معظم ما يجري في العالم الله سبحانه له كاره فقد قضوا بالقصور والعجز. (الغنية، ص 128).

وروى البيهقي عن أبي نضرة قَالَ: ينتهي القرآن كله إِلَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. (الاعتقاد، ص 84).

(1) **[الله ﷻ مالك الملك]: فهو ﷻ** مالك الملك، والكبير المتعال، ليس فوقه شيء، له التصرف المطلق في الكون والخلق، قَالَ تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 26]، فإذا كَانَ ملوك الأرض يزعمون أنهم أصحاب التصرف في الرعية دون قيد أو وازع، وغاب عنهم أن هناك مالك للأرضين والسموات وبيده رقاب الملوك والممالك، فسبحانه ما أعظمه من خالق.

(2) **[تنزيه الله ﷻ عن الجور]:** الجور ضد العدل وهو **الظلم**؛ وهو وضع الشيء في غير موضعه، والله ﷻ منزه عن ظلم العباد، فهو ﷻ من أوصافه العدل، =

فِيمَا أَوْجَدَ أَوْ أَعْدَمَ، أَوْ مَنَعَ أَوْ أَعْطَى، إِنْ أَنْعَمَ فَبِفَضْلِهِ، وَإِنْ مَنَعَ فَبِعَدْلِهِ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1]، ....

= وهذا الوصف يتنافى مع الظلم، فهو العادل المطلق الذي لا يتطرق إِلَى حكمه حيف " ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله، ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله، فمن أراد أن يفهم هَذَا الوصف فينبغي أن يحيط علماً بأفعال الله تعالى، من ملكوت السموات إِلَى منتهى الثرى، حتى إذا لم ير في خلق الرحمٰن من تفاوت ثُمَّ رجع البصر فما رأى من فطور، ثُمَّ رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير، وقد بهره جمال الحضرة الربوبية، وحيره اعتدالها، وانتظامها، فعند ذَلِكَ يعبق بفهمه شيء من معاني عدله تعالى وتقدس" (المقصد الأسنى، ص 98).
وقد نفى ﷻ الظلم عن نفسه في كتابه فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت، من الآية: 46]، وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 108] بل البشر هم الذين يظلمون أنفسهم بانحرافهم عن الصراط السوي الذي أمرهم خالقهم بسلوكه، واستبدالهم لشريعة الحكيم العادل بشريعة الظالمين ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الزخرف، الآية: 76].
وفي الحديث القدسي نزه ﷻ نفسه عن الظلم بل حرَّمه على نفسه وحرَّمه على عباده فقال: «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا» (مسلم، "2577"، وابن حبان "619")، فالله ﷻ حرَّم على نفسه الظلم مع أنه قادر عليه لأنه يتعالى سبحانه عن ذلك، لا كما قالت الجبرية بأن الظلم من الممتنع لذاته، فهو غير مقدور لله ﷻ فلا فائدة ـ حسب قولهم ـ من الآيات والأحاديث التي نفي فيها ﷻ الظلم عن نفسه إذ لا فائدة بنفي ما لا يقدر على فعله، كما لا يَكُون ﷻ ممدوحاً بترك الظلم إذ لا يمدح بترك المستحيل لذاته.
وهذه سفاهة فهو ﷻ نفى عن نفسه الظلم مع أنه قادر على فعله، كما كتب على نفسه الرحمة مع أنه قادر على نفيها في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 54] وإنما يمتدح الله ﷻ وهو الكامل بصفات الكمال، كما يتنزه عن جَمِيع صفات النقصان.

(1) [الله ﷻ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾] [سورة الأنبياء، من الآية: 23]. فهو ﷻ رب الأرباب، يسأل من هم في ملكه، وليس لأحد عليه سؤال، لأنه أحكم الحاكمين، وهو أعظم من أن يُسْأل، فليس لأحد أن يعترض عليه في شيء من أفعاله، فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه. عن أبي الأسود الديلي قَالَ: قَالَ لي عمران بن حصين: =

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1]، غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَجَمِيعُ مَا عَدَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ[2]،

= يا أبا الأسود أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ واتخذت به الحجة عليهم. فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم. قَالَ: فيكون ذَلِكَ ظلماً. قَالَ: ففزعت من ذَلِكَ فزعاً شديداً فقلت: إنه ليس شيء إلا خلْق الله وملك يده، ما يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال عمران: سددك الله أو وفقك الله، أما والله ما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلا من مزينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم به الحجة؟ فقال: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم. قَالَ: فلم نعمل إذا؟ قَالَ: من كَانَ الله خلقه لواحدة من المنزلتين فهو يستعمل لها، وتصديق ذَلِكَ في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس، الآيتين: 7 و 8]. (مسلم "2650"، وابن حبان "6182" واللفظ له).

(1) [﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾] [سورة الرحمن، من الآية: 29]. فالله ﷻ لا تقيده القيود، ولا تعيقه العوائق، فهو صاحب المشيئة المطلقة في التصرف في الكون، فيسيِّر الكون على وفق ما قضى وقدَّر.

علق البُخَارِي في صحيحه عن أبي الدرداء ﵁ موقوفاً أنه قَالَ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، ج4 ص 1847، وأورده ابن حبان مرفوعاً "689").

وعن عمرو بن شرحبيل ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قَالَ: من شأنه أن يميت من جاء أجله، ويصور ما شاء في الأرحام، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وأن يفدي الأسير. (العظمة، ج2 ص 486).

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ لا يستغني عنه أهل السماء، ولا أهل الأرض، يحيي حيًّا، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويذل كبيراً، وهو مسأل حاجات الصالحين، ومنتهى شكواهم، وصريخ الأخيار. (تفسير الطبري، ج27 ص 134، والدر المنثور للسيوطي، ج7 ص 700).

(2) قَالَ ﷻ في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [سورة فاطر، الآية: 15]. فكل من في الكون من الإنس والجن والملائكة والشجر والدواب مفتقر إِلَى فضل الغني الكريم، وعطائه الجزيل =

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ[1]، ....

= الذي لا ينفد، بل يزيد بالطلب والإلحاح قَالَ ﷻ في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم». (مسلم، "2577") والله ﷻ يحب تذلل عبيده إليه، وطلبهم لحوائجهم منه، والتجائهم إليه في العسر واليسر وهو أرأف بهم من أنفسهم.

(1) **[الهداية في القرآن الكريم]**: يقول تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [سورة الكهف، من الآية: 17]. وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة النحل، الآية: 93] فالله سبحانه يهدي من يشاء من خلقه بتوفيقه إِلَى أعمال البرّ وسائر الطاعات والقربات، ويضل آخرين، فتعمى بصيرتهم، وتتكدر معيشتهم، ويكبون يوم القِيَامَة في النَّار على وجوههم.

وأنواع الهداية المذكورة في القرآن الكريم أربعة أنواع:

أولها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية: 50]. أي أعطى لكل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى لكل عضو شكله، وهيئته، وأعطى لكل موجود خلقه المختص به، ثُمَّ هداه إِلَى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إِلَى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره...

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، قَالَ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة البلد، الآية: 10]. وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [سورة فصلت، من الآية: 17]. أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى، من الآية: 52].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام؛ وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي التي ورد ذكرها في أغلب الآيات التي تتحدث عن الهداية كما في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية: 8]، وفي قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [سورة النحل، من الآية: 37].

النوع الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إِلَى الجنة والنَّار إذا سيق أهلهما إليهما، =

أَفْعَالُهُ وَأَحْكَامُهُ كُلُّهَا لِحِكْمَةٍ[1]، لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا عَبَثًا، ....

= قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [سورة يونس، الآية: 9]. وقال تعالى عن أهل النَّار: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [سورة الصافات، الآيتين: 22 ـ 23]. (بدائع الفوائد لابن القيم، ج2 ص 271 ـ 273 بتصرف).

(1) **[مذاهب العلماء في تعليل أفعال الباري ﷻ]**: الله ﷻ منزه عن العبث واللعب واللهو، لم يخلق شيئاً إلا لحكمة بالغة، قَالَ في محكم التنزيل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 115]. أي ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة حتى أنكرتم البعث.

وقال أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 16]. أي: لم نخلق السموات والأرض وما بينهما عبثاً وباطلاً، وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع، تبصرة للنظار وتذكرة لذوي الاعتبار، وتسبباً لما ينتظم به أمور العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إِلَى تحصيل الكمال، ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال. (انظر تفسير البيضاوي، ج4 ص 86 بتصرف). ومع ذَلِكَ فللناس مذاهب في مسألة الحكمة والتعليل:

ـ القول الأول: قَوْل من نفى الحكمة والتعليل في خلق الله وأمره، وقالوا: ليس في القرآن لام تعليل في فعل الله وأمره، ولا يأمر الله بشيء لحصول مصلحة، ولا دفع مفسدة، بل ما يحصل من مصالح العباد ومفاسدهم بسبب من الأسباب، فإنما خلق ذَلِكَ عندها، لا أنه يخلق هَذَا لهذا، ولا هَذَا لهذا.

كما قالوا بأن التعليل بالحكمة يفضى إِلَى الحاجة والتسلسل، فقالوا: يفعل ما يشاء لا لحكمة، فأثبتوا له القدرة والمشيئة، وأنه يفعل ما يشاء، وهذا تعظيم، ونفوا الحكمة لظنِّهم أنها تستلزم الحاجة، وهذا قَوْل الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى، وابن الزاغوني، والجويني، والباجي، وغيرهم من نفاة القياس، وانتصر له البيهقي من أهل الحديث. وبهذا القول قال جهم بن صفوان ومن اتبعه من المجبرة.

واحتجاجهم مردود؛ فإن الله ﷻ إذا خلق شيئاً لحكمة يحبها ويرضاها، لم يجز أن يقال هو محتاج ومفتقر إِلَى غيره إلا إذا كَانَ هناك خالق غيره يفعل ما يحبه ويرضاه، بل هو الغني عن سواه من كل وجه، وما سواه مفتقر إليه من كل وجه. =

. . . .

= وأما كون ذَلِكَ يستلزم التسلسل في المستقبل؛ أي أنه إذا خلق شيئاً لحكمة توجد بعد وجوده، وتلك الحكمة لحكمة أخرى، لزم التسلسل في المستقبل، فهذا جائز عند المسلمين وغيرهم مِمَّنْ يقول بدوام نعيم أهل الجنة، وإنما يخالف في ذَلِكَ مَنْ شكَّ، كالجهم بن صفوان الذي يقول بفناء الجنة والنَّار، وكأبي الهذيل الذي يقول بانقطاع حركات أهل الجنة والنَّار، فإن هذين ادعيا امتناع وجود ما لا يتناهى في الماضي والمستقبل، وخالفهم جماهير المسلمين.

وجواب آخر هو أن يقال التسلسل نوعان؛ **أحدهما**: في الفاعلين؛ وهو أن يَكُون لكلِّ فاعل فاعل، فهذا باطل بصريح العقل واتفاق العقلاء.

والثاني: التسلسل في الآثار؛ مثل أن يقال: إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، ويقال: إن كلمات الله لا نهاية لها، فهذا التسلسل يجوزه أئمة أهل الملل، وأئمة الفلاسفة، ولكن الفلاسفة يدَّعون قدم الأفلاك، وأنَّ حركات الفلك لا بداية لها ولا نهاية لها، وهذا كفر مخالف لدين الرسل، وهو باطل في صريح المعقول.

ـ **والقول الثاني**: هو قَوْل من قَالَ: إن الله يخلق ويأمر لحكمة تعود إِلَى العباد، وهو نفعهم والإحسان إليهم، فلم يخلق ولم يأمر إلا لذلك، وهذا قَوْل المعتزلة وغيرهم، ومن هؤلاء من تكلم في تفصيل الحكمة فأنكر القدر، ووضع لربه شرعاً بالتعديل والتجويز وهذا قَوْل القدرية، ومنهم من أقر بالقدر وقال: لله حكمة خفيت علينا، وهذا قَوْل ابن عقيل وغيره من المثبتين للقدر، فهم يوافقون المعتزلة على إثبات حكمة ترجع إِلَى المخلوق، لكن يقرون مع ذَلِكَ بالقدر.

ـ **القول الثالث**: وهو الذي عليه أكثر الناس من المسلمين وغير المسلمين؛ وهو أن الله تعالى يخلق لحكمة، ويأمر لحكمة، وأنه فعل المفعولات، وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، فهو خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها، فلم يوجد إلا ما خلقه هو، وله في ذَلِكَ من الحكمة البالغة ما يعلمه هو على وجه التفصيل، وقد يعلم بعض عباده من ذَلِكَ ما يعلمه إياه إذ لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو قَوْل طوائف من أصحاب أبى حنيفة، والشافعي، ومالك وأحمد وغيرهم، ووافقهم عليه أكثر أهل الكلام من المعتزلة، والكرامية، والمرجئة، وغيرهم، وهو قَوْل أكثر أهل الحديث، والتصوف، وأهل التفسير، وقَوْل أكثر قدماء الفلاسفة، وكثير من متأخريهم كأبى البركات وأمثاله، وقولهم هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والمعقول الصريح، وبه يثبت أن الله حكيم، =

أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[1]، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا[2].

= فإنه من لم يفعل شيئاً لحكمة لم يكن حكيماً، فهم لا يثبتون التعليل على قاعدة القدرية، ولا ينفونه نفي الجهمية، وإن كانت المعتزلة أثبتت التعليل لكن على أصولهم الفاسدة في التعليل والتجويز. وأما كون ذَلِكَ يستلزم قيام الأمور الاختيارية بذاته، فهذا قَوْل السلف وأئمة الحديث والسنة وكثير من أهل الكلام. (بتصرف واختصار من: مجموع فتاوى ابن تيمية، ج8 ص37 ـ 39 وص 88 ـ 89 وص 377 ـ 381. ودقائق التفسير، ج2 ص 110 ـ 111. وشعب الإيمان للبيهقي، ج1 ص 215. وشفاء العليل لابن القيم، ج1 ص 209 ـ 213. ورفع الشبهة والغرر لمرعي بن يوسف الحنبلي، ص 50 ـ 51).

(1) [الله ﷻ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾]: قَالَ تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق، من الآية: 12]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 120]. فالله هو العليم الذي لا يعزب عنه شيء من كل ما خلق، وأحاط علمه الأزلي بكل شيء، فلا يضل ولا ينسى، ولا تأخذه سنة ولا نوم.

(2) [هل الله ﷻ يعلم الجزئيات؟]: قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ [سورة الجن، من الآية: 28]. أي أحاط ﷻ بعدد كل شيء وعلمه، فلم يخف عليه منه شيء، قَالَ ابن عباس ﷺ: "أحصى ما خلق، وعرف عدد ما خلق، فلم يفته شيء حتى مثاقيل الدر والخردل". وهي آية عظيمة قاصمة للفلاسفة القائلين بأن الله ﷻ لا يعلم الجزئيات وأن علمه محصور في الكليات، أو كما زعم ابن سينا بأنه يعلم الكليات، أما الجزئيات فيعلمها بشكل كلِّي، إذ الله ﷻ ـ على زعمه ـ يعلم الأشياء علماً كليًا لا يدخل تحت الزمان، ولا يختلف بالماضي والمستقبل والآن، ومع ذَلِكَ زعم أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، إلا أنه يعلم الجزئيات بنوع كلي. وهذا الذي ذكره إِنَّمَا يتأتى في الأمور الدائمة عنده كالشمس، والقمر، والكواكب، والأفلاك، فإنه يعلمها بأعيانها لأنها دائمة، وأما الأمور المتجددة مثل حركاتها ومثل الكسوف، والخسوف، والإهلال، والإبدار، ومثل أشخاص الناس، والحيوان، فهذه لا يتصور أن يعلمها إلا على وجه كلي مثل أن يعلم أنه في كل شهر يحصل إهلال وإبدار، وفي كل سنة يحصل مصيف وشتاء، فأما العلم بإهلال معين وإبدار معين وكسوف معين، فهذا جزئي حادث كائن بعد أن لم يكن، زائل بعدما كان، =

....

= فإن علمه بعينه لزم ما حذروه من التغير في علمه، فإنه إذا علمه قبل وجوده علمه معدوماً سيوجد، ثُمَّ إذا وجد علمه موجوداً بعد أن كَانَ معدوماً، ثُمَّ إذا زال علمه معدوماً قد كان، وهذا الذي فروا منه لأن ذَلِكَ ـ على زعمهم ـ يؤدي إِلَى محال؛ وهو تغير العلم، فإن الجزئيات زمانية تتغير بتغير الزمان والأحوال، والعلم تابع للمعلومات في الثبات والتغير، فيلزم تغير علمه، والعلم قائم بذاته فتكون محلاً للحوادث وهو محال، وَلَوْ علم الجزئيات بأعيانها بعلم ثابت لزم وجود ما لا نهاية له من المعقولات دائماً في ذاته.

وهذه جهالة من قائلها، فعلم الله ﷻ الأزلي لا يتغير بتغير الحوادث والجزئيات، فهذه الجزئيات المتغيرة هي معلومة له في الأزل، فهو يعلم في الأزل بأن كسوفاً معيناً سيحصل في زمن كذا في مكان كذا بعد أن لم يكن، وسيزول بعد حدوثه، فهل سيغير هَذَا الحادث الجزئي في علم العليم ﷻ الذي يعلمه أزلاً؟ كلا وألف كلا.

ولأنه ثبت أنه ﷻ يعلم الكليات لأنها معلومات، والجزئيات لأنها معلومات أيضا، فتخصيص علمه بالكليات دون الجزئيات ينافي وصفه ﷻ بمطلق العلم، ولأنه ﷻ مريد لإيجاد الجزئيات، والإرادة للشيء المعين إثباتاً ونفياً مشروطة بالعلم بذلك المراد الجزئي، فيعلم المرئيات للرائين ورؤيتهم لها على الوجه الخاص، وكذا المسموعات وسائر المدركات لما علم ضرورة من وجوب الكمال له ﷻ وأضداد الكمال نقص، والنقص ممتنع عليه سبحانه وتعالى (باختصار وتصرف من درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام، ج9 ص 398 ـ 399، وج10 ص 161 ـ 162 و179 ـ 181، وفتح الباري لابن حجر، ج13 ص 363).

ووصف العلامة صديق حسن خان ـ رحمه الله ـ قولهم بأنه: " كفر بواح لا يقبل التأويل ". (أبجد العلوم، ج1 ص 23).

وهؤلاء لو تأملوا في كتاب الله ﷻ لوقفوا على أن الله تعالى قد أخبر في كتابه بعلمه بما سيكون من الأمور الجزئية قبل أن تحدث، فعلم أنه يعلم الأشياء قبل وجودها، وأخبر أنه إذا وجدت علمها دون أن يوجب ذلك تغيراً في علمه ولا ذاته ـ سبحانه ـ وإن شئت فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 143] وكذا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [سورة الروم، الآيات من: 1 إلى 4].

لاَ يَتَجَدَّدُ لَهُ عِلْمٌ بِتَجَدُّدِ[1] الأَشْيَاءِ، هُو الَّذِي يُنْشِئُهَا عَلَى وِفْقِ مَا فِي عِلْمِهِ[2].

فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ[3]، ....

---

(1) في المخطوط: تجدّد.

(2) [علم الله ﷻ أزلي لا يتجدَّد]: فالله ﷻ موصوف بالعلم في الأزل، وقدر مقادير الأشياء وما ستكون عليه من الأحوال قبل خلقها، لأنه ﷻ عليم بما كَانَ وما سيكون من أحوال الخليقة، والقول بتجدد علم الباري ﷻ يفضي إِلَى القول بتجدد الذات الإلهية ـ نعوذ بالله من ذَلِكَ القول ـ كما يفضي إِلَى الانتقاص من كمال علمه ﷻ لأن القول بتجدد علمه بتجدد الأشياء والحوادث، حكم على الباري ﷻ بعدم علمه بالحوادث قبل حدوثها، وهو ﷻ منزه عن كل ذَلِكَ وتعالى عن ذَلِكَ علواً كبيراً.

والآيات التي تدل على علمه بالغيب كثيرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [سورة فاطر، من الآية: 11]. قَالَ ابن جرير في تفسير هذه الآية: " يقول تعالى ذكره: وما تحمل من أنثى منكم أيها الناس، من حمل ولا نطفة إلا وهو عالم بحملها إياه، ووضعها، وما هو ذكر أو أنثى، لا يخفى عليه شيء من ذلك...". (تفسير الطبري، ج22 ص 122).

وقال الإمام أحمد ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يصف علم الله تعالى: "وهو يعلم ما في السماوات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة وكل شجرة وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد كل كلمة، وعدد الحصى والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم، وكلامهم، وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه من ذَلِكَ شيء ". (العقيدة للإمام أحمد ـ برواية مسدد بن مسرهد ـ، ص 78).

(3) قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 253]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود، من الآية: 107]. وقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج، الآيتين: 15 ـ 16]. قَالَ عطاء في تفسير قوله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: لا يعجز عن شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه. (فتح القدير للشوكاني، ج5 ص 414).

=

لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ[1]، وَلاَ رَادَّ لِقَضَائِهِ[2]، مُقَلِّبُ القُلُوب[3]، يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ[4].

= وروى البيهقي عن أبي نضرة ﷺ أنه قَالَ: «ينتهي القرآن كله إِلَى أن ربك فعال لما يريد». (الاعتقاد للبيهقي، ص 81).

(1) قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد، من الآية: 41]. أي فالله هو الذي يحكم فينفذ حكمه ويقضي فيمضي قضاؤه، وليس لأحد أن يرد حكمه رضي من رضي به، وسخط من سخط عليه.
قال ابن زيد ﷺ: " ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده ". (الدر المنثور للسيوطي، ج4 ص 667).

(2) في الأصل: لفضله. والتصحيح من العقائد الصغرى، وسيأتي.

(3) **[الله ﷻ مقلّب القلوب]**: روى مسلم في صحيحه "٢٦٥٤" عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء. ثُمَّ قَالَ رسول الله ﷺ اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».
وروى الترمذي في جامعه "3522" عن شهر بن حوشب أنه قَالَ: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كَانَ أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كَانَ عندك؟ قالت: كَانَ أكثر دعائه "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" قالت: قلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"؟ قَالَ: «يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ».
قَالَ الترمذي: وهذا حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح جامع الترمذي.
روى البُخَارِي في الصحيح عن ابن عمر ﷺ أنه قَالَ: «أكثر ما كَانَ النبي ﷺ يحلف: لا ومقلب القلوب». (صحيح البُخَارِي "6956").
قال الراغب: تقليب الشيء تغييره من حال إِلَى حال والتقليب: التصرف، وتقليب الله القلوب والبصائر صرفها من رأي إِلَى رأي. (فتح الباري، ج13 ص 377).

(4) قَالَ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية: 24]. ففي الآية إخبار من الله ﷻ بأنه أملك لقلوب عباده منهم، وإنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئاً من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئاً أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته، وذلك أن الحول =

هُو رَازِقُ مَنْ أَرَادَ، مَتَى أَرَادَ، أَيْنَ أَرَادَ، بِمَا أَرَادَ مِنَ الْمَالِ والجَاهِ وَالعُلُومِ وَالأَخْلَاقِ أَوْ غَيْرِهَا[1].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[2].

= بين الشيء والشيء إِنَّمَا هو الحجز بينهما، وإذا حجز الله جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء فليس له في فهمه أو إدراكه من سبيل.
قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يحول بين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين المؤمن وبين المعاصي. (رواه الحاكم في المستدرك وصححه على شرط الشيخين، ج2 ص 358).
وقد علَّم القرآن الكريم المؤمن التضرع والدعاء بتثبيت القلب على الهدى والإيمان: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 8].

(1) **[الله عز وجل هو الرازق]**: فالله عز وجل من صفاته الفعلية صفة "الرزق"، ومن أسمائه الحسنى "الرازق" و"الرزاق"، كل ذَلِكَ بالكتاب والسنة؛ قَالَ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [سورة النحل، من الآية: 114]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الذاريات، الآية: 58].
وجاء في حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إن الله هو المسعِّر القابض الباسط **الرَّازق...**». (الترمذي "1314" وقال: حسن صحيح، أبو داود "3451"، ابن ماجة "2200"، أبو يعلى "3830").
قال الإمام ابن القيم في نونيته:

وكذلك الرزَّاقُ من أسمائه　　　والرِّزْقُ من أفعالهِ نوعانِ

فدل على أن الرزق نوعان:
أحدهما: رزق القلوب بالعلم والإيمان، وتزكيتها بصفاء السريرة، وإعدادها للإقبال على أعمال البر والطاعات.
الثاني: رزق الأبدان؛ وهو ما يسوقه الله عز وجل من الأقوات لتغذية الأبدان، ويدخل فيه جَمِيع المخلوقات، ويشمل المأكول وغيره.

(2) [﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾]: سورة الحجر، الآية: 21. أي ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ من أرزاق الخلق ومنافعهم ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ يعني: المطر المنزل =

خَلَقَ العَرْشَ[1]، وَالعَرْشُ مُحِيطٌ بِالْعَالَمِ، وَفِي جَوْفِهِ الكُرْسِيّ، ......

= من السماء لأن به نبات كل شيء ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ولكن لا ننزله إلاَّ على حسب مشيئتنا، وعلى حسب حاجة الخلق إليه بقدَر لكل أرض معلوم عندنا حده ومبلغه، كما قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [سورة الشورى، من الآية: 27].

قال ابن القيم ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: " قَوْل الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ متضمن لكنز من الكنوز؛ وهو أن كل شيء لا يطلب إلا مِمَّنْ عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب مِمَّنْ ليس عنده ولا يقدر عليه ". (الفوائد، ص 202).

(1) **[حقيقة العرش]**: قَالَ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 116]. وقال أيضاً: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة البروج، الآية: 15]. وردت الأحاديث الصحيحة بأن العرش من أول ما خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إني كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: بشرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هَذَا الأمر ما كان. قَالَ: «كَانَ الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثُمَّ خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء...». (رواه البُخَارِي "6982").

والعرش عند أهل السنة والجماعة هو السرير، وهو جسم خلقه الله تعالى، كما دلت على ذَلِكَ النصوص؛ قَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة غافر، من الآية: 7].

قال الخليل: العرش: السرير للملك. (كتاب العين، ج1 ص 249).

قال البيهقي في " الأسماء والصفات " (ص 392): " اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم خلقه الله تعالى، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة ".

ويدل عليه من السنة قَوْل النبي ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القِيَامَة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جزي بصعقة الطور». (البُخَارِي بلفظه "4362"، وابن أبي شيبة "31837"). =

وَفِي جَوْفِ الكُرْسِيّ السَّمَوَات وَالأَرْض[1]، وَخَلَقَ اللَّوْحَ وَالقَلَمَ، وَخَلَقَ المَلاَئِكَةَ وَالجِنَّ[2] وَالإِنْسَ وَسَائِرَ الحَيَوَانَاتِ، وَهُوَ مُغَذِّيهَا بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلاً وَنَهَارًا.

= قال ابن حجر في الفتح (ج13 ص 405): " فإن في إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب، له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق " انتهى.

والعرش كَانَ معروفاً عند العرب في الجاهلية والإسلام، قَالَ أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل	ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذي سبق النا	س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لا يناله ناظر العيـ	ـن ترى دونه الملائك صورا

(انظر: زاد المسير، ج3 ص 212).

(1) [حقيقة الكرسي]: ورد في القرآن الكريم أن كرسي الرحمن وسع السموات والأرض؛ قَالَ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 255]، أي حوى الكرسي السموات والأرض، وهو جرم قائم بنفسه.

ولأهل العلم في معنى الكرسي عدة أقوال؛ فقال الحسن: الكرسي هو العرش.

وجمهور أهل السنة على أن الكرسي غير العرش، فالعرش محيط بالكرسي، والكرسي محيط بالسموات والأرض كما ذكر المصنف، ويدل لهذا حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ له: «... يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة...» (رواه ابن حبان "361" وقال أبو بكر الهيثمي في "موارد الظمآن": " فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، قَالَ أبو حاتم وغيره: كذاب" اهـ. قلت: صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج1 ص 223 "109" وقال: لا يَصِحّ في صفة الكرسي غير هَذَا الحديث).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: "... ولهذا لما كانت السماء محيطة بالأرض كانت عالية عليها، ولما كَانَ الكرسي محيطاً بالسماوات كَانَ عالياً عليها، ولما كَانَ العرش محيطاً بالكرسي كَانَ عالياً، فما كَانَ محيطا بجميع ذَلِكَ كَانَ عالياً..." اهـ. (الصواعق المرسلة، ج4 ص 1308).

(2) سيأتي تعريف المصنف للَّوح، والقلم، والملائكة، والجنِّ.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾[1].

---

(1) [مفاتيح الغيب خمس]: من سورة الأنعام، الآية: 59. قوله ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ المفاتح جمع مَفتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن؛ أي عنده مخازن الغيب، فجعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة. أو جمع مِفتح ـ بكسر الميم ـ وهو المفتاح، فجعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إِلَى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميفع: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الغَيبِ﴾ فإن المفاتيح جمع مفتاح، والمعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب أو المفاتح التي يتوصل بها إِلَى المخازن. وقوله ﷻ: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، وفى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم مِمَّنْ يدَّعون ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم.

ومفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها خمس لا يعلمها غيره، وذلك لما رواه البُخَارِي وغيره عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول ﷺ قَالَ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله». (البُخَارِي بلفظه "6944"، وابن حبان "71"، والنسائي في السنن الكبرى "11258").

وفي حديث آخر عن لقيط بن عامر رضي الله عنه قَالَ: قلت: يا رسول الله إني أسألك عن حاجتي فلا تعجلن علي. قَالَ: «سل عما شئت». قلت: يا رسول الله هل عندك من علم الغيب، فضحك لعمر الله وهز رأسه وعلم أني أبتغي بسقطه، فقال: «ضنَّ ربك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله، وأشار بيده». فقلت: وما هنَّ يا رسول الله، قَالَ: «علم المنية؛ قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزلين مشفقين فظل يضحك وقد علم أن فرجكم قريب ـ قَالَ لقيط: قلت: يا رسول الله لن نعدم من رب يضحك خيراً ـ وعلم ما في غد، وقد علم ما أنت طاعم في غد ولا تعلمه، وعلم يوم الساعة، قَالَ وأحسبه ذكر ما في الأرحام...» (الحاكم وصححه "8683"، وعبدالله بن أحمد =

س ـ هَلْ يُقَالُ: الله كَائِنٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ؟

ج ـ لاَ يُقَالُ؛ لأَنَّهُ صُورَةُ القَوْلِ بِالْحُلُولِ وَالاتِّحَادِ[1] وَهوَ كُفْرٌ، .....

= في "المسند"، ج4 ص 13، والطبراني في الكبير ج19 "477"، وصحح في "مجمع الزوائد" أحد طرقه، ج 10 ص 340).

وقوله ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيهاً على أن الكل بالنسبة إِلَى علمه المحيط سواء في الجلاء، أي يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكاثر أفرادها. وخص البر والبحر بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله فلا يخفى عليه منهما شيء، أو خَصَّهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات، أي: من ورق الشجر وهو تخصيص بعد التعميم أي يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه فبين تعلق علمه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فإن تخصيص حال السقوط بالذكر ليس إلا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال كما أن ذكر حال الورقة وما عطف عليها خاصة دون أحوال سائر ما فيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار أنها أنموذج لأحوال سائرها. ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ كائنة ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي في الأمكنة المظلمة وقيل في بطن الأرض ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بالخفض عطفاً على حبة وهى معطوفة على ورقة، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جَمِيع الموجودات لأن كل ما هو موجود لا يخلو من أن يَكُون رطباً أو يابساً. وقوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من إلا يعلمها، وقيل: هو عبارة عن علمه تعالى فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة. انتهى (باختصار وتصرف من تفسير: "فتح القدير" للشوكاني، ج2 ص 143، و "إرشاد العقل السليم" لأبي السعود، ج3 ص 143، و "أنوار التنزيل" للبيضاوي، ج2 ص 415 ـ 416).

وفي الآية بيان لعظم علمه تعالى، وتفرده بمعرفة علم الغيب والشهادة، وفيها تنبيه لجميع المكلفين بأن الذي يعلم الورقة في حال سقوطها، ويعلم الحبة من حال انفلاقها في ظلمات الأرض إِلَى أن تصير شجرة فيسقط ورقها. .. إن هَذَا العالم ﷻ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، ظاهرها كالورقة التي تسقط في عالم المشاهدات، أو باطنها كالحبة التي تنفلق في الظلمات، فإنه لا تخفى عليه خافية.

(1) **[حقيقة الحلول والاتحاد]**: مصطلَحَين ظهر القول بهما أول ما ظهر عند الفلاسفة، =

....

= ثُمَّ تلقفه عنهم طوائف من النصارى، ثُمَّ سرى القول بهما إِلَى طوائف وأفراد مِمَّنْ ينتسبون إِلَى المسلمين.
والقائلين بالحلول عند التفصيل على ضربين:
الحلول الخاص: وهو قَوْل النسطورية من النصارى ونحوهم مِمَّنْ يقول: إن اللاَّهوت حلَّ في الناسوت، وتدرَّع به، كحلول الماء في الإناء، وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالطتهم للمسلمين، وكان أول من قَالَ بهذا هو نسطور النصراني في زمن المأمون، وهذا قَوْل من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة، كغالية الرافضة الذين يقولون: إنه حلَّ بعلي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء، ومن يعتقدون فيه الولاية، أو في بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء.
الحلول العام: وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قَوْل غالب متعبدة الجهمية، الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 3]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [سورة الحديد، من الآية: 4].
والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة، وأهل المعرفة، وعلماء الحديث.
والاتحاد كذلك على ضربين:
الاتحاد الخاص: وهو قَوْل يعقوبية النصارى، وهم أخبث قولاً، وهم السودان والقبط، يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء، وهو قَوْل من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إِلَى الإسلام.
الاتحاد العام: وهو قَوْل الملاحدة الذين يزعمون أن الله ﷻ عَيْن وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين:
الأول: من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه، بعد أن لم يكونا متحدين، وهؤلاء يقولون: ما زال الرب هو العبد، وغيره من المخلوقات ليس هو غيره.
والثاني: من جهة أن أولئك خصوا ذَلِكَ بمن عظموه كالمسيح، وهؤلاء جعلوا ذَلِكَ ساريا في الكلاب، والخنازير، والأقذار، والأوساخ، وإذا كَانَ الله تعالى قد قَالَ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 72]. =

فَاللهُ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ[1]، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ[2]، قَرِيبٌ لَهُمْ بِعِلْمِهِ[3] ....

= فكيف بمن قَالَ: إن الله هو الكفَّار، والمنافقون والصبيان، والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شيء؟!

وإذا كَانَ الله قد رد قَوْل اليهود والنصارى لما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وقال لهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 18] فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق، ليسوا غيره ولا سواه؟ ولا يتصور أن يعذب الله إلا نفسه؟ وأنَّ كل ناطق في الكون فهو عين السامع؟ اهـ (باختصار وتصرف من مجموع فتاوى ابن تيمية، ج2 ص 171 ـ 173).

ومن قَالَ بأحد هذه الأقوال فقد كفر بالله تعالى كما قَالَ المصنف، وهو الذي عليه جمهور من يعتد بقولهم من أهل السنة والجماعة، ولا يلتفت لحجج من يلتمس التأويلات والأعذار لمن يقولون بهذه الأقوال من غلاة الصوفية والزنادقة كالحلاج ومن وافقه مِمَّنْ يقولون بالحلول.

(1) يقصد بذكره لصفة الاستواء في هَذَا الموضع نقض قَوْل من يقول بالحلول؛ فإثبات صفة الاستواء للمولى ﷻ على عرشه دحض لقول من قَالَ من الملاحدة بأن المولى ﷻ حال بذاته في كل مكان.

(2) بائن، أي: بعيد ومنفصل غير ممازج. وقوله بأن المولى ﷻ بائن من خلقه فيه نقض للاتحاديين الملحدين الذين يقولون بأن المولى ﷻ اختلط بغيره من الكائنات أو هو عين الكائنات.

(3) **[الله ﷻ قريب من خلقه]**: علم الله ﷻ محيط بكل مخلوق فلا يعزب عن علمه شيء من أحوال الخلق، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق، الآية: 16]. أي: ونحن أقرب إليه بعلمنا به في كل أحواله من حبل الوريد أي العرق الذي في باطن العنق الذي هو أقرب شيء إليه.

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 186]. روى ابن جرير وغيره أن سائلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا محمد، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ﴾. الآية. (تفسير الطبري، ج2 ص 158). وروى أبو محمد الأصبهاني في العظمة ـ ج2 ص 535 ـ أن السائل كَانَ أعرابياً. =

وَمَلاَئِكَتِهِ[1].

= قال المفسر أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ " أي فقل لهم: إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه". (إرشاد العقل السليم لأبي السعود، ج1 ص 200).
عن أبي موسى الأشعري ﷺ قَالَ: لما غزا رسول ﷺ خيبر أو قَالَ: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم». (البُخَارِي "3968"، ومسلم "2704").
وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». (البُخَارِي "6970"، ومسلم "2675"، والترمذي "3603"، وأحمد "7416").
وهذه الأحاديث ومثلها لا يراد ظاهرها باتفاق أهل السنة والجماعة، وإنما هي من باب التمثيل والتشبيه، فمن أتى ربه بالطاعة وسارع إليه بالعمل الصالح عجل الله له بالأجر والثواب، ومن دعا الله ﷻ صادقاً ضارعاً بالالتجاء إليه وحده، مستغنياً به عمن سواه من البشر، فإن الله سميع لدعائه قريب إليه بعلمه وثوابه ورحمته.
قال العلامة ابن رجب الحنبلي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: " ومن فهم شيئاً من هذه النُّصُوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً فإنما أتى من جهله وسوء فهمه عن الله ﷻ وعن رسوله، والله ورسوله بريئان من ذَلِكَ كله فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» اهـ. (جامع العلوم والحكم، ص 37 ـ 38).

(1) **[الله ﷻ فوق السماء السابعة]**: هذه مقولة شهيرة اشتهر القول بمثلها عن كثير من أساطين أهل السنة والجماعة، فروى يوسف بن موسى البغدادي أنه قيل لأبي عبدالله أحمد بن حنبل: الله ﷻ فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وقدرته وعلمه في كل مكان. قَالَ: نعم؛ على العرش وعلمه لا يخلو منه مكان. (اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 401 ـ 402).
وعن عبدالرحمٰن بن أبي حاتم قَالَ: سألت أبي وأبا زرعة ـ رحمهما الله تعالى ـ عن مذهب أهل السنة في أُصُول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جَمِيع الأمصار، =

وَاسْتِوَاؤُهُ تَعَالَى عَلَى العَرْشِ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ دُونَ تَعَرُّضٍ لِكَيْفِيَّتِهِ كَالسَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَسَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى الثَّابِتَةِ بِلِسَانِ الشَّرْعِ(1).

= وما يعتقدان من ذلك. فقالا: " أدركنا العلماء في جَمِيع الأمصار حجازاً وعراقاً ومصراً وشاماً ويمناً، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه، بائن من خلقه، كما وصف نفسه، بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً". (العلو للعلي الغفار للذهبي، ص 188).

واشتهر مثل هَذَا القول عن حماد بن هناد البوشنجي، وأبي عبدالله بن بطة العكبري، وعبدالله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أكابر أئمة السنة ـ رحمهم الله أجمعين ـ. (انظر أقوالهم في: العلو للعلي الغفار للذهبي، واعتقاد أهل السنة للالكائي).

(1) [الله ﷻ مستوٍ على عرشه]: أثبت القرآن الكريم صفة الاستواء على العرش للمولى ﷻ في سبعة مواضع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 54]. وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه، الآية: 5]. وهذه الآيات من آيات الصفات التي يجب الإيمان بها على ظاهرها بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل، وإنما يجب الإيمان بها كما جاءت، ويوكل العلم والكيف إِلَى الله ﷻ، ومن تفكر في الكيف في آيات الصفات، وتسلح بتأويلها في معترك الجدال، فقد حكم على نفسه بالهزيمة والهوان، ورفع عالياً لواء الخسران، فالحذر الحذر من الاشتغال بالجدال في آيات الأسماء والصفات فإنه من أعظم الخطر على دين الخاصة والعامة.

قال حافظ بلاد الأندلس والمغرب ابن عبدالبر في كتابه الفريد "التمهيد" عند كلامه على حديث النزول: " والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون: ينزل كما قَالَ رسول الله ﷺ ويصدِّقون بهذا الحديث ولا يكيفون، والقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاستواء والمجيء والحجة في ذَلِكَ واحدة...". (التمهيد، ج7 ص 143).

وقال في موضع آخر: " أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما =

هَذَا الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَسَاطِينِ السُّنَّةِ، وَهُوَ المَعْقُولُ[1].

وَلاَ يَجُوزُ التَّفَكُّرُ فِي ذَاتِ الله تَعَالَى[2].

= قاله القائلون، بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة والحمد لله " اهـ. (التمهيد، ج7 ص 145).

(1) **[مذهب أهل السنة في الأسماء والصفات العليّة]**: هَذَا هو عين الحَقّ الذي تناقله العدول الثقات عن الأئمة الكبار الأثبات فيما ورد عليهم في مسألة الأسماء والصفات، من ذَلِكَ ما رواه البيهقي عن الوليد بن مسلم أنه قَالَ: سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في التشبيه فقالوا: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيفية. (السنن الكبرى "4429").

وقال محمد بن الحسن الشيباني ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: " اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إِلَى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذَلِكَ فقد خرج مما كَانَ عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثُمَّ سكتوا، فمن قَالَ بقول جهم فقد فارق الجماعة لأنه قد وصفه بصفة لا شيء " اهـ. (اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 432 ـ 433).

(2) **[هل يجوز التفكّر في ذات الله تعالى]**: اعلم أنه ليس للمخلوق أن يدرك كنه الخالق، وإذا ثبت عجز الإنسان عن إدراك حقيقة الأشياء والمخلوقات التي من حوله والتي يحدق فيها النظر ويأخذ منها العبر، ويباشرها بما أوتي من حواس وآلات المعرفة، بل عاجز حتى عن إدراك كنه نفسه التي بين جنبيه، فكيف له أن يدرك بعقله القاصر، وتفكيره المحدود كنه الكبير المتعال ﷻ وهل للمخلوق أن يدرك حقيقة الخالق الذي يقول في كتابه الكريم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 103] وقال أيضاً: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة طه، من الآية: 110]. بل ورد النهي عن مجرد التفكر في ذات الباري ﷻ لأن التفكر في ذاته ـ جل وعلا ـ إِنَّمَا هو وسوسة من وساوس الشيطان يوسوس بها الشيطان الرجيم على بني آدم حتى يجعلوا رب العالمين ﷻ في مقام المخلوقين، فيعملوا فيه عقولهم بالتفكير والتدبر، =

س ـ هَلْ يُفَسَّرُ اسْتَوَى بِاسْتَوْلَى فِي آيَةِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾؟

ج ـ لاَ يُفَسَّرُ، وَهُوَ تَفْسِيرُ المُعَطِّلَة كَالْمُعْتَزِلَةِ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ[1].

= تعالى الله ﷻ عن ذَلِكَ كله علوًّا كبيراً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى، من الآية: 11]. روى البُخَارِي ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول؛ من خلق كذا، من خلق كذا حتى يقول من خلق ربّك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولْيَنْتَه» (البُخَارِي "3102"، ومسلم "134"، وأبوعوانة "236"، وابن أبي عاصم في السنة "651").

قال العلامة الطيبي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في معنى الحديث: " إِنَّمَا أمر بالاستعاذة والاشتغال بأمر آخر، ولم يأمر بالتأمل والاحتجاج؛ لأن العلم باستغناء الله ـ جل وعلا ـ عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة، ولأن الاسترسال في الفكر في ذَلِكَ لا يزيد المرء إلا حيرة، ومَنْ هَذَا حاله فلا علاج له إلا الملجأ إِلَى الله تعالى والاعتصام به "اهـ. (فتح الباري، ج6 ص 340).

وإنما من أراد أن يعرف ربه حَقّ المعرفة، ويدرك عظيم صفاته، فليتأمل فيما حوله من أنواع الخلائق، وعجائب الصنع، بل ليتأمل في نفسه التي بين جنبيه ويتدبر فيها مليًّا، فلا شك أنه سيتيقن أن كاملاً عظيماً يحول كماله دون إدراك القاصرين، وفي الحديث عنه ﷺ: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» (البيهقي في شعب الإيمان "120"، والطبراني في المعجم الأوسط "6319"، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة "927". قَالَ البيهقي: " إسناده فيه نظر". وقال في "مجمع الزوائد" ج1 ص 81: "فيه الوازع بن نافع وهو متروك" اهـ. قلت: حسنه الشيخ الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير "2975"، وذكره في سلسلته الصحيحة "1788"، ج4 ص 395).

قال البيهقي: آلاء الله يعني عظمته. أي ليتفكر المرء في عظمة الخالق حتى يهابه لكمال عظمته ويحول ذَلِكَ دون الجرأة على التفكر في ذاته، ولا تدرك تلك العظمة إلاَّ بدلائل معرفة ما خلق ذَلِكَ العظيم ﷻ من خلائق تبرهن عن كماله وعظمته وتدل عليه، وعن عمر ﷺ: " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله". (اللالكائي، ج3 ص 524).

(1) **[اختلاف المذاهب في حقيقة الاستواء على العرش]**: الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة من السلف والخلف أن آية الاستواء كغيرها من آيات الصفات =

....

= يجب الإيمان والتصديق بها كما جاءت بلا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ويوكل العلم والكيف إِلَى الله ﷻ والنصوص عن كبار أئمة السنة في ذَلِكَ مشهورة، ومع ذَلِكَ سرى إِلَى بعض أهل السنة تأويل بعض آيات الصفات، وإنما ألجأهم إِلَى ذَلِكَ جدالهم مع بعض فرق الضلال التي أعرضت عن الدَّلِيل وحادت عن السبيل ودرجوا في آيات الأسماء والصفات على مسلك التأويل. وكان من أشهر آيات الصفات التي وقع فيها الجدال، وتضاربت في تأويلها الأقوال هي آية الاستواء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه، الآية: 5]، فقد نقل القول في تأويلها عن بعض أهل السنة، وجمع الحافظ جلال الدين السيوطي - رحمه الله - في تأويلها سبعة أقوال:

أحدها: ما حكاه مقاتل والكلبي عن ابن عباس رضي الله عنه أن "استوى" بمعنى "استقر" وهذا إن صح يحتاج إِلَى تأويل فإن الاستقرار يشعر بالتجسيم.

الثاني: أن "استوى" بمعنى "استولى"، ونسب الأشعري هَذَا القول إِلَى المعتزلة والجهمية والحرورية وتلقفه منهم بعض المتكلمين من أهل السنة، واحتجوا لتأويلهم ببيت ينسب للأخطل:

حتى استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وقول الشاعر:

هما استويا بفضلهما جميعا   على عرش الملوك بغير زور

ورُدَّ من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى مستول على الكونين والجنة والنَّار وأهلهما، فأي فائدة في تخصيص العرش بالاستيلاء.

والثاني: أن الاستيلاء إِنَّمَا يَكُون بعد قهر وغلبة، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك.

والثالث: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء لا يعرف من كلام العرب، بل قَالَ ابن الجوزي بأن هَذَا منكر عند اللغويين.

ونُقل عن أكابر أئمة اللغة إنكارهم لذلك، من ذَلِكَ ما رواه اللالكائي في "السنة" والخطيب في "تاريخه" بإسنادهما عن أبي سليمان داود بن علي قَالَ: كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل فقال له: ما معنى قَوْل الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾؟ فقال: " هو على عرشه كما أخبر ﷻ ". فقال: يا أبا عبدالله =

....

= ليس هَذَا معناه إِنَّمَا معناه استولى. قَالَ: " اسكت، ما أنت وهذا، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يَكُون له مضاد، فإذا غلب أحدهما قيل استولى، أما سمعت النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

(انظر: اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 399، وتاريخ بغداد للخطيب، ج5 ص 284).

ونقل الدارقطني عن أبي العباس ثعلب أنه قَالَ: " استوى: أقبل عليه وإن لم يكن معوجاً. ثُمَّ استوى إِلَى السماء: أقبل. واستوى على العرش: علا. واستوى وجهه: اتصل. واستوى القمر: امتلأ. واستوى زيد وعمرو: تشابها واستوى فعلاهما وإن لم تتشابه شخوصهما، هَذَا الذي يعرف من كلام العرب ". (اللالكائي، ج3 ص 399 ـ 400).

وأجاب ابن الجوزي عن البيتين الذين استدلوا بهما بأنهما لا يعرف قائلهما، ونقل القول بذلك عن ابن فارس اللغوي.

الثالث: أنه بمعنى "صعد" قاله أبو عبيد ورد بأنه تعالى منزه عن الصعود أيضاً.

الرابع: أن التقدير: " الرحمن علا " أي: ارتفع، من العلو، والعرش له استوى، حكاه إسماعيل الضرير في تفسيره، وعلقه البُخَارِي عن مجاهد (كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ج6 ص 2698).

ورد بوجهين:

أحدهما: أنه جعل "على" فعلاً وهي حرف هنا باتفاق، فلو كانت فعلاً لكتبت بالألف، كقوله: ﴿عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة القصص، من الآية: 4] .**والآخر**: أنه رفع "العرش" ولم يرفعه أحد من القراء.

الخامس: أن الكلام تم عند قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ ثُمَّ ابتدأ بقوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ورُدَّ: بأنه يزيل الآية عن نظمها ومرادها، ولا يتأتّى له في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 54].

السادس: أن معنى "استوى" أقبل على خلق العرش وعمد إِلَى خلقه كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [سورة فصلت، من الآية: 11] أي قصد وعمد إِلَى خلقها، ونسبه السيوطي للفراء والأشعري وجماعة أهل المعاني، وقال إسماعيل الضرير: إنه الصواب. قلت: يبعده تعديته بـ "على"، وَلَوْ كَانَ كما ذكروه لتعدى بـ "إلى" كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾. =

....

= قلت: وفي نسبته إِلَى الأشعري نظر، فإنَّه صرح في مواضع من "الإبانة" بخلاف ذَلِكَ ونحا إِلَى قَوْل السلف وجمهور أهل السنة ـ رحمهم الله أجمعين. (انظر: الإبانة، ص 21 و105 و107 و113 و116 ـ 117).

السابع: قَالَ ابن اللبان: الاستواء المنسوب إليه تعالى بمعنى اعتدل، أي: قام بالعدل، كقوله تعالى: ﴿قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 18] والعدل هو استواؤه، ويرجع معناه إِلَى أنه أعطى بعزته كل شيء خلقه موزوناً بحكمته البالغة. (بتصرف واختصار من: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج2 ص 8 ـ 9، وزاد المسير لابن الجوزي، ج3 ص 213، واعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 399 ـ 400، والتمهيد لابن عبدالبر، ج7 ص 131 ـ 133).

هذه الأقوال التي جمعها الحافظ السيوطي في تأويل الآية، لكن وقفت على قولين آخرين:

الثامن: نسبه ابن حزم في الفصل إِلَى أصحاب ابن كلاب، وهو أن الاستواء صفة ذات ومعناها نفي الاعوجاج.

ورد عليه بأن الله ﷻ لم يسم نفسه مستوياً، ولا يجوز لأحد أن يسميه بما لم يسم به نفسه.

كما أنه لو كَانَ الاستواء في الآية بمعنى نفي الاعوجاج لما كَانَ في إضافته للعرش معنى.

وجواب ثالث أن هَذَا القول يلزم منه القول بأزلية العرش لأنه تعالى علق الاستواء بالعرش وهو كفر.

التاسع: استوى بمعنى انتهى، ذكره ابن عبدالبر في "التمهيد" (ج7 ص 131) ولم ينسبه لأحد، وهو الذي ذهب إليه ابن حزم وهو أن معنى قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ هو أنه تعالى فعل فعله في العرش وهو انتهاء خلقه إليه فليس بعد العرش شيء، وأنه نهاية جرم المخلوقات فليس بعده خلاء ولا ملاء، والاستواء في اللغة يقع على الانتهاء كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة القصص، من الآية: 14]. (بتصرف من: الفصل لابن حزم، ج2 ص 97 ـ 98).

والجواب على مذهب ابن حزم أنه يبعده تعديته في الآية بـ "على"، كما لم يشتهر هَذَا القول عن أئمة السلف.

وبعد عرض هذه الأقاويل التي لم تقم على صعيد واحد في التفسير والتأويل تبين أن =

س ـ مَنْ هُمُ المَلاَئِكَةُ وَمَا وَظِيفَتُهُم؟

ج ـ عِبَادُ اللهِ مُطِيعُونَ عَابِدُونَ مَعْصُومُونَ[1]، ....

= أعدل الأقوال وأسلمها ما تمسك به كبار أئمة السلف والخلف، الذي لم يعترض عليه أحد بالطعن والاحتجاج، ولم يسلكوا به سبل التشبيه أو التعطيل، واشتهر في ذَلِكَ قَوْل مالك بن أنس ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فيما يرويه يحيى بن يحيى أنه قَالَ: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك رأسه ثُمَّ علاه الرحضاء ثُمَّ قَالَ: " الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً فأمر به أن يُخرج" قَالَ البيهقي: " وعلى مثل هَذَا درج أكثر علمائنا في مسألة الاستواء، وفي مسألة المجيء، والإتيان، والنزول "اهـ. (الاعتقاد، ص 116).

وبمثل مقولة مالك قَالَ شيخه ربيعة، وأثر ذَلِكَ عن أم سلمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وعلى ذَلِكَ استقر أئمة السلف والخلف ـ رحمهم الله ـ (التمهيد لابن عبدالبر، ج7 ص 138، واعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 398 ـ 399).

(1) **[تعريف الملائكة]**: قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ في شأن الملائكة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [سورة الأنبياء، الآيتين: 26 ـ 27]. فنقض الله عَزَّ وَجَلَّ مقولة المشركين في الملائكة، وبين أن الملائكة عباد أكرمهم الله، واصطفاهم بالعصمة، وقربهم إليه، لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به، فلا يسبقونه بالقول حتى يقول ثُمَّ يقولون، ولا يعملون حتى يأمرهم، وفي هَذَا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم لأوامر ربهم جَلَّ جَلَالُهُ، وفطرهم الله عَزَّ وَجَلَّ على العبادة والطاعة فهم على ذَلِكَ في كل حال، قَالَ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ۝٣٨﴾ [سورة فصلت، الآية: 38]. وقال أيضاً: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [سورة الأنبياء، الآيتين: 19 ـ 20]. فامتدح الله عَزَّ وَجَلَّ ملائكته بالدوام على العبادة والتسبيح وعدم الاستكبار على الطاعة والدعاء كما يفعل أهل الشرك والضلالة، ومع ذَلِكَ لا يلحقهم ملل ولا فتور ولا إعياء من دوام الطاعة والتسبيح، فحقت لهم بذلك ولاية الكبير المتعال جَلَّ جَلَالُهُ الذي يقول: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [سورة البقرة، الآية: 98]. =

وَهُمْ أَجْرَامٌ مِنْ نُورٍ[1]، لاَ إِنَاثَ وَلاَ ذُكُور[2]، وَقَدْ يَتَشَكَّلُونَ بِشَكْلِ الآدَمِيِّ عِنْدَ الْحَاجَةِ[3].

---

(1) [الملائكة أجرام من نور]: ورد في الأثر عن النبي ﷺ على أن الله ﷻ خلقهم من نور، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». (مسلم "2996"، وإسحاق بن راهويه "786"، والبيهقي في الشعب "143").
وأما الأثر الذي رواه إسحاق بن راهويه في مسنده "788"، وعبدالله بن أحمد في السنة "1083" موقوفاً على عكرمة: " خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة " فليس بثابت، وإسناده إِلَى عكرمة منقطع، وعده الشيخ الألباني من الإسرائيليات، فتأمل. (السلسلة الصحيحة للألباني، ج1 ص 820 "458").

(2) [الملائكة لا يوصفون بالذكورة والأنوثة]: هذا هو الحَقّ الذي قرره الله ﷻ في كتابه، والمعتقد الصحيح الذي يعتقده أهل السنة والجماعة، أن الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، ومن قَالَ بأنوثة الملائكة فقد قَالَ بمقولة أهل الكفر التي حكاها الله ﷻ عنهم في كتابه فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الزخرف، الآية: 19]. وقال أيضاً: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: 40]. وأشد كفراً قَوْل من قَالَ إن الملائكة بنات الله، كالذي قَالَ به كفار قريش بأن الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سروات ـ أي سيدات ـ الجن، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة الصافات، الآية: 158]. (رواه البُخَارِي تعليقاً عن مجاهد، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم، ج3 ص 1200).

(3) [الملائكة يتشكلون بشكل الآدمي عند الحاجة]: قَالَ المتكلمون بأن الملائكة أجسام علوية لطيفة تتشكل أي شكل أرادوا. (فتح الباري، ج1 ص 21).
وقد حكى القرآن الكريم عن حقيقة تشكل الملائكة فقال مخبراً عن مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم، من الآية: 17] أي: سوي الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً، و"الروح" هو جبريل على قَوْل جمهور المفسرين. (زاد المسير، ج5 ص 217).
وقال مخبراً عن قصة الرسل من الملائكة الذين أرسلهم إِلَى إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [سورة هود، من الآية: 69] فنزلوا ضيوفاً عنده، =

مِنْهُمْ الأَرْبَعَةُ: جِبْرِيل، وَمِيكَائِيل، وَإِسْرَافِيل، وَعِزْرَائِيل[1].

= وقال الله ﷻ في حقهم: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الذريات، الآية: 24]. وضيوف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هم الملائكة الذين أرسلهم الله ليبشروا إبراهيم بالولد، ويهلكوا قوم لوط، فتمثلوا في صورة البشر، واختلفوا في عددهم على ستة أقوال؛ أشهرها أنهم ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل. (انظر: زاد المسير، ج4 ص 127، وتفسير البغوي، ج2 ص 392).

وما ثبت في الصحاح مشهور من تمثلات جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بصورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر (ابن حبان "168")، أو في صورة دحية الكلبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. (البُخَارِي "3435"، ومسلم "167"، والطبراني في الكبير "423").

ونفي الحكم عن الملائكة بالذكورة والأنوثة يقتضي نفي التزاوج والتناسل، كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يحدثون وقد ورد نفي ذَلِكَ في حديث مرفوع رواه عبدالله بن أحمد في "السنة"، وابن عساكر في "تاريخه" عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول ﷺ أن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقت بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويأتون النساء، ويركبون الدواب، وينامون، ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذَلِكَ شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال ﷻ: «لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان». (السنة لعبدالله بن أحمد "1065").

(1) **[أشراف الملائكة]**: قَالَ الإمام السيوطي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: " لا خلاف أن جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت رؤوس الملائكة وأشرفهم، وأفضل الأربعة جبريل وإسرافيل، وفي التفضيل بينهما توقف سببه اختلاف الآثار في ذَلِكَ ". (تنوير الحوالك، ج1 ص 15).

وتسمية ملك الموت بعزرائيل لم يرد ذكره في أثر معتمد، وورد في أثر ذكره أبو محمد الأصبهاني في العظمة "443" أن اسم ملك الموت هو عزرائيل، والأثر حكم عليه الحافظ ابن حجر بأنه معضل. (الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع، ص 108).

وجمهور المفسرين على أن أسماء الملائكة الأربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل باللغة السريانية، وقيل بالعبرانية، واختلفوا في معنى "ايل" فقيل هو من أسماء الله ﷻ والمضاف في الأسماء الأربعة بمعنى عبد، وقيل العكس.

وقال الجوهري وغيره من أهل اللغة: إن "جبر" و"ميك" اسمان أضيفا إِلَى "إيل" و"أل" وهما اسمان لله تعالى، ومعنى "جبر" و"ميك" بالسريانية "عبد"، =

وَمِنْهُمْ: مَلاَئِكَةُ[1] مُوَكَّلُونَ بِكُلِّ إِنْسَانٍ يَتَعَاقَبُونَ، لَيْلِيِّينَ وَنَهَارِيِّينَ، يَكْتُبُونَ كُلَّ مَا يَقُولُ أَوْ يَفْعَلُ مِنَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ[2].

= فتقدير الاسمين "عبد الله" واعترض أبو علي الفارسي على ذَلِكَ بأن ما قالوه خطأ من وجهين:

أحدهما: أن "إيل" و"أل" لا يعرفان في أسماء الله تعالى.

والثاني: أنه لو كَانَ كذلك لم يتصرف آخر الاسم في وجوه العربية، ولكان آخره مجرورا أبداً كعبدالله.

قَالَ النووي: وهذا الذي قاله أبو علي هو الصواب فإن ما زعموه باطل لا أصل له. (تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ص 150 ـ 151).

وفي حديث طويل رواه الطبراني في الكبير "12061" والأصبهاني في العظمة "31" عن ابن عباس ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ لجبريل: «.. فقلت: يا جبريل وعلى أي شيء أنت؟ قَالَ: على الريح والجنود. قلت: على أي شيء ميكائيل؟ قَالَ: على النبات والقطر. قلت: على أي شيء ملك الموت؟ قَالَ: على قبض الأنفس وما ظننت أنه نزل إلا لقيام الساعة». قَالَ في مجمع الزوائد (ج9 ص 19): " وفيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جَمَاعَة ولكنه سيِّيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات ". وقال في الفتح (ج6 ص 307): "وفي إسناده محمد بن عبدالرحمٰن بن أبي ليلى وقد ضعف لسوء حفظه ولم يترك".

وقد جاء في الصحيح أن رسول ﷺ كَانَ إذا قام من الليل يفتتح صلاته بهذا الدعاء: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحَقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إِلَى صراط مستقيم».(مسلم "770"، وابن خزيمة "1153"، وابن ماجة "1357").

قال في مفتاح دار السعادة (ج1 ص 84): " وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد؛ أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إِلَى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة، وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء، وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى بنفخته، فإذا هم قيام لرب العالمين " اهـ.

(1) في الأصل: الملائكة.

(2) **[المتعاقبون الحفظة من الملائكة]**: قَالَ تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ =

* *

= ﴿يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية: 11] أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل، والتعقيب العود بعد البدء. (تفسير البغوي، ج3 ص 9).

وعن ابن عباس رضي الله عنه؛ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدره خلوا عنه. (تفسير الطبري، ج13 ص 116).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثُمَّ يعرج الذين باتوا - أو كانوا - فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». (البُخَارِي "530"، مسلم "632"، وابن حبان "1736").

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية:61] قَالَ السدي: قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ قَالَ: هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله. (تفسير الطبري ج7 ص 216، والدر المنثور ج3 ص 281).

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق، الآيتين: 17 - 18].

عن مجاهد قَالَ: " مع كل إنسان ملكان؛ ملك عن يمينه، وملك عن يساره، قَالَ: فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن يساره فيكتب الشر ". (الطبري، ج26 ص 159).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قَوْل الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ قَالَ: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت وشربت ذهبت وجئت ورأيت، حتى إذا كَانَ يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كَانَ فيه من خير أو شر وألقي سائره، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرعد، الآية: 39]. (تغليق التعليق لابن حجر، ج5 ص 380).

قال ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: "وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات". (جامع العلوم والحكم، ص 134).

وَمِنْهُمْ: المَلَكَانِ اللَّذَانِ يَسْأَلانِ المَيِّتَ فِي قَبْرِهِ عَنْ دِينِهِ[1].

وَمِنْهُمْ: خَزَنَةُ الجَنَّةِ[2] وَخَزَنَةُ النَّارِ[3].

---

(1) سيأتي تفصيل القول في هذه المسألة.

(2) [خزنة الجنة من الملائكة]: قَالَ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الزمر، الآية: 73].

فأثبت القرآن أن للجنة على أبوابها خزنة وهم الحجبة من الملائكة، يستقبلون أهلها ويتلقونهم بالسلام، وعلى كل باب خزنة من الملائكة يدعون كل واحد من أهلها إِلَى بابه، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب: أي فُلُ هلمَّ» قَالَ أبو بكر: يا رسول الله، ذاك الذي لا توى عليه. فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكون منهم». (البُخَارِي "2686"، مسلم "1027" قوله: "فُلُ" لغة في "فلان"، و"لا توى" أي: لا ضياع ولا هلاك).

واشتهر في بعض كتب الوعظ أن سيد خزنة أهل الجنة يدعى "رضوان" ولم أقف على هَذَا الاسم إلا في عدة أحاديث كلها موضوعة، والله أعلم.

(3) [خزنة النار من الملائكة]: وقد أخبر الله ﷻ بأن خزنة جهنم هم من الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سورة المدثر، من الآية: 31].

وقال في وصف شدتهم وغلظتهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم، من الآية: 6].

وقال تعالى في وصف مآل أهل الكفر والضلال يوم القِيَامَة ومحاجَّة خزنة جهنم لهم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الزمر، الآية: 71].

وقال أيضاً: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [سورة الملك، الآية: 8].

وخزنة جهنم من الملائكة يقال لهم "الزبانية" كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة العلق، الآيتين: 17 ـ 18]. =

وَمِنْهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

س - مَنْ هُمْ الجِنُّ؟

ج - هُمْ جِنْسٌ[2] ....

= وعدد الملائكة الذين وكلوا على جهنم كبير جداً لما ورد في الصحيح عن عبدالله بن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». (رواه مسلم "2842"، والحاكم "8758"، والترمذي "2573").

وذكره ابن أبي شيبة والبزار موقوفاً على ابن مسعود ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [سورة الفجر، من الآية: 23] قَالَ: " جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ". (المصنف "34117"، ومسند البزار "1754").

(1) [سورة المدثر، من الآية: 31]. أي لا يعلم عدد الملائكة إلا الله ﷻ، وفي كتب السنة آثار كثيرة تدل على العدد الكبير للملائكة، كما في حديث الإسراء والمعراج أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا. (البُخَارِي "3035"، ومسلم "164").

وعائد المريض يبعث الله ﷻ له سبعين ألف ملك يصلون عليه. (ابن حبان "2958"، والحاكم "1264"). وغير ذَلِكَ كثير، والله أعلم.

(2) **[حقيقة الجنّ]**: قَالَ تعالى مخبراً عن خلقه للجنّ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الرحمن، الآية: 15].

وقال أيضاً: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: 27].

وقال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». (سبق تخريجه).

قال الزجاج: " المارج: اللهب المختلط بسواد النَّار ". (غريب الحديث لابن الجوزي، ج2 ص 351).

وقال الخليل: " المارج من النَّار: الشعلة الساطعة ذات لهب شديد ". (كتاب العين للخليل بن أحمد، ج6 ص 121).

فدلت الآية والحديث على أن الجن قد خلقوا من النَّار، وسموا بالجن لاجتنانهم، أي استتارهم واختفائهم، وقد تكلف البعض من أهل العلم وغيرهم في بيان حقيقتهم بما لا طائل من ورائه، وما جاؤوا به لا يخرج عن كونه =

....

= تخمينات غير مبنية على أساس يعتمد عليه، فعرفها المعتزلة بأنها: أجساد رقيقة بسيطة. وعرفها أبو يعلى الفراء بأنها: أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة يجوز أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة. وعرفها ابن حزم بأنها: أجسام رقاق صافية هوائية لا ألوان لها وعنصرهم النَّار كما أن عنصرنا التراب. (فتح الباري، ج6 ص 344، والفصل لابن حزم، ج5 ص 9).

والذي وقفنا عليه من الآثار التي وردت في طبيعة خلقهم هو أثر الرجل الذي استهوته الجن على عهد عمر بن الخطاب ﷺ فقال يصفهم: " أما بالليل فليس يحدثوني، وأما بالنهار فعصار ريح اتبعها ". (في قصة طويلة رواها البيهقي في السنن الكبرى "15347").

وفي رواية سنن سعيد بن منصور: " فأما الليل فرجال أعرفهم - يعني الجن الذي استهووه - وأما النهار فإعصار ريح تحملني ". (كتاب السنن، لسعيد بن منصور "1755").

[**أقسام الجنّ**]: الجن على ثلاثة أصناف كما في الحديث الصحيح المرفوع؛ فعن أبي ثعلبة الخشني ﷺ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجن على ثلاثة أصناف؛ صنف كلاب وحيات، وصنف يطيرون في الهواء، وصنف يحلون ويظعنون». (ابن حبان "6156"، والحاكم وصححه "3702"، والطبراني في الكبير، ج22 ص 214، وصححه الألباني في صحيح الجامع "3114").

[**زاد الجنّ**]: العظام هي زادُ الجن، والبعر علف دوابهم، وورد ذَلِكَ في حديث ابن مسعود المشهور في ليلة الجن الذي رواه مسلم وغيره أن الجن سألوا رسول الله ﷺ عن الزاد، فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يَكُون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ - أي لأصحابه -: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم». (مسلم "450"، وابن خزيمة "82"، وابن حبان "1432"، والترمذي "3258"، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في صحيح جامع الترمذي وقال: صحيح دون جملة "اسم الله" و"علف لدوابكم" ولم يعلل لاستثنائه مع أن الجملتين وردتا في الصحاح المذكورة، وكفاك بصحيح مسلم، والله أعلم.

وحديث الرجل الذي استهوته الجن لمَّا سأله عمر بن الخطاب ﷺ: ما كَانَ طعامهم؟ قَالَ: الفول وما لم يذكر اسم الله عليه. قال - أي عمر -: فما كَانَ شرابهم؟ قَالَ: الجدف، يعنى الذي لا يغطى". (سنن سعيد بن منصور). =

= وقال قتادة: الجدف ما لم يخمر من الشراب. (سنن البيهقي، ج7 ص 445).
لكن ـ كما ورد في الأثر ـ أن الجن الذين استهووه لم يكونوا من المسلمين بدليل قوله بأن طعامهم ما لم يذكر اسم الله عليه، ويؤيده ما تقدم ذكره من حديث ابن مسعود ﷺ، وسيتبين ذَلِكَ عند ذكرنا لتمام القصة فيما يأتي من الكلام عن الجن.

(1) **[الجنّ يروننا ولا نراهم]**: هذا الذي يدل له قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 27]. فالشيطان وقبيله من الجن والشياطين يرون الإنس، والإنس لا يرون الشيطان وقبيله على الطبيعة الجبلية التي خلقوا عليها، ومن كَانَ على هَذَا الوصف كَانَ عظيم الكيد ووجب الاحتراس منه، قَالَ مطرف بن عبدالله بن الشخير: " لو أن رجلاً رأى صيداً، والصيد لا يراه فختله، ألم يوشك أن يأخذه؟ قالوا: بلى، قَالَ: فان الشيطان يرانا ونحن لا نراه وهو يصيب منا ". (مصنف ابن أبي شيبة "35134").
لكن دلت بعض الآثار صراحة على أنه يمكن رؤية الجني إذا تصور بغير صورته التي خلق عليها منها حديث ابن أبي بن كعب ﷺ أن أباه أخبره أنه كَانَ لهم جرين فيه تمر، وكان مما يتعاهد فيجده ينقص، فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم. قَالَ: فسلم فرد عليه السَّلام. فقلت: ما أنت، جن أم إنس؟ قَالَ: جن. فقلت: ناولني يدك، فإذا يد كلب وشعر كلب، فقلت: هَذَا خلق الجن؟ فقال: لقد علمت الجن أن ما فيهم من هو أشد مني. فقلت: ما يحملك على ما صنعت؟ قَالَ: بلغني أنك تحب الصدقة فأحببت أن أصيب من طعامك. فقلت: ما الذي يحرزنا منكم. قَالَ: هذه الآية آية الكرسي. قَالَ: فتركته، وغدا أبي إِلَى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «صدق الخبيث». (رواه ابن حبان بلفظه "784"، والنسائي في السنن الكبرى "10796"، والحارث في مسنده ـ زوائد الهيثمي ـ "1051"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب "1470").
ويدل عليه كذلك حديث أبي هريرة لما وكَّله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فجاءه الشيطان في صورة رجل فجعل يحثو من الطعام لثلاث ليال، فلما أخبر رسول ﷺ بالأمر قَالَ له: «ذاك شيطان». (اختصرناه من حديث طويل عند البُخَارِي "2187"، والنسائي في السنن الكبرى "10795").
وعند الطبراني في "الكبير" عن معاذ بن جبل ﷺ ما يشبه قصة أبي هريرة ﷺ =

مُكَلَّفُونَ بِتَوْحِيدِ اللّهِ وَعِبَادَتِهِ مِثْل الإِنْسِ[1]، ....

= وفيه أنه كَانَ يأتي في صورة الفيل، ودخل من خلل الباب. (المعجم الكبير، ج20 ص 51، ورجال سنده موثوقون كما في مجمع الزوائد ج6 ص 322).
وهناك عدة أحاديث تدل على إمكان تصور الجن بغير صورتهم الجبلية، فدل على جواز رؤيتهم على تلك الصورة والله أعلم.

(1) **[الجنّ مخاطبون بالتكاليف الشرعيّة]**: الأدلة على وُقُوع التَّكْلِيف في حقهم كثيرة في القرآن والسنة؛ قَالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأحقاف، الآيتين: 18 ـ 19] وإيجاب الخسران والعقاب لا يَكُون إلا على من قصر في الواجبات والمأمورات، واعتدى على الحرمات، ولم تفرق الآية في ذَلِكَ بين الجن والإنس، كما أن إيفاء الأجر والثواب لا يَكُون لمن عمل عملاً واستحق عليه الجزاء، والخطاب في الآية إِنَّمَا موجه للإنس والجن على السواء.
قـــال الله ﷻ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية: 130].
فالجن والإنس شهدوا على أنفسهم بأن الرسالة بلغتهم، وبأنهم أنذروا لقاء يوم القِيَامَة، والرسالة لا تحمل إلا التَّكْلِيف، والإنذار إِنَّمَا يوجه لمن أمر بأوامر ونهي بنواهٍ.
وعلى هَذَا القول جمهور أهل الإسلام واشتهر من قَوْل المعتزلة، وحكى الكثير من الفقهاء الإجماع على هَذَا القول. وزعم قوم من الحشوية بأنهم مضطرون إِلَى أفعالهم، ولا يستند قولهم هَذَا إِلَى شيء من الكتاب والسنة أو العقل. (انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري، ص 440، وطريق الهجرتين لابن القيم، ص 619).
[هل يقع التكليف على الجنّ كما على الإنس]: لكن إذا قلنا بوقوع التَّكْلِيف في حقهم كما هو واقع في حقنا، فهل يقع التَّكْلِيف على الوجه الذي كلفنا به نحن أم على وجه آخر؟ وجواب ذلك؛ أن ما كَانَ من أعمال القلب واللسان كالإيمان والتصديق والذكر والحب والبغض وغيرها فالتفريق فيه غير ظاهر، أما ما كَانَ من عمل الأبدان كأنواع الطهارة، وشعائر الجسم مثل الحلق واللباس وغيرها فالظاهر كذلك مساواتهم لنا في جَمِيع ذلك، لكن على وجه يناسب طبيعتهم وخلقتهم بدليل أن الخطاب واحد لنا جميعاً، ولم تفرق النُّصُوص في الكتاب والسنة بين الإنس والجن في ذلك. =

مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ[1].

= وقال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - بأن المساواة في ذَلِكَ لا تجب، وإن تعلق ذَلِكَ بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم. (عدة الصابرين، ص 14).

[**اختلاف أهل السنة في كيفية ثواب الجنّ**]: والذين قالوا بأنهم من أهل التَّكْلِيف بالرسالة المحمدية اتفقوا على أنهم يعاقبون على معاصيهم، واختلفوا في ثوابهم: فقال جَمَاعَة: ليس لهم ثواب إلا أن يجاروا من النَّار، وهذا قَوْل أبي الزناد والحسن البصري وليث بن أبي سليم وأبي حنيفة. روى الطبري في تفسيره (ج30 ص 26) عن أبي الزناد أنه قَالَ: " إذا قضي بين الناس، وأمر بأهل النَّار إِلَى النَّار، قيل لمؤمني الجن ولسائر الأمم سوى ولد آدم: عودوا تراباً، فإذا نظر الكفَّار إليهم قد عادوا تراباً قَالَ الكافر: يا ليتني كنت تراباً ".

ودليل هؤلاء قوله تعالى على لسان النفر من الجن لقومهم لما سمعوا القرآن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأحقاف، الآية: 31]، فدلت الآية على أن ثوابهم المغفرة والإجارة من النَّار ولم تذكر ثواب الجنة. وقال جمهور الأئمة منهم: مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وابن أبي ليلى والصاحبان أنهم يثابون على الطاعة كما يعاقبون على المعصية، وهؤلاء اختلفوا أيضاً في كيفية ثوابهم على أقوال:

الأول: وهو قَوْل الأكثر؛ أنهم يثابون كما يثاب الإنس.

الثاني: أنهم يكونون في ربض الجنة، وهو قَوْل مالك وطائفة.

الثالث: أنهم أصحاب الأعراف.

الرابع: الوقف وإليه ذهب القشيري. (انظر: تفسير القرطبي، ج16 ص 217 - 218، وفتح الباري، ج6 ص 346، وغمز عيون البصائر للحموي، ج3 ص 406 - 407).

(1) لأننا إذا سلمنا بأنهم من أهل التكليف، وبأنهم محاسبون على ما يقولون ويفعلون كما عليه الإنس، جاز أن يَكُون فيهم من هو سالك للصراط المستقيم، ومن هو عادل عنه، وقد جاء في القرآن إقرار بذلك، قَالَ تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الجن، الآية: 11]، أي منهم من هو من أهل التقى والصلاح، ومنهم من هو من أهل الأهواء على شتى مذاهبهم، قَالَ السدي في قَوْل الله ﷻ: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قَالَ: يعني الجن هم مثلكم منهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة. (العظمة للأصبهاني، ج5 ص 1689). =

وَمِنْهُمْ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ[1]، وَذُرِّيَّتُهُ الْخُبَثَاءُ الْمُضِلُّونَ[2].

= وقال ﷻ إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ١٤﴾ [سورة الجن، الآية: 14]، أي منهم المسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله، ومنهم القاسطون أي الظالمون الجائرون المنحرفون عن سبيل الحق.

(1) **[إبليس اللعين هل هو من الجنّ أم من الملائكة؟]**: قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [سورة البقرة، الآية: 34]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ٦١﴾ [سورة الإسراء: 61] فذهب الجمهور استناداً لما ورد في مثل هذه الآيات أن إبليس كَانَ من الملائكة بدليل الاستثناء في الآية، إذ لو لم يكن من الملائكة لم يكن لاستثنائه معنى، وهو المنقول عن ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وابن المسيب، واختاره الإمام أبو الحسن الأشعري وابن جرير، ورجحه النووي.

قال ابن عباس ﷺ: «كَانَ إبليس من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض».

وقال الحسن وشهر بن حوشب وعبدالرحمٰن بن زيد بأن إبليس ما كَانَ من الملائكة قط، وقالوا بأن الاستثناء في الآية منقطع. (انظر: تفسير القرطبي، ج1 ص 294 ـ 295، وتفسير الطبري، ج1 ص 224 ـ 225، وشعب الإيمان للبيهقي، ج1 ص 164، وتهذيب الأسماء للنووي، ص 119).

(2) **[لإبليس ذرّية من جنسه]**: دلَّ القرآن على أن لإبليس ذرية من جنسه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [سورة الكهف، من الآية: 50]، قَالَ قتادة ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في هذه الآية بأن الجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً. (العظمة للأصبهاني، ج5 ص 1686).

ومع ذَلِكَ يقال بأن من الجن أصناف لا تتوالد، فعن عبدالصمد بن معقل قَالَ: سمعت وهب بن منبه يقول وسئل عن الجن ما هم؟ وهل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون؟ قَالَ: هم أجناس؛ فأما الذين هم خالص الجن فهم ريح لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتوالدون، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتوالدون ويموتون، ومنهم السعالى والغول والقطرب وأشباه ذلك. (التمهيد لابن عبدالبر، ج11 ص 116 ـ 117).

ثُمَّ جَمِيعِ الْجِنّ دَاخِلُونَ تَحْتَ الْمَسْؤُولِيَّة بِالرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَقَدْ بَلَّغَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فَآمَنَ مِنْهُمْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادَةُ[1].

س ـ مَا الْقَوْلُ فِي مَذْهَبِ دَارْوِينَ وَمَنْ تَبِعَهُ فِي أَنَّ أَصْلَ الْبَشَرِ النُّشُوءُ وَالارْتِقَاءُ إِنْكَارًا لِوُجُودِ آدَمَ وَحَوَّاءَ؟

ج ـ اعْتِقَادُ ذَلِكَ مُجَاهَرَة بِتَكْذِيبِ كَلَامِ اللهِ وَرُسُلِهِ كُلِّهِمْ، فَآدَم خَلَقَهُ الله مِنْ طِينٍ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ[2]، ....

---

(1) **[إقرار الجنّ ببلوغهم رسالة محمد ﷺ]**: جاء في القرآن الكريم الإخبار عن إقرار الجن بأن الرسالة المحمدية بلغتهم وأعلم الشاهد منهم الغائب، قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الأحقاف، الآية: 29] فالنذارة التي ولوا بها إِلَى قومهم تقطع بوقوعهم تحت التَّكْليف والمسؤولية.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [سورة الجن، الآيتين: 1 ـ 2]

(2) **[دحض نظريّة داروين في النشوء والارتقاء]**: بعد أن عرض المصنف لحقيقة الملائكة والجن، أعقب على ذَلِكَ القول في دحض نظرية داروين الكاذبة في حقيقة أصل البشر، لأن بدحضها يكتمل الكلام عن حقيقة الأصناف العاقلة، وهم: الملائكة والجن والإنس.

والشرائع مجمعة على أنَّ أبانا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أوّل مخلوق من البشر؛ خلقه الله جَلَّ جَلَالُهُ من الطين، ونفخ فيه من روحه، وخلق زوجه حواء ومنهما تناسل البشر.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة ص، الآيتين: 71 ـ 72].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية: 2].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ منهم الأحمر والأسود والأبيض والأصفر وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب». (ابن حبان "6160"، والترمذي "2955"، وأبو داود "4693"، وصححه الألباني).

وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ جَسَدِ آدَم[1] وَمِنْهُمَا تَنَاسَلَ الْبَشَرُ[2].

---

(1) اتفق أهل العلم على أنَّ حواء خلقت من ضلع أعوج، يدلُّ عليه حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء». (البخاري "3153"، ومسلم "1468").
قال الحافظ في الفتح، ج6 ص 368: " فيه إشارة إلى أنَّ حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، وقيل من ضلعه القصير ".
وجمهور أهل العلم على أنَّ حواء خلقت من ضلع آدم اليسرى، وتفرَّد ابن بحر بالقول بأنَّ حواء خلقها الله من مثل ما خلق منه آدم. (أعلام النبوة للماوردي، ص 77).

(2) قد ذكرنا النظرية القرآنية التي قررت حقيقة خلق البشر، وهي النظرية التي تؤيدها النقول ولا تعارضها العقول.
لكن ظهر في القرن التاسع عشر للميلاد رجل مخرّف يقال له "**شارلز داروين**" اختلق جهالة مما أوحته له شياطينه وبثها اليهود على طريقتهم فانبهر بها أصحاب العقول البالية والمعرضة عن الحق، فصار الجاهل المخرِّف مبدعاً وكاشفاً عن الحق الدفين الذي لم يهتد إليه الأوائل.
ولد دارون سنة 1809 للميلاد، وفى سنة 1859 أصدر كتابه في "أصل الأنواع"، ونشر كتابه في "أصل الإنسان" عام 1871. وقامت الحرب العنيفة بين الكنيسة وبين داروين، هي تتهمه بالإلحاد وهو يتهمها بالجهالة والتخريف، ووقفت الجماهير في مبدأ الأمر مع الكنيسة، فقد عزَّت عليها عقيدتها، وعزَّ عليها أن يصوِّرها داروين في صورة حيوانية هابطة، ولكنها عادت فوقفت في صف داروين، لأنَّها وجدتها فرصة سانحة لتحطيم ما بقى من سلطان الكنيسة الجائر الذي تستذل به الرقاب، وانجلت المعركة في الأخير عن انحسار الدين، وانتصار المارد المنطلق من القمقم لا يقف في طريقه شيء. (انظر جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب، ص 29 وما بعدها).
وإن كان داروين قد اشتهر فعلاً قد حمل لواء هذه الخرافة وأسَّس لها قواعدها الهزيلة، إلاَّ أنَّه حمل فكرتها الأولى من "**باكنسون**" و"**لينو**" حيث قالا بأن الأنواع المتأخرة في الظهور أكثر رقياً من الأنواع المتقدمة. وكان هذا أصل القول بالنشوء والارتقاء. =

. . . .

= كما استفاد من نظرية "**مالتوس**" في الانتقاء الطبيعي الذي يدور حول إفناء الطبيعة للضعفاء لمصلحة الأقوياء.

وقد كان اليهود الخبثاء وراء بثّ هذه النظرية وإنجاحها، وتثبيتها كحقيقة علمية غير قابلة للنقاش، والغاية التي يبغونها من وراء كل ذلك هو إحداث الشرخ بين الناس وبين الدين، لأنَّ الإنسان إذا تخلى عن الدين وأعرض عنه صار طعماً سائغا للآكلين، وحماراً مذللاً للراكبين، وهذا هو الذي يحلم به اليهود، واسمع ماذا يقول حكماؤهم في البروتوكول الثاني من بروتوكولاتهم الخبيثة: " وَلاَحِظوا هنا أنَّ نجاح دارون Darwin وماركس Marx ونيتشه Nietsche قد رتبناه من قبل. والأمر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي - أي غير اليهودي - سيكون واضحاً لنا على التأكيد ". (بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ص 132).

ناقش داروين في كتابه "أصل الأنواع" نظريته في النُشوء والارتقاء معتبراً أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين، وقد تطوَّرت هذه الخليَّة ومرَّت بمراحل؛ منها مرحلة القرد، انتهاء بالإنسان، وهو بذلك ينسف الفكرة الدِّينية التي تجعل الإنسان متنسباً إلى آدم وحواء ابتداء كما قرَّرته الشرائع.

تقوم خرافة دارون على أصلين مستقلَّين:

الأول: المخلوقات الحية وجدت في مراحل تاريخية متدرجة ولم توجد دفعة واحدة.

الثاني: هذه المخلوقات متسلسلة وراثيًا ينتج بعضها عن بعض بطريقة التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة.

أما الأصل الأوَّل فالبرهنة عليه ممكنة وليست من قِبل المحال، أمَّا الأصل الثاني فجميع الداروينيين من أوَّلهم إلى آخرهم لم يتمكنوا من البرهنة عليه لوجود حلقات مفقودة في سلسلة التطوّر المزعومة مما ينسف فكرتهم نسفاً، حتَّى إنَّ الدارويني المتعصب "**آرثر كيت**" يعترف بالعجز عن البرهنة عليها فيقول: " إن نظرية النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا غير وارد على الإطلاق ".

وانبثقت عن هذين الأصلين افتراضات لا تمتُّ إلى فلسفة الحياة بصلة؛ فمن بين افتراضاتهم:

= تفترض النظرية تطور الحياة في الكائنات العضوية من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد.
وتفترض أنَّ الكائنات تتدرج من الأحط إلى الأرقى عبر مراحل متعاقبة بطريقة حتمية، تحدِّد العوامل الخارجية طبيعة كلّ مرحلة.
ويفترضون أنَّ الطبيعة ـ على زعمهم ـ وهبت الأنواع القوية عوامل البقاء والنموّ والتكيف مع البيئة لتصارع الكوارث وتتدرج في سلم الرقي مما يؤدي إلى تحسن نوعي مستمر ينتج عنه أنواع راقية جديدة كالقرد، وأنواع أرقى تتجلى في الإنسان، بينما نجد أن الطبيعة قد سلبت تلك القدرة من الأنواع الضعيفة فتعثرت وسقطت وزالت.
ويزعمون بأنَّ الفروق الفردية داخل النوع الواحد تنتج أنواعاً جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة.
وأوصلتهم هذه الافتراضات إلى أنَّ الطبيعة تعطي وتحرم بدون خطة مرسومة، بل خبط عشواء، وخط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة مطردة منطقية، ونسوا أنَّ دارون وأتباعه هم الذين يخبطون خبط عشواء، وتسير عقولهم وأفكارهم على طريق متعرِّج ومضطرب لا علاقة له بالفكر السوي.
وتركت النظرية الداروينية شرخاً عقائدياً خطيراً في المجتمع الأوربي، فهي كما نسفت المتفق عليه بين الأديان من أنَّ البشر من نسل آدم المخلوق من الطِّين، أدّت كذلك إلى إنكار خالق الكون ﷻ فهذا الدارويني الملحد "**جليان هكسلي**" يزعم أن الإنسان قد اختلق فكرة الله إبان عصر عجزه وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آنٍ واحد.
بل أعجب العجب أن تجد من يؤمن بهذه النظرية ويحسب نفسه أنَّه يدين بشريعة الإسلام، وهو لا يدري أنَّه ضرب عن الإسلام صفحاً، والإسلام بريء من تخريفه، ويدَّعي بأنَّه يفهم الإسلام بلغة عصرية، وهو أجهل الجاهلين، وأعجب من ذلك كله أن يفسر القرآن في ضوء النظرية الداروينية، لِيَعُد دارون أدرى بمعاني القرآن من الطبري والقرطبي وابن كثير والرازي وغيرهم من عظماء المفسرين، بل أدرى من رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، فهذا المَفْتون المدعو مصطفى محمود جمع كتاباً أسماه بـ "القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن" =

....

= يمدح فيه مفتوناً آخر أُعجب بداروينيته التي استلَّها من نصوص القرآن يقول في كتابه المذكور (ص53): "وأعجبني في كتاب للمفكر الإسلامي محمود طه بعنوان "رسالة الصلاة" تعبير جميل يقول فيه: إن الله استل آدم استلالاً من الماء والطين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 12]، إنه الانبثاق من الطينة درجة درجة، وخطوة خطوة، من الأميبا إلى الإسفنج إلى الحيوانات الرخوية إلى الحيوانات القشرية إلى الفقريات إلى الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور إلى الثدييات إلى أعلى رتبة آدمية بفضل الله وهديه وإرشاده".

فهذا أخذ ببعض الكتاب وترك بعضه، فلِمَ لم يستشهد بما أعقبها من الآيات يا ترى؟! لأنَّها بالتَّأكيد تنسف داروينيته المزعومة.

ولنعد إلى خرافة دارون وما نصرها به من الهراءات، ولنختصر الردَّ في فقرة مجملة فنقول: إنَّ قول دارون بأَنَّ البقاء للأصلح وفق قانون الاصطفاء الطبيعي مناف للواقع المشاهد، فهذه الطبيعة المُعرقة في القِدم كيف لم تتمكن رغم عمرها المديد من أنْ تصل إلى اصطفاء النُّخبة الصالحة التي يحقُّ لها البقاء وميراث الكون، لماذا هذه الطبيعة تنسف القاعدة التي وضعتها لنفسها في اصطفاء الأصلح، نراها تقتل أصلح الصالحين وتُحيي أفسد الفاسدين، يموت الإنسان المُصطَفَى اليوم ويُولد جدُّه القرد غداً، وما كان للأوّل أن يموت، وما كان للثاني أنْ يولد لأنَّ قانون الاصطفاء ينافي ذلك. ومهما تكن حركة التطوّر بطيئة فعلى الأقلّ أنْ نشهد الميل إلى الأحسن داخل الصنف الواحد أو ما بين الأصناف على مرِّ السنين، فلا نرى الذّبابة والبعوضة الفاسدتين تميلان إلى التَّنحُّل، ولا نرى الحمار يميل نحو التّبقُّر، ولا نرى الذِّئب يميل نحو التَّمَعُّز، بل كلٌّ لا يحيد عن أصله، فلماذا يا ترى؟!

ونعجب أكثر من هذه الطبيعة التي تقتل دارون الأصلح الذي اجتهدت في اصطفائه منذ أمدٍ بعيد، وبعد قرن ونصف تنكص على عقبها وتخذله فتنجب من بعده الذبابة والقرد والغراب والخنزير...!!

والكون على مرِّ الدُّهور يعجُّ بالصالح والفاسد، بل الطبيعة اليوم هي أفْسد مما كانت عليه من قبل فأين قانون الاصطفاء يا تُرى؟!

وليس بعد الذي ذكرناه حاجة لأنْ نردَّ على النظرية من منظور علم الجينات الوراثية والخلايا الحيَّة لبديهية الجواب. =

س ـ لأَيِّ شَيْءٍ خُلِقَ الْجِنُّ وَالإِنْسُ؟

ج ـ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

= بل نقول لكلِّ دارويني إنَّ إمام الداروينية نفسه اعترف بعجزه عما ذكرناه من اعتراضات منطقية، بل اعترف بعجزه عن الاجابة على أسئلة أقلّ مما ذكرناه تعقيدا. (أصل الأنواع لدارون، ص 412).

والجواب عن كلِّ ذلك قرَّره خالق الكون في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة يس، الآية: 36].

(للاستزادة انظر: "أصل الأنواع" لدارون، و"لا يأتون بمثله" و"الإنسان بين المادية والإسلام" لمحمد قطب، و "نظرية دارون بين مؤيِّديها ومعارضيها" لقيس القرطاس، و"كبرى اليقينيات الكونية" للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي).

(1) سورة الذاريات، الآية: 56. أي لم يكن خلقي للجن والإنس إلاَّ لآمرهم بإخلاص العبادة لي وحدي دون سواي.

[لأيِّ شيء خلق الجن والإنس؟]: عبادة الله وحده هي الغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم ونجاتهم وسعادتهم، وهي أُصول جَمِيع الرسالات السماوية، وأمر الله ﷻ الذي جاء على ألسن الرسل، كما قَالَ نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بل كَانَ هَذَا هو الأمر الذي أُمر به الرسل أنفسهم، فقد قَالَ ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [سورة طه، الآية: 14] وقال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 117].

وللناس في هذه العبادة التي خلقوا لها قولان:

أحدهما: إنها وقعت منهم، ثُمَّ هؤلاء منهم من يقول: جميعهم خلقوا لها، ومنهم من يقول: إِنَّمَا خلق لها بعضهم.

والقول الثاني: إنهم كلهم خلقوا لها، ومع ذَلِكَ فلم تقع إلا من بعضهم، وهؤلاء على فريقين:

الفريق الأول يقول: إن الله لم يشأ إلا العبادة لكنهم فعلوا ما لا يشاؤه بغير قدرته ولا مشيئته، وهم القدرية المنكرون لعموم قدرته ومشيئته وخلقه. =

= **والفريق الثاني يقول:** بل كل ما وقع فهو بمشيئته وقدرته وخلقه، لكن هو لا يحب إلاَّ العبادة التي خلقهم لها ولا يأمر إلاَّ بذلك؛ فمنهم من أعانه ففعل المأمور به، ومنهم من لم يفعله، واللاَّم عند هؤلاء كاللاَّم في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 185]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [سورة الحج، من الآية: 34]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 6] ونحو ذَلِكَ مما فيه أن الله يفعل فعلاً لغاية يحبها، ويرضاها، ويأمر بها عباده، وإذا حصلت لهم كَانَ فيها نجاتهم وسعادتهم، ثُمَّ منهم من يعينه على فعلها، ومنهم من لا يفعلها.

وهذا الذي قد أشكل على طائفة من الناس وقالوا: كيف يفعل فعلاً لغاية مع علمه أنها لا تحصل، وأجيب بأنَّ الغاية التي يراد الفعل لها هي غاية مرادة للفاعل، ومراد الفاعل نوعان:

أ ـ فتارة يفعل فعلاً ليحصل بفعله مراده، فهذا لا يفعله وهو يعلم أنه لا يكون، والله تعالى يفعل ما يريد، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولكن الله يفعل ما يريد.

ب ـ وتارة يريد من غيره أن يفعل فعلاً باختياره، لينتفع ذَلِكَ الفاعل بفعله، ويكون ذَلِكَ محبوباً للفاعل الأول؛ كمن يبني مسجداً ليصلي فيه الناس، ويعطيهم مالاً ليحجوا به، ويجاهدوا به، وسلاحاً ليجاهدوا به، ويأمرهم بالمعروف ليفعلوه، وينهاهم عن المنكر ليتركوه، وهم إذا فعلوا ما أراده لهم، ومنهم، كَانَ صلاحاً لهم، وكان ذَلِكَ محبوباً له، وإن لم يفعلوا ذلك، لم يكن صلاحاً لهم، ولا حصل محبوبه منهم، ولهذا زعمت القدرية النَّافية أنَّ الربَّ ليس قادراً على هدي العباد، وهو تحريف عند أهل السنة، فإنَّه سبحانه لو شاء لآتى كل نفس هداها، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة يونس، من الآية: 99] لكن المخلوق قد يُعين بعض من أمره لمصلحة له في إعانته، ولا يعين آخر، والربُّ تعالى قد يُعين المؤمنين فيفعلوا ما أُمروا به، وأحبه الله منهم، ولا يُعين آخرين لما له في ذَلِكَ من الحكمة، فإن الفعل لا يوجد إلاَّ بلوازمه، وانتفاء أضداده، وقد يَكُون في وجود ذَلِكَ فوات حكمة له هي أحب إليه =

= من طاعة أولئك أو وجود شيء دفعه أحب إليه من حصول معصية أولئك، ومثاله: أن فرعون لو أطاع، لم يحصل ما حصل من الآيات العظيمة، التي حصل بها من المأمور ما هو أعظم من إيمان فرعون، وكذلك صناديد قريش لو أطاعوا لم يحصل ما حصل من ظهور آيات الرسول، ومعجزة القرآن وجهاد المؤمنين، الذي حصل به من طاعة الله ومحبوبه، ما هو أعظم عنده من إيمان صناديد قريش، وعلى هَذَا فيجوز أن يقال: إنَّ الله إِنَّمَا خلق الجنَّ والإنس ليعبدوه، فإنَّ هَذَا هو الغاية التي أرادها منهم بأمره، وبها يحصل محبوبه، وبها تحصل سعادتهم ونجاتهم، وإن كَانَ منهم من لم يعبده، ولم يجعله عابداً له، إذا كَانَ في ذَلِكَ الجَعل تفويتُ محبوبات أُخر، هي أحب إليه من عبادة أولئك، وحصول مفاسد أخر، هي أبغض إليه من معصية أولئك.

والله ﷻ أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنذر العباد، وأزاح عللهم، وفعل بهم من الأسباب التي بها يتمكنون من الطاعة أعظم مما يفعله كل آمر غيره بالمأمورين، فليس أحد أزاح علل المأمورين أعظم من الله ﷻ فلا تقوم حجة آمر على مأمور إلا وحجة الله على عباده أقوم، ولا يستحق مأمور من آمره ذمًّا ولا عقابًا لمعصيته إلاَّ واستحقاق عصاة الله لأمره أعظم استحقاقاً وذمًّا.

فإن قَالَ قائل: كيف يفعل فعلاً لغاية مع علمه أنها لا تحصل؟ كَانَ جوابه: أنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يمتنع إذا كَانَ ليس مراده إلاَّ تلك الغاية فقط، فإذا لم تحصل، لم يحصل ما أراده، ومن فعل شيئاً لأجل مراد يعلم أنه لا يحصل، كَانَ ممتَنَعاً، وبهذا يبطل قَوْل القدرية الذين يقولون: لم يرد الآمر إلاَّ المأمور، وما سواه واقع بغير مراده، وقد خلق الخلق لذلك المراد بعينه، مع علمه أنَّه لا يكون، وهذا تناقض، ويقولون أيضاً: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

وأمّا أهل السنة الذين يقولون ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه لا يقع إلاَّ ما شاءه، وإن وقع ما لم يحبه ويأمر به فلحكمة له في ذَلِكَ باعتبارها خلَقَه، ولولا الغاية التي يريدها به، لم يخلُقه، ولا إشكال على قَوْل أهل السنة إذَا عُلم أنَّ الربَّ له مراد بما أمر، وله مراد بما خلق، فإذا لم يحصل ما أمر به، فقد حصل ما خلقه فما حصل إلا مراده، وهو لم يخلق ذَلِكَ المعين الذي أمر به لئلا يستلزم عدم مراد أحبَّ إليه منه، وهو ما خَلَقَه وقد يَكُون ذَلِكَ المأمور يستلزم تفويت مأمور آخر هو أحبّ إليه منه. (درء التعارض لشيخ الإسلام، ج8 ص 468 وما بعدها بتصرف كبير). =

خَلَقَهُمْ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَ اخْتَارَهُمْ مِنْ خَلْقِهِ(1)، وَأَوْحَى إِلَيْهِمْ

= قال ابن عطية الأندلسي: " وإجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع، لأنه لو أراد ذَلِكَ لم يَصِحّ وُقُوع الأمر بخلاف إرادته ". (تفسير ابن عطية، ج5 ص 182).

(1) **[اصطفاء الأنبياء من عموم الخلق]**: قَالَ تعالى في كتابه الحكيم: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [سورة الحج، الآية: 75]، وقال أيضاً في شأن الأنبياء والمرسلين: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [سورة الأنعام، الآية: 87]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 124] فالله ﷻ اختار الأنبياء من خيرة قومهم شرفاً وخَلْقاً وخُلُقاً، نزَّههم عن الرذائل والذنوب حتى لا تكون مطية لأقوامهم للطعن في صدق رسالتهم، وهو ﷻ أعلم بمن يصلح لقبولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: " خلق الله تعالى الخلق لعبادته، ثُمَّ أبان ـ جلَّ وعلا ـ أن خيرته من خلقه أنبياؤه، فقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 13]، فجعل النبيين ـ صلى الله عليهم وسلم ـ من أصفيائه دون عباده بالأمانة على وحيه، والقيام بحجته فيهم، ثُمَّ ذكر من خاصة صفوته فقال ـ جل وعز ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [سورة آل عمران، الآية: 33]، فخص آدم ونوحاً بإعادة ذكر اصطفائهما، وذكر إبراهيم فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [سورة النساء، من الآية: 125]، وذكر إسماعيل بن إبراهيم فقال ـ عز ذكره ـ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [سورة مريم، الآية: 54]، ثُمَّ أنعم الله ﷻ على آل إبراهيم وآل عمران في الأمم فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾. قَالَ الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: ثُمَّ اصطفى الله ﷻ سيدنا محمداً ﷺ من خير آل إبراهيم وأنزل كتبه قبل إنزاله الفرقان على محمد ﷺ بصفة فضيلته وفضيلة من اتبعه به فقال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ الآية [سورة الفتح، من الآية: 29]، وقال لأمَّته: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 110] ففضيلتهم بكينونتهم من أمته دون أمم الأنبياء...". (الأم، ج4 ص 159). =

بِالشَّرَائِعِ[1]. جَعَلَ المَلاَئِكَةَ سُفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ[2]، وَأَلْزَمَ جَمِيعَ الأُمَمِ التَّوْحِيدَ

= ويقول الإمام ابن القيم في ذكر شرف النبوة واصطفاء الرسل: " ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصَّهم بأنواع كراماته؛ فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلَّمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً عليًّا على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلاَّ من طريقهم، ولا دخولاً إِلَى جَنَّته إلاَّ خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلاَّ على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه، وأكرمهم عليه، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إِنَّمَا ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عُبِد وأُطيع، وبهم حصلت محابّه تعالى في الأرض" إهـ. (طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص 515 ـ 516).

[كم عدد الأنبياء؟]: عدد الأنبياء على ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي ذر ﵁ قَالَ: «... قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قَالَ: ثلاثمائة وبضع عشر جمًّا غفيراً...». (رواه أحمد في مسنده "21586"، والبيهقي في شعب الإيمان "130" وصححه الألباني في مشكاة المصابيح "5737").

ومن طريق آخر عن أبي ذر ﵁: «... قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قَالَ: مائة ألف وعشرون ألفاً، قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قَالَ: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمًّا غفيراً...». (رواه ابن حبان في صحيحه "361"، والحاكم "4166"، والبيهقي في سننه، ج9 ص 4).

(1) **[تعريف الشرائع]**: الشَّرَائِع جَمْعُ شَرِيعَةٍ، وقيل في تعريفها بأنَّها: وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختبارهم المحمود إِلَى الخير بالذات، وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. (أبجد العلوم لصديق حسن خان، ج2 ص 337).

وقد اختلفت شرائع الرسل في فروع العمل، مع توحد أصل التوحيد، قَالَ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 48] أي: سنة وسبيلاً، ومعنى الآية أنَّه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه. (تفسير القرطبي، ج6 ص 211).

(2) **[السفرة الكرام البررة]**: قَالَ تعالى في وصف الملائكة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [سورة عبس، الآيتين: 15 ـ 16]، السفرة: جمع سافر، والسَّافر في الأصل الكاتب سمي به =

وَتَصْدِيقَ الرُّسُلِ[1].

= لأنَّه يبين الشَّيء ويوضِّحه، قَالَ الزجاج: " قيل للكاتب سَافِر، وللكتاب سِفر لأنَّ معناه أنَّه يبين الشيء ويوضحه ".

والسفرة هم كتبة الملائكة الذين يحصون الأعمال، قَالَ ابن عرفة: " سميت الملائكة سفرة لأنَّهم يسفرون بين الله وبين أنبيائه" وقال أبو بكر: " سُمُّوا سفرة؛ لأنهم ينزلون بوحي الله وبإذنه، وما يقع به الصَّلاح بين الناس، فشبهوا بالسفراء الذين يصلحون بين الرجلين فيصلح شأنهما ". (لسان العرب لابن منظور، ج4 ص 370).

وفي الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة...» (مسلم "798"، وابن ماجة "3779"، وعبدالرزّاق "4194").

ومذهب أهل الحق، أن الله ﷻ جعل الملائكة هم الواسطة بينه وبين الخلق، يدل عليه قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 193 ـ 194].

وقال أيضاً: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة غافر، من الآية: 15] والروح هو الوحي.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره "15945" عن ابن شهاب قَالَ: " قد بين الله لنا في كتابه أنَّه يرسل جبريل إِلَى محمد نبينا ﷺ، فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 97]، وذكر الله الروح الأمين فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ يعني جبريل عليه السلام ".

وروى أيضاً "15946" عن ابن شهاب وسئل، عن الوحي؟ فقال: من الوحي ما يرسل الله به من يشاء من ملائكته، فيوحونه في قلوب من شاء من رسله، فقد بين الله في كتابه أنه كَانَ يرسل جبريل إِلَى محمد ﷺ فقال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

(1) فكلُّ أمَّة جاءها رسول وجب عليها اتباعه وتصديقه، قَالَ تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأعراف، الآيتين: 35 و36]. =

وَسَخَّرَ لِعِبَادِهِ الْعَوَالِمَ الْعُلْوِيَّة وَالسُّفْلِيَّة لِيَتَمَتَّعُوا وَيَشْكُرُوهُ[1]، ....

= قال الثعالبي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: " الخطاب في هذه الآية لجميع العالم و(إن) هي الشرطية دخلت عليها (ما) مؤكدة، وكان هَذَا الخطاب لجميع الأمم، قديمها وحديثها هو متمكن لهم ومتحصل منه لحاضري نبينا ﷺ أن هَذَا حكم الله في العالم منذ أنشأه، و"يأتينكم" مستقبل وضع موضع ماض، ليُفهم أن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوى الإشارة بصحة النبوة إِلَى نبينا ﷺ وهذا على مراعاة وقت نزول الآية ". (تفسير الثعالبي، ج2 ص 16).

فإن قَالَ قائل: ما جواب قوله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك؛ فقال بعضهم في ذلك: الجواب مضمر، يدل عليه ما ظهر من الكلام، وذلك قوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ وذلك لأنه حين قَالَ: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: فأطيعوهم. (تفسير الطبري، ج8 ص 168).

(1) **[تسخير الكائنات جميعها لصالح العباد]**: ذكَّر الله ﷻ عباده في مواضع كثيرة من كتابه نعمه ومنّه عليهم بتسخير الكون والكائنات كلها لصالحهم، على أن يؤدُّوا حقها من العبادة والشكر، فقال ﷻ في تسخيره لنعمة الأرض وما يخرج منها: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة يس، الآيات: 33 ـ 35].

وفي تسخيره لنعمة الحيوان وما ينتج عنه يقول ﷻ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة النحل، الآيات: 5 ـ 8]، وقال أيضاً: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة النحل، من الآية: 80].

وفي تسخيره لنعمة البحر وما يخرج منه يقول ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النحل، الآية: 14].

وفي تسخيره لنعمة السماء وما فيها وما ينزل منها يقول ـ جلَّ وعلاَ ـ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ =

....

= ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ [سورة النحل، الآيات: 9 ـ 12].

بل ما خلق الله في الإنسان من نعم البصر والسمع وغيرها، وسخرها له لينتفع بها فيقول ـ عزَّ من قائل ـ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [سورة النحل، الآية: 78].

فكلّ هذه النعم السابغة إِنَّمَا وفاؤها من العبد العبادة والشكر لمسبِغها، لأنه المنعم بها: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل، من الآية: 53]، ومهما عَبَد البشرُ، ومهما شكروا فلن يوفوا أدنى نعمة أسبغها الله عليهم، فهو الكريم المطلق وهو الغني المطلق سبحانه من رب عظيم.

[موقف الفرق الضالّة من شكر المُنعم سبحانه وتعالى]: هذه الآيات التي سبق سردها وما في معناها قصمت ظهور المبتدعة من الجبرية والقدرية والفلاسفة والباطنية الذين عطلوا شكر المنعم ﷻ.

فردَّت قَوْل الجبرية الذين يقولون بأنه ليس برحيم ولا بمنعم، فلا يستحق أن يُعبد، ولا أن يُشكر، لأنه يفعل بمحض مشيئته، فصدور الإحسان منه كصدور الإساءة، وكل الممكنات عنده متماثلة، فلا فرق بين أن يريد نفع الخلق والإنعام عليهم، أو يريد الإساءة إليهم وإهلاكهم، وإنما المنعم الذي يستحق الشكر هو ذاك المنعم الذي يقصد الإحسان والإنعام على المنعَم عليه دون قصد ضرره وإهلاكه، وأما إذا قصد الأمرين فليس جعله منعماً مصلحاً بأولى من جعله معتدياً مفسداً، ومن كَانَ كذلك فليس بأهل لأن يعبد أو يشكر، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيراً.

وردّت قَوْل القدرية النافين الذين يقولون بأن إحسانه وإنعامه إِلَى الخلق واجب عليه، ومن فعل ما يجب عليه لمن يستحقه منه لم يستحق الشكر المطلق.

وردّت قَوْل الفلاسفة كأرسطو وأتباعه مِمَّنْ عطلوا صفات المولى ﷻ، فهو عندهم لا يخلق شيئاً، ولا يفعل شيئاً، ولا يريد شيئاً، فعلى أي شيء يُشْكَر إذن أو يحمد أو يعبد.

وردّت قَوْل الباطنية من الشيعة والمتصوفة مِمَّنْ يقولون بالاتحاد كابن سبعين =

قَـالَ تَـعَـالَـى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾[1].

وَمِنْ لُطْفِهِ ﷻ أَنَّهُ شَرَعَ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَأَحْكَامِ الْمُعَامَلاَتِ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا يَلِيقُ بِهِمْ زَمَانًا وَإِقْلِيمًا، وَإِذْ جَعَلَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ سَمْحَاءَ، ثَابِتَةَ الأَصْلِ، لاَ تَتَزَعْزَع، بَاسِقَةَ الأَغْصَانِ، صَالِحَةً لِكُلِّ قَوْمٍ، وَكُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ[2]، خَتَمَ بِهَا الشَّرَائِعَ، وَأَدْخَلَ فِي حُدُودِهَا كُلَّ مُكَلَّفٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،

= وابن عربي، فالوجود عندهم واحد، فالرب هو عين العبد، والعبد هو عين الرب، فمن حمد وشكر فإنما يحمد ويشكر نفسه، فكيف يَكُون منه ذلك. (باختصار وتصرف من: رسالة في تحقيق الشكر ـ من جامع الرسائل ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص 103 ـ 105).

فتعالى الله عما يقوله أهل الجهل والضلالة علوّاً كبيراً، وإليه الأمر من قبل ومن بعد، وله أتم الحمد وأكمل الشكر.

(1) سورة الجاثية، الآية: 13.

(2) **[شريعة الإسلام حنيفية سمحة]**: هذه الشريعة التي منّ الله ﷻ بها على الخلق، شريعة الفطرة والحنيفية السمحة والتوحيد الخالص، وشريعة اليسر والمرونة ورفع الحرج، ارتضاها الله أن تكون خاتمة شرائعه، وشرع فيها من الأحكام ما يحفظ ديمومتها، ويجعلها صالحة للتطبيق في كل زمان وكل مكان، فكانت رسالة عالمية مخاطبة لجميع البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وألسنتهم، للإنس والجنّ، قَالَ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [سورة الروم، الآية: 30].

وعن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة». (رواه أحمد في مسنده "22345"، والطبراني في الكبير "7868"، وذكر الهيثمي في "مجمع الزوائد" (ج5 ص 279) إسناد أحمد والطبراني وضعفهما. وذكره الألباني في سلسلته الصحيحة، ج6 ص 1022 ح "2924").

وعن ابن عباس ﷺ قَالَ: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إِلَى الله؟ قَالَ: «الحنيفية السمحة». (رواه أحمد "2107"، وعبد بن حميد في مسنده "569" وحسنه الألباني). =

فَلَا يُعْبَدُ إِلاَّ بِهَا[1]، ....

= وإنَّما نالت هذه الأمة دين الحنيفية السمحة ببركة اتباعها للنبي ﷺ، وكل مَن آمن بالنبي ﷺ وصدَّق بما جاء به من أهل الكتاب، رُفع عنه الحرج، ووُضع عنه الإصر، فلا يَقتل نفسه لذنب، ولا يَقطع جلده لبول أصابه، وأُحلت له الغنائم، وعَبَد الله أينما حَلَّ، قَالَ مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 157]، قَالَ: من اتبع محمداً ودينه من أهل الكتاب، وضع عنهم ما كَانَ عليهم من التشديد في دينهم. (تفسير الطبري، ج9 ص 85).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج، من الآية: 78]، فالحرج في الدين مرفوع كله أينما كان، وليس فيه شدة على أحد، فهو كله يسر، لا إفراط فيه ولا تفريط، كما قَالَ ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه...» (البُخَارِي "39").

(1) **[شريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة]**: الدين الذي ارتضاه الله ﷻ أن يَكُون خاتماً لجميع الأديان والمهيمن عليها، قَالَ ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 85]، ولا يَصِحّ التعبد بأي شريعة غير الإسلام، وقد قَالَ ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ حين رأى معه صحيفة من التوراة: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ لو كَانَ أخي موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي» (البيهقي في شعب الإيمان، ج1 ص 200، ومصنف ابن أبي شيبة "26421"، وحسنه الألباني في إرواء الغليل "1589").

فدل الحديث على أن الأنبياء من أصحاب الرسالات لو حضروا رسالة نبينا محمد ﷺ لما وسعهم أن يدينوا بغيرها، وقد عُرف من الأخبار الصحيحة أن نبي الله عيسى ابن مريم ﷺ بعد نزوله في آخر الزمان لا يدين إلا بدين الإسلام، وليحجنَّ البيت الحرام على منهاج رسالة النبي الخاتم ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الرَّوحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنيهما». (مسلم "1252"، وابن حبان "6820"، وأحمد في المسند "7271").

وأخبر ﷺ أن عيسى ﷺ بعد نزوله يقاتل الناس على الإسلام، ويهلك جَمِيع الملل سوى الإسلام، ويموت على الإسلام، ويصلي عليه المسلمون، =

وَشَرَطَ فِي قَبُولِ عِبَادَتِهِ الإِيمَانَ[1].

س ـ الإِيمَانُ بِمَاذَا؟

ج ـ الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ كُلِّهِ[2].

= فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ بعد أن وصف عيسى عليه السلام: «... فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدَّجَّال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثُمَّ يتوفى فيصلي عليه المسلمون». (ابن حبان "6821"، والحاكم "4163"، وأبو داود "4324"، وصححه الألباني في صحيح الجامع "5389").

(1) **[الإيمان شرط في قبول الأعمال]**: وهذا مما علم من الدين بالضرورة، فلا يقبل الله ﷻ عملاً إلاَّ أن يَكُون خالصاً لوجهه، ولا يخلص عمل عامل لله ما لم يكن دائنا لله بالإسلام، وقلبه مطمئناً بالإيمان، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [سورة البينة، الآية: 5].

وقد وعد الله ﷻ كل من آمن به، وأخلص له العمل بأن لا يضيع له عملاً، ولا يكفر له سعياً، فقال ﷻ وهو أصدق القائلين: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 94].

والإيمان كما عَرَّفه المصنف في "عقائده الصغرى": هو مجموع ثلاثة أمور؛ تصديق القلب، ونطق اللسان، والعمل الصالح. والإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي لكن لا يسلب عن العاصي مطلق وصف المؤمن إلاَّ إذا شك بقلبه أو نطق كفراً بلسانه. إهـ (العقائد الصغرى ورقة "17").

(2) **[أركان الإيمان]**: هذه هي أركان الإيمان الست التي لا يسع المكلف جهلها، ولا يَصِحّ إيمان المؤمن إلاَّ إذا تيقنها قلبه دون أدنى ريب، وهذه الأركان هي التي حددها النبي ﷺ لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال ﷺ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه». (مسلم "8"، وأبو عوانة "74"). =

= ومن أخل بركن منها، أو دخله الشك في واحد منها فليس له من الإسلام نصيب.

[الإيمان عند أهل السنَّة قول وعمل يزيد وينقص]: الإيمان عند جَمَاعَة الحَقّ من أهل السنة والجماعة؛ قَوْل وعمل، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، قَالَ حافظ بلاد الأندلس والمغرب أبو عمر بن عبدالبر: " أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قَوْل وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان ". (التمهيد، ج9 ص 238).

وقال في موضع آخر: " وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم: مالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي، وأبو جعفر الطبري، ومن سلك سبيلهم فقالوا: الإيمان قَوْل وعمل، قَوْل باللسان؛ وهو الإقرار، اعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، مع الإخلاص بالنية الصادقة، قالوا: وكل ما يطاع الله ﷻ به من فريضة ونافلة فهو من الإيمان، والإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الإيمان من أجل ذنوبهم، وإنما صاروا ناقصي الإيمان بارتكابهم الكبائر ". (التمهيد، ج9 ص 243).

وعن محمد بن يوسف البناء الصوفي قَالَ: سمعت أحمد بن حنبل وقد سأله رجل عن زيادته ونقصانه ـ يعني الإيمان ـ فقال: " يزيدُ حتى يبلغ أعلى السموات السبع، وينقص حتى يصير إِلَى أسفل السافلين السبع ". (المقصد الأرشد لابن مفلح، ج2 ص 325 "840").

ودلَّت على هَذَا القول النُّصُوص الصريحة من الكتاب والسنة، قَالَ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾ [سورة التوبة، الآية: 124].

وقال أيضاً: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [سورة مريم، من الآية: 76].

وكذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة الأنفال، من الآية: 2].

وغير هذه الآيات كثير، تدل كلها على أن الإيمان يزيد وينقص ويتفاوت بين المؤمنين على قدر الإقبال على الطاعات واجتناب المعاصي. =

س ـ مَا مَعْنَى: وَبِالْقَدَرِ كُلِّهِ؟

ج ـ هُوَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّهُ لاَ يَقَعَ شَيْءٌ فِي الْكَوْنِ إلاَّ بِعِلْم اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَقَدْ أَمَرَ اللّهُ القَلَمَ فَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ مَا سَيَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[1].

= وعلى الرّغم من الذي ذكرنا أنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه، وقالوا: متى قَبِل الزيادة كَانَ شكًّا وكفرًا.

وقال بعض المحققين منهم: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها، قالوا: وفى هَذَا توفيق بين ظواهر النُّصُوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف، وبين أصل وضعه في اللّغة وما عليه المتكلمون.

قال الإمام النووي: وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كَانَ ظاهراً حسناً، فالأظهر ـ والله أعلم ـ أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يَكُون إيمان الصدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشّبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال. اهـ. (شرح صحيح مسلم للنووي، ج1 ص 148).

(1) [الإيمان بالقدر]: هو الإيمان بتقدم علم الله سبحانه بما يَكُون من إكساب الخلق وغيرها من المخلوقات، وصدور جميعها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها. (الاعتقاد للبيهقي، ص 132).

والإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان التي لا يقوم إيمان مؤمن بدونها، والتي دلَّ عليها حديث جبريل المشهور.

وتضافرت النُّصُوص من الكتاب والسنة على وجوب الإيمان بالقدر، ودلَّت على أن الله ﷻ قدَّر أمور الخلق والكون في الأزل، ولا يقع شيء منها إلاَّ على وفق ما عَلِم وقدَّر بإذنه ﷻ، قَالَ ﷻ في محكم تنزيله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: 38]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر، الآية: 49].

وروى مسلم في صحيحه عن طاوس أنه قَالَ: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: " كل شيء بقدر ". قَالَ ـ أي طاوس ـ: وسمعت عبدالله بن عمر رضي الله عنه يقول: قَالَ رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدَر، حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز». (صحيح مسلم "2655"، والبيهقي في "الاعتقاد" ص 135). =

. . . .

= وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». (مسلم "2653"، وعبدالله بن وهب في كتاب القدر "17").

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قَالَ: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [سورة هود، من الآية: 105] سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله فعلى ما نعمل، على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قَالَ: «بل على شيء قد فرغ منه، وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له». (رواه الترمذي "3111" وقال: حديث حسن غريب، والبزار "168"، وعبد بن حميد "20"، وابن أبي عاصم في السنة "170"، وصححه الألباني).

وقال عبادة بن الصامت ﷺ لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قَالَ: رب وماذا أكتب؟ قَالَ: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هَذَا فليس مني». (رواه أبو داود بلفظه "4700"، والبزار "2687"، والطبراني في مسند الشاميين "59"، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود).

[موقف القدرية والجبرية من الإيمان بالقدر]: تكلم أقوام في القدر فأخلطوا فيه الحَقّ بالباطل، وصاروا فيه بين مفرط ومغال، فضلوا وأضلوا جميعاً، وإنما آلت بهم السبيل إِلَى الانحراف لما ابتعدوا عن ضوابط النصوص، وقدموا تفاهات العقل على محكمات النقل، فزلت أقدامهم وانحرفت أفهامهم وآلوا إِلَى تحكيم أوهامهم.

فردت القدرية والجبرية جَمِيع الأحاديث والآيات الواردة في القدر، وصار قولهم في القَدَر حجة لكل كافر ومشرك وظالم، ولم يعد للحدود في قولهم معنى، ولا يلام جان على جنايته، ولا ظالم على ظلمه، وأبطلوا الوعد والوعيد.

فالجبرية اعتذروا عن المعاصي أنها بقضاء الله وقدره، والرضاء بالقضاء قربة وطاعة، فقالوا: نرضى بالمعاصي ولا نسخطها.

وأما القدرية النفاة فقالوا: إن المعاصي ليست بقضائه وقدره، فلا يجوز الرضا بها. =

س ـ مَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ وَالْكِتَابَةُ؟

ج ـ هِيَ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ الَّتِي ثَبَتَ وُجُودُهَا بِلِسَانِ الشَّرْعِ، فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِهَا، وَلاَ يَضُرُّ عَدَمُ عِرْفَانِ كَيْفِيَّاتِهَا(1).

= وأما القدرية الغلاة فقالوا بأنه ﷻ لا يعلم أعمال العباد حتى يعملوها، ولم يعلمها قبل ذلك، ولم يكن كتبها، ولا قدرها فضلاً عن أن يَكُون شاءها وكونها.

وهؤلاء خرجوا بهذا التأويل عن أهل الحَقّ والتوحيد، وسلكوا سبيلاً غير سبيل المؤمنين.

وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد، فهو دليل على القدر، وخَلْق أفعال العباد، ولهذا كَانَ إثبات القدر أساس التوحيد، قَالَ ابن عباس ﷺ: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر، كَانَ كفره بالقضاء نقضاً للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر، كَانَ العروة الوثقى لا انفصام لها". (اعتقاد أهل السنة للالكائي "1224"، وشفاء العليل لابن القيم، ص 65).

(1) **[معنى اللَّوح والقلم والكتابة]**: كل مؤمن ملزم بالإيمان بالغيب، وبما استأثر الله بعلمه من الغيبيات، فالله ﷻ وحده الذي يعلم الغيب: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية: 65] وما على المؤمن إلا الإيمان والتصديق به: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [سورة الملك، الآية: 12]. واللوح والقلم والكتابة هي من الأمور الغيبية التي أخبرنا عنها الله ﷻ ورسوله ﷺ على الجملة، واستأثر الله بتفاصيلها.

فأخبرنا الله ﷻ عن اللوح فقال في محكم تنزيله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [سورة البروج، الآيتين: 21 ـ 22].

وأمر الله ﷻ القلم أن يكتب في اللوح مقادير الخلائق إِلَى يوم القِيَامَة، قَالَ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "خلق الله ﷻ اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب علمي في خلقي، فجرى إِلَى ما هو كائن إِلَى يوم القِيَامَة". (رواه أبو محمد الأصبهاني في العظمة "32").

[اختلاف أهل السنَّة في أوَّل المخلوقات]: اختلف العلماء في تحديد أول شيء خلقه الله ﷻ؛ فدل حديث عبادة بن الصامت ﷺ المتقدم أن القلم هو أول الخلق، ودل حديث عمران بن حصين ﷺ أن العرش هو أول الخلق، =

....

= فعن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «كَانَ الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء». (رواه البُخَارِي "6982"، وابن حبان "6142").

ونقل ابن حجر عن أبي العلاء الهمذاني أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولاً؛ العرش أو القلم، قَالَ: والأكثر على سبق خلق العرش، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني. (فتح الباري، ج6 ص 289).

[تعدّد الأقلام والكتابات]: قال القرطبي: " قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة:

القلم الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب.

والقلم الثاني: أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم " إهـ. (تفسير القرطبي، ج20 ص 121).

والكتابات أيضاً متعددة كما دلت على ذَلِكَ النصوص:

فأولها كتابة مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ كما سبق ذكره في الأحاديث.

وهناك كتابة **ثانية** دلَّ عليها حديث أبى هريرة ﷺ حيث قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي». (أخرجه مسلم بلفظه "2751"، والبخاري "3022").

وهناك كتابة **ثالثة**؛ وهي كتابة رزق الجنين وأجله وعمله وشقاوته وسعادته وهو مضغة في بطن أمه، فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قَالَ: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة، ثُمَّ يَكُون علقة مثله، ثُمَّ يَكُون مضغة مثله، ثُمَّ يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات؛ فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد...». (البُخَارِي بلفظه "7016"، ومسلم "2645").

والرَّابعة كتابة الله ﷻ لعمل ابن آدم من الحسنات والسيئات، فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «قَالَ الله ﷻ: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها». (مسلم "129"، وابن حبان "379"، وأحمد "8151"). =

س ـ مَا وَظِيفَةُ الْعَقْلِ فِي هَذَا العِلْمِ؟

ج ـ الْعَقْلُ تَابعٌ لِلْشَّرْعِ وَخَادِمٌ لَهُ.

الْعَقْلُ مَخْلُوقٌ، وَالْمَخْلُوقُ لاَ يَعْرِفُ مِنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ إلاَّ مَا عَرَّفَهُ خَالِقُهُ، فَلاَ يَعْتَقِد وَلاَ يَتَكَلَّم أَحَدٌ فِي أُمُورِ خَالِقِهِ إلاَّ مَا أَذِنَ لَهُ فِيهِ، فَالْعَقْلُ لاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْحُكْمِ فِي المَبَاحِثِ الإلَهِيَّةِ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا إلاَّ بِتَلَقِّي عِلْمِهَا مِنْ إِفَادَةِ النُّبُوَّةِ[1].

= **والخامسة** كتابة الملائكة الذين وُكِّلوا بعمل ابن آدم، قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الانفطار، الآيتين: 10 ـ 11]، وقال ﷺ: «إذا كَانَ يوم الجمعة، كَانَ على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأوَّل فالأوَّل، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر». (البُخَارِي "3039"، والنسائي السنن الكبرى "1689").

(1) **[منزلة العقل في علم العقيدة]**: مباحث العقيدة من المباحث التوقيفية التي لا شأن للاجتهاد فيها، فوجب الوقوف فيها عند حدود النص، ولا يتعدى إِلَى غيره، ولا وظيفة للعقل في مباحث العقيدة إلا التفهم لمقصود النُّصُوص من الكتاب والسنة.

فالعقل ـ كما قَالَ المصنف ـ تابع للشرع فيما يمليه عليه من الأحكام والإرشادات، وخادم له في الاستنباط من نصوصه، وبيان أحكامه، وحل مشكله. . . فصفات الله ﷻ وأسماءه لا تدرك بالعقل، لأن العقل إِنَّمَا يعلم صفة ما رآه أو رأى نظيره، والله تعالى لا تدركه الأبصار، ولا نظير له ولا شبيه، فلا تعلم صفاته وأسماؤه إلا بالتوقيف، والتوقيف إِنَّمَا ورد بأسماء الله وصفاته دون كيفيتها وتفسيرها، فيجب الاقتصار على ما ورد به السمع، لعدم العلم بما سواه، وقد حرم الله القول على ذاته العلية بغير علم، دل على ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: 33] ". (انظر: ذم التأويل لابن قدامة، ص 41 ـ 42).

ومع ذَلِكَ فشأن العقل عظيم في أمور الدنيا والدين، وعليه وقع الخطاب من رب العالمين، وبه فُضِّل البشر عمن سواهم من المخلوقين، قَالَ أبو الحسن الماوردي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: " اعْلَمْ أنَّ لكلِّ فضيلةٍ أُسًّا، ولكلِّ أدبٍ يَنبوعًا، وأُسُّ الفضائِلِ =

. . . .

= وينبُوعُ الآدابِ هو العَقلُ، الذِي جعلهُ اللهُ تعالَى للدِّينِ أصلاً، وللدُّنيَا عمادًا، فأوْجبَ الدينَ بكمالهِ، وجعَلَ الدُّنيَا مُدبَّرةً بأحكامهِ، وألَّف بهِ بين خَلْقهِ مع اخْتلاف هِممهمْ ومَآربهِمْ، وتبَايُنِ أغرَاضِهِمْ وَمَقَاصدهِمْ ". (أدب الدنيا والدين للماوردي، ص 16).

بل لولا العقل ما عرف العبد ربه ولا آمن بكتبه ولا رسله، وإلا لاستوى إيمان البشر والدواب، وتطابقت معرفتهم بالخالق، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: " وهذا ثمرة العقل الذي به عرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأسماؤه وصفات كماله، ونعوت جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عرفت آيات ربوبيته، وأدلة وحدانيته، ومعجزات رسله، وبه امتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه، وهو الذي تلمح العواقب فراقبها، وعمل بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى فرد جيشه مفلولاً، وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كَانَ بسهامه مقتولاً، وحث على الفضائل، ونهى عن الرذائل، وفتق المعاني، وأدرك الغوامض، وشد أزر العزم فاستوى على سوقه، وقوى أزر الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يزين، ونفى ما يشين. . .". (روضة المحبين، ص 7 ـ 8).

لكن ـ على رغم منزلته ـ فالعقل عند جمهور أهل السنة والجماعة لا يوجب شيئاً، ولا يحرم شيئاً، ولا حظ له في شيء من ذلك، وَلَوْ لم يرد الشرع بحكم، ما وجب على أحد شيء لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية: 15]، وقوله أيضاً: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ وغير ذَلِكَ من الآيات التي دلت على أن ما وجب وجب بالسمع لا بالعقل، لأن الله عز وجل نص أنه لا يعذب أحداً حتى يبعث الرسول.

ومن زعم أن دعوة رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إِنَّمَا كانت لبيان الفروع، لزمه أن يجعل العقل هو الداعي إِلَى الله دون الرسول، ويلزمه أن وجود الرسول وعدمه بالنسبة إِلَى الدعاء إِلَى الله سواء، وكفى بهذا ضلالاً، وأهل السنة والجماعة لا ينكرون أن العقل يرشد إِلَى التوحيد، وإنما ينكرون أن يستقل بإيجاب ذَلِكَ حتى لا يَصِحّ إسلام إلا بطريقه مع قطع النظر عن السمعيات، لكون ذَلِكَ خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب، والأحاديث الصحيحة، التي تواترت وَلَوْ بالطريق المعنوي، وَلَوْ كَانَ كما يقول الموجبون للنظر لبطلت السمعيات التي لا مجال للعقل فيها أو أكثرها، بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعيات، =

= فان عقلناه فبتوفيق الله، وإلا اكتفينا باعتقاد حقيقته على وفق مراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ (بتصرف من فتح الباري، ج13 ص 353، نقلا عن السمعاني، وانظر تفسير السمعاني، ج3 ص 226 ـ 227).

ونقل ابن عطية عن بعض المتكلمين أن العقل لا يوجب ولا يكلف، وإنَّما يوجب الشرع، فالوجه في هَذَا أن يقال: إن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فمن بعده دعا إِلَى توحيد الله دعاء عاماً، واستمر ذَلِكَ على العالم، فواجب على الآدمي البالغ أن يبحث على الشرع الآمر بتوحيد الله تعالى، وينظر في الأدلة المنصوبة على ذَلِكَ بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إِلَى العلم بشرع آمر بتوحيد الله، وهو مع ذَلِكَ لم يكفر، ولا عبد صنماً بل تخلى فأولئك أهل الفترات، الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصر في النظر والبحث فعبد صنماً وكفر، فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنَّار. (ج2 ص 319).

[اشترط قوم نظر العقل لصحَّة الإيمان]: اشترط قوم النظر حتى يَصِحّ إيمان المرء، واستدلوا لمذهبهم بآيات وأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك، الآية: 10]، فدخلوا النَّار لأنهم لم يُعملوا عقولهم حتى يعرفوا ربَّهم، وكذلك كل الرسل حاجوا قومهم بحجج العقل، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية: 10]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية: 117]، حيث لم يقل: ومن يدع مع الله إلهاً آخر بعدما أوحي إليه، أو بلغته الدعوة، واستدلوا كذلك بأن الحجج السمعية لم تكن حججاً إلا باستدلال عقلي، وبأن المعجزة بعد الدعوة لا تعرف إلا بدليل عقلي، وآيات الأنفس والآفاق أدل على الصانع من دلالة المعجزة على أنها من الله تعالى، فلما كَانَ بالعقل كفاية معرفة المعجزة، كَانَ به كفاية معرفة الله تعالى من طريق الأولى، وبأن دعاء جَمِيع الكفرة إِلَى دين الإسلام واجب على الأمة، ومعلوم أن الدهرية لا يحتج عليهم بكلام الله تعالى ورسوله ﷺ، فلم يبق إلا حجج العقول، إِلَى غير ذَلِكَ من الأدلة التي استدلوا بها على وجوب النظر العقلي، ولا حجة فيها، لأن من لم يشترط النظر لم ينكر أصل النظر، وإنما أنكر توقف الإيمان على وجود النظر بالطرق الكلامية، إذ لا يلزم من الترغيب في =

وَكَذَلِكَ الأُمُور الأُخْرَوِيَّة وَمَا أَخْبَرَ بِهِ الشَّرْعُ مِمَّا غَابَ عَنِ الْعَيَانِ، فَلَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهِ وَظِيفَةٌ إِلاَّ التَّعَقُّل وَالتَّفَهُّم لِلْمُرَادِ مِنَ التَّبْلِيغَاتِ النَّبَوِيَّةِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَكُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِلْعَقْلِ، عَرَفَ مَنْ عَرَفَ، وَجَهِلَ مَنْ

= النظر جعله شرطاً في الإيمان، واستدل بعضهم بأن التقليد لا يفيد العلم، إذ لو أفاده لكان العلم حاصلاً لمن قلد في قدم العالم، ولمن قلد في حدوثه، وهو محال لإفضائه إِلَى الجمع بين النقيضين، وهذا إِنَّمَا يتأتى في النبي ﷺ، وأما تقليده ﷺ فيما أخبر به عن ربه، فلا يتناقض أصلاً، واعتذر بعضهم عن اكتفاء النبي ﷺ والصحابة بإسلام من أسلم من الأعراب نظر بأن ذَلِكَ كَانَ لضرورة المبادىء، وأما بعد تقرر الإسلام وشهرته، فيجب العمل بالأدلة.

ولا يخفى ضعف هَذَا الاعتذار، والعجب أن من اشترط ذَلِكَ من أهل الكلام ينكرون التقليد، وهم أول داع إليه، حتى استقر في الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصلوها فهو مبتدع، وَلَوْ لم يفهمها ولم يعرف مأخذها، وهذا هو محض التقليد، فآل أمرهم إِلَى تكفير من قلد الرسول ﷺ في معرفة الله تعالى، والقول بإيمان من قلدهم وكفى بهذا ضلالاً. (بتصرف من: فتح الباري، ج13 ص 354، وروح المعاني للألوسي، ج15 ص 39).

ومال الألوسي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ إِلَى أن العقل حجة في معرفة الصانع، وإنما أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ الرسل رحمة منه تعالى، ولتتمة الدين، ولبيان ما لا ينال بالعقول من أنواع العبادات والحدود، لا لنفس معرفة الخالق لأنها تنال ببداهة العقول. (روح المعاني للألوسي، ج15 ص 41 ـ 42).

وذهب الجهمية والمعتزلة إِلَى أبعد من ذلك، وقالوا: إن تقديم النقل على العقل يوجب القدح فيه بالقدح في أصله، وتلقى هَذَا القول عن المعتزلة متأخرو الأشعرية، وفارقوا قَوْل الأشعري وأصحابه الذين لم يكونوا يقرون بمخالفة النقل للعقل، بل انتصب الأشعري وأصحابه لإقامة أدلة عقلية توافق السمع، ولهذا أثبت الأشعري الصفات الخبرية بالسمع، وأثبت بالعقل الصفات العقلية، التي تعلم بالعقل والسمع، فلم يثبت بالعقل ما جعله معارضاً للسمع، بل ما جعله معاضداً له، وأثبت بالسمع ما عجز عنه العقل، وخالفه المتأخرون من أصحابه؛ فلم يستدلوا بالسمع في إثبات الصفات، وعارضوا مدلوله بما ادعوه من العقليات". (درء التعارض لشيخ الإسلام، ج7 ص 96 ـ 97).

جَهِلَ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم[1].

---

(1) [العقل وعلم الغيب]: علم الغيب من صفات الربوبية التي استأثر الله تعالى بها دون من سواه فلا مضاهي له ولا مشارك، قَالَ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 59]، وقــال أيضـاً: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 65]، وقــال أيــضـــاً: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن، الآيتين: 26 ـ 27].

فعلم الغيب من العلوم الخفية التي لا تدرك بالعقل ولا شأن له فيها، وما ورد من ذَلِكَ على لسان الأنبياء فلا يختلف على أنه من الوحي.

ولأن علوم العقل منحصرة في المشاهدات والمحسوسات، والغيب هو كل ما غاب عن ذلك، فخرج بالجملة عن علوم العقل، وإقحام العقل في علوم الغيب تطاول على الخالق ﷻ، وتكذيب لوحيه الذي أخبر بأنه لا يعلم أحد الغيب إلا هـو: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولـهـذا عـده الـرسـول ﷺ من التنجيم والكهانة، فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قَالَ: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». (رواه أحمد "9532"، والحاكم "15" وصححه على شرط الشيخين، وإسحاق بن راهويه في مسنده "503"، وصححه الألباني في صحيح الجامع "5939").

فالكهانة إخبار عن الغيب، والكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار. (انظر لسان العرب، ج13 ص 363).

ولا يدخل في علم الغيب علم حساب الأفلاك، وتتبع حركة الكواكب بآلات الرصد الحديثة، وتتبع حركات الغيم والريح، والاستدلال بحركتها على ما يقع مستقبلاً من الحوادث، فكل ذَلِكَ ليس من الغيب والكهانة في شيء، وإنما هو من علوم المشاهدات، وإنما يُتوصل إِلَى ذَلِكَ بما حدث مع نظائرها من الحوادث.

[إجماع أهل السنة على أنه لا تعارض بين العقل والنقل]: أما في مسألة التعارض بين العقل والنقل فقد ثبت بالاستقراء عند العقلاء أنه لا تعارض بين عقل صريح ونقل صحيح، وعلى هَذَا إجماع أهل السنة والجماعة، قَالَ الإمام ابن القيم بعد أن أثبت بالحجة والبرهان أنه ليس في نصوص الشريعة ما يخالف القياس: "فهذه نبذة يسيرة تطلعك على ما وراءها من أنه ليس في الشريعة شيء يخالف القياس، ولا في المنقول عن الصحابة الذي لا يعلم لهم فيه مخالف، وأن القياس =

حَافِظُواْ عَلَى هَذَا الأَسَاسِ الكُلِّي فَهوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ الْكُفرِ وَالإِيمَانِ، وَبَيْنَ الْخَطَأ وَالصَّوَابِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَكُلُّ حُكْم خَرَجَ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَهوَ مَظْنُونٌ أَوْ مَوْهُومٌ مِنْ قَائِلِهِ الأَوَّل بِنَاءً عَلَى قِيَاسَاتٍ لَمْ تَطَّرِدْ فَلَا يَقِينَ فِيهِ، وَلاَ يَجُوزُ اعْتِقَادُهُ، وَنَتَائِجُ الأَفْكَارِ لاَ تُقَاوِمُ وَحْيَ الْجَبَّارِ.

وَسَبَبُ الْخَطَأ الْقُصُورُ فِي الإِحَاطَةِ بِأَصْلِ الْمَسْأَلَةِ أَوْ تَعْرِيفِهَا، فَلَوْ اسْتَكْمَلَت لأَهْلِ الفَنِّ لَقَرَّ قَرَارُهُمْ عَلَى الإِذْعَانِ إِلَى مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ.

نَعَمْ مَا كَانَ غَيْر مُصَرَّحٍ بِهِ فِي النَّصِّ الدِّينِي فَهوَ لَيْسَ مِنْ هَذَا البَابِ.

فَهَذِهِ الْمَسْأَلَة - وَهِيَ عِرْفَانُ وَظِيفَة الْعَقْلِ فِي هَذَا العِلْمِ وَتَوْقِيفه عِنْدَ حَدِّهِ - هِيَ إِحْدَى النُّقْطَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا مَنْبَعُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ.

وَالنُّقْطَة الثَّانِيَة: اعْتِقَادُ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ: مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وَفَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ زَالَ عَنْ فِكْرِهِ أَكْثَر الإِشْكَالاَت الْمُضِلَّة؛ لأَنَّهُ بِقُدْرَةِ اللهِ تَنْخَرِقُ الطَّبِيعَة، فَكَمَا أَنَّ جَرَيَانِهَا فِي سَبِيلِهَا[1] الْمُعْتَاد هُوَ بِفِعْلِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَلاَ إِشْكَالَ فِي تَغْيِيرِهِ[2]، وَمَجْرَاهَا الْحِكْمَةُ أَيْضًا، فَاللّهُ لَمْ يَلْتَزِمْ

= الصحيح دائر مع أوامرها ونواهيها وجوداً وعدماً، كما أن المعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجوداً وعدماً، فلم يخبر الله رسوله بما يناقض صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل ". (إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج2 ص 71).

ونقل عن شيخه ابن تيمية أنه قَالَ: " ما عرفت حديثاً صحيحاً إلا ويمكن تخريجه على الأصول الثابتة - أي من المعقول والمنقول ـ قَالَ: وقد تدبرت ما أمكنني من أدلة الشرع؛ فما رأيت قياساً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً، كما أن المعقول الصحيح لا يخالف المنقول الصحيح ". (إعلام الموقعين، ج2 ص 47).

(1) في الأصل: سبيل.

(2) لأنه لو طرح الإشكال عد ذَلِكَ قدحاً في مطلق القدرة الإلهية التي يتصف بها الباري ﷻ، لأنه ﷻ بقدرته وإرادته جعل قوانين الطبيعة تسير في السبيل الذي أراده وقدره على ما نراه ونعيشه، وهو ﷻ قادر على أن يغير مجراها على غير ما =

عَدَم تَغْيِيرِ الْمُعْتَادِ مِنْ مَجَارِي الطَّبِيعَةِ، بَلْ صَرَّحَ بِتَغْيِيرِهَا وَتَبْدِيلِهَا وَتَحْوِيلِهَا مَتَى شَاءَ.

وَمِنَ الخَطَأ الفَاحِش تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ﴾[1] بِأَنَّهُ الْقَانُونُ الطَّبِيعِي فِي حَوَادِثِ الْكَوْنِ.

والصَّوَابُ أَنَّ سُنَّتَهُ هُنَا نُصْرَةٌ لأَنْبِيَائِهِ عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ وَعَادَاهُمْ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ صَدْرُ الآيَةِ وَهُوَ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾.

فَهِيَ السُّنَّةُ التِي لاَ تَتَبَدَّلُ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[2].

= كانت عليه من السنن والقوانين إذا شاء ذلك، ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾ [سورة القصص، الآيتين: 71 ـ 72].
وكل المعجزات التي رافقت رسالة الأنبياء إِنَّمَا جاءت على خلاف السنن المعهود في مجرى الطبيعة، وهذا دليل الوقوع، وفي هَذَا المعنى كانت النَّار برداً وسلاماً على إبراهيم، واستحالت عصا موسى عليه السلام حية تسعى، وضرب البحر بالعصا فانفلق، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ فتوضأ القوم وهم زهاء ثلاثمائة...

(1) سورة فاطر، من الآية: 43.

(2) **[قوانين الطبيعة وسنة الله التي لا تتبدّل]**: صرح القرآن الكريم في عدة مواضع بأن سنة الله ﷻ لا تتبدل ولا تتغير، لكن لا يفسر الأمر على أنه قانون عام يحكم سنن الكون، بل كل الآيات التي صرحت بذلك وردت في سياق التوعد لمن كذب الرسل وعاداهم من الكفَّار والمنافقين، فقد وردت الآية في سورة الأحزاب [الآية: 62] وكان الكلام في الآيتين قبلها عن توعد الله ﷻ للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، كما وردت الآية في سورة الفتح [الآية: 23] وكان السياق في الآيات قبلها عن نصره ﷻ لنبيه والذين آمنوا وهدايته لهم وكف أيدي الكفَّار عنهم، وكذلك الآية التي أورها المصنف من سورة فاطر هي في السياق نفسه.
لذلك ففصْل الآية عن السياق الذي وردت فيه وحملها على غير المعنى الذي وردت لأجله إجحاف بمدلولها. =

....

= حتى من فصل الآية عن سياقها، وحمَلَها على أن سنة الله ﷻ لا تتبدل ولا تتغير في حوادث الكون والطبيعة، قصَّر في المفهوم الذي حملها عليه، فَسُنَّته في الكون والخلق أنه يفعل ما يشاء وما يريد ويقدر على كل شيء، وعلى مقتضى هذه السنة تنخرق الطبيعة وتتبدل على وفق قدرته وإرادته.

[موقف المدرسة العقليَّة الحديثة من الخوارق]:

وأورد المصنف هَذَا الاعتراض عن تفسير الآية لأن البعض من رواد المدرسة العقلية الحديثة التي يرأسها الأستاذ محمد عبده وسار على نهجه تلميذاه محمد رشيد رضا وعبدالقادر المغربي ـ رحمهم الله أجمعين ـ أفرطوا في تأويل الخوارق والغيبيات بما يلائم المألوف والمعقول، وحَصْر حوادث الكون في أسبابها حصراً كليًا، ومالوا إِلَى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله، كما نزعوا إِلَى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات.

ويوضح الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ الدوافع التي ألجأت المدرسة العقلية إِلَى هَذَا الاتجاه، لكن لا يراها مبرراً كافياً يبرر ما ذهبوا إليه من القول فيقول: " إننا ندرك ونقدِّر دوافع المدرسة العقلية التي كَانَ الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ على رأسها في تلك الحقبة. . . ندرك ونقدر دوافعها إِلَى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إِلَى المألوف المكشوف من السنن الكونية؛ فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة؛ كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية، في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إِلَى ذروتها، وموجة الشك في مقولات الدين إِلَى قمتها، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إِلَى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل، ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير، كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية، وتدرك ثباتها واطرادها، وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية في الأجرام والأجسام ـ وهي في صميمها العقلية القرآنية ـ فالقرآن يرد الناس إِلَى سنن الله الكونية باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة. . . ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هَذَا الاتجاه، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل؛ وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء =

فَحَافِظُوا عَلَى هَاتَيْنِ النُّقْطَتَيْنِ تُفْلِحُوا، فَهُمَا جَنَاحَا الْمُسْلِمِ اللَّذَانِ يَتَخَلَّصُ بِهِمَا مِنَ الْفِتَنِ، وَإِلاَّ فَهُوَ مِنْ أَهْلَكِ الْهَالِكِينَ.

س ـ كَمْ السَّمَوَاتُ؟

ج ـ السَّمَوَاتُ سَبْعٌ[1]، ....

= السنن التي اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف ـ هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير، ولا تجعل معقول هَذَا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه ـ كما يتكرر هَذَا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة.

هَذَا إِلَى جانب أن المألوف من سنة الله ليس هو كل سنة الله، إِنَّمَا هو طرف يسير لا يفسر كل ما يقع من هذه السنن في الكون، وأن هذه كتلك دليل على عظمة القدرة ودقة التقدير...

وكلّ ذَلِكَ مع الاحتياط من الخرافة ونفي الأسطورة في اعتدال كامل، غير متأثر بإيحاء بيئة خاصة، ولا مواجهة عرف تفكيري شائع في عصر من العصور!!!

إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه، وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل، فهذه الخوارق ـ كما يسمونها ـ هي من سنة الله، ولكنها خوارق بالقياس إِلَى ما عهدوه وما عرفوه!

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها ـ متى صحت الرواية ـ أو كَانَ في النُّصُوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم، وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعاً ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف، فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إِلَى قدرة البشر... إن طلوع الشمس وغروبها خارقة ـ وهي معهودة كل يوم ـ وإن ولادة كل طفل خارقة ـ وهي تقع كل لحظة ـ وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! ". انتهى (بتصرف من تفسير سيد قطب، في ظلال القرآن، ج6 ص 3977 ـ 3978).

(1) **[السموات سبع]**: ورد في الكثير من الآيات والأحاديث الصحاح أن عدد السموات سبع، وصار في حكم المعلوم من الدين بالضرورة، قَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ =

وَهِيَ طِبَاقٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ[1]، سَقْفًا مَحْفُوظًا[2].

= ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: 29]، وقال أيضا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق، من الآية: 12].

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لم يكن يرى قرية يريد دخولها إلا قَالَ حين يراها: «اللهم رب **السموات السبع** وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب الشياطين وما أضللن، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها». (رواه ابن حبان "2709"، والطبراني في الكبير "7299"، وصححه الألباني في صحيح الكلم الطيب "179").

(1) **[السموات طباق بعضها فوق بعض]**: صرح القرآن الكريم بأن السموات السبع خلقن طباقاً بعضها فوق بعض، قَالَ عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة الملك، من الآية: 3]، وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة نوح، الآية: 15].

ودلَّ حديث المعراج الصحيح المشهور على أن بين السموات مسافات، الله عز وجل أعلم بمقدارها، وهذا ينقض قَوْل من قَالَ من متقدمي الفلاسفة ومن وافقهم من المسلمين بأن السموات متلاصقة.

وقال بعض الفلاسفة بأن السموات هي أفلاك الكواكب السبعة السيارة، ولا أعرف مستندا لهذا القول، بل الآيات والأحاديث وحقائق العلم على خلافه.

وفي مادة خلقها ورد فيها أثر موقوف ـ وإسناده لا يثبت ـ عن الربيع بن أنس أنه قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية صخرة، والثالثة حديد، والرابعة نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة. (الطبراني في الأوسط "5661"، والأصبهاني في العظمة "562"، والطبري في تفسيره، ج28 ص 153).

قال الألوسي ـ بعد أن ذكر قولاً آخر في مادة خلقها ـ: " ولا أظنك تجد خبراً يعول عليه فيما قيل ". (روح المعاني، ج29 ص 6).

(2) **[السموات السبع سقف محفوظ]**: قَالَ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 32].

قال أهل التفسير: المقصود بالحفظ في الآية هو الحفظ من البلى والتغير على طول الدهر، وهو قَوْل قتادة.

وقال آخرون: المقصود حفظها من الوقوع. =

وَجَمِيعُهَا فَوْقَ عَالَمِ الْكَوَاكِبِ[1]، ....

= وقال الفرَّاء: من استراق السمع بالرجوم.
وقول الفرَّاء هو الذي نراه أقرب إِلَى مقصود الآية، ولا ينفي ذَلِكَ أن يَكُون غيره من الأقوال مشمولاً من وجه آخر.
ويدل لقول الفرَّاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الصافات، الآيات: من 6 ـ 8].

(1) **[السموات محيطة بعالم الكواكب]**: عُلِم من صريح النُّصُوص أن السموات محيطة بعالم الكواكب التي من بينها الأرض والشمس والقمر والنجوم، فقد أخبر ﷻ بأن الليل والنهار والشمس والقمر تسبح في الفلك الذي يحيط بها وهو السموات، وعلمنا ضرورة وحسًّا بأن هذه المخلوقات تدور حول الأرض فاقتضى ذَلِكَ بأن الأرض محاطة بالسماء، قَالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 33]، وقال أيضاً: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [سورة الفرقان، الآية: 61].

[جدل في استدارة السموات]: قوله تعالى: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ دليل على استدارة السموات واحتوائها للأرض وما يحيط بها من الكواكب، لأن "الفلك" يعني الاستدارة في كلام العرب، قَالَ الخليل: الفلك؛ دوران السماء. وهو اسم للدوران خاصة. (العين، ج5 ص 374).

علق البُخَارِي عن الحسن في قوله تعالى: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: ﴿فِى فَلَكٍ﴾ مثل فلكة المغزل، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يدورون. (صحيح البخاري، ج4 ص 1765، ووصله في تغليق التعليق، ج4 ص 257).

وقال ابن عباس ؓ في تفسير الآية: " تدور الشمس والقمر في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل ". (تغليق التعليق، ج4 ص 258، والأصبهاني في العظمة، ج4 ص 1211).

وقد نقل ابن الجوزي الإجماع على كروية السماء، وحكى الإجماع كذلك ابن حزم وابن المنادى، وقال ابن تيمية في ذلك: " وما علمت من قَالَ أنها غير مستديرة وجزم بذلك إلا من لا يؤبه له من الجهال ". (انظر: المنتظم لابن الجوزي، ج1 ص 184، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج6 ص 587).

وقد جادل البعض في كروية السماء، وفنَّد ابن حزم قولهم في كتاب "الفِصَل" =

وَمَنْ نَفَى وُجُودَ السَّمَوَاتِ المُفَسَّرِ بِلِسَانِ الشَّرْعِ فَقَدْ جَاهَرَ بِتَكْذِيبِ النُّبُوَّةِ.

س - فِي كَمْ خُلِقَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟

ج - فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ[1]؛ ....

= بدليل العقل والنقل بما لا مجال لرده فليرجع إليه. (الفصل لابن حزم، ج2 ص 78 - 80).

لكن لو أمعنا النظر في بعض السنن لوجدنا فيها البرهان على كروية السماء، يؤيد قولنا حديث أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ له: «... يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة...». (رواه ابن حبان "361" وقال أبو بكر الهيثمي في "موارد الضمآن": " فيه إبراهيم بن هشام بن يحي الغساني، قَالَ أبو حاتم وغيره: كذاب " اهـ. قلت: صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج1 ص 223 "109" وقال: لا يَصِحّ في صفة الكرسي غير هَذَا الحديث).

فقد شبه الحديث السموات السبع بالحلقة، وقد عُلِم ضرورةً استدارة الحلقة، فدل ذَلِكَ على استدارة السموات، إذ لو لم تكن مستديرة لما كَانَ لتشبيهها بالحلقة معنى، وألفاظ الشرع منزهة عن ذلك.

ويدل لهذا أيضاً حديث جبير بن مطعم ﷺ قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قَالَ رسول الله ﷺ: ويحك أتدري ما تقول؟! وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذَلِكَ في وجوه أصحابه، ثُمَّ قَالَ: «ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدري ما الله؟! إن عرشه على سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب». (رواه أبو داود "4726"، والبزار "3432"، والطبراني في الكبير "1547"، وجود إسناده أبو الطيب العظيم أبادي في عون المعبود، ج13 ص 8، وصححه الألباني في سنن أبي داود).

وذكر القبة في الحديث دليل على الاستدارة، مما يقطع باستدارة السموات.

(1) **[خُلقت السموات والأرض في ستة أيام]**: وهذا هو القول الحَقّ الذي دل عليه صريح الكتاب، قَالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة ق، الآية: 38]. =

خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ[1]، ثُمَّ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ[2].

ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ، وَخَلَقَ مَا عَلَيْهَا مِنْ جِبَالٍ وَمَاءٍ وَأَقْوَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي يَوْمَيْنِ[3].

= وروى ابن جرير عن رجل من كندة قَالَ: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول: "خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ليس منها يوم إلا له اسم؛ أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ".

ورواه ابن جرير كذلك بالإسناد نفسه يرفعه الضحاك إِلَى زيد بن أرقم. (تاريخ الطبري، ج1 ص 33 ـ 34).

وإسناده لا يصلح لجهالة الراوي عن الضحاك، وسماه الحافظ "محمد بن الضياح" ونقل عن الأزدي أنه مجهول. (لسان الميزان "708" و"724").

(1) دل على ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة فصلت، الآية: 9].

(2) يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت، من الآية: 12].

[الحكمة من خلق الأرض قبل السماء]: الحكمة من خلق الأرض قبل السماء أنها كالأساس للبناء كما قَالَ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة غافر، من الآية: 64]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة النبأ، الآيات: 6 ـ 12]، كما أن السقف لا بد له من بناء يرتكز عليه، قَالَ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 32]. (البداية والنهاية لابن كثير، ج1 ص 15 ـ 16).

(3) **[اختلاف أهل السنَّة في ترتيب الخلق]**: قَالَ تعالى بعد أن أخبر عن خلقه للأرض في يومين: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة فصلت، الآية: 10]، أي اكتمل خلق الأرض بما فيها وما عليها في تتمة أربعة أيام، فكانت عدة خلق السموات والأرض ستة أيام.

وترتيب الخلق الذي ذكره المصنف هو المشهور في قَوْل عامة أهل العلم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ =

= ﴿لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النازعات، الآيات من: 27 إلَى 32]، فدلت الآيات الكريمة على أن دحو الأرض وإخراج ما فيها من ماء ومرعى، وإرساء الجبال عليها كَانَ بعد خلق السماء وتسويتها بدليل الآيات السابقة.

ويؤيد هذه الدلالة ما روي من حديث سعيد بن جبير أنَّ ابن عباس - رضي الله عنهما - جاءه رجل فقال: إنِّي وجدت في القرآن: ﴿أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ فذكر في هذه الآية خلق السماء قبل الأرض، وقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ [سورة فصلت، الآيتين: 9 - 10]، وذكر خلق الأرض قبل السماء. قَالَ ابن عباس - رضي الله عنهما -: أما قوله: ﴿أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾ فإنَّه خلق الأرض في يومين قبل خلق السماء، ثُمَّ استوى إلَى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثُمَّ نزل إلَى الأرض فدحاها. (رواه الأصبهاني في العظمة بلفظه "559"، وهو جزء من أثر طويل عند البُخَارِي "4537"، والطبراني في الكبير "10594").

لكن ورد في آيات كريمة أخرى ما يدل على أن خلق السماء كَانَ بعد دحو الأرض وإخراج ما فيها من جبال وأقوات وغيرها، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة فصلت، الآيات من: 9 إلَى 12]. وقوله أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: 29] فدلالة هذه الآيات واضحة في أن خلق الأرض وما فيها من جبال وأقوات وكائنات كَانَ قبل خلق السماء، ويؤيد هذه الدلالة أيضاً ما رواه سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قَالَ: " بدأ الله خلق الأرض؛ فخلق سبع أرضين في يومين؛ يوم الأحد ويوم الاثنين، وقدر فيها أقواتها في يومين؛ يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، ثُمَّ استوى إلَى السماء فخلقهن في يومين؛ يوم الخميس، وقضاهن في آخر يوم الجمعة، وهي الساعة التي خلق الله فيها آدم على عجل، والساعة التي تقوم فيها الساعة، =

. . . .

= ما خلق الله ﷻ من دابة إلاَّ وهي تفزع من يوم الجمعة إلاَّ الإنسان والشيطان".
(رواه ابن عبدالبر في التمهيد واللفظ له، ج23 ص 48، وابن معين في تاريخه ـ رواية الدوري ـ "202"، والطبري في تاريخه، ج1 ص 37، والفريابي في كتاب القدر "2"، وإسناده صحيح).

وله شاهد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: " خلق الله تبارك وتعالى السموات من دخان، ثُمَّ ابتدأ خلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وذلك قَوْل الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ثُمَّ قدَّر فيها أقواتها في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فذلك قَوْل الله ﷻ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ثُمَّ استوى إِلَى السماء وهي دخان فسَمَكَها، وزينها بالنجوم والشمس والقمر، أجراهما في فلكهما، وخلق فيها ما شاء الله من خلقه وملائكته يوم الخميس ويوم الجمعة، وخلق الجنة يوم الجمعة، وخلق آدم يوم الجمعة، فذلك قَوْل الله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة الفرقان، من الآية: 59]، وسبت كل شيء يوم السبت، فعظمت اليهود يوم السبت لأنه سبت فيه كل شيء، وعظمت النصارى يوم الأحد لأنه ابتدأ فيه خلق كل شيء، وعظم المسلمون يوم الجمعة لأن الله ﷻ فرغ فيه من خلقه، وخلق في الجنة رحمته، وجمع فيه آدم، وفيه هبط من الجنة إِلَى الأرض، وفيه قبلت توبته وهو أعظمها".
(رواه الأصبهاني في العظمة "8773").

وأسند الطبري عن ابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ بمثل قَوْل ابن عباس وابن سلام. (تاريخ الطبري، ج1 ص 37).

وعلى كل حال لا معارضة بين هذه الآيات والآثار، وبين ما سبقها، فإن الوجه الصحيح الذي يجمع بين هذه الآيات وما صح في معناها من الآثار أن يقال بأن الدَّحو الأول غير الدَّحو الآخر، فالأول هو التقدير؛ أي تقدير الخلق والبسط، أما الدحو الآخر فهو الإيجاد، يدل على الأول قَوْل تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة فصلت، الآية: 10]، فبعد خلق الأرض في يومين قدَّر فيها الأقوات والأرزاق وما سيخلق فيها في يومين، ثُمَّ استوى إِلَى السموات فسواهن سبعاً في يومين، فكان ذَلِكَ تمام ستة أيام.

أما قوله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النازعات، الآيات: 30ـ32]، فهو الإيجاد والبسط على وفق القدَر الأوَّل، وهو خارج =

....

= عن الأيام الستة، ويدل عليه قَوْل تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الشورى، الآية: 27]، ويؤيد هَذَا المذهب دلائل الكون المتجددة، فهذه الينابيع التي تنفجر، والشجر الذي ينبت، والرواسي التي تخرج عقب الزلازل.. كل ذَلِكَ يدل على أن الدحو الأول غير الآخر، وَلَوْ كَانَ الأول هو عين الآخر لما تجدد شيء على وجه الأرض فتدبر.

أما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إِلَى الليل». (مسلم "2789"، وهو عند ابن خزيمة "1731"، وابن حبان "6161"، والطبراني في الأوسط "3232"، وأبي يعلى في مسنده "6132").

فهذا الحديث من غرائب مسلم في الصحيح، وهو من كلام كعب كما صحّح البُخَارِي ذَلِكَ في تاريخه الكبير "1317".

وذكر ابن تيمية أن الحفّاظ ضعفوه كعبدالرحمٰن بن مهدي، ويحيى بن معين، والبخاري، والبيهقي، وصوَّبهم على ذلك، وكذا فعل ابن القيم ـ رحمهم الله أجمعين ـ. (انظر دقائق التفسير لشيخ الإسلام، ج2 ص 57، وكذا مجموع الفتاوى، ج18 ص 18، والمنار المنيف لابن القيم، ص 84 ـ 85).

ونقل المناوي في فيض القدير عن بعض الحفاظ أن هَذَا الحديث في متنه غرابة شديدة؛ فمن ذَلِكَ أنَّه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأرض خلقت في أربعة أيام، ثُمَّ خلقت السموات في يومين ". (فيض القدير للمناوي، ج3 ص 448).

والحديث صححه الشيخ الألباني في عدة مواضع ودافع عن صحته بما لا طائل من ورائه. (انظر تخريجه للحديث في المشكاة "5734"، ومختصر العلو للذهبي "71").

وحكى ابن جرير الطبري في تاريخه ـ (ج1 ص 35) ـ إجماع السلف من أهل العلم على أن ابتداء الخلق كَانَ يوم الأحد، وهذا الذي تدل له نصوص الكتاب والسنة، والله اعلم.

س ـ مَا مِقْدَارُ تِلْكَ الأَيَّام؟

ج ـ مِقْدَارُ أَيَّامِ الدُّنْيَا الْمَعْرُوفَةِ، وَلاَ يَعْجز عَنْهُ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهَا فِي لَحْظَةٍ[1].

---

(1) **[اختلاف أهل السنَّة في مقدار أيام الخلق]**: الذي قاله المصنف بأن أيام خلق السموات والأرض هي كأيام الدنيا هو القول المروي عن الحسن البصري من الأئمة، واختاره ابن عطية ونسب القول به إِلَى الجمهور. (تفسير القرطبي، ج14 ص 86، وتفسير ابن عطية، ج3 ص 104).

وخالف في ذَلِكَ آخرون وقالوا بأن مقدار اليوم من أيام خلق السموات والأرض بألف سنة من أيامنا؛ قَالَ ابن عباس ﷺ: " خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، فكل يوم من هذه الأيام كألف سنة مما تعدون أنتم ".

وهذا قَوْل زيد بن أرقم والضحاك ومجاهد وكعب، واختاره الطبري. (تاريخ الطبري، ج1 ص 35 و43 ـ 44، وتفسير الطبري، ج12 ص 3، والدر المنثور، ج3 ص 472).

ودليل هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج، من الآية: 47].

واختلف اختيار ابن الجوزي في المسألة؛ فاختار في "المنتظم" أن أيام خلق السموات والأرض مثل أيامنا، ودلل على اختياره من النقل والمعنى، وأيد مذهبه بقول الحسن. (انظر المنتظم، ج1 ص 125 ـ 126).

واختار في "زاد المسير" قَوْل ابن عباس وكعب ومجاهد ثُمَّ قال: " ولا نعلم خلافاً في ذلك، وَلَوْ قَالَ قائل إنها كأيام الدنيا كَانَ قوله بعيداً من وجهين: **أحدهما** خلاف الآثار. **والثاني** أن الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في ستة آلاف سنة يتوهمه في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة يس، الآية: 82]،

[حكمة خلق السموات والأرض في ستة أيام]:

فان قيل: فهلاَّ خلقها في لحظة فإنَّه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنَّه أراد أن يوقع في كلِّ يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

الثاني: أن التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة. =

س ـ هَلْ الأَرْضُ كُرَةٌ أَمْ مُسَطَّحَة؟

ج ـ كُرَةٌ وَمُسَطَّحَةٌ، فَالأَرْضُ جُرْمٌ كَبِيرٌ، لاَ يُنَافِي تَسْطِيحُهَا كُرَوِيَّتَهَا لِتَبَاعُدِ أَكْنَافِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ(1).

= **الثالث**: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذَلِكَ كما يُظْهِرُ قدرته في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

الرابع: أنّه علم عباده التثبّت، فإذا تثبت من لا يَزِلّ كَانَ ذو الزَّلل أولى بالتثبت.

الخامس: أنَّ ذَلِكَ الإمهال في خلق شيء بعد شيء أبعد من أن يظن أن ذَلِكَ وقع بالطبع أو بالاتفاق ". (زاد المسير، ج3 ص 211 ـ 212).

واعترض ابن عطية على تعليل ذَلِكَ وقال: " وهذا مما لا يُوصل إِلَى تعليله. . . والله ﷻ قد جعل لكل شيء قدراً، وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك ". (تفسير ابن عطية، ج3 ص 104).

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فانفرد بالقول بأنه سواء قيل بأن اليوم كأيامنا، أو قيل بأن اليوم كألف سنة، فلا ريب بأن أيام خلق السموات والأرض غير هذه الأيام، والزمان غير الزمان، فإنَّ زمننا مقدر بحركة الأفلاك، وتلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض. (مجموع الفتاوى، ج18 ص 235).

لكن نجيب بالقول بأن حقيقة اللفظ القرآني يجب حملها على الوجه الأقرب إِلَى الحقيقة اللغوية والشرعية، وحقيقة اليوم معروفة لغة وشرعاً فوجب المصير إليها دون تكلف، وَلَو اعترِض بالقول بأن أيام الخلق كانت قبل إيجاد الشمس التي يقاس اليوم بحركتها شروقاً وغروباً، أجيب عن ذَلِكَ بأن الستة أيام بتقدير أيامنا المعروفة، والله أعلم.

(1) **[دلائل كرويّة الأرض]**: الدلائل على كروية الأرض من النقل والعقل واكتشافات العلم الحديث كلها تصب في مصب اليقين، وقد قطع بكرويتها السلف والخلف من أئمة الإسلام وحكى الكثير منهم الإجماع على ذلك.

وتسطيح الأرض ـ كما ثبت في القرآن ـ لا ينافي القول بكرويتها، فقوله ﷻ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الغاشية، الآية: 20]. وكذا قوله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الذاريات، الآية: 48] وقوله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [سورة الحجر، من الآية: 19]، فالتسطيح والفرش والمدّ لا ينافي =

. . . .

= التكوير لعظم حجمها وتباعد أكنافها ـ كما قَالَ المصنف ـ إذ لو لم تكن الأرض كروية لعرف ذَلِكَ في حواف التربيع أو التثليث، ولم نجد لذلك أصلاً لا من العقل ولا من النقل ولا من اكتشافات العلم الحديث، بل كل الأصول على خلافه.

ويدل لهذا القول قَوْل الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ [سورة الزمر، من الآية: 5]، والتكوير من الكور وهو التدوير، وكور العمامة؛ تدويرها على الرأس، وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه، والليل والنهار عبارة عن حال زمانية معينة تغشى مكاناً من الأرض، ونَعْت الله ﷻ للزمان بالتكوير إِنَّمَا لمناسبة حال المكان المكوَّر الذي يغشاه، وَلَوْ كَانَ المكان مسطَّحاً لما كَانَ لذكر التكوير معنى لعدم المناسبة بين التكوير والتسطيح.

قال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي بعد حكايته الاتفاق على كروية السماء: " وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البَرِّ والبحر مثل الكرة... ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جَمِيع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب... فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء كالنقطة في الدائرة، يدل على ذَلِكَ أن جرم كل كوكب يرى في جَمِيع نواحي السماء على قدر واحد، فيدل ذَلِكَ على بعد ما بين السماء والأرض من جَمِيع الجهات بقدر واحد، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء ". (نقلا عن مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج25 ص 195 ـ 196).

وقال ابن حزم الظاهري: " إن أحداً من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم ﷺ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها ". (الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج2 ص 78).

وقال شيخ الإسلام: " والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع ". (مجموع الفتاوى، ج5 ص 150).

ويكفي برهاناً على كرويتها ما أثبته العلم الحديث بطريق المشاهدة والعيان بما لا يدع مجالاً للشك والريب في كرويتها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

س - مَتَى تَكْتُبُ المَلاَئِكَةُ قِسْمَةَ الإِنْسَانِ السَّابِقَة فِي عِلْمِ اللهِ الْقَدِيمِ؟

ج - قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، يَكْتُبُ الْمَلَكُ بِأَمْرِ اللهِ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، وَمَا هُوَ لاَقِيه فِي مُسْتَقْبَلِهِ[1].

---

(1) **[متى تكتب الملائكة قسمة الإنسان؟]**: يدل لقول المصنف ما رواه البُخَارِي وغيره عن عبدالله بن مسعود ﷺ قَالَ: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خَلْق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة، ثُمَّ يَكُون علقة مثله، ثُمَّ يَكُون مضغة مثله، ثُمَّ يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات؛ فيكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثُمَّ ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يَكُون بينها وبينه إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النَّار، فيدخل النَّار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النَّار حتى ما يَكُون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها». (البُخَارِي بلفظه "7016"، وأحمد "4091"، والحميدي "126"، والشاشي "680").

فالحديث صريح في الدلالة على أن الكتابة متقدمة على نفخ الروح كما ذهب إِلَى ذَلِكَ المصنف.

لكن ورد الحديث من وجه آخر عند مسلم وغيره يدل على أن الكتابة متأخرة عن نفخ الروح فجاء في الرواية: «...ثُمَّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...». (مسلم "2643"، وأحمد "3624").

وأجاب ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ - على هذه الرواية بأن قوله: «...فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات...» ليس بصريح في الترتيب، إذ الكلمات المأمور بها بعد نفخ الروح، لأن هذه الجملة معطوفة بالواو، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة التي تليها، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة الكلام المتقدم؛ أي يجمع خلقه في هذه الأطوار، ويؤمر الملك بكتب رزقه وأجله وعمله، ووسط بين الجمل قوله: «ثُمَّ ينفخ فيه الروح» بيانا لتأخر نفخ الروح عن طور النطفة والعلقة والمضغة، وتأمل كيف أتى بـ "ثُمَّ" في فصل "نفخ الروح" وبالواو في قوله: «ويؤمر بأربع كلمات» فاتفقت سائر الأحاديث بحمد الله. إهـ (بتصرف من تحفة المودود، ص 258 - 259). =

س ـ هَلْ لِلإِنْسَانِ مَدْخَلٌ فِي أَفْعَالِهِ؟

ج ـ نَعَمْ فَالإِنْسَانُ لَهُ اخْتِيَارٌ[1]، لِلْفَرْقِ الضَّرُورِيِّ بَيْنَ حَرَكَةِ الارْتِعَاشِ وَحَرَكَةِ الْبَطْشِ[2].

= قلت: رحم الله ابن القيم فقد فاتته رواية البيهقي وغيره لهذا الحديث، حيث جاء فيها: «... ثُمَّ يبعث الله الملك، فينفخ فيه الروح، ثُمَّ يؤمر بأربع كلمات؛ كتب رزقه وعمله وأجله وشقي هو أم سعيد...». (سنن البيهقي الكبرى "15198"، وشعب الإيمان، ج1 ص 207، والاعتقاد، ص 138، وأبو نعيم في الحلية، ج7 ص 365) فهذه الرواية صريحة في ترتيب الكتابة بعد النفخ بـ"ثمَّ" خلافاً لما ذكره المصنف واختاره ابن القيم.

لكن أجاب ابن رجب الحنبلي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ عن اختلاف هذه الروايات بأن هَذَا الاختلاف إما أن يَكُون مرجعه إِلَى تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذي يفهمونه، وإِمَّا أن يَكُون المراد ترتيب الإخبار فقط، لا ترتيب ما أخبر به. (جامع العلوم والحكم، ص 52).

(1) **[معنى الاختيار في أفعال العباد]**: المقصود بالاختيار في أفعال العباد، قصد الإنسان لذلك الفعل، وإرادته له دون جبر أو إكراه.

(2) **[جدال القدرية في الاختيار]**: كل البشر يدركون ضرورة الفرق بين الحركات الاختيارية كالبطش والقيام والقعود والمشي...، وبين الحركات الاضطرارية التي تقع له قسراً دون إرادة منه كالارتعاش والعطاس والسعال...

وقال الأشاعرة بأن القدرة على الفعل الواقع بالاختيار دون الواقع بالاضطرار تعرف ويعلم وجودها بالوجدان. (كتاب المواقف للإيجي، ج2 ص 121).

وأهل السنة والجماعة مجمعون على أن جَمِيع أفعال العباد اختياريها واضطراريها، حسنها وقبيحها هي خلق الله ﷻ، قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة غافر، الآية: 62]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الزمر، الآية: 62]، فالأفعال هي خلق الله ﷻ وإِنَّمَا ينالها العبد بالكسب، أما القدرية فقد وافقونا في حركة الاضطرار على أنها خلق الله ﷻ، وخالفونا في حركة الاختيار وقالوا إنها من خلقنا وليس من خلق الله، ولا من إلهامه لأجل اقترانها بقدرة العبد وإرادته.

واستدل القدرية لمذهبهم على أن قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من العام الذي =

. . . .

= أريد به الخاص، ولا سيما وأنَّ أهل السنة يقولون إن القرآن لم يدخل في هَذَا العموم، وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فكذلك خصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم.

وأجاب أهل السنة على هَذَا بأن القرآن كلام الله ﷻ، وكلامه صفة من صفاته، وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق، فإن الخالق غير المخلوق، فليس ههنا تخصيصاً البتة، بل الله سبحانه بذاته وصفاته هو الخالق، وكل ما عداه مخلوق، وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس في الوجود إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق، وما سواه كله مخلوق، وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم، وإنما أفعالهم القائمة بهم، وأنهم هم الذين فعلوها؛ فكلها حَقّ نقول بموجبها، ولكن لا نقول أنها فعل الله والعبد مضطر مجبور عليها، ولا نقول أنها فعل للعبد، والله غير قادر عليها، ولا جاعل للعبد فاعلاً لها، ولا نقول أنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، فهذه الأقوال كلها باطلة مردودة على قائليها بالحجج والبراهين.

واستدل القدرية أيضاً بأن قوله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٖ﴾ أي مما لا يقدر عليه غيره، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزم وُقُوع مفعول بين فاعلين وهو محال.

وأجاب أهل السنة على هَذَا الاستدلال بأنَّ إضافتها إليهم فعلاً وكسباً، لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقاً ومشيئة، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إِلَى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله، ولم يقدر عليه، ولا خلقه.

ومما يدل على قدرته ﷻ على أفعال العباد قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 284]، وعُلم بداهة أن أفعال العباد من الأشياء الممكنة، والله قادر على كل ممكن، فهو الذي جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته، وَلَوْ شاء لحال بينهم وبين الفعل، كما قَالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 253]، فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه، وبين اللّسان ونطقه، وبين اليد وبطشها، وبين الرجل ومشيها، =

. . . .

= فكيف يجرؤ الجاهلون على القول بأنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون لقدرته علواً كبيراً.

ومن الأدلة الواضحة على خلقه ﷻ لأفعال العباد، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة النحل، الآية: 81]، فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيآتها.

وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إِلَى الهدى وأئمة الشر يدعون إِلَى النَّار فتلك الإمامة والدعوة بجعله فهي مجعولة له وفعل لهم، قَالَ تعالى عن آل فرعون ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ وقال عن أئمة الهدى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فأخبر أن هَذَا وهذا بجعله مع كونه كسباً وفعلاً للأئمة.

وأدلة القرآن والسنة على مذهب أهل السنة في خلق الله لأفعال عباده كثيرة جداً. . .

أما **دليل العقل** على خلق أفعال العباد؛ أنه لا يعقل أن يَكُون خالق الشيء ذاهلاً عن معرفة كنه مخلوقه، ويجهل أجزاء حركته ومن أين بدأت وإلى أين انتهت، وَلَوْ سئل القدري ـ وهو المحرك ليده ـ وقيل له: إن كنت خالقاً لها وفاعلاً لها على زعمك فهل تعلم أجزاء الحركة على التفصيل، حتى تعلم كم جوهر قطعته، وكم حركة قامت بتلك الأجزاء، ومن أين ابتدأت الحركة بما قَطَعته من الأحياز، وإلى أي موضع انتهت ووقفت اليد عنده، وإلى أي مدى ارتفعت، وإلى أي مدى انخفضت، فإن كنت أنت خلقتها، وأنت فاعلها فحرك يدك حركة مثلها في أعداد أجزائها وحركتها القائمة بها، وابتدىء من حيث ابتدأت في الحركة الأولى، وقِفْ حيث انتهت يدك فيها، ولا تعلي يدك فوق الجهة التي كانت أولاً ولا تخفضها عنها، ولا تُسرع حركتك عن الأولى ولا تبطيء عنها، بل على نحوها مطابقة، وَعُلِم يقيناً أنه لن يأتي بمثلها، فيفتضح عجزه، ويتهافت أمره، وهل رأيت خالقاً يعجز عن معرفة مخلوقه، أو يعجز عن الإتيان بمثله؟!! فتبين أنه لا =

وَعَلَى فِعْلِهِ بِقَصْدِهِ وَتَعَمُّدِهِ يُثَابُ وَيُعَاقَبُ[1].

= أحد يعلم كل شيء، ويخلق كل شيء، ويقدر على كل شيء إلا الواحد الأحد. (باختصار وتصرف من: شفاء العليل لابن القيم، ص 53 ـ 55، وحز الغلاصم في إفحام المخاصم لأبي الحسن شيث بن إبراهيم بن حيدرة، ص 125).

(1) **[القصود مؤثرة في الثواب والعقاب]**: الأفعال الاضطرارية التي لا مدخل لإرادة الإنسان واختياره فيها لا يترتب على فعلها ثواب أو عقاب لافتقادها إِلَى القصد والنية، أما الأفعال الاختيارية التي ثبت أن الإنسان له إرادة واختيار في فعلها أو تركها، فهي التي يتعلق بها الثواب والعقاب، والمدح والذم، على حسب العمل والقصد، وكل نصوص الشريعة المتعلقة بالوعد والوعيد إِنَّمَا تصب في هَذَا المصب، قَالَ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة فصلت، الآية: 46]، والنية هي أساس كل عمل، فعن عمر بن الخطاب ﷺ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...». (البُخَارِي بلفظه "1"، مسلم "1907"، وابن خزيمة "142"، وابن حبان "388").

والقاعدة المعروفة عند الفقهاء أن " **الأمور بمقاصدها** "، فمن نوى وقصد الخير في فعله كَانَ له أجر ذَلِكَ الخير، ومن نوى وقصد الإثم في فعله حاك به ذَلِكَ الإثم، ومن لُطف الله ﷻ بعبده أنه يسبِّق له الثواب بمجرد النية والقصد إِلَى الخير وإن لم يفعل ذَلِكَ الفعل، ولا يحاسبه على القصد السيِّء حتى يقترف فعله، برهان ذَلِكَ الحديث القدسي الذي يرويه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قَالَ: «قَالَ الله ﷻ: إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إِلَى سبعمائة ضعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة». (مسلم بلفظه "128"، وابن حبان "383"، وأبو يعلى في مسنده "6500").

وأخبر الله ﷻ في القرآن بأنه يجازي عن الحسنة بعشر أمثالها، وعن السيئة بمثلها؛ قَالَ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية: 160]، وهذا يرشدك على أن الحسنة بركة في نفسها وبركة على فاعلها، وأن السيئة ماحقة في نفسها، ماحقة لفضل فاعلها إن أصرّ.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[1]، ....

---

(1) [لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها]: سورة البقرة، من الآية: 286، أي أن الله ﷻ شرع التكاليف الشرعية للمكلفين في حدود الوسع والطاقة، فلم تكلف الأنفس إلا ما تطيق، ثبت ذَلِكَ بالنصوص واستقراء الأحكام، وكل ما جاء على خلاف هذه القاعدة فليس من الشريعة في شيء، لمعارضته لنصوصها وقواعدها، إذ الحرج في الشريعة مرفوع: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [سورة الحج، من الآية: 78]، واليسر من خصائصها: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 185]، ومن قواعد الشريعة التي استنبطها أهل العلم باستقراء النُصوص أن " **المشقة تجلب التيسير**" و "**الأمر إذا ضاق اتسع**".

ويؤيد هَذَا الكلام ما ورد في الصحيح في سبب نزول الآية التي ذكرها المصنف، حيث ذكر الإمام مسلم ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ في باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلاَّ ما يطاق، وسرد بإسناده إِلَى أبي هريرة ﵁ قَالَ: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [سورة البقرة، الآية: 284]، قَالَ: فاشتد ذَلِكَ على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثُمَّ بركوا على الرُكب فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قَالَ رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قَالَ أهل الكتابين من قبلكم: " سمعنا وعصينا " بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير». قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلمّا اقترأها القوم ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [سورة البقرة، الآية: 285]، فلما فعلوا ذَلِكَ نسخها الله تعالى، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قَالَ: نعم .﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ قَالَ: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ قَالَ: نعم .﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: نعم. (مسلم بلفظه "125"، والبيهقي "11059"، وأبو عوانة "219").

=

....

= **[نزاع العلماء في جواز التكليف بما لا يُطاق]:**

ووقع النزاع بين أرباب الفرق في **جواز** التَّكْلِيف بما لا يطاق **ووقوعه** في الشرع:

فمن جهة **الجواز** قَالَ بجوازه جمهور من أهل السنة وأهل الفرق، وهو منسوب إِلَى الأشعري، وبه قَالَ الباقلاني والغزالي والنووي وغيرهم... (تمهيد الأوائل للباقلاني، ص 332، المستصفى للغزالي، ص 69، والمجموع للنووي، ج2 ص 386).

واستدل الأشعري على الجواز بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ فقال: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ محالاً لما استقام الابتهال إِلَى الله بدفعه. اهـ فدلت الآية على الجواز إذ لا تستقيم الاستعاذة من المحال.

وقال الحنفية بعدم جوازه، وبه قَالَ الماتريدية وأبو حامد الاسفراييني وإمام الحرمين وابن القشيري، وحكم الجصاص والمعتزلة والزيدية بقبحه العقلي. (تبيين الحقائق للزيلعي، ج4 ص 240، كشف الأسرار للبخاري، ج1 ص 191، أحكام القرآن للجصاص، ج2 ص 277، والبحر الزخار للمرتضى، ج1 ص 63، والبحر المحيط للزركشي، ج2 ص 111).

واستدلوا للمنع بأمرين:

الأول: أن التَّكْلِيف بالشيء استدعاء لحصوله، واستدعاء ما لا يمكن حصوله سفه فلا يليق بالحكيم سبحانه.

الثاني: إخبار المولى ﷻ في آيات كثيرة على عدم جوازه كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ فكل ما أخبر الله ﷻ أنه لا يقع لا يجوز أن يقع وإلا كذُب القرآن وهو محال. (شرح التلويح للتفتازاني، ج1 ص 378).

[اختلاف العلماء في وقوع التكليف بما لا يُطاق]:

أما من حيث **الوقوع** فمنعه جمهور أهل العلم واتفق عليه الفقهاء، وصار الكثير من المتكلمين إِلَى وقوعه، وفصَّل بعضهم بين الممتنع لذاته فقال بامتناعه وأجازه الرازي، وبين الممتنع لغيره فقال بوقوعه، وقال أبو جعفر السمناني إنه وقع في حَقّ الكفَّار دون المسلمين. (البحر المحيط للزركشي، ج2 ص 114).

ونقل ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - إجماع الفقهاء وأهل العلم على منع وُقُوع الممتنع لذاته. (مجموع الفتاوى، ج8 ص 302). =

وَ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

= قلت: رأيت لابن جرير الطبري في تفسيره في أوّل البقرة قولاً بوقوعه في الشريعة. (انظر: تفسير الطبري، ج1 ص 113).

ولهؤلاء في جوازه ووقوعه جدل محتدم ينظر في المصادر التي ذكرناها.

لكن **الرّاجح** من أقوال المختلفين، المساير لقواعد القرآن والسنة، وأصول أهل السنة والجماعة، أن التَّكْلِيف بما لا يطاق ممتنع في الشرع، إذ لو قلنا بوقوعه لما قامت لله على خلقه حجة، وكانت الحجة للكافر في كفره، والعاصي في معصيته، وما استدل به المجوزون من آيات وآثار لمذهبهم فدلالتها على المنع أقوى، وكان الطبري ـ رحمه الله ـ **استدل** لوقوعه بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [سورة البقرة، الآية: 7]، فقال بأن الله عز وجل ختم على قلوب صنف من كفار عباده وأسماعهم ثُمَّ لم يسقط التَّكْلِيف عنهم.

والجواب على استدلال الطبري أن يقال بأنَّ هؤلاء واجدون للقدرة على السمع وفهم خطاب التكليف، كما أنهم واجدون للاختيار بين الكفر والإيمان، وَلَوْ سئلوا عن ذَٰلِكَ لأقروا بوجود ذَٰلِكَ كله عندهم، لكن الله جل جلاله لحكمة منه قدر كفرهم في الأزل كما قدر كفر فرعون، ولا يعني ذَٰلِكَ أنهم كلفوا بما لا يطيقون.

(1) **[لله عز وجل الحجة البالغة على الخلق]**: سورة الأنعام، من الآية: 49. فالله عز وجل أقام الحجة على خلقه بأن أرسل الرسل وأنزل الكتب، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فالله ـ سبحانه ـ لا تنفعه هداية المهتدين، ولا يضره ضلال من ضل، فمن شاء يهديه إِلَى الصراط المستقيم نعمة منه وفضلاً، ومن شاء يضله عن السبيل حكمة منه وعدلاً.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أقام حجته على خلقه يوم مسح على ظهر آدم واستخرج منه ذريته إِلَى يوم القِيَامَة وأشهدهم على ربوبيته فأقرُّوا بها فقامت حجته عليهم، وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢﴾ [سورة الأعراف، الآية: 172].

ومن براعة المصنف في التأليف والتصنيف أنه أورد آية الحجة بعد إيراده لآية التَّكْلِيف ليبين أن حجة الله جل جلاله قائمة على خلقه بأن لم يكلفهم إلا ما في وسعهم وطاقتهم، فلم يكلفهم من الأفعال إلا بما يقدرون على الإتيان به، ولم ينههم عن =

وَالتَّفْرِيطُ اعْتِمَادًا عَلَى الْقَدَرِ جَهْلٌ[1]، فَالَّذِي عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَسْعَى فِي الصَّالِحَاتِ، وَلاَ يَتَجَاوَزْ خُطَّتَهُ إِلَى التَّكَلُّفِ فِيمَا أَخْفَاهُ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ[2] الْمَقْدُور أَوْ مِنْ غَيْرِ الْمَقْدُورِ[3].

= شيء إلا ومصلحتهم في تركه، إذ لو كلفهم الله ﷻ بما ليس في وسعهم لبطلت حجته على خلقه، وهو ﷻ أحكم الحاكمين.

(1) **[الاتكال على القدر جهل]**: اعلم أنه من اتكل على القدر فأسقط عن نفسه جملة التكاليف، معتذراً بقدر الله السابق، فقد حاد عن السبيل، فهل له أن يأتي بالتكاليف ويعتذر بقدر الله في فعلها، فما بال كل من اتكل على القدر أسقطها ولم يتكل على القدر في فعلها، وهذا من أكبر الجهل في حَقّ الله سبحانه، لذا نهى النبي ﷺ في الآثار الصحيحة عن الاتكال على القدر وترك العمل فعن جابر رضي الله عنه أن سراقة بن جعشم رضي الله عنه قَالَ: يا رسول الله، أخبِرْنا عن أمرنا كأنَّا ننظر إليه، أبما جرت به الأقلام وثبتت به المقادير، أو بما يستأنف؟ قَالَ: «لا بل بما جرت به الأقلام وثبتت به المقادير» قَالَ: ففيم العمل إذاً؟ قَالَ: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر». قَالَ سراقة: فلا أكون أبداً أشدّ اجتهاداً في العمل منِّي الآن. (رواه ابن حبان "337"، وأصله عند مسلم في الصحيح "2648").

وعن علي رضي الله عنه قَالَ: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثُمَّ قَالَ: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنَّار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كَانَ منَّا من أهل السعادة فسيصير إِلَى عمل أهل السعادة، وأما من كَانَ منَّا من أهل الشقاوة فسيصير إِلَى عمل أهل الشقاوة. قَالَ: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة» ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [سورة الليل، الآيات: 5 ـ 10]. (البُخَارِي "1296"، مسلم "2647").

(2) في المخطوط "أن".

(3) **[البحث عن سرّ القدر بدعة مُهلكة]**: لأن العبد إِنَّمَا كلف بالعمل لا بالبحث عن سر القدر، فالقدر من الغيب الذي استأثر به الباري ﷻ دون بريته، ولم يطلع =

= عليه إلا من ارتضى من الرسل، قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 59]، وقال أيضاً: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾ [سورة الجن، الآيتين: 26 ـ 27]. فمن تكلم في القدر فقد تجرأ على الله ﷻ وغفل عن سر الله المصون، وعلمه المخزون، وَقَفَا ما ليس له به علم، ودلَّ على جزائه حديث جندب بن عبدالله البجلي ﷺ أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلاً قَالَ: والله لا يغفر الله لفلان. وإن الله تعالى قَالَ: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك، أو كما قال. (رواه مسلم بلفظه "2621"، وابن حبان "5711"، وأبو يعلى في "المفاريد" "41").

وإنما كَانَ هلاك الأمم بسبب كلامهم في القدر، وبه ضلت الفرق من القدرية والجبرية فضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وقاسوا الغائب على الشاهد فضلوا وأضلوا، لذا جاء في الأحاديث الصحاح النهي عن الخوض في القدر، ففي الحديث الصحيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قَالَ: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قَالَ: فكأنَّما تفقأ في وجهه حَبُّ الرمَّان من الغضب فقال لهم: " ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كَانَ قبلكم ". (مسند أحمد "6668"، وابن ماجة "85"، وقال الكناني في "مصباح الزجاجة": هَذَا إسناد صحيح رجاله ثقات. إهـ).

وقد أثر عن الصحابة والسلف التشديد في الإنكار على من تكلم في القدر، وتبرأ منهم ابن عمر ﷺ وبرَّأهم منه. (سنن البيهقي، ج10 ص 203).

وكتب رجل إِلَى عمر بن عبدالعزيز يسأله عن القدر فكتب يجيبه: " أما بعد أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤونته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة... كَتَبْتَ تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير بإذن الله وقعت؛ ما أعلم ما أَحْدَثَ الناس من محدثة، ولا ابتدعوا من بدعة، هي أَبْيَن أثراً ولا أَثْبَت أمراً من الإقرار بالقدر، لقد كَانَ ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلمون به في كلامهم، وفي شعرهم، يعزّون به أنفسهم على ما فاتهم، ثُمَّ لم يزده الإسلام بعد إلا شدة، ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه =

ثُمَّ الرُّجُوعُ إِلَى القَدَرِ يَكُونُ عِنْدَ الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ كَسَلٍ، وَبَعْدَ الْمَصَائِبِ[1]، ....

= المسلمون فتكلموا به في حياته، وبعد وفاته، يقيناً وتسليماً لربِّهم، وتضعيفاً لأنفسهم أن يَكُون شيء لم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه، ولم يمض فيه قدره، وإنه مع ذَلِكَ لفي محكم كتابه، منه اقتبسوه، ومنه تعلموه، ولئن قلتم: لم أنزل الله آية كذا؟ ولم قَالَ كذا؟ لقد قرأوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذَلِكَ كلّه بكتاب وقدر، وكتبت الشقاوة، وما يقدر يكن، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً، ثُمَّ رغبوا بعد ذَلِكَ ورهبوا ". (رواه أبو داود في سننه "4612"، وصحح الألباني إسناده).

(1) **[الرجوع إلى القدر عند الطاعة وبعد المصيبة]**: فالرجوع إِلَى القدر عند الطاعة تحقيق لكمال العبودية والخضوع لله ﷻ وحده، وحمده على ما وفَّقه إليه من الخير والنعمة والفضل، وكله من الله تعالى، والفضل يرجع إليه وحده، وكلٌ بقضائه وقدره السابق. ومن مشاهد العود للقدر؛ التضرُّع إلى الله والدعاء بأن يوفقه لفعل الخير، ودوام التثبيت على طاعته، وأن يقدر له الخير حيث كان، وكان ذَلِكَ ديدن النبي ﷺ في المأثور من دعائه؛ «اللَّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». (الحاكم "1926"، وابن حبان "943")، وقوله في الاستخارة متضرِّعا لربِّه: «... واقدر لي الخير حيث كَانَ ثُمَّ ارضني به». (البُخَارِي "1109")، ويَسْأل ﷺ الهداية والتوفيق من ربِّه فيدعوه: «... اهدني لما اختلف فيه من الحَقّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إِلَى صراط مستقيم». (مسلم "770"، وابن حبان "2600")، وذلك هو غاية الإيمان بالقدر، ومنتهى التسليم لقضاء الله وقدره.

والتسليم لقضاء الله وقدره بعد المصيبة من أعلى درجات جهاد النفس، وإرغامها على التسليم للقدر المحتوم برضى تام دون تسخُّط، فما من مصيبة تقع إلا وقدَّرها الله ﷻ لحكمة أرادها سبحانه، وقد صرَّح القرآن بذلك في مواضع كثيرة؛ قَالَ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [سورة التغابن، من الآية: 11]، وقال أيضاً: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحديد، الآية: 22]، وهذا دليل قاطع على أن المصائب والمحن مقدرة من الله ﷻ في الأزل، والمُصاب مأمور بالصبر عليها، والرضا بها، والإيمان والتسليم لقضاء الله وقدره =

لاَ عِنْدَ الذُّنُوبِ، فَهُوَ سُوءُ أَدَبٍ، وَمِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ(1).

= وهو أعلى درجات الإيمان، وليعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، فاستوجب بذلك صلوات الله ورحمته جزاء على الصبر والرضا والتسليم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [سورة البقرة، الآية: 156]، وقال عبادة بن الصامت ﷺ لابنه يوصيه: " يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ". (رواه أبو داود "4700"، والبيهقي، ج10 ص 204).

وليعلم كل مؤمن أن المصيبة التي تحل بالعبد إما أن تكون من باب الابتلاء من الله ﷻ لعبده ليمتحن صبره وإيمانه، وإما أن تكون جزاء على ذنب مقترف ليفيق الغافل من غفوته، ويعلن توبته، دليل الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [سورة محمد، الآية:31]، ودليل الأخرى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [سورة الشورى، الآية: 30].

والعجب كل العجب مِمَّنْ يلجأ ضارعاً لله ﷻ عند الكرب والمصيبة متذللاً لربه ليرفع عنه الغم الذي أصابه وتحسبه موقناً بأن القدر قد حكم في الأمر، وقطع دابر القول، فإذا انجلت مصيبته، وأمطرت عليه سحائب النعمة، نسي زمن المصيبة والمحنة، وعدَّ نفسه ولي النعمة، فلا وليَّ دونه، وكفر بالقدر بعد أن آمن به، ومثل هؤلاء ذكرهم الله ﷻ في القرآن بقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [سورة الزمر، الآية: 39] فهذا قد لجأ لربه عند المصيبة والمحنة، فلما فرجت كربته، وأسبغت عليه النِّعمة ادعى أن الفضل يرجع إليه وحده، وقد أحاط علمه بالنِّعم، وكفر بقدر الله السابق فكان من الغاوين، أو ذاك الذي سبغت عليه النِّعمة ورفعت عنه النقمة كفر بالآخرة، وادعى أن النعم نالها بعمله وكسبه، دون قدَر القادر المتعال ـ سبحانه ـ فكان من أهلك الهالكين، فقال عنه ربه ـ جل وعلاـ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٠﴾ [سورة فصلت، الآية: 50].

(1) [**الرجوع إلى القدر عند المصيبة سوء أدب مع الله ﷻ**]: وقد رد القرآن الكريم على من اعتذر عن فعله للمعاصي والفواحش أنها مقدرة من الله ﷻ في القدر =

= السابق فلا لوم عليه فيما قدر له، لأن الله كما قدر الطاعة من المطيع فكذلك قدر المعصية من العاصي، فكلٌّ بقدر ولا يلام أحد على فعلٍ فعَلَه ولا على ذنب اقترفه، فدحض الله سبحانه حجته بقوله ﷻ مخاطباً نبيه وأمته: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء، من الآية: 79].

وقد وصف المصنف ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ الاعتذار بالقدر على الذنوب بأنه سوء أدب، لأن المعتذر به نسب فعله المشين إِلَى قدر الله ﷻ ونفى عن نفسه الإرادة والاختيار والمسؤولية عن فعله مع أنه الفاعل الحقيقي المختار للمعصية، وَلَو استقرأنا النُّصوص من الكتاب والسنة لوجدنا أن الشارع الحكيم رتب حصول الخير والشر في الدنيا على الأعمال ترتيب المسبب على السبب، والعلة على المعلول، والشرط على الجزاء، وإن شئت فاقرأ قَوْل الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة النساء، الآية: 31]، وكذا قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة إبراهيم، الآية: 7]، وكذا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة الصافات، الآيتين: 143 ـ 144] والآيات في هَذَا المعنى كثيرة جدًّا.

بل لو سُئل هَذَا المحتج بالقدر على المعصية، فيقال له: إذا جعت فلا تأكل، وإذا عطشت فلا تشرب، وإذا مرضت فلا تتداوى فإنَّ الله قدَّر لك الجوع والعطش والمرض فالزم ذَلِكَ القدر، فإن لزمه هلك لا محالة، وإن اعترض بأن الله كذلك قدَّر له أن يأكل ليدفع الجوع، وأن يشرب ليدفع العطش، وأن يتداوى ليدفع المرض. قيل له: لِمَ لا تطع الله وتحتجّ كذلك بأنَّ الله قدَّر لك الطاعة لتجتنب المعصية، وقدر لك التوبة لتُغْفر لك خطيئتك؟!

أو يقال له: كما رضيت من نفسك بالمعصية واعتذرت بأنَّ ذَلِكَ قدراً مقدوراً لا مرد له، فكذلك عليك أن ترضى بأن يظلمك الظالم وأن ينتهك حرمتك وأن يأخذ مالك، لأنَّك إن دفعته عن نفسك فقد تجرّأت على ردِّ قدر الله المقدور فنَقَضْتَ حُجَّتَكَ، وكذلك يحق لظالمك أن يحتج بالقدر الذي احتججت به فيقول لك: إن الله قدَّر له أن يظلمك وأن ينتهك حرمتك وأن يسلب مالك، فلا سبيل إلى رَدِّ القدر المقدور. ولا شك أن حججه ستتهافت، وما عليه إلا أن يتوب أو تغمره الذنوب. =

س ـ مَا الاعْتِقَادُ فِي حَقِّ الأَنْبِيَاءِ؟

ج ـ الأَنْبِيَاءُ صَادِقُونَ[1]، أُمَنَاءُ[2]، ....

= والقول الذي تؤيده حجج الشرع والعقل، ويلتزم به العارفون أن يجتهد العبد في الطاعة وفعل المأمور وترك المحظور، وأن يرد القدر بالقدر، وأن يجلب القدر بالقدر، وأن يعارض القدر بالقدر، لذا احتج عمر بن الخطاب ﷺ على أبي عبيدة ﷺ لما اعترض عليه في رجوعه بالمسلمين دون دخول الشام بسبب الوباء الذي حل بها فقال أبو عبيدة: " أفرارا من قدر الله؟ " فقال عمر: "نعم، نفرُّ من قدر الله إِلَى قدر الله". (البُخَارِي "5397"، ومسلم "2219").

(1) **[الأنبياء صادقون فيما أخبروا عن الله ﷻ]**: لأنه لو جاز منهم الكذب لجاز كذبهم فيما يخبرون عن الله ﷻ وهو محال، فدل على استحالة كذبهم. ولأن النبوة إمَّا أن يدعيها أصدق الصادقين، أو يدعيها أكذب الكاذبين، وحالُ كل منهما تعرب عن دعواه، ولا يلتبس أمرهما إلا على من جَهِل نفسه.

ولأن الكاذب يفتضح أمره في أبسط أحواله فما بالك في ادعائه للنبوة ذات الشأن، كما أن صدق الأنبياء مسترسل مع حالهم فيما قبل النبوة لما علم من استحالة أن يصطفي الله ﷻ نبيئاً عرف عنه الكذب، فكذلك مدعي النبوة فإن الكذب مسترسل مع حالهم فيما قبل دعواهم.

كما أن البراهين والمعجزات التي ظهرت على أيدي الأنبياء فَصلت بين صدق الصادق وكذب الفاجر.

(2) **[الأنبياء أمناء على الوحي]**: والأمانة وصف ملازم للصِّدق، فالصِّدق يقتضي أن يَكُون المبلِّغ أميناً في تبليغ ما استؤمن على تبليغه على الوجه الذي بلّغ به، وإذا لم يبلغه على وجهه الذي بلغه لزمت خيانته، وهذا محال على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل الذي تواتر من أحوالهم الصدق والأمانة قبل النبوة ناهيك عمَّا بعدها، وقد أخبر الله تعالى في القرآن على لسان أنبيائه في عدة مواضع من سورة الشعراء وهم يخاطبون أقوامهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وعلى لسان موسى في سورة الدخان، مما يؤكد إقرار المولى ﷻ لهذا الوصف فيهم.

أما خاتمهم نبي الله محمد بن عبد الله ﷺ فَعَزٌّ حتى على من عادوه أن يشينوه بالكذب أو الخيانة، فكان صدق النبي ﷺ وأمانته ممَّا حاجَجَ به هرقل أبا سفيان ﷺ على =

مَعْصُومُونَ[1]، ....

= صدق رسالة محمد ﷺ فقال هرقل لأبي سفيان: " سألتك ماذا يأمركم فزعمتَ أنَّه أمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. قَالَ: وهذه صفةُ نبيٍّ ". (البُخَارِي "2535"، وأبو عوانة "6727"، والبيهقي، ج9 ص 178).

(1) **[عصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها]**: العصمة هي ملكة تمنع صاحبها عن الفجور من ارتكاب المعاصي واجتناب الطاعات.

والكلام عن عصمة الأنبياء يشمل القول عن عصمتهم قبل البعثة وبعدها:

أما قبل البعثة: فقد أجمع أهل العلم على عدم وُقُوع الكفر منهم قبل البعثة كما لم يقع منهم الفسق والفجور، وجوَّز القاضي أبو بكر الباقلاني وبعض المتكلمين وبعض المعتزلة وُقُوع الكفر والكبائر منهم قبل البعثة عقلاً، فلا يمتنع في العقل إرسال من آمن وأسلم بعد كفره، وخالفهم الشيعة وأكثر المعتزلة فقالوا بامتناع ذَلِكَ منهم لأنه يوجب هضمهم في النفوس، والنفرة من اتباعهم، وهو خلاف مقتضى الحكمة من بعث الرسل.

وأما بعد البعثة: فقد أجمع كل من يعتد بقوله في الإجماع أن الأنبياء معصومون من الكفر بعد البعثة لمنافاته مقتضى الرسالة وحكمة البعث. وخالف في ذلك الفضليَّة والأزارقة من الخوارج، أمَّا الفضليَّة فجوَّزوا الكفر عليهم لأنَّهم جوَّزوا عليهم المعاصي، وكل معصية عندهم كفر، وأمَّا الأزارقة فقالوا إنَّه يجوز أن يبعث الله نبيًا يعلم أنه يكفر بعد نبوته.

وجوَّز الشيعة إظهارهم للكفر على سبيل التقية.

كما أجمعوا على عصمتهم من تعمد كل ما يخل بصدقهم في دعوى الرسالة والتبليغ لمنافاته مقتضى المعجزة إذ لو جاز ذَلِكَ لالتبس الحَقّ بالباطل.

أما وُقُوع ذَلِكَ منهم على سبيل السهو والنسيان فمنعه الأستاذ أبو إسحاق وكثير من المتكلمين، وجوزه الباقلاني لأنه غير مناف لمقتضى المعجزة والتبليغ، واختاره الآمدي.

كما **أجمعوا على عصمتهم من تعمد الكبائر والموبقات** ومستند ذَلِكَ السمع عند جمهور أهل السنة والجماعة، وقال المعتزلة بأن دليله العقل.

أمَّا وُقُوع الكبائر منهم على سبيل السهو والخطأ فجوزه أكثر المتكلمين مع اتفاقهم على عدم وقوعه، ومنعه الرافضة. =

أَهْلُ فِطْنَةٍ[1]، لاَ يَكْتُمُونَ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَهُمْ اللّهُ بِتَبْلِيغِهِ[2]، ....

= وأما **تعمدهم للصغائر فجوزه جمهور المتكلمين** إلا الجبائي فقال بالمنع. وأما سهواً فجمهور المتكلمين على جوازه وهو مذهب الطبري وكثير من الفقهاء والمحدِّثين إلا ما كَانَ خسيساً يلحق فاعله بالأراذل والسفلة فقال الكثير بامتناعه منهم لجلالة قدرهم وعظم مكانتهم في عيون الخلق.

وقال الاسفراييني وابن سريج بأنَّه **يجوز عليهم الخطأ كما يجوز علينا**، لكن الفرق بيننا أننا نقر على الخطأ، والنبي لا يقر عليه.

وذهبت طائفة إِلَى الوقف في ذَلِكَ وقالوا بأن العقل لا يحيل وقوعها منهم ولم يقطع الشرع بأحد الوجهين.

وقال حسين النجار: إن الأنبياء لا قدرة لهم على المعاصي أصلاً.

وذهب بعض المحققين من أهل السنة والجماعة منهم الثعالبي إِلَى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر لاختلاف الناس في الصغائر وتعيينها من الكبائر، وأن مخالفة الباري في ذاتها كبيرة، وإنما سميت الصغيرة بالنظر إِلَى من هو أكبر منها، وقد قَالَ ابن عباس ﷺ: " كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ". (البيهقي في شعب الإيمان "292"، والطبراني في الكبير "293/18" وقال في مجمع الزوائد، ج1 ص 103: رجاله ثقات).

(انظر المسألة: المسامرة بشرح المسايرة لكمال الدين ابن أبي شريف القدسي، ص 227 وما بعدها، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج35 ص 100، والشفا للقاضي عياض، ص 205، والمواقف للإيجي، ج3 ص 415 وما بعدها، والبرهان لإمام الحرمين، ج1 ص 319، والمستصفى للغزالي، ص 274، والجواهر الحسان للثعالبي، ج1 ص 108، وروح المعاني للألوسي، ج16 ص . .274.).

(1) **[الأنبياء أهل فطنة]**: الفطنة وصف مستلزم لكمال العقل والعدالة والضبط، إذ يستحيل على الأنبياء أن يوصفوا بالغفلة أو نقصان العقل وإلا لزم احتمال النقص في التبليغ ولاختل كمال الرسالة وهذا محال.

كما أنَّ الأنبياء تقتضي رسالتهم إقامة الحجة على مخالفيهم، وإقامة الحجة والبرهان يقتضي كمال العقل والفطنة وانتفاء الغفلة وإلا لما أقاموا حجة على الخلق.

(2) **[الأنبياء مبلّغون للوحي]**: قد عرف من دلائل الاستقراء وبراهين العقل أن الله إِنَّمَا =

مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَاتِ لِلْعَادَةِ عَلاَمَةً عَلَى صِدْقِهِمْ[1].

= أرسل الرسل والرسالات لأجل صلاح أمور الخليقة في العاجل والآجل، ومما علم أن الشرع هو أصل معرفة المصالح والمفاسد في أمور الدنيا والآخرة، فلو افترض كتمان الرسل لما أمروا بتبليغه لتعطلت المصالح، ولما قامت لله حجة على خلقه، ولكان إرسال الرسل لغير حكمة وغاية، وكلّ هَذَا منتفٍ قطعاً.

ونصوص الكتاب طافحة بالدلائل الموجبة على الرسل تبليغ ما بعثوا به من الحق، وكان هَذَا البلاغ حجة الله على أهل الكفر يوم القِيَامَة بأن يكبَّهم في النَّار بعدما اعترفوا بأن الرسل قد بلَّغوا وأنذروا، دليل ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الزمر، الآيتين: 71 ـ 72].

وقد لعن الله ﷻ الذين يكتمون البينات والهدى المنزلة لهداية الناس، وحاشا لله أن يلعن صفوة خلقه الذين اجتباهم وقرَّبهم إليه بوحيه ورسالاته، وحاشاهم ـ عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ـ أن يكتموا شيئاً من الهدى والبينات، فقال ـ عزَّ من قائل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: 159].

وورد أمر الله ﷻ في عدة مواضع من القرآن الكريم للأنبياء بتبليغ ما أرسلوا لأجله، وَلَوْ كتموا شيئاً من ذَلِكَ لكان منهم مخالفة لأمر الله، ولاستوجبوا الذم، وقد علم أن الأنبياء معصومون من المخالفة فيما من شأنه التبليغ، فقال لموسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة طه، الآيتين: 42 ـ 43]، وقال ﷻ مخبراً عن نبيِّه نوح عليه السلام يأمره بتبليغ وحيه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾﴾ [سورة نوح، الآية: 1]، وقال ـ تعالى شأنه ـ يؤكِّد الأمر على رسوله بتبليغ الرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 67] فهذه الآيات وغيرها تدلُّ على وجوب تبليغ الرسل لما يوحى إليهم، وقد عُلم من عصمتهم أنَّهم لا يكتمون شيئاً مما أرسلوا به.

(1) **[شرائط المعجزة]**: المعجزة هي أمر خارق للعادة يَظْهَر على يد مدَّعي النبوَّة عند تحدِّي المنكرين له على وجه يبين صدق دعواه. =

= **فالمعجزة** في حقيقتها مخالفة للعادة والمألوف لكن ليست مخالفة للعقل والإمكان، وهي كذلك ليست من قبيل الكرامات التي يكرم الله بها الصالحين لأنَّهم ليسوا بمدَّعي للنبوَّة، وإنما هي برهان يؤيد مدعي النبوَّة علامة على صدقه، كما أن الخارقة إذا لم تقترن بتحدِّي المنكرين فليست من قبيل المعجزة وإنما تعد من باب الإكرام الإلهي، وإذا لم تؤيد المعجزة صدق الدعوى تكون برهاناً للنقيض. (بتصرف من: كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص214).

ووضع أهل العلم للمعجزة خمسة شرائط:

الأول: أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله ﷻ فلا يَصِحّ أن يحتج مدعي النبوة بأن يتحرك ويسكن وكل ما يقدر عليه البشر.

الثاني: أن تخرق العادة، فلا يَصِحّ احتجاج مدعي النبوة بمجاري الكون المعتادة كطلوع الشمس وغروبها...

الثالث: أن يستشهد بها مدَّعِي الرِّسالة على الله ﷻ فيقول: آيتي أن يقلب الله العصا حية، أو يزلزل الأرض عند قولي لها تزلزلي.

الرابع: أن تقع على وفق الدعوى، فإن لم تقع على وفقها أو خالفتها دلت على كذبه، كآية مسيلمة الكذَّاب لما سمع أن النبي ﷺ تفل في الدلو فأفرغه الناس في آبارهم فجاشت آبارهم بعد غورها، فبصق في دلو فأفرغه الناس في آبارهم فغارت مياههم وخوى نخلهم فبان بهتانه. (انظر تفصيل هذه القصة في تاريخ الطبري، ج2 ص 277).

الخامس: ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة.

فإذا وقعت الخارقة على هَذَا الوصف كانت دليلاً على صدق دعوى مدَّعِي النبوَّة، لأن الله ﷻ لا يؤيد الكاذب بالمعجزة ولأنَّه لو كَانَ ممكناً لعجز الباري عن تصديق رسله وكل ذَلِكَ محال.

وفي القرآن الكريم سرد لكثير من الخوارق التي ظهرت على أيدي الأنبياء دلالة على صدق دعواهم في النبوة والرسالة، وأيَّد صدق هذه الدلالة خاتمهم محمد ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كَانَ الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القِيَامَة». (البُخَارِي "4696"، ومسلم "152" واللفظ له). =

وَمَنْ كَذَّبَ نَبِيًّا وَلَوْ فِي كَلِمَةٍ فَقَدْ كَفَرَ[1].

س ـ مَا الَّذِي يَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ؟

ج ـ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الأَحْوَالُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي لاَ نَقِيصَةَ فِيهَا؛ كَالْجُوعِ وَالتَّعَبِ وَالنِّكَاحِ، وَالْمَرَضِ الَّذِي لاَ تَنْفِرُ مِنْهُ النُّفُوسُ[2].

= أي؛ ما من نبي إلا وقد أوتي من المعجزات والخوارق ما إذا شاهدها البشر أيقنوا بصدق من ظهرت على يديه.

ورغم الدلائل اليقينية التي قامت في الكتاب والسنة على حقيقة ظاهرة المعجزة برهاناً على صدق الرسل الذين ظهرت على أيديهم، نجد بين ظهراني المسلمين من يجرؤ على عقلنة الخوارق والمعجزات، وردها إِلَى المألوف من سنن الكون والطبيعة، بتحريف الكلم عن مواضعه، فأسقطوا بذلك كل شيء يسمى بالمعجزات، أو خوارق العادات، وهذا دأب مألوف عند أسياد المدرسة العقلية الحديثة، التي يرأسها الشيخ محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ومصطفى المراغي، ومحمد فريد وجدي. . .، ولست أدري ـ على حسب قولهم ـ أيّة حجة يقيمها نبي على قومه ليدلل بها على صدقه ما دامت مألوفة لقومه، بل أي داعٍ يأخذ بالقوم إِلَى أن يصدِّقوا مدَّعٍ يبرهن على صحة دعواه بدلائل كلهم يقدر على أن يأتي بها، أو أَلِفوها في مجاري الطبيعة. وقد سبق نقض معتمدهم عند كلام المصنف عن وظيفة العقل في علم العقيدة فليراجع.

(1) **[تكذيب الأنبياء كفر]**: لا فرق بين من كذب النبي في كلمة أو كذبه في حرف أو كذب بجملة رسالته فيكفر بمجرد التكذيب، ولا عبرة بمقدار المكذَّب به، لأن القدح يرجع إِلَى شخص النَّبي فيلزم منه إبطال المعجزة والعصمة وإسقاط وصف الصدق والأمانة عنه فتبطل الرسالة، لأنَّ من كذَب في حرف لا يؤمن أن يكذِب في كل ما أتى به، وحاشا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فلزم أن يكفر من كذَّبهم في القليل أو الكثير، وعلى هَذَا القول سار السلف والخلف من أهل السنة والجماعة، قَالَ العلامة أبو البركات أحمد الدردير المالكي في "شرحه الكبير"، ج4 ص 310: " والحقّ أن الإعلان بتكذيب النبي من أعظم السب فيقتل به مطلقاً".

(2) **[تجوز على الأنبياء الأعراض البشريَّة غير المنفِّرة]**: الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تجوز عليهم جَمِيع الأعراض البشرية التي لا تنقص من قدرهم، =

س ـ مَا خَصَائِصُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ـ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ؟

ج ـ هُوَ خَاتمُ الأَنْبِيَاء[1]، ....

= أما الأعراض المنفِّرة كالبرص والجرب وغيرها فلا تجوز في حقهم لنفور عامة الخلق منها، وليس من شأن الأنبياء أن يتصفوا بشيء من ذَلِكَ والناس مأمورون باتباعهم والحَوْم من حولهم.

وصريح النُّصُوص يقطع بجواز الأعراض البشرية عليهم، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان، من الآية: 20]، وقال ﷺ: «... إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منِّي». (البُخَارِي بلفظه "4776"، ومسلم "1401"، وابن حبان "14").

كما أن دليل الحسّ يؤكد مشاهدة الأعراض البشرية فيهم، وليس أدلّ على الجواز من الوقوع.

وما اشتهر في بعض كتب التفسير من أن نبي الله أيوب عليه السلام لما تضرَّع لربِّه عز وجل في مصيبته: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [سورة ص، الآية: 41] فسرها البعض بما ورد في الإسرائيليات من أن أيوب عليه السلام مرض حتى تساقط الدود من جسده وعافه الناس، فهذا مما لم يرد فيه نص من كتاب ولا من سنة صحيحة، وإنما هو من الإسرائيليات المكذوبة على أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ.

(1) **[خصائص نبيّنا محمد ﷺ]:**

[خاتم النبيّين]: القول بأن نبينا ﷺ **خاتم النبيين** أمر عرف بالدلائل اليقينية في عقيدة المسلمين يكفر من خالفه، وعلى هَذَا القول أجمعت الأمة من أولها إِلَى آخرها، دلت على ذَلِكَ النُّصُوص القطعية من الكتاب والسنة، قَالَ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: 40].

ووردت في السنة أحاديث كثيرة في هَذَا المعنى، منها ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قَالَ: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». (البُخَارِي "3342"، ومسلم "2286"). =

رَسُولاً إِلَى جَمِيعِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ[1]، جَاءَ مِنَ اللّهِ بِالْقُرْآنِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[2]، وَهُوَ أُمِّيٌ لاَ يَكْتبُ وَلاَ يَقْرَأُ[3]، ....

= وعن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قَالَ: «... وإنَّه سيكون في أمتي ثلاثون كذَّاباً كلهم يزعم أنَّه نبي وإِنِّي خاتم النبيين لا نبي بعدي..». (ابن حبان "7238"، وأحمد في مسنده "22448"، والترمذي "2219" وصححه الألباني).

(1) **[رسولاً إلى الإنس والجنّ]**: سبق الكلام في مسألة تكليف الجن بالرسالة المحمدية، ونقل البعض الإجماع على هَذَا القول، وهذا يقتضي أن نبينا ﷺ بُعث إِلَى الإنس والجن كافة، ونصوص القرآن والسنة طافحة بما يؤيد هَذَا القول.

ونُقل عن البعض القول بأن الله ﷻ بعث إِلَى الجنِّ رسلاً منهم كما بعث إِلَى الإنس رسلاً منهم، قاله الضحاك ومقاتل وأبو سليمان وقال ابن الجوزي: "وهو ظاهر الكلام". (زاد المسير لابن الجوزي، ج3 ص 125).

ودليل هؤلاء قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 130]، فدلت الآية على أن الرسل يبعثون من جنس أقوامهم. لكن الاستدلال بهذه الآية غير قاطع في المعنى، فمقصود الآية أن الرسل يكونون من أحد الفريقين وهم الإنس، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الرحمن، الآية: 22]، وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من المالح دون العذب.

(2) **[بشيراً ونذيراً لجميع الناس]**: البشير من البشارة والتبشير، وهي الإخبار بما يَظْهَر أثره على البَشْرة وهو ظاهر جلد الإنسان، سواء كَانَ خيراً أو شراً، لكنه لا يستعمل في الشر إلا مقيداً به؛ كقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة النساء، الآية: 138]، وعند إطلاقه لا يَكُون إلاَّ في الخير.

النذير من الإنذار وهو الإبلاغ والإعلام، ولا يَكُون إلا في التخويف.

وقد وصف الله ﷻ رسوله بأنَّه بشير لمن آمن، ونذير لمن كفر فقال ـ عزَّ من قائل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 45].

(3) **[الرسول ﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب]**: وقد قطع القرآن بأمِّية الرسول ﷺ في مواضع، قَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 157]، وقال أيضاً: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 158]، **والأمّي** في كلام العرب هو =

....

= الذي لا يحسن القراءة والكتابة، وهذا الأمر معروف من حال الرسول ﷺ وسيرته، فإنَّه لم يُعرف عنه أنَّه قرأ أو كتب، وهذا من سرِّ المعجزة التي أوتيها.
وجمهور أهل العلم متَّفقون على أنَّه لم يُعهد عن النبي ﷺ أنَّه كتب أو قرأ في حياته حتى انتقل إِلَى الرفيق الأعلى، يدلُّ على ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة العنكبوت، الآية: 48]، فدلت الآية على أن النبي ﷺ لم يكن يحسن القراءة ولا الكتابة.
[خلاف بعض أهل السنَّة في أميَّة الرسول ﷺ]: وخالف في ذَلِكَ جَمَاعَة من أهل العلم، على رأسهم أبو الوليد الباجي حيث قَالَ بأن رسول الله ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن الكتابة، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه، وأكبروا قوله ورماه بعضهم بالزندقة، وكفَّره ابن الصائغ لمقولته، فجمعهم الأمير واستظهر عليهم الباجي بما عنده من المعرفة، فأرسل الباجي إِلَى علماء الآفاق فأيَّده بعضهم منهم شيخه أبو ذر الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وبعض علماء إفريقية، وأيده كذلك شيوخ صقلية وأنكروا على ابن الصائغ قوله فألَّف الباجي رسالته "تحقيق المذهب" أوضح فيها قوله وحجته حتى رجع بها جَمَاعَة مِمَّنْ خالفه.
وجملة ما احتج به الباجي هو ظاهر الرواية في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في عمرة القضاء لما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة فجاء في الرواية: «. . . فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب: هَذَا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله. . .» (البُخَارِي "4005"، وأبو عوانة "6796").
فظاهر الرواية يفيد أن رسول الله ﷺ هو الذي كتب الكتاب، وكان هَذَا متمسك الباجي ومن ذهب مذهبه.
كما أجاب الباجي عن الآية التي استدل بها الخصم أن الآية قيدت الأمِّية بما قبل ورود القرآن، ولا مانع بعد أن تحققت أمِّيته وثبتت معجزته أن يكتب، بل تعد كتابته معجزة أخرى له تضاف إِلَى معجزاته ﷺ.
كما أيد بعض أهل العلم مستند الباجي بأنَّه ليس من عرف أن يكتب اسمه بخارج عن أن يَكُون أمِّيًا لأنه لا يسمى كاتباً، وقد كَانَ جَمَاعَة من الملوك يكتبون العلامة وهم أمِّيون، فالحكم للغالب لا للصورة النادرة.
وقد تأول العلامة ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ ظاهر الرواية بتأويل حسن يجمع بين =

وَلَمْ يَتَعَلَّمْ قَطّ، وَذَلِكَ مِنْ أَكْمَلِ الْكَمَالِ لَهُ؛ لأَنَّ أَكْبَرَ مُعْجِزَاتِهِ الْقُرْآن الَّذِي أَدْهَشَ[1] مَصَاقِعَ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ[2]، لِيَتَحَقَّقَ أَنَّ فَتْحَهُ قُدْسِيٌّ، وَكِتَابَهُ مُنَزَّلٌ

= المذهبين من غير تناقض حيث قَالَ بأن إطلاق يده ﷺ بالكتابة ولم يحسنها كالمعجزة له، ولا ينافي هَذَا كونه أميًا لا يحسن الكتابة، لأنّه ما حرك يده تحريك من يحسن الكتابة، إِنَّمَا حركها فجاء المكتوب صواباً.

حتى وإن اشتهر هَذَا القول عن الباجي لأنه دافع عن اجتهاده، وأوذي بسببه، فلم يكن بدعاً من الأمر، فقد سبقه لهذا القول عمر بن شبة (ت 262هـ) في كتابه "الكُتَّاب" حيث ذكر فيه أن رسول الله ﷺ كتب بيده يوم الحديبية، ومن بعد الباجي أَلَّف الشمس البرزنجي رسالة حافلة أثبت فيها الكتابة والقراءة للرسول ﷺ.

(باختصار وتصرف من: الديباج المذهب لابن فرحون، ص 121، ونفح الطيب للتلمساني، ج2 ص 542، والتراتيب الإدارية للكتاني، ج1 ص 176 وما بعدها، وفتح الباري، ج5 ص 503 ـ 504، وغاية السول في خصائص الرسول لابن شاهين، ص 132 وما بعدها، والسيرة الحلبية لعلي الحلبي، ج2 ص 709 وغيرها).

(1) في الأصل: الذي هو أدهش.

(2) **[الرسول جاء بالقرآن المُعجز لبلغاء العرب]**: وقد اعترف بذلك أساطينهم من البلغاء والفصحاء ورؤساء الشِّعر، وقد اشتهر في كتب السنن والسير قصة الوليد بن المغيرة لما جاء إِلَى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذَلِكَ أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قَالَ: لم؟ قَالَ: ليُعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قِبَله.

قَالَ: قد علِمَت قريش أنِّي من أكثرها مالاً.

قَالَ: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له.

قَالَ: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمُثْمِر أعلاه، مُغْدِق أسفله، وإنه ليَعلو ولا يُعْلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قَالَ: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قَالَ: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكَّر قَالَ: إن هَذَا إلا سحر يُؤْثَر يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪﴾ [سورة المدثر، الآية: 11]. (رواه الحاكم =

عَلَيْهِ مِنَ اللّهِ، فَلاَ يَرْتَاب أَحَدٌ فِي نُبُوَّتِهِ وَإِبْلاَغِهِ رِسَالَةَ رَبِّهِ.

س ـ هَلْ الْقُرْآنُ كَلاَمُ اللهِ نَفْسُهُ؟

ج ـ الْقُرْآنُ كَلاَمُ اللهِ نَفْسُهُ[1]، وَهُوَ الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ، ......

= وصححه على شرط البُخَارِي "3872"، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان "134"، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص 158).

واشتهرت كذلك قصة عتبة بن ربيعة لما بعثه كفار قريش ليفاوض رسول الله ﷺ في أمر هَذَا الدين الذي فرق صفَّهم، وشتَّت شملهم، فقرأ عليه رسول الله ﷺ صدرا من سورة فصِّلت، فرجع إِلَى قومه بغير الوجه الذي ذهب به، بل أقرَّ في بعض الروايات بأنه لم يفهم شيئاً مما قاله محمد غير ذكر الصاعقة، وقال فيما قَالَ: فأجابني بشيء والله ما هو سحر، ولا شعر، ولا كهانة، قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم حتى بلغ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. فأمسكته بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قَالَ شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. (الحاكم "3002"، والبيهقي في شعب الإيمان، ج1 ص 268، وأبو يعلى "1123"، والأصبهاني في دلائل النبوة "258"، وصححه الألباني في صحيح السيرة، ص 160).

(1) **[القرآن كلام الله نفسه]**: وهذا الذي يدين به أهل السنة والجماعة من السلف والخلف، فكلهم يقولون: إن القرآن كلام الله نفسه على الحقيقة، وإنه تكلم به، ومنه بدأ وإليه يعود. وقد دل القرآن والسنة في مواضع كثيرة على ذَلِكَ منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة، من الآية: 6].

وفي حديث جابر ﷺ قَالَ: كَانَ رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف فقال: «ألا رجل يحملني إِلَى قومه فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ **كلام ربي**». (أبو داود "4734"، والترمذي "2925"، وابن ماجة "201" وصححه الألباني في الصحيحة "1947").

وأثر عن السلف ـ رحمهم الله ـ عبارات مشهورة تبين عقيدتهم في القرآن وأنه كلام الله، منها قَوْل سفيان بن عيينة لما سئل: ماذا تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله، منه خرج وإليه يعود. (العلو للعلي الغفار، ص 155).

وقال مالك: القرآن كلام الله، وكلام الله منه، وليس من الله شيء مخلوق. (العلو للعلي الغفار، ص 140). =

الْمَحْفُوظُ فِي الصُّدُورِ، الْمَقْرُوءُ عَلَى الأَلْسِنَةِ، نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ[1] مُعْجِزًا كُلَّ مَنْ يُعَارِضُهُ أَوْ يُرِيدُ الإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ.

= وحكي عن الجهم القول بأن القرآن ليس كلام الله على الحقيقة، وإنما هو كلامٌ خلقَه الله فيُنسب إليه؛ كما قيل: سماء الله وأرضه، وكما قيل: بيت الله وشهر الله. أما المعتزلة فأطلقوا القول بأنه كلام الله على الحقيقة، ثُمَّ وافقوا الجهم في المعنى، حيث قالوا بأنه كلامٌ خلَقَه بائناً منه.

(1) فقد تواترت النُّصوص على أن القرآن هو كلام الله الذي نزل به جبريل الأمين على محمد الأمين، الذي هو مكتوب بين دفَّتَي المصحف، تتلوه ألسنة القارئين، وتحفظه صدور الحافظين.
قال ابن حزم الظاهري ـ رحمه الله ـ مظهراً لعقيدة أهل السنَّة والجماعة في القرآن: "وهو ـ أي القرآن ـ المكتوب في المصاحف، والمسموع من القاريء، والمحفوظ في الصدور، والذي نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ كل ذَلِكَ كتاب الله تعالى وكلامه القرآن حقيقة لا مجازاً". (المحلى، ج1 ص 32).
والدليل على أنه المكتوب في المصاحف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الواقعة، الآيات: 77 ـ 79]، وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة البينة، الآيتين: 2 و 3].
والدليل على أنَّه المحفوظ في الصدور قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية: 49]، وقال النبي ﷺ: «بئس ما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّيَ، استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصِّياً من صدور الرجال من النَّعَم بعقلها». (البُخَارِي "4744"، ومسلم بلفظه "790").
والدليل على أنَّه المقروء على الألسنة قوله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: 106]، وقوله أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 121]، وقوله أيضاً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [سورة القيامة، الآية: 16].
والدليل على أن القرآن هو الذي نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ قوله جل جلاله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة النحل، من الآية: 102]، وقوله أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 193 و 194].

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[1].

وَقَدْ تَكَفَّلَ اللهُ بِصِيَانَتِهِ مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، وَمَنْ سَعَى فِي تَحْرِيفِهِ لَفظًا أَوْ مَعْنى يَفْتَضِحُ، وَعَجْزُهُ يَتَّضِحُ[2].

س ـ مَا الْقَوْلُ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ غَيْر الْقُرْآنِ؟

ج ـ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَغَيْرُهَا مِنَ الصُّحُفِ الإِلَهِيَّةِ كُلُّهَا كَلَامُ اللهِ مِثْل القُرْآن، إِلاَّ الكَلِمَات الَّتِي حَرَّفُوهَا.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 88. فالقرآن العظيم آية الله الباقية، وحجة الله على خلقه إِلَى قيام الساعة، تحدَّى به الثقلين أن يأتوا وَلَوْ بسورة من مثله، فإذا كَانَ العرب الذين نزل بلسانهم قد عجزوا عنه، وهم الذين كَانَ ينتظر منهم التحدِّي فما بالك بمن هو دونهم، فكممت دونه أفواه الفصحاء، ولثغت عنده ألسنة البلغاء، فلا هو من الكهانة حتى يباريه كاهن، ولا هو من الشعر حتى يناقضه شاعر، ولا بالسحر حتى يضاهيه ساحر، بل هو آيات بينات من لدن حكيم خبير.

وقد سبق ذكر كلام الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة فيه، وهما من أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء، ومن أعلم الناس بشعر العرب ونثرهم، فعجائبه لا تنقضي، ونسمع كل حين من آيات اليقين في الكون والملكوت ما يُثبِّت به الفؤاد، فخاب وخسر من كذب به.

(2) لما كانت هذه الشريعة الغراء خاتمة الشرائع السماوية، وجعلها الله ﷻ الحجة الباقية على الخلق إِلَى أن يرث الله الأرض وما عليها، كَانَ من مقتضى ذَلِكَ أن تصان هذه الشريعة عن التزييف والتحريف، وتحفظ من الضَّياع، وقد كَانَ لها ذَلِكَ لما تكفَّل الباري ـ جل وعلا ـ بحفظها دون غيرها من الشـرائع: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: 9].

وقد قيَّض الله ﷻ بموجب هَذَا الحفظ أعلاماً عدولاً يحفظون هذه الشريعة بحفظ الله سلفا عن خلف، وسيكون لها ذَلِكَ حتى تقوم الساعة، وقد قَالَ ﷺ في هؤلاء الحفظة: «يرث هَذَا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين». (البيهقي في السنن الكبرى، ج10 ص 209، والطبراني في مسند الشاميين "599"، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح "248").

وَحَيْثُ كَانَ حَصْرُهَا مَجْهُولاً فَنَقُولُ فِي تِلْكَ الكُتُبِ إِجْمَالاً: آمَنَّا بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ[1].

وَالشَّرْعُ الْمُحَمَّدِيُّ مُصَدِّقٌ لِلشَّرَائِعِ قَبْلَهُ، وَرَافِعٌ لِحُكْمِهَا بِأَمْرِ اللهِ، فَلَا شَرِيعَةَ بَعْدَ بِعْثَتِهِ إِلاَّ شَرِيعَتُهُ[2]، ....

---

(1) **[الإيمان بالكتب السماويّة]**: نص القرآن الكريم على الكتب والصحف التي أنزلت على بعض الأنبياء قبل النبي ﷺ مثل صحف إبراهيم، والزبور الذي أنزل على داود، والتوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، وهذه الكتب الإلهية طالتها أيدي التحريف والتزييف من قبل أهل الضلال فزادوا فيها وأنقصوا منها على حسب ما تمليه أهواؤهم، وقد نص على ذَلِكَ أعلم العالمين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [سورة البقرة، من الآية: 79]، وقال أيضاً: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [سورة النساء، من الآية: 46]، وبما أنها لم تبق على العهد الذي أنزلت عليه لما اعتراها من الزيادة والنقص، فالمسلمون مأمورون بالإيمان بها على الإجمال امتثالا لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة النساء، من الآية: 136]، والكتب التي بأيدي هؤلاء فيها ما قطع القرآن بتكذيبه ودل على تحريفه؛ كالقصص الخليعة التي طالت أعراض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ واحتقرتهم وانتقصت من قدرهم، فهذا مما لا شك في كذبه وتزييفه، وما لم ينصّ القرآن على تحريفه لا نقطع فيه بشيء، ولا نعرض له لا بتعظيم ولا بإهانة، وإنما نقول كما أمرنا القرآن: آمنا بما أنزل الله. وعلة ذَلِكَ أننا إن صدقنا أو كذبنا بشيء من ذَلِكَ فإننا قد نصدق ما كَانَ منه مفترى، وقد نكذب ما حقه الصدق، ولذلك قَالَ النبي ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإن كَانَ حقاً لم تكذبوهم، وإن كَانَ باطلاً لم تصدقوهم». (ابن حبان "6257"، والبيهقي "2071"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة "2800").

(2) **[الإسلام ناسخ لما قبله من الشرائع]**: سبق ذكر الأدلة في فصل النبوة على أن نبينا ﷺ هو خاتم الأنبياء فلا نبي بعده، فاقتضى ذَلِكَ أن تكون شريعته هي خاتمة الشرائع ومهيمنة عليها، وقد قَالَ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 48]، فكانت شريعة =

وَهِيَ أَجْمَعُ الشَّرَائِعِ وَأَيْسَرُهَا[1]، ....

= الإسلام مصدقة لما سبقها من الشرائع، وأمينة عليها، وهي التي رضيها الله ﷻ ديناً باقياً لعباده، فلا اعتداد بشريعة يُدان بها بعدما نزلت، وأتمَّ الله بها النِّعمة على الخلق، قَالَ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة، من الآية: 3]، ومن ابتغ ديناً في غيرها خسر دنياه وآخرته: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 85]، وقد أمر الله تعالى أهل الكتاب الذين أدركوا رسالة محمد ﷺ أن يؤمنوا بما جاء به لأن الإيمان به هو تصديق لما معهم من الكتاب لأن كتبهم بشرت ببعثته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [سورة النساء، من الآية: 47]، وقد أكد ذَلِكَ ﷺ في الحديث الصحيح: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثُمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كَانَ من أصحاب النَّار». (مسلم "153"، وأحمد "8188").

وقد قَالَ رسول الله ﷺ لِعُمر بن الخطاب ﷺ لما استأذنه في كتابة شيء من التوراة: «... لقد جئتكم بها بيضاء نقيَّة وَلَوْ كَانَ موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي». (البيهقي في شعب الإيمان "177"، وأحمد "14672").

ومما ثبت بالدليل الصحيح أنه عندما ينزل عيسى ﷺ يَكُون متبعاً لدين محمد ﷺ كما قَالَ ﷺ: «... ثُمَّ ينزل عيسى بن مريم مصدقاً بمحمد ﷺ وعلى ملته مات إماماً مهدياً وحكماً عدلاً فيقتل الدَّجَّال». (الطبراني في الأوسط بلفظه "4580" والكبير "6919"، وأحمد، ج5 ص 13، وقال في "مجمع الزوائد" ج7 ص 336: ورجاله ثقات وفي بعضهم ضعف لا يضر).

فإذا كَانَ الأنبياء وهم أصحاب الرسالات لا يسعهم إلا اتباع نبينا محمد ﷺ لو أدركوه، فما بالك بمن تبعهم، مما يدل على أن شريعته ﷺ قاضية على ما قبلها من الرسالات، ورافعة لحكمها إِلَى قيام الساعة.

(1) واليسر في الأحكام هو أحد خصائص هذه الشريعة السمحة، وباليسر تميزت عن غيرها من الشرائع رحمة من الله بهذه الأمة، وقد امتن الله على عباده بهذا التيسير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج، من الآية: 78]، فليس في أحكامها شدة على أحد، والمرونة كذلك من خصائصها وهي ملازمة لليسر، فتصلح لكل زمان ومكان، فكلما ضاقت بالمكلف الأحوال، وجد السعة في الأحكام، والفرجة من الكريم المنان، لذا نهانا النبي ﷺ أن نطمس هَذَا اليسر =

وَلاَ يَلْزَمُ أَنْ نَعْرِفَ حِكْمَةَ جَمِيعِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهَا وَاضِحَ الحِكْمَةِ(1).

س - هَلْ لِلْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ حُكْمُ القُرْآنِ فِي الطَّاعَةِ وَالإِيمَانِ؟

ج - نَعَمْ لاَ فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ(2).

= والتخفيف بالتشديد والتضييق فقال في الحديث الصَّحيح: «إن الدِّين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا». (البُخَارِي "39"، وابن حبان "315").

(1) سبق الكلام عن الحكمة بتفصيل كبير فارجع إليه.

(2) **[للحديث النبوي حكم القرآن في الطاعة والإيمان]**: مصداق ذَلِكَ قوله تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ٢٠﴾ [سورة الأنفال، الآية: 20]، وطاعة الرسول تقتضي اتِّباع ما جاء به من الأحكام والأخبار، وقد قرن الله ﷻ طاعة الرسول بطاعته في مواضع من القرآن الكريم لأن طاعة الرسول هي طاعة لله، ومعصيته من معصية الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠﴾ [سورة النساء، الآية: 80]، والله ﷻ أمرنا أن نحتكم إِلَى سنة نبيه ﷺ، ونردَّ إليها ما تُنُوزِعَ فيه من الأمر، بل نفى الإيمان على من لم يفعل ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء، الآية: 59]، وقال أيضاً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [سورة النساء، الآية: 65]، وحذَّر الله ﷻ من مخالفة لرسول ﷺ أيما تحذير، وتوعد من خالف أمره بالسقوط في الفتنة والعذاب الأليم: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور، من الآية: 63]، ومن أعرض عن حكم الرسول ﷺ أو صدَّ عنه فأولئك من المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١﴾ [سورة النساء، الآية: 61]، ومن علامات صدق إيمان المرء أن يرضى بالاحتكام إِلَى الله ورسوله في شأنه كله، وجزاء ذَلِكَ الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [سورة النور، الآيتين: 51 و 52]. =

وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ مَحْفُوظٌ عِنْدَ أَهْلِهِ بِالْحَرْفِ وَالشَّكْلَةِ، إِذْ لاَ يُزَادُ فِيهِ وَلاَ يُنْقَصُ[1].

= وكما قرن الله ﷻ طاعة الرسول بطاعته في القرآن، فإن الرَّسول ﷺ جعل القرآن والسنة سواء في التبليغ والتشريع، قَالَ رسول الله ﷺ: «أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيِّه». (رواه مالك بلاغاً في الموطأ "1594"، والحاكم "319"، وصححه الألباني في صحيح الجامع "2937"، وقال ابن عبدالبر في التمهيد، ج24 ص 331: " وهذا أيضاً محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد ").

والدور الرئيس للسنَّة هو تبيين ما أنزل الله ﷻ من الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية: 44]، وتبيين السنة للقرآن يقع ببيان مجمله، وتقييد مطلقه، وتخصيص عامِّه... كما أنَّها تستقل بتشريع الأحكام بدليل أن كثيراً من المأمورات والمنهيات إِنَّمَا استفيدت من السنة الشريفة استقلالاً، ويؤكد ذَلِكَ حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ قَالَ: حرَّم رسول الله ﷺ يوم خيبر أشياء ثُمَّ قَالَ: «يوشك أحدكم أن يكذِّبني وهو متَّكِئ على أريكته، يحدث بحديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه، ألا وإن ما حرَّم رسول الله ﷺ مثل حرَّم الله». (رواه عبدالله في زوائد المسند بلفظه، ج4 ص 132، ابن حبان "12"، والترمذي "2664" وصححه الألباني).

وقد عضَّد حديث المقدام ﷺ ما ثبت عن النبي ﷺ أنه حرم المتعة ولحوم الحمر الأهلية زمن خيبر كما في البُخَارِي "4825"، ولم يرد تحريم ذَلِكَ في القرآن مما يدلُّ على استقلالية السنة بالتشريع، ووجوب طاعة الرسول ﷺ فيما أمر ونَهى.

(1) لأن الزيادة والنقص في حديث رسول الله ﷺ هي من الفرية والكذب عليه، وتقويل رسول الله ﷺ ما لم يقله، وهذا من أكبر البهتان على الله ورسوله، فمن تعمَّد زيادة شيء في حديث رسول الله ﷺ أو أنقص منه شيئاً فكأنما زاد أو أنقص من دين الله، وقد توعَّد النَّبي ﷺ من اقترف هَذَا البهتان بمقعدٍ في جهنم: «إِنَّ كذِبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ مُتَعَمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النَّار». (البُخَارِي "1229"، ومسلم "4").

س ـ هَلْ يَجُوزُ تَفْسِيرُ القُرْآنِ بِمُقْتَضَى القَوَاعِدِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا تَفَنُّنُ أَهْلِ الْعَصْرِ وَلَوْ خَالَفَتِ النَّصَّ الصَّحِيحَ؟

ج ـ تَفْسِيرُهُ بِمَا يُخَالِفُ الثَّابِتَ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَرَامٌ(1)، وَرُبَّمَا يَجُرُّ إِلَى الْكُفْرِ(2)، فَحُكْمُ الْقُرْآنِ وَحِكْمَتُهُ(3) وَتَعْرِيفُهُ لِلْحَقَائِقِ بِالْمَعْنَى الْعَرَبِي(4)

---

(1) **[لا يجوز تفسير القرآن على خلاف الثابت من علوم الوحي]**: لأن ذَلِكَ من تحريف الكلم عن مواضعه، وتحميل الكلام ما لا يحتمله، وهو من الجدال العقيم الذي يوصل إِلَى ضرب كلام الله بعضه ببعض، وقد نهى رسول الله ﷺ في الحديث عن ذَلِكَ لما فيه من الفتنة، فعن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أَنَّ نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، فسمع ذَلِكَ رسول الله ﷺ فخرج كأنما فقئ في وجهه حبَّ الرمَّان فقال: «بهذا أُمرتم، أو بهذا بُعثتم؛ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض إِنَّمَا ضلَّت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما ههنا في شيء، انظروا الذي أُمرتم به فاعملوا به والذي نُهيتم عنه فانتهوا». (أحمد "6845"، والطبراني في الأوسط "1308").

والله ﷻ قد توعَّد الذين يجادلون في آياته بغير علم فما بالك بمن يفسِّر آياته على خلاف معناها الثَّابت وهو على علم بذلك فهذا مصيبته أشدُّ وأعظم، قَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة غافر، الآية: 35].

(2) كتأويلات الباطنية وغلاة المتصوِّفة وغلاة الرَّافضة الذين يأوِّلون الآيات تمشِّياً مع أهوائهم ومذاهبهم، ويلوون أعناق النُّصُوص نصرة لحزب الشَّيطان، وما يعدهم الشَّيطان إلا غروراً.

(3) **[حُكم القرآن وحكمته]**: حكم القرآن هو كل ما جاء فيه من أحكام وتشريعات سواء ما تعلق منها بالعبادات أو ما تعلق منها بالمعاملات والحدود والجنايات فكلها من حكم القرآن.

وأما **حكمة القرآن** فهي كلّ ما قُصد تحقيقه من مصالح العباد في العاجل والآجل من أثر تلك الأحكام.

(4) **[هل في القرآن شيء من غير العربيّة؟]**: نزول القرآن باللسان **العربي** حقيقة مقرّرة بالقرآن في مواضع كثيرة؛ قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة النحل، الآية: 103]. =

وَالْمِنْهَاجِ الْمُحَمَّدِيّ مُسْتَمِرٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[1]، وَمَنْ زَعَمَ اخْتِصَاص تِلْكَ الْمَعَانِي وَالتَّعْرِيفَات بِإِقْلِيمٍ أَوْ زَمَانٍ دُونَ غَيْرِه فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ، حَيْثُ نَسَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا

= وقال أيضاً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [سورة يوسف، الآية: 2]، وقال أيضاً: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية: 12]. فاستناداً إِلَى هذه الآيات وغيرها ذهب جمهور أهل العلم إِلَى أنَّ القرآن كلُّه نزل بلسان عربي ليس فيه شيء من لغة الفرس أو الرُّوم أو غيرهم، وشدّد الشافعي النَّكير على من زعم وُقُوع المعرب في القرآن، وقال أبو عبيدة: إن من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول.

وحجَّتهم كما يقول ابن فارس ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أنَّه لو كَانَ فيه من غير لغة العرب شيء لتوهَّم متوهِّم أنَّ العرب إِنَّمَا عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها.

وذهب آخرون إِلَى وُقُوع الشيء اليسير من المعرب في القرآن، وقالوا بأنَّ وُقُوع كلمات يسيرة بغير العربية لا تخرج القرآن عن كونه عربياً كما أنَّ القصيدة الفارسية لا تخرج عن كونها فارسية بوقوع لفظة عربية فيها، وهذا المذهب منقول عن أبي ميسرة رضي الله عنه وسعيد بن جبير ووهب بن منبه. (انظر الإتقان للسيوطي، ج1 ص 293 ـ 294، وروح المعاني للألوسي، ج12 ص 174).

وتوسط آخرون فقالوا: إن مخالطة العرب لسائر الألسنة في أسفارهم أورثهم من لغاتهم بعض الألفاظ غيروا فيها واستعملوها فجرت مجرى العربي الفصيح، قَالَ ابن عطية الأندلسي في تفسيره: " والذي أقوله: إنَّ القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلا من لسان آخر، فأما هذه الألفاظ ـ أي المعربة ـ وما جرى مجراها فإنه قد كَانَ للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي قريش... فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إِلَى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الصريح ووقع بها البيان وعلى هَذَا الحدِّ نزل بها القرآن فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره...". (المحرر الوجيز لابن عطية، ج1 ص 51).

(1) لأن شريعة الإسلام التي أساسها القرآن والسنة شرعة عالمية لكل مكان، دائمة لكل زمان، جاءت لعموم البشر المخاطبين برسالة محمد ﷺ لا فرق بين أمة وأخرى، ولا فرق بين أبيض وأسود فكلهم في التَّكْلِيف بها سواء.

هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مِنْ تَصْوِيرِ غَيْرِ الْوَاقِعِ، إِمَّا قَصْدًا أَوْ جَهْلاً بِالْحَقَائِقِ، وَحَاشَاهُ ﷺ مِنَ الأَمْرَيْنِ، وَقَدْ صَدَّقَهُ اللهُ فِي جَمِيعِ مَقَالاَتِهِ، أَيَخْفَى عَلَى اللهِ شَيْءٌ[1]؟

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2]؟

وَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[3].

---

(1) لأن من زعم هَذَا الزعم فقد ناقض صريح القرآن الذي أنزله رب العزة ﷻ على محمد ﷺ ليبلغه للناس جميعاً، من حضره ومن لم يحضره، وليبلغ الشاهد الغائب: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 158]، ومدَّعي هذه الدعوى إِنَّمَا يبغي من ورائها إثبات قصور هذه الشريعة عن مواكبة الأحداث المتجددة، وعجزها عن مواءمة التغير في المكان وتعاقب الزمان، إذن فهي ـ على زعْمه ـ شريعة العرب وليس كل العرب، بل العرب الأولين الذين نزل القرآن بين أظهرهم وحكم في نوازلهم، ولعمري إن قائل هَذَا القول مفترٍ على الله ورسوله، ومكذِّب لقول المصطفى ﷺ: «... وبُعثت إِلَى النَّاس كافَّة...». (البُخَارِي بلفظه "427"، وابن حبان "2313").

(2) سورة الملك، الآية: 14. ففي الآية إنكار على من نفى إحاطة علم الباري ﷻ بمدارك الخلق وأحوال الكون، إذ هل يعقل قصور علمه بمخلوقاته ﷻ وهو خالقها ومدبِّرها وموجدها من العدم؟!

وأيضا هل يعقل ويُتصور لدى عاقل أن يوجد أي مبتكر آلة دون أن يعرف أحوالها وشؤونها، وما يصلحها وما يفسدها؟! فإذا كَانَ هَذَا الحال مع المخلوقين الضعفاء، فما بالك بخالق الخلق جميعاً وموجدهم من العدم ومصورهم كيفما شاء أيعقل أن يجهل أحوال المخلوقين أو أن يشرِّع لهم شريعة لا يعلم هل فيها صلاحهم أم فيها فسادهم وشقاوتهم؟ فتعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

(3) **[منزلة السنَّة في تشريع الأحكام]**: الآية من سورة النحل، الآية: 44. وهذه الآية من أبلغ الآيات المؤكدة لمشروعية السنَّة وأنها من الوحي المبين للوحي، وأجمعت الأمَّة قاطبة على أنَّ السنة النبوية الشريفة تأتي بعد القرآن الكريم في ترتيب التشريع، وهي المفسرة لمجمله، والمبينة لمشكله، والمظهرة لخفيه، وهي المقيدة لمطلقه، والمخصصة لعامِّه، إذ لولا السنة المحمدية لما عرف عدد الصلوات ولا عدد ركعاتها، ولا عرف مقادير الزكاة، ولا أحكام الحجّ والكفَّارات والحدود والخصومات... =

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ الدِّينَ مِنْ كَلَامِ الْمُتَفَلْسِفَةِ مَظْنُونٌ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِاعْتِرَافِهِمْ، وَإِنَّمَا تَمَسَّكُوا بِهِ لِعَدَمِ الْمُعَارِضِ عِنْدَهُمْ؛ إِذِ الدِّينُ عِنْدَهُمْ أَدْنَى مِنْ دَرَجَةِ الظَّنِّيَّاتِ، أَفَنَقْتَدِي بِهِمْ وَبَيْنَنَا الْفَارِقُ الأَكْبَرُ[1]؟!

ثُمَّ الْمُشَاهَدُ ازْدِيَادُ التَّوَسُّعِ فِي التَّفَنُّنَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَانْتِقَالُ الأَفْكَارِ مِنْ حَيِّزٍ إِلَى حَيِّزٍ بِلَا قَرَارٍ، أَفَيَتَبَدَّلُ تَفْسِيرُ كَلَامِ اللَّهِ بِتَبَدُّلِ صِبْغَةِ الأَفْكَارِ عَلَى مَمَرِّ الأَعْصَارِ فَيَبْقَى الْقُرْآنُ لعبَةً بِيَدِ النَّاسِ؟ حَاشَاهُ وَيَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ[2].

= بل إن السنة استقلت بالتشريع في كثير من الأحكام التي لم يأت لها ذكر في القرآن فحرَّمت وأحلَّت أشياء لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم، لكن لا يظن أحد بأن تلك الأشياء هي من محض التشريع البشري الذي صدر عن المصطفى ﷺ مجرّداً عن لطف العصمة الإلهية، بل كل ما جاء به هو فيض من الوحي الإلهي قَالَ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم، الآيتين: 3 و 4].

(1) فكثير من الفلاسفة الذين حادوا عن السبيل يقدِّمون طريق العقل على طريق النقل في الاستدلال، وهم يعترفون بأن العقل غير كفيل بالقطع في جَمِيع مواطن الاحتجاج، وما كَانَ هَذَا حاله لا يمكن أن يوصف بالعصمة، ومع ذَلِكَ لا يمكن عندهم أن يقاد العقل بالوحي ليعصمه من الزلل ويسدّ له مواضع الخلل، فالعقل عندهم أشرف من أن يقاد أو حتى يُرشَد.

والحقُّ الذي لا محيد عنه أن التنزيل قاض على العقل، فكل ما صدر عن العقل من قطع أو ظنٍّ وجب عرضه على النقل الصحيح، فإن أقرَّه كَانَ تأييداً منه لحكمه، وإن عارضه قُضيَ بحكم النقل وقدِّم على العقل، لأنَّ النَّقل من الباري معصوم، والعقل بالهفوة والزلل موصوم، وحاشا أن يقدَّم حكم المخلوق على حكم الخالق.

مع أنَّ المعلوم عند ذوي النباهة أنَّ العقل الصريح لا يمكن أن يخالف النقل الصحيح، وما تبادر إِلَى الذهن من ذَلِكَ على خلاف هذه القاعدة فلا يخرج عن كونه ظواهر موهومة، ليس لها من الحقيقة شيء.

(2) **[خطورة ربط التفسير القرآني بالاكتشافات العلميَّة]**: إن التحدِّي الذي أشار إليه المصنف ـ رحمه الله ـ والذي يقابل التفسير الصحيح الموافق لمدلول القرآن والسنة بات اليوم عليه المعوّل في الوقوف على حقيقة الآيات الكريمة والأحاديث الشَّريفة، وصار الكثير من الفضلاء كلما ظهر اكتشاف جديد في مختلف علوم =

س ـ هَلْ يَخْلُقُ اللّهُ شَيْئًا بِلاَ سَبَبٍ طَبِيعِيٍّ؟

ج ـ نَعَمْ يَخْلُقُ بِسَبَبٍ طَبِيعِيٍّ، وَبِلاَ سَبَبٍ طَبِيعِيٍّ عَلَى حَسْبِ مَا شَاءَ، وَبِهَذَا تَعَرَّفَ اللّهُ إِلَى خَلْقِهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا[1].

= التجربة ـ وحتى قبل أن يقطع به مكتشفوه ـ سرعان ما تنفَلِت من أفواههم آيات التأييد وأحاديث التمجيد تُبارك عرس هَذَا الاكتشاف.

بل قد يهفو البعض ويصبح الاكتشاف عنده هو المنظار المسلّم ليعرف به صحة مدلول الآية وكان المفترض أن يحدث العكس.

ونحن نغبط هؤلاء الفضلاء على حرصهم في تأييد شواهد النفوس لتقوية الإيمان، والتمسك بالسنة والقرآن، لكن كما صرّح المصنف ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ منبهاً على أمر مهمّ، ويؤكّده اليوم كثير من العلماء؛ وهو أن لا يتسرَّع المسلم بمجرد أن يصل إِلَى مسمعه اكتشاف علمي وتبادر إِلَى ذهنه شيء في موضوعه من قرآن أو سنة أن يشدَّ أكفَّ التأييد مبتهلاً بمجد القرآن التليد، قاطعاً قَوْل كلِّ عنيد. وإنما الذي يجب هو التريُّث في إسقاط الآيات على المكتشفات، وحتَّى بعد التريُّث لا يلزم القطع بأنَّ عين الاكتشاف هو عين مراد الآية أو الحديث، لأنه قد تمرُّ الأيَّام والدهور ويأتي من ينقض عرصة هَذَا الاكتشاف، فهل نحن كذلك علينا أن ننقض مدلول الآية بما استجدَّ من اختراع فنصير أضحوكة عند الأعداء؟!

ودليل القول متجلٍّ بين عينيك؛ فهذه نظرية المكتشف الشهير "أينشتاين" الذي اكتشف نظرية "النسبيَّة" وصارت بدعة القرن العشرين، وتباهى بها العلم الحديث، قد أتى اليوم من نقض عُراها ووضع لها منتهاها.

ولو تأمَّلت كذلك فيما سبق من هَذَا الكتاب عند كلامنا على آيات وأحاديث خلق السموات والأرض وقارنتها بما يعرف اليوم عن علماء الفلك بـ "نظرية الانفجار الكبير للكون" الذي بُرهن عليه بالكثير من الآيات تأييداً ومباركة، لوقفت على مدارك الخلل بين مسلمات الدين ومكتشفات العلم، وإذا أمدَّ الله بعد انتهائنا من هَذَا الكتاب أن نفرد لها بحثاً نعطيها فيه حقها من التمحيص، والله أعلم.

(1) **[مذهب أهل السنَّة في السببيَّة والخلق]**: هَذَا الذي ذكره المصنف هو الذي عليه اعتقاد عامة المحدثين والفقهاء من أهل السنة والجماعة، وقول كثير من المتكلمين وبعض الطوائف كالكرامية وغيرهم، وهو أنَّ الله عَجَّلَ مطلق الإرادة، فهو مريد لأفعاله، لا يحكمه حاكم وهو أحكم الحاكمين، ولا يأمره آمر، وهو الآمر والناهي، =

= وهو رب العالمين، وما كَانَ هَذَا وصفه لا يقال عنه بأنه يجب أن يخلق الخلق بسبب أو لا يجب عليه أن يخلق الخلق بلا سبب لأنَّ ذَلِكَ ينقض اعتقادنا بأنه مطلق الإرادة وأنَّه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج، الآية: 16]. فهو المقدِّر لأفعاله ـ سبحانه ـ ولا يُسأل عن فعله لم فعل كذا؟ أو لِمَ لَمْ يفعل كـذا؟ لأنَّه ـ تعالى وتنزَّه ـ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 23]، وقد تقدَّم في مبحث الكلام عن "الحكمة" ما يؤيد هَذَا المعنى فارجع إليه.

[مذهب شيخ الإسلام ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في السببيَّة والخلق]: مقتضى مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ على خلاف قَوْل المصنف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وبما قرَّرْناه من مذهب عامة أهل السنة والجماعة، حيث يرى شيخ الإسلام أنَّه لا يجوز تخصيص الخَلْق بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص، فقال: " فحدوث المخلوق بلا سبب حادث ممتنع في بداية العقل، وإذا قيل الإرادة والقدرة خصصت، قيل نسبة الإرادة القديمة إِلَى جَمِيع الأوقات سواء. وأيضاً فلا تعقل إرادة تخصيص أحد المتماثلين إلا بسبب يوجب التخصيص، وأيضاً فلا بد عند وجود المراد من سبب يقتضي حدوثه، وإلا فلو كَانَ مجرد ما تقدم من الإرادة والقدرة كافياً للزم وجوده قبل ذَلِكَ لأنه مع الإرادة التامة والقدرة التامة يجب وجود المقدور ". إهـ.(مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج5 ص 534، وج6 ص 230 ـ 231، ومنهاج السنة، ج1 ص 152).

وجواب هَذَا القول نكرِّر فيه ما قدمناه من مسلَّمات؛ وهو أنه تعالى يفعل ما يشاء وما يريد، ويقدر على كل ما يريد، ولا يُسْأل عن شيء فعله وقدَّره، ولا يختلف على هَذَا أحد من أهل القبلة، فهو صاحب الإرادة المطلقة، والمشيئة المطلقة، والقدرة المطلقة، وَلَوْ سلّمنا بالقول بأنَّ الحوادث لا بدَّ لها من سبب يقتضي حدوثها، أو لا بدَّ لها من سبب يوجب تخصيص وقوعها بوقت دون آخر نتساءل عن هَذَا السبب المؤثِّر فإمَّا أنْ يقال بأنَّه قديم فيلزم حدوث تلك الحوادث في أوقاتها المخصوصة بلا سبب مخصص لتلك الأوقات بالحدوث من الأوقات الأخرى مع كونها متساوية في أن ذَلِكَ السبب المؤثر القديم موجود فيها، وهذا الافتراض ردّه شيخ الإسلام نفسه ومن نحا نحوه. وإما أن يقال بأنَّ ذَلِكَ السبب حادث فيكون محتاجاً إِلَى سبب آخر حادث اقتضى حدوثه أيضاً فيؤدِّي إِلَى التسلسل وهو محال على مذهب الجميع. =

وَخَلْقُهُ بَعْضَ الأَشْيَاءِ بِلاَ سَبَبٍ طَبِيعِيٍّ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ دِلاَلَةً وَاضِحَةً عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَتَفَرُّدِهِ بِالتَّصَرُّفِ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُون[1].

فَمِنْ ذَلِكَ مُعْجِزَاتُ الأَنْبِيَاءِ[2] الَّتِي مَنْ كَذَّبَ بِهَا كَفَرَ[3] كَطُوفَانِ نُوحٍ

= قَالَ في المواقف: " المؤثر في الحوادث قديم مختار عندنا، وفعْله تابع لإرادته، وتعلق إرادته بتخصيص الحدوث ببعض الأوقات مع تساويها لا يحتاج إِلَى داع، بل له أن يختار أحد مقدوريه المتساويين على الآخر بلا سبب يدعوه إليه، فإن ذَلِكَ هو الكمال في الاختيار. . .". إهـ. (المواقف للإيجي، ج1 ص 351).

والذي ذكره صاحب المواقف هو الذي جرى عليه المصنف، وهو المؤيد بظواهر النُّصوص من الكتاب والسنة، وحجج العقل، والله أعلم.

لكن قد **يعترض** معترض بأن الباري ﷻ قد جعل لكل شيء سبباً، أفلا يَكُون ذاك السبب هو الذي يمتنع المخلوق مع عدمه فيلزم لإيجاد المخلوق إيجاد سببه؟

وجواب الاعتراض يوضحه ما سبق من الكلام؛ وهو أن الخالق ـ جل وعلا ـ هو الذي جعل ذاك السبب مؤثراً في الشيء، وَلَوْ شاء لأبطل تأثير ذَلِكَ السبب، وَلَوْ شاء أعمله ألا ترى أن النَّار محرقة، فالله هو الذي خلق فيها فعل الإحراق، وَلَوْ شاء لأبطل فيها ذَلِكَ فلم تحرق، وقد ضُرب لك المثل بنار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِسْ عليها ولا تعجب.

(1) ولقد أحسن المصنف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ اختيار الحجة لمذهبه في عدم تقيد إرادة الخلق بالسببية، وأدلة القرآن والسنة كلها تصب في هَذَا المصب، وأقواها وأصرحها ما ذكره المصنف أخذاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [سورة يس، الآية: 82]، إذ لا مجال للقول بالسبب في هذه الآية، فالخالق ـ سبحانه ـ علَّق الخلق بالإرادة، فإذا أراد ـ تعالى وتبارك ـ بإرادته المطلقة شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلم يعلق الخلق بالسبب، ولا الإرادة بالداعي، تعالى الله وتبارك.

(2) **[شواهد من معجزات الأنبياء]**: سبق الكلام عن تعريف المعجزة وما يتعلق بها في مبحث الكلام عن النبوة والأنبياء.

(3) ووجه تكفير من كذب بالمعجزة هو إنكاره للآيات الباهرة التي لا مجال لردِّها لموافاتها شروط الصدق، وما كَانَ كذلك لا يردّه إلاّ كلّ كفار عنيد.

وَحَيَاتِهِ البَالِغَة نَحْوَ أَلْف سَنَةٍ[1]، وَهَلاَكِ عَادٍ بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ[2]، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ[3]، ....

---

(1) قَالَ تعالى مخبراً عن معجزة نوح عليه السلام إذ أمدَّ له في الأجل، وأغرق من كذب برسالته بـالـطـوفـان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة العنكبوت، الآيتين: 14 ـ 15]، وتضاربت الآثار من وجوه مختلفة في مقدار عمره لما بعث، ومدة مكوثه بعد الطوفان وأكثرها لا يثبت بسند يعوّل عليه.

(2) قَالَ تعالى في كتابه الكريم مخبراً عن جزائه لقوم عاد لما كذبوا نبيهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحاقة، الآيات: 6 ـ 8]، والريح الصرصر التي أهلكتهم هي ريح شديدة البرودة، حاقت بهم سبع ليال وثمانية أيام، لم تذر من شيء إلا وقد أتت عليه: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الذاريات، الآيتين: 41 ـ 42]، وقد فسر النبي ﷺ الريح الصرصر ـ كما في البخاري ـ بالشديدة العاتية. (البخاري، ج3 ص 1218).

وقد كَانَ قوم عاد يسكنون بالأحقاف ما بين اليمن وعمان، وكانت بلادهم أخصب البلاد وأكثرها جناناً، فلما كذبوا نبي الله ﷺ سخط الله عليهم وأرسل عليهم الريح المهلكة، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأحقاف، الآيتين: 24 ـ 25].

وقال ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور». (البُخَارِي "988"، ومسلم "900").

و"الصبا" هي الريح الشرقية، و"الدبور" هي الريح الغربية.

(3) أرسل الله ﷻ نبيه صالحاً إِلَى قومه ثمود فآمن معه المستضعفون من قومه، وأعرض آخرون عناداً منهم واستكباراً على رغم أنه نبي مرسل مؤيد بناقته التي آتاه الله إياها معجزة مفحمة للمعاندين والمعرضين عن دعوته: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [سـورة الأعـراف، الآيـات: 75 ـ 78]، =

وَقَلْبِ مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ[1]، وَآيَة نَارِ إِبْرَاهِيم[2]، ....

= والرجفة هي أثر لتلك الصيحة التي زعزعتهم وحركتهم وأهلكتهم عقاباً لهم على كفرهم وتحدِّيهم لأمر الله بعقرهم للناقة التي أمروا بعدم قربانها بالسوء، ولأنهم استعجلوا العذاب فعجَّل الله لهم ما استعجلوا فأصبحوا في ديارهم جاثمين كالهشيم المحتظر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [سورة القمر، الآية: 31].

وبقيت مساكنهم شاهدة عليهم عبرة لمن خلفهم، وقد نزلها رسول الله وأصحابه مرَّة فاستقوا من آبارها وعجنوا من مائها فأمرهم أن يريقوا الماء وان يعلفوا بالعجين إبلهم، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. (البُخَارِي "3199"، ومسلم "2981").

وقال عبدالله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بمساكن ثمود على الحجر هو وأصحابه فقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثُمَّ زجر فأسرع حتى خلفها»، وفي رواية البُخَارِي: «ثمَّ تقنَّع بردائه وهو على الرَّحل». (مسلم "2980"، والبخاري "3200").

(1) قَالَ تعالى مخبراً عما كافأ به قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ من العذاب المهين لما لم ينتهوا عما نهاهم الله عنهم من شذوذهم عن الفطرة السليمة بإتيانهم الذكران من العالمين وتركهم لما أحلَّ الله لهم من النساء فأخذتهم صيحة شديدة، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل، ثُمَّ قلب الله بهم الأرض وجعل عاليها سافلها ليكونوا عبرة لمن يعتبر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحجر، الآيتين: 73 - 74].

(2) من الآيات الباهرة المعجزة التي أيد الله ﷻ بها نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنجاه بهذه الآية من كيد قومه الذين لم يستجيبوا لأمر الله ﷻ وتجرَّؤوا على قتله لأنه أظهر التوحيد لله الواحد ودعا قومه إليه ونهى عما عداه من عبادة الأوثان فأشعلوا له ناراً ليرموه فيها ويستريحوا منه، فقال الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآيات: 68 - 70]، فكانت النَّار بأمر الله ﷻ برداً على إبراهيم معجزة مؤيدة لصدقه على غير العادة والمألوف من كونها محرقة، كما كانت له بأمر الله ﷻ سلاماً له من قومه وحفظاً له منهم.

وَعَجَائِب عَصَا مُوسَى[1]، وَتَسْخِير الرِّيح وَالشَّيَاطِين وَجَمِيعِ الحَيَوَانَاتِ لِسُلَيْمَانَ[2]، وَخَلْق عِيسَى بِلاَ أَبٍ[3]، وَإِبْرَاؤه الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَإِحْيَاؤُهُ

---

(1) جعل الله ﷻ عصا موسى عليه السلام آية بينة مؤيدة لنبيه في صدق دعواه، فكان كلما استجد موقف إلاَّ وأجرى الله فيها من الآيات ما يخشع لها الحجر والشجر إلاَّ أنَّ فرعون بغى وتجبر واستكبر، فكان مما ذكره القرآن الكريم من الآيات المعجزات ما أيد به نبيه موسى عليه السلام يوم أن جاهر بدعوته لفرعون وسأله فرعون عن برهانه فصيرها الله على يده ثعباناً مبيناً: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 30 ـ 32]، وكذا يوم المعارضة مع السحرة لما اجتمعوا للمبارزة: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 45].

والآية الأخرى التي أظهرها الله ﷻ في عصا موسى يوم لحقه فرعون وحال دونهم البحر فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر فانفلق البحر عن طريق يبس: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 63].

والآية الأخرى التي أجراها الله ﷻ على عصا موسى لما استسقاه قومه فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر لتنفجر منه العيون ويشرب منها الشاربون: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 60].

(2) قَالَ تعالى مخبراً عن جزيل فضله ونعمه، وما آتى سليمان عليه السلام من الآيات والمعجزات: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة ص: الآيات: 36 ـ 38]، وقال أيضاً: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 17].

(3) وتلك آية بينة أرادها الله ﷻ ابتلاء وامتحاناً لبني إسرائيل فقال ـ تبارك وتعالى ـ على لسان الصديقة المحصنة مريم ـ عليها السلام ـ لما جاءتها الملائكة بالبشارة بالغلام الوجيه المقرب: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 47].

المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ[1]، وَرَفْعُهُ إِلَى السَّمَاءِ[2]، وَقِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ[3]، وَخَلْقُ آدَمَ بِلاَ أَبَوَيْنِ[4]، وَالإِسْرَاءُ المُحَمَّدِيُّ[5]، وَمِعْرَاجُهُ إِلَى السَّمَوَاتِ بِجَسَدِهِ

---

(1) وهذه من المعجزات التي أظهرها الله ﷻ على يد نبيه عيسى عليه السلام بإذن منه وفضل، فقال تعالى في بيان النعمة التي أسبغها عليه وبما أيده من آيات بينات: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 110].

(2) قَالَ تعالى في شأن عيسى عليه السلام لما حسب اليهود أنهم قد قتلوه وصلبوه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [سورة النساء، من الآية: 157]، ثمَّ أعقب الله ﷻ آية النجاة بآية الرفع بأن رفع عيسى عليه السلام إِلَى السماء جسداً وروحاً فقال تعالى في الآية التي تليها: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة النساء، الآية: 158].

(3) فقصة أصحاب الكهف من قبيل الكرامات التي أظهرها الله على أيدي أوليائه الصالحين، الذين اتبعوا سبل الأنبياء والمرسلين فكان إكرامهم تأييداً لهم في مسيرة الحَقّ الذي انتهجوه، والأمر الخارق الذي كرَّم الله ﷻ به أصحاب الكهف هو مكوثهم في الكهف نياماً زمناً طويلاً لا يعيش لمثله البشر، قَالَ تعالى عنهم: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الكهف، الآية: 25].

(4) وخلق أبينا آدم عليه السلام من أقوى البراهين على تصرف المولى ﷻ في ملكه من غير ربط ذَلِكَ بالسببية وإنما ذَلِكَ حاصل بالمشيئة المطلقة، وخلق آدم في ذاته آية الآيات التي تدل على قدرة القادر، وحسن صنعة الصانع، إذ كيف يخلق من التراب والطين بشراً سوياً في أحسن تقويم، سُخِّر كل ما في الكون لأجله، قَالَ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة ص، الآية: 71].

(5) حادثة الإسراء من معجزات نبينا محمد ﷺ التي امتحن الله ﷻ بها المخاطبين بالرسالة المحمدية، فكانت اختباراً للمؤمنين عن مدى رسوخ الإيمان في قلوبهم، كما كانت حجة على من كفر بمحمد ﷺ لعله يرشد ويؤوب إِلَى ربِّه، إذ لم يكن في معتاد الناس أن يقطع أحد مسافة الأشهر والأيام في برهة من ليل ساكن، وقد أخبر الله عنها في كتابه وسمّيت سورة بكاملها إكباراً لهذه المعجزة وفيها يقول أصدق القائلين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: 1].

يَقَظَةً وَرُجُوعه فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ[1].

وَكَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ لَهُ[2]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا بَعْضُهُ لاَ تَقْتَضِيهِ الطَّبِيعَةُ أَصْلاً[3]، وَبَعْضُهُ يَقَعُ مِثْلُهُ فِي الطَّبِيعَةِ نَادِرًا وَلاَ يَبْلُغُ إِلَى دَرَجَةِ مَا يَقَعُ مُعْجِزَةً[4].

---

(1) وقصَّة المعراج مما قرن بقصة الإسراء لأنهما وقعتا في ليلة واحدة، وقد صدِّرت سورة النجم قسماً من معجزة المعراج من قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ . . . ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [سورة النجم، الآيات: 1 ـ 18].

وقول المصنف ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ " بجسده يقظة " مقصوده بهذا التقييد ردّ اعتراض من تأوّل بأنَّ معجزة الإسراء والمعراج قد وقعت بالروح دون الجسد، أو هي من قبيل الرؤيا فلا تصنّف في نطاق الخوارق.

وجواب هَذَا الاعتراض متضمن في كلام المصنف؛ لأن القول بأن الإسراء والمعراج كَانَ بالجسد والروح غير ممتنع في أصل الخبر، ومما يردُّ هَذَا الاعتراض كذلك ذِكر ركوبه ﷺ على البراق وربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ببيت المقدس، ومما يعرف بداهة أن الأرواح لا شأن لها في الحمل والرّكوب وربط الدواب. (انظر صحيح مسلم "162").

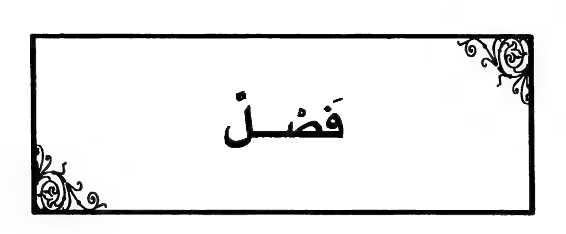
ودليل آخر في القصة يردُّ هَذَا الاعتراض وهو قَوْل أبي بكر للنبي ﷺ لمَّا أصبح: " يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في مكانك " فأخبره رسول الله ﷺ بالأمر. فهذا دليل على أنَّه ﷺ لم يكن في مكانه تلك الليلة لا جسداً ولا روحاً. (انظر القصة عند الطبراني في الكبير "7142"، والبزار "3484"، وفضائل بيت المقدس "54"، وقال البيهقي: إسناده صحيح).

(2) انشقاق القمر ثابت صحيح بالقرآن والسنة، وذلك أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ آية ظاهرة تؤيد صدقه فانشق له القمر فقالوا: ساحر، وفي ذَلِكَ نزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [سورة القمر، الآيتين: 1 و 2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. (البُخَارِي "3655").

(3) فأكثر المعجزات مما لا تقتضيه الطبيعة، والعقل يحيل وقوعها على الوجه الطبيعي كَأَنْ تنقلب العصا حيَّة، أو تصير النَّار برداً وأمناً. . .

(4) ككرامات الأولياء وغيرها من العجائب التي تقع في الطبيعة دون أن يعتادها الناس.



فَصْـلٌ

لاَ نَجْهَلُ وَلاَ نُنْكِرُ طَبِيعَةَ الْبَشَرِ وَذَوِي الأَرْوَاحِ الأَرْضِيَّةِ إِذَا ارْتَفَعَتْ خَارِقَةً لِكُرَةِ الْهَوَاءِ لَهَا حَدٌّ مَحْدُودٌ لاَ تَتَعَيَّشُ فَوْقَهُ عَادَةً، لَكِنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ وَقُدْرَتَهُ تَنْقُضُ حُكْمَ الطَّبِيعَةِ فِي ذَلِكَ الأَمْرِ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] وَهَذَا أَصْلٌ عَامٌّ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الإِيمَانِ وَالْيَقِينِ[2].

س ـ مَا الْقَوْلُ فِيمَنْ قَالَ: إِنَّ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ وَقَعَتْ بِوَجْهٍ طَبِيعِيٍّ لاَ بِخَرْقِ الْعَادَةِ؟

---

(1) سورة يوسف، من الآية: 21.

(2) **[الصعود إلى الفضاء]**: أشار القرآن الكريم إِلَى إمكانية صعود البشر إِلَى الفضاء الأعلى واختراقهم لكرة الهواء، وقد أكّد العلم الحديث هذه الحقيقة بالتَّجربة، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝﴾ [سورة الحجر، الآيتين: 14 ـ 15]، فكما دلت الآية على أن خروج البشر من باب السماء ممكن، وقد حصل فعلاً، وعلى أن وراء الباب ظلاماً قاتماً، وقد أكد ذَلِكَ علماء الفلك المحدثين، لكن لا يمكن للبشر العيش على الوجه الطبيعي خارج غلاف الأرض، وهذا كذلك ثابت، بل حتى داخل غلاف الأرض في طبقات الفضاء العليا، لأن كلما علا الإنسان إِلَى الفضاء وابتعد عن الأرض كلما قلّت نسبة الأوكسجين من الجوّ مما يؤدِّي إِلَى الاختناق، وقد أشارت إِلَى هذه الحقيقة الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 125].

ج ـ جَرَيَانُ الطَّبِيعَةِ بِذَلِكَ كَيْفَ يَتَّفِقُ دَائِمًا مَعَ غَضَبِ اللّهِ عَلَى المُهْلَكِينَ مَثَلاً وَرِضَاهُ عَنِ النَّاجِينَ، فَإِذَا كَانَ مَجْرَى الْعَادَةِ مُسْتَمِرًّا فِي سَبِيلِهِ بِلاَ تَخَلُّفٍ فَأَيُّ حَاجَةٍ بِغَضَبِهِ تَعَالَى وَرِضَاه، إِذْ لاَ تَأْثِيرَ لَهُ عَلَى زَعْمِهِمْ[1].

وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْل هُوَ: نِسْبَةُ الْعَجْزِ لِلْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ، وَعَزْلُ الخَالِقِ عَن التَّصَرُّف فِي مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ انْسِلاَخٌ مِنَ الدِّينِ بِلاَ شَكٍّ، فَقُدْرَتُهُ تَعَالَى لاَ يُوجِبُهَا سَبَبٌ، وَلاَ يَرْفَعُهَا سَبَبٌ، مَا شَاءَ اللّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

❁ ❁ ❁

---

(1) **[نقض قول من يزعم أن المعجزات طبيعيّة وليست خارقة]**: القول الذي نقله المصنف هو قَوْل من ألحد وأنكر معجزات الرسل وكرامات الأولياء والصلحاء، واختلق لها مبرراً لا طائل من ورائه، لأن القول بأن الطبيعة هي التي جرت بذلك الأمر على وجه غير معروف إِنَّمَا هو مغالطة، وقد أجاب المصنف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بالجواب الكافي والشافي على اعتراض من اعترض؛ إذ كيف يتفق جريان الطبيعة التي تُنزل العقوبة على من غضب عليه الله ﷻ وتوعَّده بالعذاب والعقاب، وفي الوقت نفسه تستثني هذه الطبيعة العجيبة من العقوبة من اتَّبع داعي الله فرَضِيَ عنه الله ﷻ ووعده بالنَّجاة في الدنيا والآخرة، هل الطبيعة هي التي أغرقت من كذَّب نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنجت من معه في الفلك؟ هل هي التي أهلكت قوم عاد وثمود ومَدْين وفرعون وأنجت رسل الله ومن معهم؟! كلاَّ بل الله الواحد القهَّار.
بل لماذا الطبيعة توافق دعاوى رسل الله ﷺ كلما أرادوا منها ذَلِكَ؟ لماذا أغرقت الطبيعة من عصى نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنجت نوحاً ومن معه بعد أن صنع الفلك واستوى عليه؟ لماذا لم تغرقهم قبل ذَلِكَ أو بعده؟ ولماذا النَّار انقلبت برداً وسلاماً إلاَّ لما ألقي فيها نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم تكن بردت على أحد قبله ولا بعده؟!!
هل يجرؤ من أوتي عقلاً سليماً وفهماً قويماً أن يقول الطبيعة هي التي جرت بذلك؟!

فَصْـلٌ

وَلَوْ شَاءَ اللّهُ أَنْ يَجْعَلَ الزَّمَانَ كُلَّهُ نَهَارًا مُضِيئًا أَوْ كُلَّهُ لَيْلاً مُظْلِمًا لَفَعَلَ، وَلِذَلِكَ **شَرَعَ عِنْدَ كُسُوفِ الشَّمْسِ** الفَزَع إِلَى الصَّلاَةِ وَالاسْتِغْفَار خَوْفًا مِنْ غَضَبِ الْجَبَّارِ ﷻ فَيَخْرِق حِسَاب انْجِلاَئِهَا الْمَعْرُوف، فَيَسْتَمِرّ الظَّلاَمُ عُقُوبَةً إِنْ لَمْ يَرْحَمْ عِبَادَهُ، وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ[1]، فَفِي الآيَـةِ

(1) **[الكسوف دليل على مطلق القدرة الإلهية]**: الله ﷻ لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، لأن قدرته وقوته تعالت على كل شيء: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [سورة فاطر، من الآية: 44].
وضرب المصنف المثل **بكسوف الشمس** لأنَّه يتضمن الجواب على أنه ليس لأحد أيّ تأثير في حوادث الكون وما يجري فيه سوى الله ﷻ وفي هَذَا ردٌّ على من قَالَ إنها كسفت على عهد رسول الله ﷺ لموت ابنه إبراهيم، كما أنَّه يتَضَمَّن الدَّلِيل القاطع على مطلق قدرته ومشيئته ﷻ في التصرُّف في مجاري الكون والطبيعة وفق ما يشاء وما يريد؛ فيصرف آياته في الكون على خلاف المعهود ترهيباً وتخويفاً ليدعو الغافل، ويستغفر المذنب، ويتوب الضال، ويتصدق الممسك، لأن ذَلِكَ من أسباب استنزال الرحمة وردّ العذاب، فلو استمرَّ ذَلِكَ لكان عقوبة آذنة بالساعة، فعن المغيرة بن شعبة ﷺ قَالَ: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم. فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله». (البُخَارِي "996"، ومسلم "915").
وعن أبي موسى ﷺ قَالَ: خسفت الشمس فقام النبي ﷺ فزعاً يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد فصلَّى بأطول قيام وركوع وسجود، ما رأيته قطّ يفعله =

الكَرِيمَةِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: 72-73][1] فَلَوْ فُرِضَ أَنَّ قَائِلاً قَالَ فِي مُقَابَلَةِ الآيَةِ: يَأْتِينَا بِالضِّيَاءِ

= وقال: «هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئاً من ذَلِكَ فافزعوا إِلَى ذكره ودعائه واستغفاره». (البُخَارِي "1010"، ومسلم "912").

(1) [حكمة خلق الليل والنهار]: الآيات من سورة القصص: 71 ـ 73. وأتى المصنف بهذه الآيات عقب تقرير الكلام عن المشيئة الإلهية المطلقة ليدلِّل على تقريره بصريح الكتاب حيث أكَّد المولى ﷻ في الآيات المذكورة على أنَّه المتصرِّف في الكون كيفما يشاء وكيفما يريد، ولا يتصرَّف إلا لحكمة قد ندركها وقد لا ندركها، وأمر عباده أن يتدبروا في الملكوت ليقفوا على آيات الحي القيوم الذي لا يفنى ولا يموت عساهم أن يؤوبوا إِلَى ربِّهم، ويشكروا نعمه السابغة عليهم، فهل سيطيق البشر العيش في الليل السَّرْمد أي الدائم الذي لا ينقطع إذا لم يمتنّ عليهم الكريم المنَّان بضياء يكسبون معاشهم بنوره؟! وهل سيطيق البشر العيش في النَّهار السَّرْمد إِلَى يوم القِيَامَة إذا لم يرحمهم الرؤوف الرحيم بليل يتخذونه لباساً وسكناً ويستريحون فيه من عناء الكسب والضَّرب في الأرض؟!

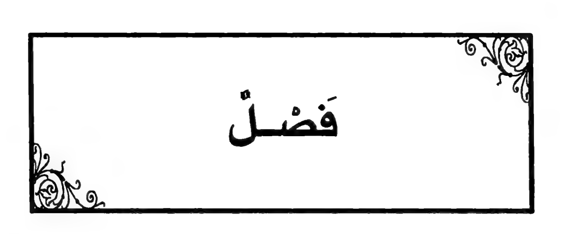
لكن اقتضت حكمة العليم الحكيم والرحمن الرحيم أن جعل لعباده ليلاً يخلدون فيه للفراش ونهاراً ينفضُّون فيه للمعاش، وتلك أعظم آيات الحكيم.

ومن لطائف التَّذْييل القرآني في الآيات المذكورة أنه ذَيَّلَ الآية الأولى بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأنَّه لو تحقَّق المفروض المذكور في الآية وهو دوام ظلمة اللَّيْل لم ينفع معه إلاَّ السَّمع دون الإِبْصَار، لأن الظلمة تمنع الإِبْصَار دون السَّمع. وذيَّل الآية الثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّه لو تحقق المفروض وهو دوام النَّهار لكان الاحتياج إِلَى الإبصار أعظم من السمع، لأنه موائم للنور أكثر بخلاف السمع، وذيل الآية الثالثة بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأن الشكر هو المطلوب وفاء لرحمة الجليل ﷻ بأن جعل لخلقه الليل والنهار للسكن والكسب، ولم يضيِّق عنهم العيش بليل دائم يفقدون فيه ما يُطْلَب من الضِّياء، ولا بنهار دائم يفقدون فيه ما يُطْلَب من الظُّلْمَة، وتلك أعظم الرَّحَمَات.

وَاللَّيْلِ القَانُونُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي لاَ يَتَخَلَّفُ، يَعْنِي اخْتِلاَف الحَرَكَة فِي التَّقَابُل بَيْنَ الأَرْضِ وَالشَّمْسِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَنَا إِلَهٌ يَأْتِينَا بِهِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ دِينٌ[1].



(1) قد سبق الجواب عن مثل هَذَا الاعتراض في ردِّ قَوْل من قَالَ إنَّ المعجزات حدثت بوجه طبيعي وليس بخرق العادة، لكن من يقول بهذا القول إِنَّمَا ينكر وجود مدبِّر لهذا الكون العجيب، وله أن يسأل نفسه كيف لهذه الطبيعة العجماء أن تتفق على هَذَا النسق المنظم الذي يسير عليه الكون؟ نعم نحن ندرك كيف يتعاقب الليل والنهار باختلاف حركة الأرض والشمس لكن كيف يظنُّ عاقل بأن الطبيعة هي التي رتَّبت هذه الحركة الكونية وفق هَذَا النسق الذي نشاهده بذكائها وفطنتها؟ ولينظر هَذَا الملحد في نفسه كيف استطاعت الطبيعة أن تُوجده ولماذا أوجدته؟! بل لينظر كيف أُوجدت هذه الطبيعة من أوَّلها حتى أوجدتنا نحن؟! وكيف لهذه الطبيعة الحنونة أن تخلق الأعاصير والبراكين والرياح والزلازل..لتهلك ما استماتت لأجل أن تخلقه، بل لتهلك أولياءها وتنجي أعداءها؛ أهلكت الذين قاتلوا الأنبياء وعارضوا دعوتهم، وأنجت الأنبياء الذين عصوها وكفروا بها ودعوا إِلَى إله غيرها؟!!! أسئلة كثيرة وكثيرة لن يجد لها السائل إلا جواباً واحداً وهو أن يقول: وراء كل ذَلِكَ إله خالق مصوِّر، تعالى عما يقول الملحدون علوًّا كبيراً.



فَصْـلٌ

وَبِقُدْرَتِهِ تَعَالَى قَالَ لِلسَّمَوَاتِ وَالأَرْض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1]، فَالْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا مُذْعِنَةٌ لِسَطْوَةِ الأُلُوهِيَّةِ إِلاَّ مَنْ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾[2] ....

---

(1) **[دلائل القدرة]**: الآية من سورة فصلت، من الآية: 11. وفي الآية الكريمة دليل قوي على كمال القدرة الإلهية، فإذا كانت السموات والأرض اللاَّئي حوين ما خلق الله من الخلائق قد أذعنَّ لأمر الخالق فأولى لمن وسعته عظمتهنَّ أن يذعن للعظيم الجبَّار ﷻ ولا يكابر.

قال الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ مجيباً لمن سأل عن الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ **الجواب**: المقصود منه إظهار كمال القدرة والتقدير، ائتيا شئتما ذَلِكَ أو أبيتما، كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هَذَا شئت أو لم تشأ، ولتفعلنَّه طوعاً أو كرهاً، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ على الطوع لا على الكره. (التفسير الكبير للفخر الرازي، ج27 ص 92).

(2) **[النجم والشجر يسجدان]**: سورة الرحمن، الآية: 6. والنجم المذكور في الآية هو النبات الذي يَظْهَر على الأرض ولا ساق له، والشجر ما له ساق من النبات. وقال الحسن ومجاهد وقتادة أن النجم هو نجم السماء، والقول الأوَّل قَوْل ابن عباس وابن جبير، وأيًا كَانَ المعنى المقصود فالموعظة واحدة وهو أن على ذي اللبِّ أن يعتبر بما يراه ويشاهده مما حوله من آيات الصانع التي هي ساجدة =

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[1]، ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[2]، ....

= مسبحة للحي القيوم على الدوام، فأولى بمن أوتي عقلاً وقلباً أن يتقي الله في نفسه ولا ينحطَّ بنفسه وعقله إِلَى درجة ما ليس له عقل أو دونه.

(1) **[تسبيح المخلوقات العلوية والسفلية لله سبحانه وتعالى]**: سورة الرعد، من الآية: 13. بعد أن دلل المصنف على تسبيح المخلوقات السفلية، عقب عليها بالدليل على تسبيح المخلوقات العلوية، فلا يظنّ أحد بأنه لا يسبح من المخلوقات إلاَّ ما يدركه مما حوله، وهذه الآية التي ساقها المصنف تدلُّ على قدرة القدير في تسخير الكائنات لتوحيده وتسبيحه وتمجيده، وآية الرَّعْد بما فيها من التسبيح والتحميد فيها كذلك تخويف وترهيب من قدرة القادر على إنزال العقاب بالعاصين، يؤيد ذَلِكَ مقارنته في الآية بإرسال الصَّواعق، ويؤيده ما رواه مالك في الموطأ عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن عبدالله بن الزبير أنه كَانَ إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرَّعْد بحمده والملائكة من خيفته. ثُمَّ يقول: " إن هَذَا لوعيد لأهل الأرض شديد ". (موطأ مالك "1801"، ومن طريقه البُخَارِي في الأدب المفرد "723").

(2) سورة الإسراء، من الآية: 44. فما من شيء مما خلق الله في السموات والأرض إلا يسبِّح بحمده ويقدِّسه والله ﷻ يعلم ذلك، والمسلم يصدق ويوكل علمها لعلام الغيوب ﷻ، وقد قَالَ ـ تعالى ذكره ـ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَـٰٓفَّـٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النور، الآية: 41].

وقد أكرم الله بعض أنبيائه بمعرفة أحوال الحيوان والجماد، كما سخر ـ سبحانه وتعالى ـ لداود عليه السلام الجبال والطَّير يسبحن معه بالعشي والإشراق، وعلم سليمان عليه السلام لغة النمل والهدهد، وكتكريمه ﷺ بسلام الحجر عليه؛ فعن جابر بن سمرة قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كَانَ يسلم عَلَيَّ قبل أن أبعث، إنِّي لأعرفه الآن». (مسلم "2277"، وابن حبان "6482").

وكما أكرم الصحابة الأبرار رضي الله عنهم بسماع تسبيح الطعام وهم يأكلون مع النبي ﷺ. (البُخَارِي "3386"، وابن خزيمة "204").

كما سمع ﷺ للجذع أنينًا شوقاً لما كَانَ يسمع من الذِّكر. (البُخَارِي "3391"، والبيهقي "5487"). =

﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا﴾ - أي من الحجارة - ﴿يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾[1]، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[2]، ....

= ومظهر القدرة متجلٍّ بوضوح في هذه الآيات والمعجزات، فقدرته ﷻ التي سَخَّرت الحيوان والجماد للبشر أولى بها أن تُسخِّر كل ذَلِكَ لتسبيح وتحميد القدير ﷻ.

(1) **[من الحجر ما يهبط لخشية الله]**: سورة البقرة، من الآية: 74. وقد سبق الكلام عن تسبيح المخلوقات جميعها لرب العزَّة ﷻ، وذِكْرُ المصنف لهذه الآية في سياق الكلام عن قدرته تعالى وتسبيح الكائنات كلها للخالق ﷻ لأن الآية دليل على قدرته تعالى في إنطاق الحجر بالتسبيح لجلاله والحجر سيد الجماد، وكذلك هي موعظة للبشر جميعاً؛ فإذا كَانَ الحجر الذي هو مضرب المثل في القساوة لَيَذلُّ ويتصدَّع من خشية الله فكان أولى بالقلب أن يَكُون أذلّ وأخشع لله ﷻ من الحجر بل من الجبال التي قَالَ فيها سبحانه: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [سورة الحشر، من الآية: 21].

ودل الحديث الصحيح على أن الحجر يسمع الذكر ويشهد للذاكر يوم القِيَامَة، فعن عبدالرحمٰن بن أبي صعصعة قَالَ: قَالَ أبو سعيد ﷺ: إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالنداء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمع صوته شجر ولا مدر ولا حجر ولا جنّ ولا إنس إلا شهد له». (ابن خزيمة "389").

وعن سهل بن سعد ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يلبِّي إلا لبَّى من عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر حتَّى تنقطع الأرض من هاهنا وها هنا». (الترمذي "828"، وابن ماجة "2921"، وصححه الألباني).

(2) سورة الأعراف، من الآية: 54. فتسخير الله ﷻ لهذه الكواكب السيَّارة التي تلازم حركة الأرض وما يحيط بها من أفلاك إِنَّمَا هو تذليل لها لطاعة أمره من ظهور ومغيب، وهذه المخلوقات العجيبة تُظْهر الدقَّة الفريدة في الخلق وحكمة الآمر الذي شرع لها قانون الحركة والسكون، فلا يتخلفان عن هَذَا القانون وقوفاً عند أمر العزيز الحكيم ﷻ إذ لو تخلفت حركة إحداهن عن القانون المسطور لاختلَّ نظام الكون، وتعذَّر العيش على وجه الأرض لانعدام التَّوازن الحركي لمنظومة الكواكب، والخلق والأمر لهذه الكواكب كلّه إِنَّمَا مسخَّر لخدمة هَذَا العبد الضَّعيف عساه أن يشكر النِّعمة بأن جعل الله له القمر نوراً والشمس سراجاً والنجوم مصابيح، وليعرف أن حكيماً مبدعاً وراء هَذَا النظام الموزون على قدر قُدِّر في الأزل.

وَالطَّيْر فِي الْجَوِّ مَا يُمْسِكُهنَّ إِلاَّ اللّهُ[1] كَمَا يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[3] هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا[4]، ....

---

(1) **[يمسك الطير في الجوّ والسماء أن تقع]**: قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الملك، الآية: 19]، وهذه آية عظيمة من آيات القدرة والمشيئة إذ ميَّز الله ﷻ الطير عن سائر الخلق بالطيران في السماء، ما فوقهن هواء وما تحتهن هواء وعن أيمانهن وعن شمائلهن هواء لا يمسكهن إلا الله ﷻ وَلَوْ شاء ما طار طير أبداً، وَلَوْ شاء ما خلق لهنَّ أجنحة، لكنَّه شاء أن يطير الطَّيْرُ بأمره، وأن يمسكه بين السماء والأرض بأمره وحِفْظه، فثقل الطَّيْر يقتضي سقوطه وانجذابه نحو الأرض كسائر الأجسام لكن ليتأمل فيها من شخَّص بصره في السماء وليعتبر في تدبير الصانع وليقل في نفسه: لماذا طار النسر ولم يطر الدِّيك وكل منهما له ريش وذيل وجناح؟....

(2) قَـــــالَ ﷻ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحج، من الآية: 65]، فالمشيئة الإلهية التي أمسكت الطَّيْر في الهواء هي نفسها التي أمسكت السماء وحالت دون وقوعها على الأرض بلا عَمَد يُرسيها، وَلَوْ شاء الله أن تقع لوقعت، قَالَ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [سورة لقمان، من الآية: 10].

(3) سورة يونس، من الآية: 22. في الآية دليل القدرة ودليل النعمة؛ فهو ﷻ وحده القادر على خلق الريح التي تدفع الفلك في البحر بأمره، وليذكروا النعمة إذا استووا على الفلك، والله ﷻ كذلك هو الذي مكن الإنسان بأن يسير على البر برجليه وبمركوبه، وتلك نعمة أخرى أوجدتها مشيئة الجليل وقدرته سبحانه وتعالى.

(4) **[يُرسل الرياح لواقح]**: قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [سورة فاطر، الآية: 9]، وقال أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: 22]، وآية الرِّياح آية كونيَّة عظيمة أرسلها الله ﷻ لقحة للسحاب =

هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ المَطَرَ وَيُنْزِلُهُ، وَيُنْبِتُ النَّبَاتَ[1]، وَلَوْ لَمْ يَشَأْ لَمْ تَنْزِلْ قَطْرَةٌ[2]،

= الذي ينزل منه المطر، ولقحة للزّرع الذي ينتج الثمر، ونعمة للبشر حيث تذهب بالوباء والمرض، وقرن الله ﷻ إرسال الرياح بإثارة السحاب ونزول المطر، لأن الذي عُرِف علميًا أن الرّياح كما أنها ملقحة للنبات والشّجر فهي أيضاً تلقّح السحاب بعضه ببعض فينزل المطر. روى الطبري بسند قوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قَالَ في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قَالَ: يبعث الله الرِّيح فتلقح السحاب ثُمَّ تمريه فتدرّ كما تدرُّ اللّقحة ثُمَّ تمطر. (تفسير الطبري، ج14 ص 20).

(1) [ينزل الماء ويُنبت النبات]: قَالَ تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾ [سورة النمل، الآية: 60].
وقال أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة لقمان، من الآية: 10]. فهو ﷻ مرسل السحاب الذي ينزل منه الماء ليحيا منه كلّ شيء من رطب ويابس برحمة منه وفضل.

(2) فلو شاء ربُّ العزَّة ﷻ أن ينزل القطر من السماء ما ردَّه أحد، وَلَوْ شاء إمساكه ما أنزله أحد، وإليه الأمر كلّه، قَالَ ﷻ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [سورة فاطر، الآية: 2]، قَالَ الزَّجّاج: معناه ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه، وما يمسك من ذَلِكَ فلا يقدر أحد أن يرسله. (لسان العرب لابن منظور، ج1 ص 1595).
فالله ﷻ هو منزل النِّعم بمشيئته ومانعها بمشيئته، ولا يقال: أُمطرنا بكذا، ومُنعنا المطر بكذا، فتلك مقولة الجاهلية إذ كانوا ينسبون المطر للكوكب والنجم، وقد نهى عن ذَلِكَ النبي ﷺ، ففي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني أنه قَالَ: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قَالَ ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قَالَ: «أصبح من عبادي مؤمن وكافر؛ فأمّا من قَالَ: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأمّا من قَالَ: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب». (البُخَارِي "810"، ومسلم "71").
فقد بيَّن النبي ﷺ كفر من نسب المقادير لغير الله، وقد عمل الصحابة رضي الله عنهم بقول النبي ﷺ في ذلك، فروى مالك ـ رحمه الله ـ في الموطأ "452" عن أبي هريرة رضي الله عنه =

وَيُنْزِلُ المَاءَ وَلاَ يَنْبُتُ نَبَاتٌ[1]، هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الزَّلْزَلَةَ وَالصَّاعِقَةَ بِسَبَبٍ أَوْ بِلاَ سَبَبٍ، وَيُسَلِّطهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهَا عَمَّنْ يَشَاءُ بِسَبَبٍ أَوْ بِلاَ سَبَبٍ[2].

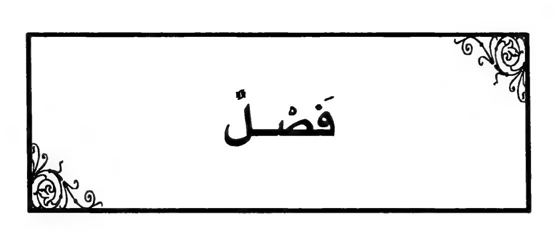
فَهُوَ خَالِقُ الأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ لاَ يُؤَثِّرَ سَبَبٌ فِي مُسَبَّبٍ مَا أَثَّرَ.



= أنه كَانَ يقول إذا أصبح وقد مطر الناس: مطرنا بنوء الفتح ثُمَّ يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾. قال الزرقاني المالكي: "بنوء الفتح" أي فتح ربنا علينا، فاستعمل النوء في الفتح الإلهي للإشارة إِلَى ردِّ معتقد الجاهلية من إسناده للكواكب كَأَنَّهُ يقول: إذا لم تعدلوا عن لفظ نوء فأضيفوه إِلَى الفتح. (شرح الزرقاني على الموطأ، ج1 ص550).

(1) هَذَا لكي يعلم كل موقن أن الله هو المتصرف، وهو الذي يخلق التأثير في السبب متى شاء ويمنعه منه متى شاء، فهو ﷻ جعل الماء مؤثراً في الإنبات، وَلَوْ يشاء لسلب منه ذَلِكَ وهو على كل شيء قدير.

(2) **[يخلق الزلازل والصواعق بسبب وبلا سبب]**: لأنه لا يشترط في تسليط الصواعق والزلازل والكوارث التي تحل بالعباد أن تكون مسبوقة بسبب اقتضاها كما وقع لقوم نوح وعاد وثمود...، لأن إرادة الخالق ﷻ لا تقيد بالأسباب؛ لأنها كما تكون المصائب عقاباً لجرم استفحل في قوم تكون كذلك ابتلاء لأهل الإيمان والصَّبْر لاختبار مدى قوة الإيمان والصبر والتسليم لمقادير العليِّ الكبير ﷻ، يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: 155]، وقال أيضاً: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [سورة محمد، الآية: 31].



فَصْلٌ

وَهُوَ تَعَالَى الشَّافِي لِلْمَرِيضِ[1]، وَلَوْ شَاءَ أَنْ لاَ يَبْرَأَ لاَ يَقَعُ البُرْءُ، وَلَوْ انْتَظَمَ لَهُ عِلاَجٌ لاَ يَتَخَلَّفُ نَفْعُهُ عَادَةً بِتَدْبِيرِ أَلْفِ حَكِيم.

وَلاَ يُقَالُ ـ حَيْثُ لَمْ يَشَأْ اللّهُ بُرْءَ المَرِيضِ ـ: يَقَعُ الْخَطَأُ فِي العِلاَجِ أَوْ فِي اسْتِعْمَالِهِ، فَإِنَّ هَذَا إِيجَابٌ لِلأَسْبَابِ، وَفَكٌّ الحُكْمِ مِنْ يَدِ اللّهِ إِلَى يَدِ الأَسْبَابِ، وَهُوَ الَّذِي نَذُبُّ الْمُسْلِمِينَ عَنْ السُّقُوطِ فِي اعْتِقَادِهِ تَقْرِيرًا لِلتَّوْحِيدِ[2].

---

(1) **[يَبتلي بالمرض ويفرج بالشفاء]**: لأنه ﷻ هو الذي يبتلي عبده بالمرض والمصيبة كما يفرِّج عنه بالشفاء والعافية، والمؤمن لا يتَّكل على القدر عند الابتلاء والمصيبة وإنَّما عليه أن يتخذ الأسباب ليدفع الضرر عن نفسه، قَالَ تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 75 ـ 80]، فهذا هو الاعتقاد الحَقّ الذي اعتقده الأنبياء ودانوا لله به، فهو تعالى الخالق والهادي والرازق والشافي، وقد كانت رُقْيَة النبي ﷺ: «اللهم ربَّ الناس، مُذْهِب البأس، اشف أنت الشَّافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً». (البُخَارِي بلفظه "5410"، ومسلم "2191").

(2) **[دعوة الشريعة إلى اتخاذ الأسباب المشروعة]**: تضافرت الآيات الكريمة والأحاديث الشَّريفة بدعوة العبد لاتخاذ الأسباب الموصلة للغرض الذي ينشده، كما أنَّ الفطرة جبلت على اتخاذ الأسباب المحققة للغرض، فالجوع داع لاتخاذ السبب المؤدِّي للشبع وهو الأكل، وكذا الشرب واللباس...، فالله ﷻ قد خلق =

....

= الأسباب وبمشيئته يوجِد فيها التأثير ويعدمه منها، ولا يقع شيء في الكون إلا بإذنه وقدره فقد يوجد السبب ولا يتحقق الغرض إذا لم يسبقه قدر بإيجاده، ألا ترى إِلَى قَوْل الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وَلَو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف». (الترمذي بلفظه "2516"، وأحمد "2669"، والحاكم "6303"، وصححه الألباني في صحيح الترمذي).

ومن الخطأ الفاحش أن يعتقد بأنَّ الأسباب هي المؤثرة بنفسها في الغرض لا بتدبير المولى عز وجل فإن ذَلِكَ شرك ظاهر بالله جل جلاله، فالقرآن والسنة إِنَّمَا دعيا لاتخاذها لا باعتقادها أنها تنفع وتضر أو تعطي وتمنع، فلا يعتقد المريض إذا تناول دواء فشفي بأنَّ الدواء هو الشافي حقيقة فذاك شرك بواح، وإنَّما الشافي هو الله عز وجل بإذنه وأمره، وإنما يقول بأن الله أجرى الشفاء على هَذَا الدواء، وفي الحديث الذي رواه أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قَالَ: «لكلِّ داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل». (مسلم "2204"، وابن حبان "6063").

فقد أخبر النبي ﷺ أن البُرء يقع بإذن الله عز وجل لا بنفس الدواء، وكم رأينا وسمعنا بكثير من الخلق اشتكوا من علَّة واحدة واستخدموا دواء واحداً لكن منهم من تعافى ومنهم من بقي بعلته ومنهم من قضى نحبه وكل ذَلِكَ بأمر الله عز وجل وقضائه، ولا يقال إن الدواء شفى هَذَا ولم يشف ذاك وأهلك ذلك.

وقد حكى القرآن الكريم في سورة الكهف طغيان صاحب الجنتين حيث كفر بنعمة الله عز وجل وجحد المشيئة الإلهية حتى أنكر البعث، إذ اعتقد أن ما بيده من نعمة إِنَّمَا بكده وعمله لا بأمرٍ ومشيئةٍ من الخالق جل جلاله، فأخزاه الله بكفره.

وأشد كفراً ونفاقاً من ذاك من لجأ ضارعاً إِلَى الله عند المصيبة ينشد الفرج من الله، لكن عندما يرفع عنه الضرّ وتحيط به النعمة يجحد بمشيئة الجبار جل جلاله ويدعي أنه إِنَّمَا كسبها بعلمه بوجوه كسبها وتحصيلها: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [سورة الزمر، الآية: 49].

فالله جل جلاله هو الذي يُلجأ إليه حال المصيبة ليرفع نكدها ويزيل ضررها كما يتوجه =

س ـ مَا بِدْعَة العَقِيدَة فِي هَذَا العِلْم؟

ج ـ كُلُّ عَقِيدَةٍ حَدَثَتْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ فَهِيَ مُبْتَدَعَةٌ[1]، ....

= إليه عند النعمة بالشكر والحمد ليزيد فيها ويبارك في نفعها، ومن اعتقد أن شيئاً من ذَلِكَ واقع بغير أمره، أو بتأثير الأسباب تأثيراً حقيقياً في وجوده أو عدمه فكأنه حكم بالقصور في قدرة الخالق ﷻ في تسيير الكون وجعل السبب المؤثر بذاته ندًّا للرحمٰن، تعالى الله عن ذَلِكَ علوًّا كبيراً، وقد حذر المصنف ـ رحمه الله ـ من اعتقاد ذَلِكَ لمنافاته للتوحيد.

(1) **[الابتداع في العقيدة]**: المبتدع هو كل من أحدث شيئاً في أمور الدين لم يعهد عن الصحابة والأئمة الأسلاف رضي الله عنهم ولم يكن له أصل في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وقد قَالَ النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من أحدث في أمرنا هَذَا ما ليس فيه فهو ردّ». (البُخَارِي "2550"، ومسلم "1718").

وأمور العقيدة من أُصُول الدِّين التي هي توقيفيَّة ليست بمحل للاجتهاد والنظر العقلي، وأخذ الصحابة رضي الله عنهم عقيدتهم من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ وآمنوا بها كما أخذوها، ولم يُؤْثَر عنهم النظر والاجتهاد فيها كما أثر عنهم في فروع الفقه، واستقر أمر العقيدة على النهج النبوي في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخلافة عمر الفاروق رضي الله عنه وصدراً من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى كَانَ آخر عهده بدأت الفتنة تستشري والكلمة تتفرق، وقد أجمل الإمام أبو المظفر الإسفراييني ظاهرة الاختلاف وظهور الفرق بين ظهراني المسلمين فقال: "اعلم أن المسلمين وقت النبي ﷺ وبعد وفاته كانوا على طريق واحدة لم يكن بينهم خلاف ظاهر ومن كَانَ بينهم من المخالفين المنافقين ما كَانَ يتمكن من إظهار ما كَانَ يستسره من أخباره.....الخلاف لا يَكُون خطراً إلا إذا كَانَ في أُصُول الدين ولم يكن اختلاف بينهم ـ أي الصحابة رضي الله عنهم ـ في ذَلِكَ بل كَانَ اختلاف من يختلف في فروع الدِّين مثل مسائل الفرائض، فلم يقع خلاف يوجب التفسيق والتبرِّي، هكذا جرى الأمر على السَّداد أيام أبي بكر وعمر وصدر من زمان عثمان، ثُمَّ اختلف في أمر عثمان وخرج عليه قوم منهم فكان من أمره ما كان، ثُمَّ بعد ذَلِكَ حدث الاختلاف في أمر علي، وفي حال أصحاب الجمل وصِفِّين، وفي حال الحَكَمَيْن، وظهر من ذَلِكَ خلاف الخوارج في أيام علي رضي الله عنه.... وظهر في وقته أيضاً خلاف السبئية من الروافض وهم الذين قالوا إنَّ عليًّا إله الخلق حتى أحرق عليٌّ جَمَاعَةً منهم، وظهر بعد ذَلِكَ سائر أصناف الرَّوافض... =

وَمُعْتَقِدُهَا بِدْعِيٌّ فِيهَا وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي غَيْرِهَا(1).

= وظهر في أيام المتأخرين من الصَّحَابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم، وكان ينكر عليهم من كَانَ قد بقي من الصحابة كعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن أبي أوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم، وكانوا يوصون إِلَى أخلافهم بأن لا يسلِّموا عليهم ولا يعودوهم إن مرضوا ولا يُصلُّوا عليهم إذا ماتوا.

ثُمَّ ظهر بعدهم في زمان الحسن البصري بالبصرة خلاف واصل بن عطاء الغزَّال في القدر وفي القول بمنزلة بين المنزلتين، ووافقه عمرو بن عبيد فيما أحدثه من البدعة، فطردهم الحسن البصري من مجلسه، فاعتزلوه بأتباعهم جانباً من المسجد فسمُّوا معتزلة لاعتزالهم مجالس المسلمين، وقولهم بمنزلة بين المنزلتين وزعمهم أن الفاسق الملِّي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفسَّاق من أهل الملَّة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر، وأنَّهم مع الكفَّار في النَّار خالدين مخلدين لا يجوز لله تعالى أن يغفر لهم، وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة، ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون وخذلوهم كما كَانَ قد أوصى إليهم أسلافهم من الصحابة.

ثُمَّ ظهر خلاف النجَّارية في أيام المأمون الخليفة واستعد جَمَاعَة منهم بالريِّ ونواحيها، ثُمَّ ظهر أيضاً دعوة الباطنية من حمدان قرمط وعبدالله بن ميمون القداح، ولا يعدُّون من فرق المسلمين فإنَّهم في الحقيقة على دين المجوس... ثُمَّ ظهر في زمان محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر بخراسان خلاف الكرَّامية..". (التبصير في الدين لأبي المظفَّر الإسفراييني، ص 19 ـ 22).

وبعد عهد أبي المظفر (ت 471هـ) لم تتوقف الفرق عن الظهور، وكل فرقة تُحْدِث في عقيدة المسلمين ما لم يكن عند سابقتها، وإلى عهدنا هَذَا تظهر بين الفترة والفترة فرقة تأتي بما لم يأت به الأوائل، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وصدق نبي الله ﷺ إذ يقول: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». (ابن حبان "6247"، وابن ماجة "3991"، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة).

(1) **[إنصاف أهل السنَّة مع المبتدع]**: رحم الله المصنف لذبه عن السنة والملَّة، =

. . . .

= فأهل السنة هم أهل حَقّ وعدل لا يجحدون لمخالف فضيلة كما لا يمدحون لصاحب خطيئة، فصاحب البدعة عندهم مبتدع في بدعته مذموم في اعتقاده لها، وإن كَانَ صالحاً في دينه يؤخذ منه العلم ولا تقدح بدعته في علمه، وكم من الأئمة الأعلام زلّوا في محدثات، إلا أنهم أناروا الأرض علماً وهدى، فما قولك في حافظ الحفاظ، وأمير المؤمنين في الحديث؛ شعبة بن الحجاج - رَحِمَهُ اللهُ - فقد نقل عنه بأنه فيه نزعة من الإرجاء، وما هي إلا قطرة في بحر علمه. (سير الأعلام، ج11 ص 99).

وما قولك في طاوس - رَحِمَهُ اللهُ - فقد كَانَ فيه بعض التَّشيّع وهو من هو في الحديث والتفسير، ولم تأت بلاد اليمن بمثله.

وما قولك في علم الأعلام عبدالرزّاق بن همام - رَحِمَهُ اللهُ - صاحب "المصنف" المشهور وقد كَانَ فيه بعض التَّشيّع، لكنه لم يؤاخذ به في علمه.

وما قولك في قتادة بن دعامة السّدوسي العلامة المفسر - رَحِمَهُ اللهُ - فقد كَانَ يرى القدر، ومع ذَلِكَ لا يُلْتَفت إِلَى مفسّر لا يعرف قَوْل قتادة في التفسير.

وكان هشام الدستوائي من أحفظ الناس في الحديث، ويُفَضَّل على الإمام الأوزاعي في الرواية عن بعض الشيوخ، ويَجُّله الإمام أحمد، وأبو حاتم، وأبو زرعة، وابن المديني في الحفظ والرواية، حتى قَالَ أبو داود الطيالسي بأنه أمير المؤمنين، ومع ذَلِكَ كَانَ يرى القدر.

ولابن معين - رَحِمَهُ اللهُ - فتوى مهمة تتعلق بالمسألة، قَالَ الحافظ محمد بن البرقي: " قلت ليحيى بن معين: أرأيت من يُرمى بالقدر، يُكتب حديثه؟ قَالَ: نعم، قد كَانَ قتادة، وهشام الدستوائي، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد الوارث، - وذكر جماعة - يقولون بالقدر، وهم ثقات، يكتب حديثهم ما لم يدعوا إِلَى شيء". (انظر تاريخ ابن معين برواية الدوري، ج4 ص 139).

قال الذهبي معقباً: "قلت: هذه مسألة كبيرة، وهي القدري والمعتزلي والجهمي والرّافضي إذا عُلِم صدقة في الحديث وتقواه، ولم يكن داعياً إِلَى بدعته، فالذي عليه أكثر العلماء قبول روايته، والعمل بحديثه، وتردَّدوا في الدّاعية، هل يؤخذ عنه؟ فذهب كثير من الحفاظ إِلَى تجنب حديثه وهجرانه، وقال بعضهم: إذا علمنا صدقة وكان داعية ووجدنا عنده سنَّة تفرَّد بها فكيف يسوغ لنا ترك السنة، فجميع تصرفات أئمة الحديث تؤذن بأن المبتدع إذا لم تبح بدعته خروجه من دائرة الإسلام ولم تبح دمه فإن قبول ما رواه سائغ ". (سير الأعلام، ج7 ص 154). =

س ـ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ اللّٰهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَثْبُتْ فِي الشَّرْعِ إِذَا كَانَ وَصْفُ كَمَالٍ؟

ج ـ صِفَاتُهُ وَأَسْمَاؤُهُ تَعَالَى تَوْقِيفِيَّةٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ إِلاَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ[1].

= وكلام الذهبي والأئمة من قبله مختص بمن كانت بدعته مفسِّقة، وأما من كانت بدعته مكفِّرة كغلاة الرافضة الذين ألَّهوا علياً ﵁ وغيرهم من الزَّنادقة، فهؤلاء أهل كفر، لا يعاملون إلا كمعاملة أهل الكفر.

(1) **[صفات الباري سبحانه وتعالى توقيفية لا يجوز فيها القياس]**: وهذا هو الأصل الذي مشى على نهجه السلف والخلف من أهل السنة والجماعة، فصفاته تعالى لا يُتجاوز فيها التوقيف، وظواهر النُّصُوص من الكتاب والسنة، فهو تعالى لا تدركه العيون، ولا العقول، " وما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ فلا نتعدى ذَلِكَ إِلَى تشبيه، أو قياس، أو تمثيل، أو تنظير، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ".

قال أبو عمر ابن عبدالبر: " أهل السنة مجموعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيِّفون شيئاً من ذَلِكَ ولا يحدُّون فيه صفة محصورة. وأمَّا أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مشبِّه وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله، وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة والحمد لله ". إهـ (التمهيد، ج7 ص 145).

وتقييد صفاته تعالى بأنَّها توقيفية ليحترز بالقيد عن مقتضى القياس؛ إذ لا يَصِحّ القياس على صفاته تعالى وَلَوْ كَانَ المقيس في معنى المقيس عليه، فعلى سبيل المثال من صفاته تعالى **القادر** فلا يقاس عليه **المطيق**، ومن صفاته تعالى **الخالق** فلا يقاس عليه **المبتكر**، ومن صفاته تعالى **الحكيم** فلا يقاس عليه **الذكي**..... تعالى ﷻ بأسمائه وصفاته علوًّا كبيراً.

وكما يمنع التوقيف القياس على صفاته تبارك وتعالى، فإنه يمنع كذلك اشتقاق الأسماء من صفات الأفعال، فلا يسمى تعالى بالماكر، ولا السَّاخط، ولا الكائد، =

س ـ مَا الْحُكْمُ فِيمَنْ قَالَ كَلِمَةَ تَحْقِيرِ فِي الأَنْبِيَاءِ أَوْ المَلاَئِكَةِ أَو الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ؟

ج ـ يُكفَّر[1].

= ولا التارك، ولا المدمِّر... لأنها ليست بأسماء حُسْنَى، وهو تعالى أسماؤه كلّها حُسْنَى، كما لم يُطْلقها تعالى على نفسه، فوجب أن لا يُطْلَق عليه إلا ما أطْلَقَ على نفسه.

وهل يمنع التوقيف أن يطلق عليه ﷻ في باب الإخبار ما لم يرد به التوقيف من الأسماء والصفات؛ كالقديم، والشَّيء، والموجود...؟ لأهل السنة والجماعة في ذَلِكَ قولان، وقد سبق في أول الكتاب تفصيل هذه المسألة.

(1) **[التحقير والاستهزاء والاستخفاف بأصول العقيدة كفر]**: كالاستهزاء بالخالق ﷻ أو أحد أنبيائه، أو بالكتب المنزلة، أو الملائكة المكرمين أو بسنة ثابتة... لا خلاف في كفر وردَّة من فعل ذَلِكَ بين المسلمين، لأن الاستهزاء والاستخفاف بأصول الإيمان وشعائر الدين مناف للوقار والتعظيم المستوجب على كلِّ مَنْ دان بدين الإسلام، ودلَّت على ذَلِكَ النُّصوص المحكمة؛ منها قوله ﷻ في شأن المنافق الذي استهزأ بالقرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [سورة التوبة، الآيتين: 65 ـ 66].

وأجمعت الأمة على أن من سبَّ الله ﷻ أو انتقص من عظمته وجلاله، أو استَخَفَّ باسم من أسمائه أو صفة من صفاته فقد كفر وارتدَّ عن دين الإسلام، قَالَ شيخ الإسلام: " إن السّاب لله ﷻ من المسلمين يجب قتله بالإجماع لأنه صار بذلك كافرا مرتدًّا بل أسوأ من الكافر ". (الصارم المسلول، ج3 ص 1120).

قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: " اعلم أنَّ من استخف بالقرآن أو الصُّحف أو بشيء منه، أو سبَّهما، أو جحده، أو حرفاً منه أو آية أو كذَّب به أو بشيء منه، أو كذَّب بشيء مما صرَّح به فيه من حكم أو خبر، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك، أو شكَّ في شيء من ذَلِكَ فهو كافر عند أهل العلم بإجماع ". (الشفا، ص 281).

وقد حكى النووي الإجماع على ذَلِكَ أيضاً. (انظر المجموع للنووي، ج2 ص 193).

وقد وضع السادة الشافعية قاعدة ضابطة في ذَلِكَ فقالوا: **[الاسْتِهْزَاءُ بِشَعَائِرِ الإِسْلاَمِ كُفْرٌ]** وفرَّعوا عليها بعض الفروع منها: أنَّ الاستهزاء بشعيرة من شعائر الإسلام، =

س ـ مَا حُكْمُ نَصْبِ الْخَلِيفَةِ فِي الإِسْلَامِ؟

ج ـ حُكْمُهُ الْوُجُوبُ عَلَى الأُمَّةِ[1]، ....

= أو بسنة من السنن كفر، فلو قيل له: قلِّم أظافرك، أو قصَّ شواربك فإنَّه سنة، فقال: لا أفعل وَلَوْ كَانَ سنة. كفَر.

واختار النووي أنَّه لا يكفَّر إلاَّ أن يقصد استهزاءً. (روضة الطالبين للنووي، ج10 ص 66).

ومنها: من أطلق على ذؤابة العمامة لفظ (الذَنَب) ـ بفتح النون ـ استهزاءً كفر.

ومنها: لو أطلق على اللِّحية لفظ (المِخْلاة) كما فعل ابن الرُّومي الزِّنْديق كَفَرَ. (انظر تفصيل القاعدة وفروعها في كتاب القواعد والضوابط الفقهية لشيخنا وأستاذنا الدكتور محمود عبود هرموش ـ حفظه الله ـ، القاعدة "238").

قال مالك، وابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبدالحكم، وأصبغ، وسحنون فيمن شتم الأنبياء، أو أحداً منهم، أو تنقصه: قُتِل ولم يُسْتَتَبْ، ومَنْ سبَّهم من أهل الذمَّة قُتِلَ إلاَّ أن يُسْلم.

وقال سحنون: من شتم مَلَكاً من الملائكة فعليه القتل. (الشفا، ص 280).

لكن الحكم بالكفر والردَّة لا يقع إلاَّ عند الاستخفاف أو الانتقاص مِمَّنْ تحقق كونه من الملائكة أو النبيين بالتواتر أو الخبر الصحيح أو مما أجمعت الأمة على كونه من الملائكة أو النبيين. أما من وقع فيهم الخلاف هل هم من الملائكة أو من النبيِّين فلا يكفر منتقصهم، ولكن يعزَّر لأنَّهم وإن لم يكونوا من النبيين أو الملائكة فلا شكَّ أنَّهم من المقرَّبين الأخيار، فقد اختلف أهل العلم في كون **هاروت وماروت** من الملائكة، واختلفوا في **الخضر ولقمان وذي القرنين ومريم**... هل هم في عداد النبيِّين أم لا؟ فلا يكفر من أنثى وأنكر، ويعزَّر من استخف واحتقر.

(1) **[إجماع الأمَّة على وجوب نصب الخليفة]**: الخلافة من أعظم الوظائف المتوَجِّبة على الأمَّة بأجمعها، ويأثمون جميعاً إذا عطَّلوها واستهانوا بأمرها، وهي ـ كما يعرفها البعض ـ: " صفة حُكْمِيَّة توجِبُ امتثال أمر موصوفها في غير منْكَرٍ عموماً". (بدائع السلك، ج1 ص 91).

وسميت بالخلافة لأن متولِّي الأمر يخلف النبي ﷺ في تدبير شؤون الأمة، وبناء عليه عرَّفها البعض بأنها: " رئاسة عامة في أمور الدِّين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ". (الفواكه الدواني، ج1 ص 106). =

= **وأجمعت** الأمة على وجوب نصب الخليفة في الأمة، **وخالف** في ذَلِكَ أبو بكر الأصمّ وبعض الخوارج فقالوا: لا يجب ذَلِكَ رأساً، لا عقلاً ولا شرعاً.
وقالت **الإمامية والإسماعيلية**: لا يجب نصب الإمام علينا، بل على الله ـ سبحانه ـ إلا أن الإمامية أوجبوه عليه لحفظ قوانين الشَّرع عن التغيير بالزيادة والنقصان، والإسماعيلية أوجبوه ليكون معرِّفاً لله وصفاته.
وفساد قولهم ظاهر في بداهة العقول والنقول، فهو ﷻ لا يجب عليه شيء، ولا يفتقر ـ سبحانه ـ إِلَى حافظ ليحفظ له دينه، ولا يفتقر إِلَى داعٍ ليعرِّف به وبصفاته، فهو مستغنٍ عن كل ذلك.
[اختلاف الطوائف في وجوب نصب الخليفة هل بالشرع أو بالعقل]: اختلف أهل الفِرق في وجوبها هل وجبت بالعقل أم بالشرع؟
فذهب الزيدية والمعتزلة إِلَى أنها وجبت بالعقل لا بالسمع لضرورة الاجتماع للبشر، واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ولما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع، والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين، وهمجاً مضاعين. وخالفهم الجاحظ والكعبي وأبو الحسين من المعتزلة وقالوا بوجوبها بالعقل والسمع معاً.
والقول بأن العقل موجب للخلافة فساده ظاهر، فلا إيجاب إلا بالشرع، والعقل لا يوجب شيئاً ولا يحسنه ولا يقبحه.
وذهب **أهل السنة والجماعة** إِلَى أنَّها وجبت بالشرع دون العقل؛ لأنَّ الإمام يقوم بأمور شرعية ما كانت لِتَجِب لولا ورود الشرع بوجوبها، ودلَّ على وجوبها النص والإجماع؛ أما النص فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [سورة النساء، من الآية: 59]، واختلف أهل العلم في المقصود بأولي الأمر في الآية هل هم العلماء أو الولاة، قَالَ ابن جرير: " وأولى الأقوال في ذَلِكَ بالصواب قَوْل من قَالَ هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كَانَ طاعة وللمسلمين مصلحة ". (تفسير الطبري، ج5 ص 150).
وقوله أيضاً: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 30]، قَالَ القرطبي: " هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسْمَع له ويُطَاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليقة، ولا خلاف في وجوب ذَلِكَ بين الأمَّة، ولا بين الأئمة ". (الجامع لأحكام القرآن، ج1 ص 264). =

....

= **[الأدلّة على وجوب نصب الخليفة]**: وأدلة وجوبها من السنة كثيرة منها: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم». (أبو داود "2608"، وأبو عوانة "7538"، وحسَّنه في السلسلة الصحيحة "1322").

قال الشوكاني ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: " وإذا شرع هَذَا لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض، أو يسافرون، فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ويحتاجون لدفع التظالم وفصل التخاصم أولى وأحرى. وفي ذَلِكَ دليل لقول من قَالَ إنه يجب على المسلمين نصب الأئمة والولاة والحكام ". (نيل الأوطار، ج9 ص 157).

وعن نافع قَالَ: جاء عبدالله بن عمر ﷺ إِلَى عبدالله بن مطيع حين كَانَ من أمر الحرَّة ما كَانَ زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمٰن وسادة. فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدِّثك حديثاً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقوله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القِيَامَة لا حجَّة له، ومن مات وليس في عنقه بَيْعة مات ميتة جاهلية».(رواه مسلم بلفظه "1851"، وأبو عوانة "7153").

فالحديث صريح في وجوب اتباع الجماعة، ووجوب اتخاذ الإمام الذي يطاع، ويفصل في النزاع، ولا يجوز الخروج عليه إلا بمثلب يفكّ بيعته.

وإجماع الصحابة حجَّة في وجوب نصب الخليفة في الأمة، إِذْ أجمعوا على وجوب تولية الخليفة، وألا يخلو الوقت عن خليفة وإمام، يذود عن حياض الأمة، ويحمي بيضتها، ويُعلِي شوكتها، بل قدمه الصحابة ﷺ على أهمِّ الأشياء وهو دفن الرسول ﷺ لجلالة أمر الخلافة، ووقع إجماعهم على تقديم أبي بكر ﷺ للخلافة، ثُمَّ أجمعوا على عمر بن الخطاب ﷺ ثُمَّ على عثمان وعلي، وتواتر هَذَا الإجماع ووقعت به الحجَّة على الخلق في وجوب تنصيب خليفة للمسلمين.

ودليل المعقول يؤيد النُّصُوص في الوجوب، إذ في نصب الخليفة جلب مصالح، ودفع مضار لا تحصى، وقد عرف وجوب ذَلِكَ بالنص والإجماع. (انظر للاستزادة في المسألة: شرح النووي على مسلم، ج 12 ص 205، والأحكام السلطانية للماوردي، ص 3، وابن خلدون، المقدمة، ص 191 ـ 192، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج1 ص 264 ـ 265، وكتاب المواقف للعضد، ج3 ص 579، والخلافة لمحمد رشيد رضا، ص 15 ـ 16 وغيرها...).

ج - وَلاَ يَجُوزُ خَلْعُهُ وَالْخُرُوجُ عَنْ بَيْعَتِهِ مَا دَامَ مُؤْمِنًا يُصَلِّي[1].

---

(1) [حرمة الخروج على الإمام ما دام مؤمنا يُصلِّي]: أجمع أهل العلم على أنَّ الإمام إذا كَانَ عَدْلا تجب طاعته في غير معصية، ويحْرم الخروج عليه، ودلت على ذَلِكَ كثير من النصوص، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، وقد سبق بيان أن أولي الأمر هم الأمراء والولاة عند أهل الترجيح.

وإذا كَانَ الحاكم جائراً موصوفاً بالفسق والفجور هل يجوز الخروج عليه؟

الذي عليه جمهور أهل العلم من الأئمة المجتهدين وأتباعهم القول بحرمة الخروج على الأئمة وقتالهم وإن كانوا فسقة ظالمين، بل حَكَى بعض الشافعية الإجماع على ذلك. (حواشي الشرواني، ج 9 ص 66، وحاشية البجيرمي، ج4 ص 200).

واستدل الجمهور بأدلة كثيرة من المنقول والمعقول، منها:

عن عوف بن مالك الأشجعي عن رسول الله ﷺ قَالَ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصَلُّون عليهم ويُصَلُّون عليكم، وشرار أئمتكم الذي تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنوهم ويلعنوكم» قَالَ: قلنا يا رسول الله: أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قَالَ: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكْره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعنَّ يداً من طاعة». (رواه مسلم بلفظه "1855"، وابن حبان "4589"، والدارمي "2797").

فالحديث ظاهر في تأييد قَوْل المصنف وجمهور أهل العلم في أنه يحرم الخروج على الحاكم الجائر أو العاصي ما أقام الصلاة إلا أن يكفر ببيِّنة.

ويؤيده حديث آخر عن أم سلمة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله! ألا نقاتلهم؟ قَالَ: «لا، ما صلُّوا» (أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه). (مسلم بلفظه "1854"، والترمذي "2265"، وأبو داود "4760").

فدل الحديث على أنه يحرم الخروج على الإمام الظالم والفاجر ما لم يترك الصلاة.

قال المناوي: ففي هَذَا الحديث إيذان بأن الإمام لا ينعزل بالفسق ولا بالجور، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، لكنه لا يطاع فيما أمر به من المعاصي. (المناوي، فيض القدير، ج4 ص 133). =

....

= وعن جنادة بن أبي أمية قَالَ: دخلنا على عبادة بن الصامت ﷺ وهو مريض. قلنا: أصلحك الله حدثنا بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ قَالَ: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. قَالَ: «إلا أن تروا كفراً بَوَاحاً عندكم من الله فيه بُرْهان». (البُخَارِي "6647"، ومسلم "1709").
فقد نهى الرسول ﷺ عن منازعة الإمام في الحكم والسُّلطان ما لم يَظْهَر منه كفر معلن تشهد له البيِّنة، ومعلوم من دين الله تعالى أنَّه كفر.
قَالَ ابن العربي في قوله ﷺ: «ولا تنازع الأمر أهله» يعني من ملكَه، لا من يستحقه، فإن الأمر فيمن يملِكه أكثر منه فيمن يستحقه، والطاعة واجبة في الجميع، فالصبر على ذَلِكَ أولى من التعرض لإفساد ذات البين. (التاج والإكليل للمواق، ج6 ص 277).
[أمر النبيّ ﷺ بالصبر على جور السلطان وفسقه وتحريم الخروج عليه]: أمر النبي ﷺ بالصبر على جور السلطان وفسقه على كره، كما نهى عن الخروج عليه وكسر عصا الطاعة لما يترتب على ذَلِكَ من فساد كبير وإراقة لدماء المسلمين، ففي الصحيح عن ابن عباس ﷺ عن رسـول الله ﷺ قَالَ: «من كرِه من أميره شيئا فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية». (البُخَارِي "6645"، ومسلم بلفظه "1849").
وقد أَعْلَم الله نبيه ﷺ بما سيكون من أمر الأمَّة بعده من خير وشرٍّ، وأنه سيحكمها سلاطين الجور والفجور ـ كما مرَّ في حديث أمِّ سلمة ـ لكنَّه نهى عن قتالهم وأمر بلزوم الطاعة والجماعة، ويؤيده حديث حذيفة ﷺ قَالَ: قلت: يا رسول الله! إنَّا كنَّا بشَرٍّ، فجاء الله بخير. فنحن فيه، فهل من وراء هَذَا الخير شرٌّ؟ قَالَ: «نعم». قلت: هل من وراء ذَلِكَ الشرِّ خيرٌ؟ قَـالَ: «نعم». قلت: فهل من وراء ذَلِكَ الخيرِ شرٌّ؟ قَالَ: «نعم». قلت: كيف؟ قَالَ: «يَكُون بعدي أئمة، لا يهتدون بهداي، ولا يستنُّون بسنَّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إِنْس». قَالَ: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قَالَ: «تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع». (مسلم "1847"، وأبو داود "4244").
[نهي الأئمة الكبار عن الخروج عَلَى السلطان الجائر]: وقد كَانَ الأئمة الكبار =

....

= يشدُّدون النَّكير في الخروج على السلطان الجائر درءاً للفتنة وعصمة لدماء المسلمين، واشتهر ذَلِكَ في أقوال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فقد روى الخلاّل عن أبي الحارث قَالَ: سألت أبا عبدالله في أمرٍ كَانَ حدث ببغداد، وهمَّ قومٌ بالخروج. فقلت: يا أبا عبدالله. ما تقول في الخُرُوج مع هؤلاء القوم. فأنكر ذَلِكَ عليهم وجعل يقول: سبحان الله، الدِّمَاء، الدِّمَاء، لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصَّبْر على ما نحن فيه خير من الفتنة، يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كَانَ الناس فيه ـ يعني أيام الفتنة ـ قلت: والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبدالله. قَالَ: وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هَذَا ويسلم لك دينك خير لك. ورأيته ينكر الخروج على الأئمة وقال: الدماء لا أرى ذَلِكَ ولا آمر به. (السنة للخلال "89").

وقال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: " وأما أهل الحق؛ **وهم أهل السنة فقالوا**: هَذَا هو الاختيار، أن يَكُون الإمام فاضلاً عدْلاً محسناً، فإن لم يكن فالصَّبر على طاعة الجائرين من الأئمة أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، ولأن ذَلِكَ يحمل على إهراق الدماء، وشن الغارات، والفساد في الأرض، وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك ". (التمهيد لابن عبدالبر، ج 23 ص 278).

وقد حكى النووي الإجماع في حرمة الخروج على السلطان الفاسق الجائر، كما حكى الإجماع في عدم عزل السلطان بالفسق، قَالَ: " وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق... قَالَ العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذَلِكَ من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه". (شرح صحيح مسلم للنووي، ج12 ص 229).

وفي حكاية النووي الإجماع نظر، فقد نقل عن بعض الأئمة الكبار جواز الخروج عن الإمام الجائر الفاسق ـ وهو المعروف عن الخوارج وبعض المعتزلة ـ فقد جوَّز ابن عقيل وابن الجوزي الخروج على الإمام غير العادل، وذكرا خروج الحسين على يزيد لإقامة الحق. قَالَ ابن الجوزي ناصراً لقوله: "من الاعتقادات =

....

= العامية التي غلبت على جَمَاعَة منتسبين إِلَى السنة، أن يقولوا: إن يزيد كَانَ على الصواب وأن الحسين أخطأ في الخروج عليه. وَلَوْ نظروا في السِّيَر لعلموا كيف عقدت له البيعة، وأُلزم الناس بها، ولقد فعل في ذَلِكَ كل قبيح، ثُمَّ لو قدرنا صحة خلافته فقد بدرت منه بوادر، وكلها توجب فسخ العقد؛ مِنْ نهب المدينة، ورمي الكعبة بالمنجنيق، وقتل الحسين وأهل بيته، وضربه على ثنيَّتيه بالقضيب، وحمله الرَّأس على خشبة ". (الفروع لابن مفلح، ج6 ص 160 ـ 161).

ونقل إمام الحرمين جواز الخروج عَلَى الإمام الفاسق عن بعض الأصوليين والفقهاء؛ لأن الفسق مناف لما يُطلب من الإمامة، ويمنع من ائتمانه على المسلمين في رقابهم وأموالهم. (غياث الأمم، ص 76).

وقد أفاض إمام الحرمين في المسألة؛ ومقتضى كلامه أن وُقُوع الفسق والجور من الإمام لا يوجب خلعه لأنه ليس بمعصوم، أما إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود، وارتفعت الصيانة، ووضحت الخيانة، واستجرأ الظلمة، ولم يجد المظلوم منتصفاً مِمَّنْ ظلمه، وتداعى الخلل والخطل، إِلَى عظائم الأمور، وتعطل الثغور، فلا بد من استدراك هَذَا الأمر المتفاقم. (الغياثي، ص 80 وما بعدها).

ونقل عنه ابن مفلح في "فروعه" ما يؤيد قوله هنا في أن الإمام إذا تمادى في الجور والفسق فإنه يخلع وَلَوْ بالحرب والسِّلاح. وقال النووي: خلعه غريب. (الفروع، ج6 ص 160).

ونُقِل عن مالك قول قريب من هذا؛ قَالَ القاضي عياض: انحدر المأمون إِلَى محاربة بعض بلاد مصر، وقال للحارث بن مسكين: ما تقول في خروجنا هذا. فقال: أخبرني ابن القاسم عن مالك أن الرشيد سأله عن قتال أهل دَمْك. فقال: إنْ كانوا خرجوا عن ظلم السلطان فلا يحل قتالهم. (التاج والإكليل للمواق، ج6 ص 277).

فكأن الإمام مالك صوَّب خروجهم على السلطان الجائر.

ولكن يمكن أن يُحمل قَوْل هؤلاء ومن تبعهم مِمَّنْ يقولون بجواز الخروج على الإمام غير العادل إذا لم يترتب على الخروج عليه مفسدة أعظم من مفسدة بقائه، كإراقة دماء المسلمين أو استفحال الفتن في بلاد الإسلام. . .، وإلا فيحرم الخروج لما يترتب عليه من مفاسد.

س ـ مَا الْقَولُ فِي الكَرَامَاتِ؟

ج ـ كَرَامَاتُ الأَوْلِيَاء حَقٌّ[1]، ....

(1) **[مذهب أهل السنة في الكرامات]**: الكَرَامَة هي ما يجريه الله ﷻ علي أيدي الصَّالحِين من خوارق العَادَات غير مقترن بدعوى النبوَّة. فما جرى على أيدي غير الصَّالحِين من الخوارق فليس من الكَرَامَة، بل هو أشبه بالسِّحر والاستدراج، وما قُرِن بدعوى النبوة هو من قبيل المعجزات.

والوليُ هو العارف بالله تعالى وصفاته حسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات. (التعريفات للجرجاني، ص 329، وقواعد الفقه للمجددي البركتي، ص 548).

ومذهب أهل السنة والجماعة أن كَرَامَات الأولياء حَقّ يجب التصديق بها وإن إنكارها بدعة في الدين، وإبطال لكثير من الخوارق التي أكرم الله ﷻ بها الصالحين من سالف الأمم، والصحابة الكرام بحضرة سيد المرسلين ﷺ وبغيبته، وإبطالها رد لنصوص كثيرة مأثورة عن السلف، منثورة في الصحاح والسنن، لا ينكرها إلا مكابر، وبالبدعة مجاهر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومن أُصُول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء، وما يُجْري الله على أيديهم من خوارق العَادَات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إِلَى يوم القِيَامَة ". (العقيدة الواسطية، ص 45 ـ 46).

[ردّ قول من أنكر الكرامات]: أنكر أبو إسحاق الإسفراييني وأبو عبدالله الحَلِيمي والمعتزلة كَرَامَات الأولياء فقالوا بأنَّها دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء، فلو جاز ظهور الخارقة على يد الولي لاشتبه ذَلِكَ بالمعجزة، فينسدّ باب إثبات النبوة. وأجيب عن ذَلِكَ من وجوه، أهمها:

الأول: وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدَّعي، فإن ادعى صاحبه النبوة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبيًا، وإن ادَّعى الولاية فذلك يدل على كونه وليًا.

والثاني: أنَّ الأنبياء مأمورون بإظهارها، والأولياء مأمورون بإخفائها.

والثالث: وهو أن النَّبي يدعي المعجز ويقطع به، والوليّ لا يمكنه أن يقطع به. =

يَخْرِقُ اللّهُ لَهُمْ العَادَةَ إِكْرَامًا[1]، ....

= **والرابع**: أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة. (التفسير الكبير للرازي، ج8 ص 28، بريقة محمودية للخادمي، ج1 ص 203، والمواقف للإيجي، ج3 ص 465).

قال الذَّهبي مجيباً على إنكار الإسفراييني للكرامة بأنها زلَّة كبيرة. (سير الأعلام، ج1 ص 355).

وكذَّب التاج السبكي في الطبقات نسبة الإنكار المطلق إِلَى أبي إسحاق، وقال: إنَّ مقتضى مذهبه أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة، وما جاز تقديره معجزة لنبيٍّ لا يجوز ظهور مثله كرامة لوليٍّ. ومبلغ الكرامات عنده بمثل إجابة دعوة أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه وشبهه. (طبقات الشافعية للسبكي، ج2 ص 315).

(1) **[هل الكرامات تقع بالقصد أم لا]**: إذا عُرف أن الله ﷻ يخرق العادة لأوليائه إكراما لهم على تعلقهم به ومحبتهم له وخوفهم منه سبحانه، فهل تقع الكَرَامَة باختيار الأولياء لها متى ما أرادوا أم تقع دون قصد واختيار من الولي؟ فالذي اختاره النووي وصححه أن كَرَامَات الأولياء تقع بطلبهم واختيارهم. (شرح صحيح مسلم، ج16 ص 108).

وهو اختيار الحافظ ابن حجر. (فتح الباري، ج6 ص 483).

وقال آخرون بامتناع القصد والاختيار في وُقُوع الكَرَامَة للولي، بل قَالَ بعضهم: إنَّ من ادَّعى الولاية واعتضد بخوارق العَادَات لم يجز ولم يقع، بل ربما سقط عن مرتبة الولاية. (حاشية العطار، ج2 ص 481).

والصحيح أن الكَرَامَة تقع بالقصد والاختيار من الوليِّ لا سيما في معرض التحدِّي لأجل إظهار الحقِّ، أو كانت الحاجة والسبب الشرعي قائما لطلبها؛ فقد شرب خالد بن الوليد ﷺ السُّمَّ لما أراد أن يُظْهِرَ بأَنَّ دين الإسلام حق. (رواه أبو يعلى "7186"، وأحمد في فضائل الصحابة "1478").

قال الذهبي معلِّقاً: " هذه والله الكرامة، وهذه والله الشجاعة ". (سير الأعلام، ج1 ص 376).

ومنه ما رواه عبدالله بن عمر ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ بعث جيشاً وأمَّر عليهم رجلاً يدعى "سارية"، قَالَ: فبينا عمر يخطب قَالَ فجعل يصيح وهو على المنبر: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل. قَالَ: فقدم رسول الجيش، فسأله، =

وَلاَ إِشْكَالَ فِيهَا لأَنَّهَا فَرْعُ المُعْجِزَاتِ[1]، ....

= فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدوّنا فهزمونا وإنَّ الصَّائح ليصيح " يا سارية الجبل، يا سارية الجبل ". فشددنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله. فقيل لعمر: إنَّك كنت تصيح بذلك. (رواه البيهقي في الاعتقاد، ص 314 وغيره، وحسَّن ابن حجر إسناده في "الإصابة"، ج3 ص 6).

وقصَّة الكتاب الذي بعثه عمر ﷺ إِلَى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيه في النِّيل ليبطل سنة جاهلية كَانَ يفعلها أهل مصر؛ إذْ كانوا يُلقون فيه كل عام جارية عذراء ليجري، وكان في الكتاب بطاقة كتب فيها عمر ﷺ: " مِنْ عمر أمير المؤمنين إِلَى نِيل مصر، أمَّا بعد: فإن كنت تجري من قِبَلك فلا تجر، وإن كَانَ الله الواحد القهار هو الذي يُجْريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجْريك ". فألقى عمرو البطاقة فما أصبح النَّاس إلا وقد جرى النِّيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة. (الأصبهاني في العظمة "9373"، واللالكائي في كَرَامَات الأولياء "66").

وغير ذَلِكَ كثير جدًا.

ويتعلق بهذه المسألة فرع مهمّ وقع فيه الخلاف؛ وهو **هل يجوز إظهار الكَرَامَة أم إخفاؤها؟**

وجوابه: إذا كَانَ السبب الشرعي قائماً لإظهارها فيجوز إظهارها كما سبق في كَرَامَات عمر وخالد وغيرها مما لم نذكره، وإلا فالأولى إخفاؤها وبهذا الضابط فرَّق بعض أهل العلم بينها وبين المعجزة، بأن المعجزة، الواجب إظهارها لداعي التحدي، والكرامة، الواجب إخفاؤها قطعاً للرياء والشبهة والله أعلم.

(1) **[الكرامات عند أهل السنّة فرع للمعجزات]**: قَالَ ابن القيِّم: " وكرامات الأولياء هي من معجزات الأنبياء؛ لأنَّهم إِنَّمَا نالوها على أيديهم، وبسبب اتباعهم فهي لهم كرامات، وللأنبياء دلالات، فكرامات الأولياء لا تعارض معجزات الأنبياء حتى يطلب الفرقان بينهما، لأنها من أدلتهم وشواهد صدقهم ". (مدارج السالكين، ج2 ص 505).

وقد أطلق بعض أهل العلم القول في الكَرَامَة على أنها فرع المعجزة فلا تفترق في حقيقتها عن المعجزة إلا من حيث التحدِّي المقترن بدعوى النبوة، حتى قَالَ بعضهم: ما جاز أن يَكُون معجزة لنبيٍّ جاز أن يَكُون كرامة لوليٍّ. (انظر فتاوى الرملي، ج4 ص 382).

وقال إمام الحرمين: المرضي عندنا تجويز جملة خوارق العَادَات في معرض =

....

= الكرامات، وإنما تمتاز عن المعجزات بخلوها عن دعوى النبوة. (حاشية العطار على شرح المحلي، ج4 ص 481).

وقال النسفي في عقائده: " وكرامات الأولياء حقٌّ، فتظهر الكَرَامَة على طريق نقض العادة للوليِّ من قطع المسافة البعيدة في المدَّة القليلة، وظهور الطعام والشراب واللباس عند الحاجة، والمشي على الماء والهواء، وكلام الجماد والعجماء، واندفاع المتوجِّه من البلاء، وكفاية المهمِّ من الأعداء، وغير ذَلِكَ من الأشياء ". اهـ (ردّ المحتار، ج3 ص 551).

إلا أنه عند التحقيق يتضح الفرق، فليس كل ما وقع معجزة لنبيٍّ جاز أن يَكُون كرامة لوليٍّ، فقد ورد النص القاطع بأن بعض المعجزات لا يمكن أن تكون كرامة للولي كالقرآن. ويلحق به ما في حكمه كانشقاق القمر، وانزواء الأرض، وإحياء الموتى، وولادة ولد من دون والد، وقلب العصا حيَّة... فلا يَكُون هَذَا لغير الأنبياء.

قال ابن تيمية: " وأما كَرَامَات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء؛ فإنَّها إِنَّمَا تكون لمن شَهِد لهم بالرسالة، فهي دليل على صدق الشَّاهِد لهم بالنبوة، وأيضاً فإن كَرَامَات الأولياء معتادة من الصَّالحِين، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك؛ فانشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حَيَّة، وخروج الدَّابة من صخرة لم يكن مثله للأولياء، وكذلك خلق الطَّيْر من الطِّين، ولكن آياتهم صغار وكبار، كما قَالَ تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ [سورة النَّازعات، الآية: 20]، فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة. وقال عن نبيِّه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [سورة النَّجم، الآية: 18]، فالآيات الكبرى مختصَّة بهم، وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصَّالحين مثل تكثير الطعام، فهذا قد وجد لغير واحد من الصَّالحين، لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنَّه أطعم الجيش من شيء يسير، فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم، لكن لا يماثلون في قدره، فهم مختصُّون إمَّا بجنس الآيات، فلا يَكُون لمثلهم كالإتيان بالقرآن، وانشقاق القمر، وقلب العصا حَيَّة، وانفلاق البحر، وأن يخلق من الطِّين كهيئة الطير. وإما بقدرها وكيفيتها؛ كنار الخليل، فإنَّ أبا مسلم الخولاني وغيره صارت النَّار عليهم برداً وسلاماً، لكن لم تكن مثل نار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في عظمتها كما وصفوها، فهو مشارك للخليل في جنس الآية، كما هو مشارك في جنس الإيمان محبة الله وتوحيده، ومعلوم أن الذي امتاز به =

....

= الخليل من هَذَا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله. . . .". (النبوات لابن تيمية، ص211 ـ 212).

وقال القشيري في رسالته: " إنَّ كثيراً من المقدورات يُعلم اليوم قطعاً أنه لا يجوز أن يَظْهَر كرامة للأولياء لضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك، فمنها حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمة أو حيواناً، وأمثال هَذَا يكثر ". (الرسالة القشيرية، ص 208).

قال الحافظ ابن حجر مؤيداً لقول القشيري: " والمشهور عن أهل السنة إثبات الكرامات مطلقاً، لكن استثنى بعض المحققين منهم كأبي القاسم القشيري ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء، فقال: ولا يصلون إِلَى مثل إيجاد ولد من غير أب ونحو ذلك، وهذا أعدل المذاهب في ذلك ". (فتح الباري، ج ص 383).

وفي المقابل ضعَّف الزَّركشي كلام القشيري وقال: الجمهور على خلافه. (حاشية العطار على شرح الجلال المحلي، ج2 ص 481).

وقال ابن عابدين: " وقد ذكر علماؤنا أنَّ ما هو من المعجزات الكبار؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حيَّة، وانشقاق القمر، وإشباع الجمع من الطعام، وخروج الماء من بين الأصابع لا يمكن إجراؤه كرامة للولي، وطي المسافة منه لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «زويت لي الأرض [حتى رأيت مشارقها ومغاربها. . .]» (ابن ماجة "3952"). فلو جاز لغيره لم يبق فائدة للتخصيص. . .". (رد المحتار، ج4 ص 260).

[وجوه الفرق بين المعجزة والكرامة]: وقد وضع جَمَاعَة من أهل العلم بعضاً من الفروق التي ميزت المعجزة عن الكرامة، وإن كانت هذه الفروق مندرجة ضمن الكلام عن المعجزة والكرامة؛ فذهب قوم إِلَى أن شرط الكَرَامَة أن تكون من غير إيثار واختيار من الوليِّ والمعجزة تكون بالإيثار والاختيار فيفترقان.

وقال آخرون بأن الكَرَامَة يجوز ظهورها على يد الوليِّ مع الاختيار، ولكن لا يجوز ظهورها مع دعوى الولاية، حتى لو ادعى الولاية وأراد إثباتها بالكرامة لم يخرق المعجزة، فظهر أن الكَرَامَة لا تقع موافقاً لدعوى الوليِّ، والمعجزة شرطها أن تكون موافقة لدعوى مدَّع النبوة فظهر الفرق. (أبو سعيد النيسابوري، الغنية في أُصُول الدين، ص 152).

ومن فروقهما أيضاً أن النبي مأمور بإظهار المعجزة دون الولي بل يجب عليه سترها. وأن المعجزة يقطع صاحبها بكونها معجزة دون الكَرَامَة لاحتمال كونها مكراً. (الخادمي، بريقة محمودية، ج1 ص 303).

نَالُوهَا بِاتِّبَاعِ الأَنْبِيَاءِ وَسِرِّ الاقْتِدَاءِ[1]، ....

(1) **[صاحب الكرامة هو المتبع للنبيّ]**: تقرر فيما سبق أن الكَرَامَة هي ما يجريه الله ﷻ على أيدي أوليائه من خوارق العادات، وثبت أن الولي هو القائم على حدود الله وأوامره ونواهيه، والمتبع للكتاب والسنة، وهو المقصود في الحديث القدسي الصحيح الذي رفعه أبو هريرة إِلَى رسول الله ﷺ أنه قَالَ: «إن الله قَالَ: من عَادَى لي وليًا فقد آذنته بالحرْب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيَنَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». (البُخَارِي بلفظه "6137"، وابن حبان "347").

والكرامات لا تليق بعبد ما لم يقم على حدود الله ﷻ ويرتض بالكتاب والسنة منهاجاً قويماً، يسلكه في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، قائم على الأوامر، معرض عن الكبائر ومعظم الصغائر، فمن كَانَ كذلك حاز درجة الولاية، وحقَّت له الكَرَامَة مكرمة، ولنبيه المتبع ﷺ معجزة؛ لأنهم يقولون إِنَّمَا تحصَّل لنا هَذَا باتباع الأنبياء، وَلَوْ لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا، فكانت دليلاً على صحة الدين الذي دانوا به، وبرهاناً على صدق النبي الذي اتبعوه. وقد قَالَ العالم الصالح محمد بن ناصر الدرعي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: " إذا رأيت رجلاً واقفاً على حدود الله فلم تبق لك كرامة تراها له فوق ذلك ". (الهداية الناصرية، مخطوط، ورقة: 39).

[هل يجوز أن تظهر الكَرَامَة على يد الفاسق أو الكافر؟]:

الذي حكاه النووي الإجماع على أن السِّحر لا يَظْهَر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر على فاسق وإنما تظهر على وليٍّ، وبهذا جزم إمام الحرمين، وأبو سعد المتولِّي وغيرهما. (شرح صحيح مسلم، ج14 ص 176).

قال التاج السبكي: " ومن تمام الكلام في ذَلِكَ أن أهل القبلة متفقون على أن الكرامات لا تظهر على الفسقة الفجرة وإنما تظهر على المتمسكين بطاعة الله ﷻ. وبهذا لاح أن الطريق إِلَى معرفة الأنبياء لا ينسد، فإن الولي بتوفيق الله تعالى ينقاد للنبي إذا ظهرت المعجزة على يديه ويقول معاشر الناس: هَذَا نبي الله فأطيعوه، ويكون أول منقاد له ومؤمن به ".

قال الحافظ: " وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كَانَ متمسكاً =

....

= بالشريعة متجنباً للموبقات فالذي يَظْهَر على يده من الخوارق كرامة وإلا فهو سحر لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين ". (فتح الباري، ج14 ص 176).

ونقل ابن تيمية عن القاضي أبي بكر أنه ادعى الإجماع على أن الكَرَامَة لا تظهر على الفاسق.

لكن التاج السبكي حكى عنه مذهباً آخر فقال: " والقاضي أبو بكر وإن شبب بمنع هَذَا الإجماع وقال: لو جوز مجوز ظهور بعض خوارق العَادَات على بعض الفسقة استدراجاً لكان مذهباً كما أنه لا يبعد ظهورها على الرهبان المتبتلين وأصحاب الصوامع على كفرهم ".

ونرى أن الاعتراض الذي أقامه التاج السبكي - رَحِمَهُ اللَّهُ - غير وارد؛ فالفرق واضح في كلام القاضي أبي بكر؛ فحكايته الإجماع أن الكرامات لا تظهر على يد الفاسق أو الكافر هو المتفق عليه بين أهل القبلة كما سبق، أمَّا تجويزه لظهور الخوارق على يد الفاسق أو الفاجر فليس من باب الكَرَامَة وإنَّما هو من باب **السحر** أو **الاستدراج**، فلا استشكال في مذهب القاضي إطلاقاً، فالجمهور يجيز ظهور الخوارق على يد الكافر أو الفاسق حتى وإن لم تكن من باب السحر أو الاستدراج فقد تكون من باب **المعونة**، قَالَ البعض: " وقد تظهر الخوارق من قبل عدم المسلمين تخلصاً لهم عن المحن والمكاره وتسمى **معونة** ". (حاشية العطار على المحلي، ج2 ص 481، وشرح زبد ابن رسلان، ج1 ص 14).

ويكفي دليلاً على جواز ظهور الخوارق على أيدي الكفرة والفسقة بما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ بأن الدَّجَّال لمَّا يخرج ستظهر على يديه الخوارق الكثيرة والعجيبة حتَّى إنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، ويقتل ذَلِكَ الشاب ثُمَّ يحييه فيما يظهر للنَّاس...

بل التاج السبكي نفسه أيَّد ظهور الكَرَامَة على يد الفاسق في بعض الأحوال، فقال: " وأمَّا توقف القاضي في الفسقة والفجرة فأنا معه، لكن لا على الإطلاق بل أفصِّل فأقول: لو ذهب ذاهب إِلَى تجويز ظهور الكَرَامَة على يد الفاسق، إنقاذاً له مما هو فيه، ثُمَّ يتوب بعدها ويثبت لا محالة، وينتقل إِلَى الهدى بعد الضلالة، لكان مذهباً، ويقرب منه قصة أصحاب الكهف التي سنحكيها؛ فقد كانوا عبدة أصنام، ثُمَّ حصل لهم ما حصل إرشاداً وتبصرة. ثُمَّ ما ذكره الخصوم من حيث اشتباه النبي بغيره إذا وافقت المعجزة الكَرَامَة قد تبين الانفصال عنه ".(طبقات الشافعية الكبرى، ج2 ص 320). =

وَمَعَ ذَلِكَ لاَ تَتَعَلَّقُ بِهَا هِمَّةُ وَلِيٍّ[1].

---

(1) **[يجب على الوليّ كتم الكرامة ولا يغترّ بها]**: ينبغي على الولي إذا أكرمه الله ﷻ بكرامة أن يكرم نفسه بالستر عليها ولا يفتنها إلا إذا دعت حاجة لذلك، نقل الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى عن أبي عمر الدمشقي الصوفي قوله: " فَرَض الله على الأنبياء إظهار المعجزات ليؤمنوا بها، وفَرَض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتنوا بها ". (السيرة الحلبية، ج3 ص 343).
ولأن ظهور الخوارق لا تدلّ على ولاية من ظهرت على يديه، فحتى وإن كَانَ ظاهر أمره الصلاح والتقوى فلا تقطع له بدرجة الولاية، إذ علامات الولاية إِنَّمَا هي الوقوف على حدود الشريعة، وامتثال الأمر والنهي، وكفي بذلك كرامة، قَالَ الليث بن سعد: " إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة ". (تفسير ابن كثير، ج1 ص 79).
قَالَ أبو يزيد البسطامي: " لو نظرتم إِلَى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة ". (البيهقي، شعب الإيمان "1860").
لذا اشتهرت عادة الصالحين من الأئمة والزهاد وأهل الورع بالتكتم وعدم المباهات بالكرامات، وزينوا ذَلِكَ كله بالتواضع، وشغل المريدين بالعلم وتهذيب النفس، وصرفهم عن الاشتغال بالخوارق والكرامات، قَالَ السري السقطي: " لو أن رجلا دخل إِلَى بستان فيه من جَمِيع ما خلق الله من الأشجار، عليها جَمِيع ما خلق الله من الأطيار، فخاطبه كلُّ طيْر منها بلغته وقال: السلام عليك يا وليَّ الله. فسكنت نفسه إِلَى ذَلِكَ كَانَ في يديْها أسيرا ". (حلية الأولياء، ج10 ص 118).
وقال الشعراني: طلب بعض الفقراء من سيدي عبدالعزيز الديريني ـ رحمه الله تعالى ـ وُقُوع كرامة فقال لهم: يا أولادي وهل ثَمَّ كرامة لعبدالعزيز أعظم من أنَّ الله تعالى يمسك به الأرض ولا يخسفها به وقد استحق الخسف به منذ أزمان متعددة. (حاشية العطار على المحلِّي، ج2 ص 481).
قال القرطبي: " قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ: ومن أظهر الله تعالى على يديه مِمَّنْ ليس بنبي كَرَامَات وخوارق للعادات فليس ذَلِكَ دالاً على ولايته، خلافا لبعض الصوفية والرَّافضة حيث قالوا إن ذَلِكَ يدل على أنه وليّ، إذ لو لم يكن وليًّا ما أظهر الله على يديه ما أظهر ". (تفسير القرطبي، ج1 ص 297).
واستدل القرطبي على قوله بأن الولاية معتبرة بالموافاة على الإيمان، لأنه لا يمكن =

وَشَرْطُ الكَرَامَةِ أَنْ لاَ تَخْرِقَ حُكْمًا شَرْعِيًا[1].

= لأحد أن يقطع، ولا صاحب الكَرَامَة نفسه يقطع أنه يوافي على الإيمان، وإذا كَانَ كذلك فلا يمكن لأحد أن يقطع بكونه وليًا لله ﷻ.

(1) **[شرط الكرامة موافقة الشريعة]**: لأن الخارقة إذا خالفت مقتضى الشريعة لم تصنف ضمن المكرمات المحمودة، وإنما هي من تلبيسات الشياطين وجب على من عُرِض له بشيء منها أن يعرض عنه، ويستعذ بالله من شرِّ فتنتها، وقد كَانَ من حال الصالحين من الأئمة والأولياء المشهورين مِمَّنْ كَانَ له الحظ الوافر من الولاية والزهد يوصون بعرض الخوارق الحاصلة على ميزان الكتاب والسنة، فما كَانَ منها موافقا لمحكمات الدين حيز به شرف المنزلة، وما كَانَ غير ذَٰلِكَ رمي به وراء الظهور، وأُثرت عن الأئمة الكرام مقولات في هَذَا الشأن حقيق أن تكتب بماء الذهب، إذ إنها بمثابة الأصل الذي يجب أن يقام عليه الزُّهد الصحيح، وكذلك هي حجَّة أقامها هؤلاء الأئمة الفضلاء على أتباعهم ومن سلك طريقتهم.

قال السري السقطي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ضابطا لأحوال الكرامات بأن لا تخرق قواعد الشريعة: " التصوف اسم لثلاثة معان: " لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله ". (مدارج السالكين، ج2 ص 264).

وقال سيد القوم الجنيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: مذهبنا هَذَا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

ونقل الجنيد عن أبي سليمان الداراني أنه قَالَ: " ربَّما تقع في نفسي النّكتة من نكت القوم ـ أي أصحاب الكرامات ـ أيَّامًا فلا أقبل منه إلاَّ بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة ". (تلبيس إبليس، ص 207).

وقال أبو الحسين النوري لبعض أصحابه: " من رأيته يدَّعي مع الله ﷻ حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنَّه، ومن رأيته يدَّعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر، فاتهمه على دينه ".

وعن أبي جعفر قَالَ: " منْ لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خاطره، فلا تعدَّه في ديوان الرجال ".

لذلك كَانَ السلف ومتبعي منهاج الكتاب والسنة من هؤلاء يعيبون على من تلبَّس بالتصوف وحاد بأحواله عن طريق الحَقّ وأتى بالبدع والأباطيل باسم الخوارق والكرامات. قَالَ ابن الحاج في المدخل: " ومنهم ـ أي من ينتسبون إِلَى التصوف ـ من يشير إِلَى نفسه بالكرامات وخرق العادات، وهو عريٌّ عنها بالاتصاف بضدها، =

س ـ مَا هَذَا الاخْتِلاَفُ بَيْنَ أَئِمَّةِ المَذَاهِبِ وَشَرِيعَتُهُمْ وَاحِدَةٌ؟

ج ـ اخْتِلاَفُهُمْ لاَ يَقْدَحُ فِي الشَّرِيعَةِ[1] ....

= ومنهم من يدَّعي رؤية المشايخ ولُقْيَهم، وهو مع ذَلِكَ لم يجتمع بهم ولا رآهم. ومنهم من يدَّعي صحبة بعض الشيوخ والاهتداء بهديهم، وهو لم يجتمع بهم ولا هو على طريقهم. . . .وبالجملة فأحوالهم الرديئة لا تنحصر، وفيما وقع التنبيه به كفاية ومقنع. هَذَا حال المستترين منهم.

وأما غيرهم فقد خرقوا السياج وليس العجب منهم، بل العجب مِمَّنْ يعتقدهم أو يميل إليهم مع ما هم فيه من مخالفة الشرع الشريف؛ مثل ما يفعل بعضهم من أنَّه يُظْهِر للنَّاس الزُّهد في الدنيا وترك المبالاة بها حتى إنَّه ليجلس مكشوف العورة. . .

ومنهم من يدخل النَّار على زعمه ولا يحترق بمرأى من الناس، وذلك لو كَانَ صحيحا لكان بدعة ومنكرا، إذْ إنَّ من شرط المعجزة إظهارها والتحدِّي بها، ومن شرط الكَرَامَة عكس ذلك، فإذا أظهرها للناس فقد خرجت عن باب الكَرَامَة، اللَّهم إلاَّ أن تقع ضرورة شرعية داعية إِلَى إظهارها. . .

ومنهم من يُظْهِرُ الكَرَامَة بإمساك الثعابين والأُنس بها، وهذا فيه ما فيه من مخالفة الشرع الشريف والتمويه على الأمَّة بما لا حقيقة له، إذ إنَّ مثل ذَلِكَ يفعله كثير من الناس لمعيشتهم فكيف يعدُّ كرامة؟ ومن ذَلِكَ أيضاً ما يفعلونه من أكلهم الثعابين بالحياة بمرأى من الناس، وذلك محرَّم. . . .". (المدخل لابن الحاج، ج3 ص 194 ـ 197).

(1) **[اختلاف الأئمة في الفروع لا يقدح في الشريعة]**: لأن اختلافهم هو من صميم هذه الشريعة، بل هو الشريعة نفسها، وأضفى اختلافهم على الشريعة سمة من المرونة والسِّعة مما جعلها تواكب اختلاف الزمان والمكان، فلم يكن اختلافهم أبدا بليَّة على الشريعة، بل هو مزيَّة مشهودة.

[الاختلاف الممدوح والمذموم]:

قال السبكي: والاختلاف على ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف في الأصول التي ينبني عليها الدين كالعقائد والمعلومات من الدين بالضرورة، وهو المشار إليه في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود، الآيتين: 118 ـ 119]، وكذا قولـه: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 253]، ولا شك أنَّه بدعة وضلالة، وهو الذي ضلَّ به أهل الفرق وحادوا عن طريق الحق. =

. . . .

= **والثاني**: في الآراء والحروب مما يتعين من مصالح الخليقة، وهو حرام أيضاً لما فيه من تضييع المصالح.

والثالث: في الفروع؛ كالاختلاف في الحلِّ والحرمة ونحوهما، قَالَ والدي ـ أيده الله ـ: والذي يَظْهَر لنا ويكاد أن يُقطع به أن الاتفاق فيه خير من الاختلاف، لكن يجوز التقليد للجاهل، والأخذ بالرخصة من أقوال العلماء في بعض الأوقات عند مسيس الحاجة، ومن هَذَا الوجه يَصِحّ أن يقال الاختلاف رحمة إذ الرخص رحمة. إهـ (بتصرف من الإبهاج، ج3 ص 19).

قال في فيض القدير عند شرحه للحديث المشهور على الألسنة على رغم سقوط إسناده «اختلاف أمتي رحمة»: " أي اختلافهم توسعة على الناس بجعل المذاهب كشرائع متعددة بعث النبي ﷺ بكلها لئلا تضيق بهم الأمور من إضافة الحَقّ الذي فرضه الله تعالى على المجتهدين دون غيرهم، ولم يكلفوا ما لا طاقة لهم به توسعة في شريعتهم السمحة السهلة فاختلاف الأئمة نعمة كبيرة، وفضيلة جسيمة خُصَّت بها هذه الأمة، فالمذاهب التي استنبطها أصحابه فمن بعدهم من أقواله وأفعاله على تنوعها كشرائع متعددة له، وقد وعد بوقوع ذَلِكَ فوقع، وهو من معجزاته ﷺ، أما الاجتهاد في العقائد فضلال ووبال كما تقرر، والحق ما عليه أهل السنة والجماعة فقط ". (فيض القدير للمناوي، ج1 ص 209).

ورغم هذه الفضيلة التي خُصَّتْ بها الأمة من سعة الشريعة وسماحتها التي أضفاها اختلاف المذاهب عليها، إلاَّ أن البعض مِمَّنْ حجروا على أنفسهم ما وسَّع الله ﷻ عليهم بالغوا في إنكار الاختلاف الذي وقع في اجتهاد الصحابة والأئمة، **واعترض** على هَذَا المذهب رجلان؛ أحدهما ـ كما قَالَ الخطابي ـ مغموص عليه في دينه وهو عمرو بن بحر الجاحظ، والآخر معروف بالسخف والخلاعة وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي. قلت: وقال بمثل قولهم رجل ثالث فاضل مجتهد ذابّ عن الملَّة وهو أبو محمد بن حزم الظاهري ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ. واحتج هؤلاء بالقول بأنه لو كَانَ اختلاف الأئمة رحمة لكان اتفاقهم عذابا وسخطا، وهو ممتنع، وإنما كَانَ اختلاف الرحمة زمن النبي ﷺ خاصة لأنهم كانوا عند الاختلاف يسألون رسول الله ﷺ عما اختلفوا فيه فيبين لهم الجواب.

وأجاب النووي عن اعتراضهم بجواب مفحم وهو أنه لا يلزم من كون الشيء رحمة أن يَكُون ضده عذابا، ولا يلتزم هَذَا ويذكره إلا جاهل أو متجاهل، =

وَلاَ فِيهِمْ[1]، ....

= وقد قَالَ الله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ [سورة القصص، من الآية: 73]، فسمى الليل رحمة ولم يلزم من ذَلِكَ أن يَكُون النهار عذابا، وهو ظاهر لا شك فيه. (انظر شرح النووي على مسلم، ج11 ص 92، والإحكام لابن حزم، ج5 ص 61).

وقد أدرك الأكابر الفضلاء ما جلب اختلاف الأيمة من اليسر والسهولة على الشريعة الغراء حتى قَالَ الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ﷺ: " ما يسرني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة". (كشف الخفاء للعجلوني، ج1 ص 66، الفروع، ج6 ص 374).

وفي رواية ابن سعد عنه أنه قَالَ: " ما يسرني باختلاف أصحاب النبي ﷺ حمر النعم ". (الطبقات الكبرى، ج5 ص 382).

(1) **[الاختلاف لا يقدح في عدالة الأئمة]**: لأنهم جميعا ـ رحمهم الله ـ لم يختلفوا عن تشهِّي ولا عن اتباع للهوى وإنما اختلفوا بحسب مؤدى اجتهاد كل واحد منهم، واختلافهم كله يدور في فلك الشريعة، قَالَ يحيى بن سعيد: " أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون، فيحلِّل هذا، ويحرم هذا، فلا يعيب هَذَا على هَذَا، ولا هَذَا على هذا، وإن المسألة لترد على أحدهم كالجبل، فإذا فتح له بابها قَالَ ما أهون هذه ". (تذكرة الحفاظ، للقيسراني، ج1 ص 139).

وعقد الشعراني فصلا حقق فيه استحالة خروج شيء من أقوال المجتهدين عن الشريعة فقال معللا لمذهبه: " وذلك لأنهم بنوا قواعد مذاهبهم على الحقيقة التي هي أعلى مرتبتيْ الشريعة، كما بنوا على ظاهر الشريعة على حدٍّ سواء، وأنهم كانوا عالمين بالحقيقة أيضاً لا كما يظنه بعض المقلدين فيهم فكيف يَصِحّ خروج شيء من أقوالهم عن الشريعة، ومن نازعنا في ذَلِكَ فهو جاهلٍ بمقام الأيمة، فوالله لقد كانوا علماء بالحقيقة والشريعة معا، وأنَّ في قدرة كلٍ واحد منهم أن ينشر الأدلة الشرعية على مذهبه، ومذهب غيره بحكم مرتبتيْ الميزان فلا يحتاج أحد بعده إِلَى النظر في أقوال مذهب آخر، لكنهم ـ رضي الله تعالى عنهم ـ كانوا أهل إنصاف وأهل كشف، فكانوا يعرفون الأمر يستقرُّ على عدَّة مذاهب مخصوصة لا على مذهب واحد...". (فتح العلي المالك لعليش، ج1 ص 92).

وإن من قدح في واحد منهم أو انتقص من شأنه ووصفه بما ليس فيه، بل ومن نظر باحتقار في واحد من الأئمة الكبار سواء أكان من الأربعة أو غيرهم من أهل =

وَلاَ إِشْكَالَ فِيهِ لِمَنْ تَبَصَّرَ[1]؛ ....

= الاجتهاد الذين اندثرت مذاهبهم فلا تشك أنه من أهل البدعة لذا قَالَ المناوي: " ويجب علينا أن نعتقد أنَّ الأئمة الأربعة، والسفيانين، والأوزاعي، وداود الظاهري، وإسحاق بن راهويه، وسائر الأئمة على هدى، ولا التفات لمن تكلم فيهم بما هم بريئون منه ". (انظر فيض القدير، ج1 ص 210).

قال الحكيم الترمذي: " فأما أصحاب رسول الله ﷺ بعده فقد اختلفوا في أحكام الدِّين فلم يفترقوا، لأنهم لم يفارقوا الدِّين وإنما اختلفوا فيما أُذن لهم النظر فيه والقول باجتهاد الرأي، واختلفت آراؤهم فاختلفت أقوالهم، وقد أُمروا بذلك فصاروا باختلافهم محمودين، لأنَّه أدَّى كلُّ واحدٍ منهم على حياله ما أمر من جهد الرأي والنظر فيه، وكان ذَلِكَ الاختلاف رحمة من الله تعالى على هذه الأمة، حيث أيَّدهم باليقين، ثُمَّ وسَّع على العلماء منهم النَّظر فيما لا يجدون ذكره في التنزيل، ولا في سنة الرسول ﷺ حتى يلحقوه ببعض، وكانوا أهل مودَّة وعطف، متناصحين، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة، فكلّ مسألة حدثت في الإسلام فخاض فيها الناس واختلفوا فلم يورث ذَلِكَ الاختلاف عداوة بينهم ولا بغضا ولا فرقة علم أنَّ ذَلِكَ من مسائل الإسلام، يتناظر فيه ويأخذ كل فريق بقولٍ من تلك الأقوال، ثُمَّ يكونون على أحوالهم من الشفقة والرحمة والألفة والمودة والنصيحة كما فعل الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم، وكلّ مسألة حدثت فاختلفوا فيها فردَّهم اختلافهم في ذَلِكَ إِلَى التولِّي والإعراض والرمي بالكفر علم أنَّ ذَلِكَ ليس من أمر الدِّين في شيء، بل حدثت من الأهواء المردية الدَّاعية صاحبها إِلَى النَّار، وتورث العداوة والتباين والفرقة ". (نوادر الأصول، ج2 ص 249).

(1) **[أسباب اختلاف الأئمة]**: هَذَا الخلاف ناتج عن سببين معتبرين:

الأول : الطبيعة البشرية؛ إذ إنَّ مدارك عقول المجتهدين تختلف بين مجتهد وآخر، وأفهامهم تختلف، فما توصل إليه هَذَا المجتهد بفهمه ونظره واجتهاده لا يقتضي أن يَكُون الحكم نفسه الذي توصل إليه الآخر، ألا ترى أن النصَّ الواحد ينظر فيه المجتهدون فيستنبط كل واحد حكماً على خلاف صاحبه.

والثاني : طبيعة النُّصُوص الشرعية من جهة النص والمورد، أما من جهة النص فهي لا تقطع في غالبها بحكم معين، وإنما يحتمل النص الواحد أكثر من معنى في وجوه العربية فيرجح المجتهد وجها على خلاف ما رجحه الآخر. =

وَذَلِكَ أَنَّ النَّصَّ النَّبَوِيَّ الَّذِي بَلَغَ جَمِيعَهُمْ لاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ إِذْ كُلُّهُمْ يَتَحَرَّى السُّنَّةَ[1]، وَمَا لاَ نَصَّ فِيهِ يَجْتَهِدُونَ فِي حُكْمِهِ، فَتَارَةً يَخْتَلِفُونَ، وَالْحَقُّ

= وأمّا من جهة المورد فقد تصح عند مجتهد ولا تصح عند الآخر، بل قد تصل هَذَا فيعتمدها ولا تصل ذاك.

قال الشاطبي: " فإن قيل إن كَانَ ثَمَّ ما يدل على رفع الاختلاف فثَمَّ ما يقتضى وقوعه في الشريعة، وقد وقع، والدليل عليه أمور؛ **منها** : إنزال المتشابهات، فإنَّها مجال للاختلاف لتباين الأنظار، واختلاف الآراء والمدارك، هَذَا وإن كَانَ التوقف فيها هو المحمود فإن الاختلاف فيها قد وقع، ووضْع الشارع لها مقصود له، وإذا كَانَ مقصودا له، وهو عالم بالمآلات، فقد جعل سبيلا إِلَى الاختلاف، فلا يَصِحّ أن ينفى عن الشارع رفع مجال الاختلاف جملة.

ومنها : الأمور الاجتهادية التي جعل الشارع فيها للاختلاف مجالا؛ فكثيرا ما تتوارد على المسألة الواحدة أدلّة قياسية وغير قياسية، بحيث يَظْهَر بينها التعارض، ومجال الاجتهاد لما قصده الشارع في وضع الشَّريعة حين شرع القياس ووضع الظواهر التي يختلف في أمثالها النظار ليجتهدوا فيثابوا على ذلك....

ومنها : أن العلماء الراسخين، الأئمة المتقين اختلفوا هل كل مجتهد مصيب، أم المصيب واحد، والجميع سوَّغوا هَذَا الاختلاف، وهو دليل على أن له مساغا في الشريعة على الجملة ". (الشاطبي، الموافقات، ج4 ص 123 ـ 124).

(1) **[اعتصام الأئمة بالكتاب والسنّة]**: كان هَذَا ديدن الأئمة الكبار كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والأوزاعي والثوري وابن مهدي وابن عيينة وابن المبارك.... حتى إذا كَانَ لأحدهم قولا ثُمَّ بلغه الخبر على خلاف قوله تشبَّث بالخبر وأبطل قوله، وما ذاك إلا اعتقادا منهم بأن خبر المعصوم أولى بالاتّباع من قَوْل الذي يصيب ويخطيء، وفي هَذَا المعنى يقول الإمام الشافعي: " وقد وجدنا الأئمة يبتدئون فيسألون عن العلم من الكتاب والسنة فيما أرادوا أن يقولوا فيه، ويقولون فيُخبَرون بخلاف قولهم فيقبلون من المُخْبِر، ولا يستنكفون على أن يرجعوا لتقواهم الله وفضلهم في حالاتهم، فإذا لم يوجد عن الأئمة فأصحاب رسول الله ﷺ من الدين في موضع، أخذنا بقولهم وكان اتباعهم أولى بنا من اتباع من بعدهم ". (الأم للإمام الشافعي، ج7 ص 265).

وروى الدارمي عن ابن شهاب الزهري أنه قَالَ: " كان مَنْ مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعا، فنعش العلم =

....

= ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذَلِكَ كله ". (سنن الدارمي "96").
ولذا قَالَ الأوزاعي: " ندور مع السنة حيث دارت ". (اعتقاد أهل السنة للالكائي "47").

قال أبو حنيفة: " آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله، فإن لم أجد في كتاب الله وسنة رسول الله آخذ بقول أصحابه؛ آخذ بقول من شئت منهم، وأدع قَوْل من شئت منهم، ولا أخرج عن قولهم إِلَى قَوْل غيرهم، فأما إذا انتهى الأمر إِلَى إبراهيم، والشعبي، وابن سيرين، والحسن، وعطاء، وسعيد بن المسيب ـ وعَدَّ رجالا من التابعين ـ فقوم اجتهدوا، وأنا أجتهد كما اجتهدوا ". (مختصر المؤمل لأبي شامة "151").

وقال مالك بن أنس لأصحابه: " إنَّما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه ". (مختصر المؤمل "143").

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: " ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعْزب عنه، فمهما قلت من قول، أو أصَّلْت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قَالَ رسول الله ﷺ وهو قولي ". قَالَ وجعل يردد هَذَا الكلام. (مختصر المؤمل "134").

وكان الإمام أحمد يكره أن تُكتب فتاويه، وكان يقول: " لا تكتُبوا عنِّي شيئا، ولا تقلدوني، ولا تقلدوا فلانا وفلانا، وخذوا من حيث أخذوا ". (مختصر المؤمل "144").

قال الذهبي: " وبين الأئمة اختلاف كبير في الفروع، وبعض الأصول، وللقليل منهم غلطات وزلقات ومفردات منكرة، وإنَّما أُمِرنا باتِّباع أكثرهم صوابا، ونجزم بأنَّ غرضهم ليس إلا اتباع الكتاب والسنة، وكلّ ما خالفوا فيه لقياس أو تأويل. . . . وإذا رأيت فقيها خالف حديثا، أو ردَّ حديثا أو حرَّف معناه فلا تبادر لتغليطه، فقد قَالَ علي ـ كرم الله وجهه ـ لمن قَالَ له أتظن أن طلحة والزبير كانا على باطل: " يا هَذَا إنه ملبوس عليك إن الحَقّ لا يعرف بالرجال اعرف الحَقّ تعرف أهله. . . . ." وما زال الاختلاف بين الأئمة واقعا في الفروع وبعض الأصول، مع اتفاق الكلّ على تعظيم الباري جَلَّ جَلالُهُ، وأنه ليس كمثله شيء، وأن ما شرعه رسوله حق، وأن كتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة، =

لاَ يَتَعَدَّدُ، فَيَفُوزُ بِهِ أَحَدُهُمْ؛ فَمَنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ[1].

= وإنما وضعت المناظرة لكشف الحق، وإفادة العالم الأذكى العلمَ لمن دونه، وتنبيه الأغفل الأضعف ". (نقلا عن المناوي، فيض القدير، ج1 ص 210).

(1) **[اختلاف أهل العلم في هل المصيب واحد أم متعدد في الفروع]**: القول الذي ذهب إليه المصنف من أن الحَقّ واحد وأن المصيب واحد من المجتهدين المختلفين هو المشهور من قَوْل مالك وأصحابه فيما قيل، واختاره ابن عبدالبر، وهو قَوْل الشافعي وأبي حنيفة وأبي إسحاق الإسفراييني والفخر الرازي وابن فورك والآمدي وابن الحاجب. روى ابن وهب عن مالك أنه قَالَ: ليس في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ سعة، وإنما الحَقّ في واحد. قيل له: فمنْ يقول إنَّ كل مجتهد مصيب؟ فقال: هَٰذَا لا يكون، قولان مختلفين صوابين. (الموافقات، ج4 ص 129). وقال أشهب: سمعت مالكا يقول: ما الحَقّ إلا واحد، قولان مختلفان لا يكونان صوابا معا، ما الحَقّ والصواب إلا واحد. (فتح العلي المالك، ج1 ص 85).
ومن أقوى الحجج التي **استدل** بها هؤلاء ما رواه البُخَارِي ومسلم وغيرهما من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثُمَّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثُمَّ أخطأ فله أجر». (البُخَارِي "6919"، ومسلم "1716"، وابن ماجة "2314").
فدل الحديث على أن بين المجتهدين مخطيء في إصابة الحق، ومصيب للحق، يؤجر الأوّل على اجتهاده وبذله للوسع في طلب الحَقّ وإثم الخطا عنه مرفوع لأنه غير مقصِّر، ويؤجر الثاني على اجتهاده كما يؤجر أيضاً على إصابته للحقِّ وحكم الله ﷻ في المسألة.
وأيّدوا قولهم كذلك بما أثر عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ من الإقرار بأن الاجتهاد يقع فيه الخطأ كما يقع فيه الصَّواب؛ وما الحَقّ عند الله ﷻ إلا واحد، من ذَٰلِكَ ما أثر عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل في رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يفرض لها ولم يدخل بها فقال: " أقول فيها برأيي فإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، وإن يك صوابا فمن الله...". (مسند أحمد، ج4 ص 279، والبيهقي "14194"، وابن أبي شيبة، ج3 ص556).
وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سُئل عن الكلالة: " إني سأقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ". (التمهيد لابن عبدالبر، ج5 ص 196، ونصب الراية للزيلعي، ج4 ص 63). =

. . . .

= فدل الأثران على أن حكم المجتهد برأيه قد يصيب به الحَقّ بتوفيق الله ﷻ وذاك هو حكم الله، وقد يخطيء في إصابة الحَقّ فلا يصيب حكم الله ﷻ.

واستدلوا كذلك على قولهم باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين، وتخطئة بعضهم لبعض ونظر بعضهم في أقوال بعض وتعقبها، فلو كانت أقوال المختلفين كلها صوابا ما فعلوا ذلك.

ومن جهة **المعقول** قالوا بأنه يستحيل أن يَكُون الشيء الواحد في الزمان الواحد في الشخص الواحد حلالا حراما، وهذا يدل على بطلان قَوْل من قَالَ بأن كل مجتهد مصيب.

وذهب بعض أهل العلم إِلَى أن كل مجتهد مصيب، وليس عند الله ﷻ حكم ظاهر ولا مغيب سوى ما يظنه كل فقيه أنه هو الصواب، فيخاطبه الله ﷻ بأن هَذَا حكمي عليك، وهذا قَوْل المازري وابن العربي وابن بشير وابن رشد والقاضي عياض من أيمة المالكية، وهو اختيار القاضي أبي بكر والجصاص وأبي حامد الغزالي، وإليه ذهب أبو الهذيل والجبائي وابنه من المعتزلة.

واحتج هؤلاء بعدة أدلة منها:

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [سورة الأنبياء، الآيتين: 78 ـ 79]، قَالَ القائلون بأن كل مجتهد مصيب: لمَّا لم يعنف داود على مقالته، ولم يحكم بتخطئته دلَّ على أنَّهما جميعا كانا مصيبين، وتخصيصه لسليمان بالتفهيم لا يدلُّ على أن داود كَانَ مخطئا؛ وذلك لأنه جائز أن يَكُون سليمان أصاب حقيقة المطلوب فلذلك خُصَّ بالتفهيم، ولم يصب داود عين المطلوب وإن كَانَ مصيبا لما كلف. (أحكام القرآن للجصاص، ج5 ص 55).

وردَّ المخالفون بأن تخصيص سليمان بالفهم دلَّ على أنه المصيب للحق دون داود، إذ لو كَانَ الحَقّ في قوليهما لما كَانَ لتخصيص سليمان بالفهم دُونَ داود معنى.

وكذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: قَالَ النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلاَّ في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منَّا ذلك. فذُكر ذَلِكَ للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحدا منهم. (البُخَارِي "3893"، ومسلم "1770" وذَكَر أن الصلاة صلاة الظهر وليس العصر). =

وَحَيْثُ لاَ نَصَّ[1] فَكُلٌّ عَلَى اجْتِهَادِهِ لِخَفَاءِ المُحِقِّ مِنَ الْمُخْطِيءِ، فَإِنْ ثَبَتَ نَصٌّ مُعَاضِدٌ لأَحَدِهِمْ فَالْحَقُّ يَتَعَيَّنُ لَهُ[2].

وَلاَ يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ التَّعَصُّبِ لِقَوْلِ أَحَدٍ تَبَيَّنَ خَطَؤُهُ فِي ذَلِكَ القَولِ، وَلَكِن يُحْمَلُ قَائِلُهُ الأَوَّل عَلَى عَدَمِ بَلاَغِ الخَبَرِ لَهُ تَنْزِيهًا لِمَقَامِهِمْ عَنْ تَعَمُّدِ المُخَالَفَةِ، هَذَا هُوَ العَدْلُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَسَائِرُ الأَئِمَّةِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ[3].

= قالوا: فلو كَانَ أحد الفريقين مخطئاً لعينه النبي ﷺ لأنَّه لا يسكت على الخطأ. ويمكن أن يقال لعله إِنَّمَا سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور. (تفسير القرطبي، ج11 ص 311).

واستدلوا كذلك بأن الصحابة ﷺ اختلفوا في المسائل، وقال كلُّ واحد قولا، وصوَّب بعضهم بعضا بدليل أَنَّهم تركوا إنكار بعضهم قَوْل البعض، وَلَوْ اعتقد كلُّ واحد منهم أنَّ صاحبه مخطئ لأنكره، لأنَّ إنكار المنكر واجب، فصار هَذَا دليلا من إجماعهم أَنَّهم لم يعتقدوا تخطئة بعضهم بعضا بل كانوا على تصويب بعضهم البعض.

وهناك قَوْل ثالث نقل عن أبي حنيفة وأصحابه وهو أن الحَقّ واحد عند الله ﷻ وكل مجتهد مصيب بحسب ما عنده وإن أخطأ في إصابة الحق، وإلى هَذَا ذهب المزني من أصحاب الشافعي. (حاشية ابن عابدين، ج7 ص 39، والبحر المحيط، ج8 ص 289).

(أنظر البحر المحيط للزركشي، ج8 ص 282 وما بعدها، قواطع الأدلة في الأصول للسمعاني، ج2 ص 309 وما بعدها، وفتح العلي المالك لعليش، ج1 ص 85، والإحكام لابن حزم، ج5 ص 68، والمعتمد لأبي الحسين البصري، ج2 ص 370 وما بعدها. . .).

(1) لأنه لا اجتهاد في مورد النص كما اتفق على ذَلِكَ علماء الأمة.

(2) هَذَا شريطة أن يَكُون النص المعاضد يقطع الخلاف، ويرفع المسألة من مرتبة الظن إِلَى مرتبة القطع، وإلا فالمسألة تبقى فيها سعة، وإن كَانَ النص المعاضد يرجح العمل بالمذهب الذي يؤيده.

(3) **[ذمّ التعصّب في الإسلام]**: سبق ذكر بعض النُّصُوص التي أُثِرت عن بعض الأيمة الأعلام من أصحاب المذاهب الذين أبطلوا العمل باجتهادهم إذا بلغهم الخبر عن =

. . . .

❁ ❁ ❁

= الصادق المصدوق ﷺ بخلافه، فهم الذين نصروا السنَّة ودعوا إِلَى اتباعها إيمانا منهم بأن الكلّ يُؤخذ من كلامه ويُرَدّ إلاَّ صاحب الرسالة ﷺ، ولم يثبت عن أحد من هؤلاء أنَّه ثبت عنده النص النبوي وتركه إِلَى رأي أو اجتهاد، ومن نقل عنهم ذَٰلِكَ فقد أعظم عليهم الفرية وهم براء منه ومن قوله.

وإذا كَانَ هَذَا حالهم مع أنفسهم فإنه يتوجب على المتعصِّب لهم بالاتباع أن يتعصَّب لهم فعلا؛ وذلك أنَّه إذا بلغه النص على خلاف قَوْل إمامه أن يتعصَّب لإمامه ويتبع الخبر ويدع قَوْل إمامه اتباعا له، فإن قيل له كيف ذَٰلِكَ؟ فليقل أليس إمامي قَالَ بأنكم إذا وجدتم الخبر على خلاف قولي فإني قد بدَّلت قولي إِلَى ما دلَّ عليه الخبر، فذاك هو عين التمذهب الحقّ، وأما ما سوى ذَٰلِكَ فلا هو من التمذهب ولا هو من هدي الإسلام في شيء.

ويتوجب في المقابل على المخالف ألاَّ يتعصَّب على إمام، وألاَّ يثلب في عدالته أو في علمه بمجرّد أن يجد الخبر على خلاف قَوْل ذَٰلِكَ الإمام، فهم الذين أجمعت الأمة قاطبة على عدالتهم، وعلى تقواهم، وعلى تحرِّيهم في اتباع الكتاب والسنة، وهدي الصحابة والسلف، فإحسان الظنِّ بهم هو الواجب فعله؛ كيف لا نحسن بهم الظن وقد بصموا أمارة ذَٰلِكَ في كلامهم، وأوجبوا لمن بعدهم من أتْباعهم اتباع الكتاب والسنة، وترك قولهم إذا كَانَ على خلافهما، بل شدَّدوا في ذلك، ومن هَذَا الباب يتوجب أن نطرق لهم أبوابا كثيرة لإعذارهم إذا تبين خطأ اجتهادهم، أو جاء اجتهادهم على خلاف الخبر، فهذا أقل ما يجب فعله نحوهم ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

فَصْـلٌ

المَوْتُ بِالأَجَلِ المَحْدُودِ وَلَوْ مَقْتُولا[1].

---

(1) **[مذهب أهل السنّة في أجلِ المقتول]**: قَالَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 145].

وقال أيضاً: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية: 61].

فالباري ﷻ خلق الخلائق وقدّر أرزاقها وآجالها في الأزل، فلا تأخذ نفس رزقا لم يكتبه الله لها، ولن تموت في أجل لم يقدَّر لها، فلكل أجل كتاب مقدّر، ولن يُقضى شيء إلاّ وفق ذَلِكَ القدر الأزلي، وأجل المرء هو الزمن الذي علم الله ﷻ أنه يموت فيه ذَلِكَ المرء وتنقطع حياته، وسواء أكان ذَلِكَ الموت بقبض الروح على المعتاد أم بسبب مرض أو قتل أو غرق أو غير ذَلِكَ من أسباب الموت فإنَّ ذَلِكَ هو نهاية الأجل المقدَّر للميت في الحياة الدنيا، وعلى هَذَا الاعتقاد مشى السلف والخلف من أهل السنة والجماعة ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

[دحض أقوال المعتزلة في أجل المقتول]: أما **المعتزلة** فاضطرب أمرهم في ذلك، فذهب جمهورهم إِلَى أن **المقتول تولّد موته من فعل القاتل**، فهو من أفعاله لا من فعل الله تعالى. وقالوا إنه لو لم يُقتل لعاش إِلَى أجله الذي قدره الله تعالى له، فالقاتل عندهم غيَّر بالتقديم الأجل الذي قدره الله تعالى للمقتول، وادَّعوا فيه ـ أي في تولده من فعل القاتل وبقائه لولا القتل ـ الضرورة كما ادعوها في تولّد سائر المتولِّدات وانتفائها عند انتفاء أسبابها، **واستشهدوا** على ذَلِكَ بذم القاتل والحكم بكونه جانيا، وَلَوْ كَانَ المقتول ميتا بأجله الذي قدره الله له لمات وإن لم يقتله، فهو أي القاتل لم يجلب حينئذ بفعله أمرا لا مباشرة ولا توليدا، فكان لا يستحق الذمّ لا عقلا ولا شرعا. =

. . . .

= **واستشهدوا** أيضاً بأنَّه ربما قُتل في الملحمة الواحدة ألوف ونحن نعلم بالضرورة أن موت الجمِّ الغفير في الزمان القليل بلا قتل مما تحكم العادة بامتناعه، ولذلك ذهب جَمَاعَة منهم إِلَى أنَّ ما لا يخالف العادة كما في قتل واحد وما يقرب منه واقع بالأجل منسوب إِلَى القاتل. فحكم العادة بالامتناع في الكثير دون القليل هو الذي حملهم على الفرق كيلا يلزمهم إبطال المعجزات إذا نسبوا الجميع إليه.

وذهب الكعبي من المعتزلة إِلَى أن **المقتول ليس بميِّت** لأن القتل فعل العبد والموت فعل الله ـ سبحانه ـ أي مفعوله وأثر صفته، وأن للمقتول أجلين؛ أحدهما القتل، والآخر الموت، وأنَّه لو لم يُقتل لعاش إِلَى أجله الذي هو الموت.

وذهب أبو الهذيل إِلَى أنَّ المقتول لو لم يقتل لمات البتَّة في ذَلِكَ الوقت. (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 247 ـ 248، وروح المعاني للألوسي، ج4 ص 76).

وهذا أعجب العجب من أهل الاعتزال والضلال، وكأنَّ الله ﷻ أوكلهم بأن يفصحوا عن مقاديره، ويفصِّلوا القول في علم غيبه على ما تمليه أهواؤهم وعقولهم، والعجب مِمَّنْ يجعل لجهالاتهم اعتبارا ويأخذ معهم في القول ويردّ بما لا طائل من ورائه، وعنده الجواب القاصم المختصر الباصم الذي يقطع اعتراض الجاهل المخاصم، فإنَّ أجال العباد قدَّرها الجليل في الأزل، منهم من قدرها له دون علة ولا سبب، ومنهم من قدرها له بالأسباب والعلل، فذلك بالمرض وذاك بالوباء وأولئك بالقتل. . . وكل ذَلِكَ بما قدّره العلي من الأجل في علمه السابق في الأزل.

فمن قَالَ منهم بأنَّ القاتل قد سبَّق للمقتول في الأجل ولولا ذَلِكَ لعاش إِلَى أجله الذي قدَّره الله ﷻ له، نقول له بأنَّ كلامك هَذَا ينقض بعضه بعضا؛ وبيانه أنك تحتج على كلامك بالقدر الذي هو من علم الله ﷻ وتقول بأنَّ زمان موت المقتول ليس هو الزمان الذي قدّره الله له في أجله، وإنما أجله أبعد من ذلك، فمن أدراك بأجله الذي هو من علم الباري ﷻ؟!

وإن سلَّمنا لك بعلمك الذي أطلعك الله إياه بأنَّ أجل المقتول أبعد من زمن القتل، هل لك أن تخبرنا متى ينقضي له الأجل الذي تعلمه؟؟؟!

كما أن مثل هَذَا القول مآله الكفر لأنه انتقاص من علم الباري وقدره ﷻ، لأنَّ القول بأنَّ أجل المقتول كَانَ أبعد من ذَلِكَ لو لم يُقتل يقتضي أن الله ﷻ قد قدَّر على وفق علمه أنَّ أجل فلان كَانَ في زمن كذا، لكنَّ فعل القاتل سبَّق الأجل بالقتل فوقع موته على غير ما قدّره الله وعلمه وهذا كفر بواح. =

وَعزْرَائِيلُ هُوَ مَلَكُ الْمَوْتِ قَابِضُ الأَرْوَاحِ بِإِذْنِ اللّهِ[1]، ....

= أما نحن ـ ولله الحمد والفضل ـ فنؤمن بأنَّ المقتول إذا مات علمنا بأن ذَلِكَ أجله الذي قدره الله ﷻ له وقضاه، فآمنا بالقضاء والقدر، وعلمنا بزمان انقضاء أجله، أما أولئك فلم يؤمنوا بالقضاء والقدر، ولم يعلموا متى سينقضي الأجل.

والقول بأن العادة لم تجر بموت الجم الكبير من الناس في الوقت القصير كما في الملاحم مما يمنع أن يَكُون جَمِيع من قضى فيها كَانَ أجله حينئذ. فجوابه من وجهين؛ **الأول** : أن مثل هَذَا الكلام يقوله مِمَّنْ لا إيمان له بالقضاء والقدر، أما من كَانَ يؤمن بذلك فالإشكال مرفوع لتسليمه بأن الله ﷻ قدَّر في الأزل بأنه سيموت هَذَا الجمّ الغفير في هذه الملحمة وقضى أمره على وفق ما قدَّر.

والثاني : أن العادة لا تمنع أصلا موت الجم الغفير من الناس في الزمن القصير، ودليل وقوعه الزلازل والأوبئة والفيضانات والمجاعات وغيرها فإن العادة جرت فيها بموت الجم الغفير في الزمن القصير وعرف الناس ذلك.

أما الاحتجاج بأن المقتول إذا كَانَ مات بأجله فلِمَ يُذَمُّ قاتله، أو يقتص منه، أو يغرم الديَّة. فالجواب عنه بأن ذَلِكَ غير متوجه إِلَى الموت وخروج الرُّوح، وإنَّما هو متوجِّه إِلَى الاعتداء والإقدام على الفعل المنهي عنه الذي يخلق الله به الموت كما في سائر الأسباب، لأنَّه لو ترك ذَلِكَ لعمَّ الدَّمار والفساد.

(1) **[ملك الموت هل هو عزرائيل؟]**: قَالَ تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة السجدة، الآية: 11]. هكذا ورد في الآية تسميته بملك الموت، وكذا في جَمِيع الأحاديث الصحيحة جاء تسميته بملك الموت، ولم يرد تسميته بعزرائيل فيما رفع من أخبار، وإنما ورد تسميته بذلك في بعض الآثار عن وهب بن منبه عند الأصبهاني في العظمة ("394" و"439") والله أعلم بصحتها.

وعلى الرغم من أنه اشتهر بعزرائيل في كتب الكثير من أهل العلم من السلف والخلف كالقرطبي وابن الجوزي وابن كثير وابن تيمية وابن القيم وغيرهم إلا أنَّ الشيخ الألباني نسب تسميته بعزرائيل إِلَى الإسرائيليات كما في شرح العقيدة الطحاوية، ص 72. والله أعلم.

وملك الموت إِنَّمَا هو موكّل من قبل الله ﷻ بقبض الأرواح وليس بمتصرف على انفراد، فلا يقبض نفسا إلاَّ بإذن الله ﷻ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 145]. =

= وأنكر جهم بن صفوان وأتباعه أن يَكُون ملك الموت يقبض الأرواح، وهذا إعراض سخيف عن مدلول القرآن الصريح.

[هل ملك الموت موكّل بقبض أرواح الحيوان وهوام الأرض؟]:

قال ابن عطية: في الجديث أن البهائم كلها يتوفى الله روحها دون ملك الموت. (تفسير ابن عطية، ج4 ص 360). ولم يذكر حديثا، وأظن أنه أراد الحديث المروي عن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ قَالَ: آجال البهائم كلها، وخشاش الأرض، والقمل، والبراغيث، والجراد، والخيل، والبغال، والدَّواب كلها، والبقر وغير ذلك، آجالها في التسبيح، فإذا انقضى تسبيحها قبض الله تعالى أرواحها، وليس إِلَى ملك الموت منها شيء. (رواه الأصبهاني في العظمة، ج5 ص 1736، قَالَ الحافظ في لسان الميزان، ج6 ص 227: وهذا منكر جدًّا).

وفي الأثر ما يدلُّ على أن ملك الموت هو الموكول بقبضها، من ذَلِكَ ما رواه الطبراني وغيره عن الحارث بن الخزرج الأنصاري عن أبيه أنه قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول ونظر النبي ﷺ إِلَى ملك الموت عليه السلام عند رأس رجل من الأنصار فقال: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن. فقال ملك الموت عليه السلام: طب نفسا وقر عينا، واعلم أنِّي بكل مؤمن رفيق. . . . والله يا محمد لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذَلِكَ حتى يَكُون الله هو أذن بقبضها. (الطبراني في الكبير "4188"، والشيباني في الآحاد والمثاني "2254"، وانظر مجمع الزوائد، ج2 ص 325).

ويؤيد هَذَا ما نقله سليمان بن مهير الكلابي أن مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ أتاه رجل فسأله فقال: يا أبا عبدالله، البراغيث، أَمَلك الموت يقبض أرواحها؟ قَالَ: فأطرق مالك طويلا ثُمَّ قَالَ: ألها أنفس؟ قَالَ نعم. قَالَ: ملك الموت يقبض أرواحها ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [سورة الزمر، من الآية: 42]. (تفسير القرطبي، ج14 ص 93).

قال إسحاق بن راهويه: " وأما قبض أرواح السباع والبهائم، وسائر الداوب، فإنَّ بقية بن الوليد أخبرنا في حديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سئل عن أرواح البهائم من يقبضها؟ فقال: ملك الموت ﷺ.

وقد ذكر في حديث آخر أنها أنفاس تخرج. وكلٌّ قد جاء، وليس على المتعلم في مثل هَذَا أو شبهه مضرة، إلا أن يَكُون سقط عليه، بل يؤدِّي ما سمع كما سمع، فأما أن يحكم بأمر ليس بمجمع عليه، فليس ذَلِكَ له ". (مسائل الإمام أحمد وابن راهويه للمروزي "3534").

وَلَهُ مَلاَئِكَةٌ أَعْوَانٌ[1].

---

(1) [لملك الموت أعوان من الملائكة]: دلَّ القرآن على أن لملك الموت ملائكة أعوان يتصرفون بأمره في قبض الأنفس، قَالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية: 61]، قَالَ ابن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾: أعوان ملك الموت من الملائكة. (ابن أبي شيبة "34782"، وتفسير الطبري، ج7 ص 217).

وعنه أيضاً قَالَ: الرسل توفي الأنفس ويذهب بها ملك الموت.

وقال قتادة في تفسير الآية: يلي قبضها الرسل ثُمَّ يدفعونها إِلَى ملك الموت.

وبمثل قَوْل ابن عباس وقتادة قَالَ مجاهد وإبراهيم والربيع بن أنس وغيرهم. (أنظر أقوالهم بأسانيدها في: تفسير الطبري، ج7 ص 217، وتفسير عبدالرزّاق، ج2 ص 209، والدر المنثور، ج3 ص 281).

قال ابن جرير في وجه الجمع بين الآيات في هَذَا الموضع: " فإن قَالَ قائل: أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت؟ فكيف قيل توفته رسلنا، والرسل جملة وهو واحد، أو ليس قد قَالَ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾؟ قيل: جائز أن يَكُون الله تعالى أعان ملك الموت بأعوان من عنده فيتولّون ذَلِكَ بأمر ملك الموت، فيكون التوفي مضافا وإن كَانَ ذَلِكَ من فعل أعوان ملك الموت إِلَى ملك الموت إذ كَانَ فعلهم ما فعلوا من ذَلِكَ بأمره، كما يضاف قتل من قتله أعوان السلطان، وجلد من جلدوه بأمر السلطان إِلَى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذَلِكَ بنفسه ولا وليه بيده، وقد تأول ذَلِكَ كذلك جَمَاعَة من أهل التأويل ". (تفسير الطبري، ج ص 216).

ومع ذَلِكَ يجوز أن يمكِّن الله ﷻ لملك الموت وييسر له في المهمَّة الموكولة إليه بقدرة عجيبة، يؤيد ذَلِكَ ما رواه سماك الحنفي أنَّه لقي عبدالله بن عباس - ﷺ - في المدينة بعدما كف بصره قَالَ: قلت يا ابن عباس، ما تقول في أمر غمَّني واهتممت به؟ قَالَ: ما هو؟ قلت: نفسان اتفق موتهما في طرفة عين، واحد في المشرق وواحد في المغرب، كيف قدر عليهما ملك الموت؟ قَالَ: والذي نفسي بيده ما قدرة ملك الموت على أهل المشارق والمغارب، والظلمات والنور والبحور، إلا كقدرة الرجل على مائدته يتناول من أيها شاء. (العظمة للأصبهاني "432").

س ـ مَاذَا يُفْعَلُ بِالْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ؟

ج ـ إِمَّا فِي نَعِيمٍ وَإِمَّا فِي عَذَابٍ[1].

---

(1) **[للقبر نعيم وعذاب عند أهل السنة]**: نعيم القبر وعذابه من المسائل المسلَّم بها في عقيدة أهل السنة والجماعة، ودلَّت عليه الآيات القرآنية وبلغت فيه الآثار حدَّ التواتر، فالمرء عندهم إذا مات يَكُون إما في نعيم وإما في عذاب، وأن ذَلِكَ يحصل لروحه وبدنه معا، وأنَّ الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنَّها تتصل بالبدن أحيانا، ويحصل له معها النعيم أو العذاب. (انظر كتاب الروح لابن القيم، ص 52).

ومن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة غافر، الآية: 46]، فالآية دلَّت على أنَّ آل فرعون حاق بهم العذاب في القبر قبل البعث، فهم يعرضون على النَّار في الصبح والعشي، والعذاب الشديد ينتظرهم يوم القِيَامَة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة طه، الآية: 124]، روى ابن حبان بسند جيِّد عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ في قوله ﷻ: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: عذاب القبر. ورواه الحاكم وصححه على شرط مسلم عن أبي سعيد الخدري مرفوعا. (ابن حبان "3119"، والحاكم "3439").

وقال أبو سعيد الخدري ﷺ في تفسيرها: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه. (تفسير الطبري، ج16 ص 227).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة التوبة، الآية: 101]، فتوعَّد الله المنافقين في هذه الآية بعذاب الدنيا وعذاب القبر، ثُمَّ يردُّ إِلَى العذاب العظيم في الآخرة، قَالَ أبو مالك في تفسير قوله ﷻ في الآية ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: كَانَ رسول الله ﷺ يخطب فيذكر المنافقين فيعذبهم بلسانه، قَالَ وعذاب القبر. وقال مجاهد: بالجوع وعذاب القبر، قَالَ: ثُمَّ يردون إِلَى عذاب عظيم يوم القِيَامَة.

وبمثل قولهم قَالَ قتادة والحسن وابن جريج وابن إسحاق. (تفسير الطبري، ج11 ص 10 ـ 11، والدر المنثور، ج4 ص 274). =

. . . .

= وإذا كَانَ هَذَا حال الكافر وما يلاقيه في قبره من العذاب والخزي والشقاوة بسبب ما اجترحه من السيئات في الدنيا، فإنَّ الحال يختلف بالنسبة للمؤمن الصادق فإنّه ينعَّم في قبره قَالَ تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الواقعة، الآيتين: 88 ـ 89]، فالموت مستراح للمؤمن من نصَب الدنيا، وريحان نسيم طيب يلقاه في قبره، وجنة نعيم مدخرة له يوم القِيَامَة. (أنظر الدر المنثور للسيوطي، ج8 ص 36 وما بعدها).

والأحاديث الواردة في نعيم القبر وعذابه كثيرة جدًا جمع الحافظ البيهقي فيها كتابا نفيسا سمَّاه "إثبات عذاب القبر"، وقد كَانَ من أمر عذاب القبر أنَّ النبي ﷺ لم يوحى إليه فيه بشيء، وكانت اليهود تعرفه في كتابهم، فلمّا أفصحوا عنه أنكره النبيّ أول الأمر حتى نزل إليه فيه شيء من الوحي فكان يكثر أن يستعيذ منه، فروى الإمام أحمد وغيره بسند على شرط البُخَارِي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: "وقاك الله عذاب القبر". قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت يا رسول الله: هل للقبر عذاب قبل يوم القِيَامَة. قَالَ: «لا وعمَّ ذاك». قالت: هذه اليهودية لا نصنع إليها من المعروف شيئا إلا قالت: "وقاك الله عذاب القبر". قَالَ: «كذبت يهود وهم على الله ﷻ أكذب، لا عذاب دون يوم القِيَامَة». قالت: ثُمَّ مكث بعد ذاك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النَّهار مشتملا بثوبه محمرَّة عيناه وهو ينادى بأعلى صوته: «أيها الناس؛ أظلتكم الفتن كقطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حَقّ». (مسند أحمد "24564"، وصححه الحافظ في الفتح على شرط البخاري، ج3 ص 236).

ويؤيد هذه الرواية ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: "هل شعرت أنكم تفتنون في القبور". قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنَّمَا تفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالي ثُمَّ قَالَ رسول الله ﷺ: «هل شعرت أنَّه أوحي إليَّ أنَّكم تفتنون في القبور». قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر. (صحيح مسلم "584"، والنسائي في المجتبى "2064"، وأحمد "26148").

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرض =

وَسُؤَالُ المَلَكَيْنِ[1] حَقٌّ بَعْدَ أَنْ تَرْجِعَ لَهُ حَيَاةٌ يَفْهَمُ بِهَا الخِطَابَ، وَيَرُدُّ الْجَوَابَ[2].

وَيُقْعِدَانِهِ فِي قَبْرِهِ وَيَسْأَلاَنِهِ عَنْ دِينِهِ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُجِيبُ بِاعْتِقَادِهِ فَيُنَعَّمُ وَيُقَالُ لَهُ: نَمْ نَوْمَةَ عَرُوسٍ فَيَكُونُ فِي أَحْلَى نَوْمَةٍ نَامَهَا أَحَدٌ حَتَّى يُبْعَثَ.

= عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، إنْ كَانَ من أهل الجنة فمن أهل الجنَّة، وإنْ كَانَ من أهل النَّار فمن أهل النَّار، فيقال: هَذَا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القِيَامَة». (البُخَارِي "1313"، ومسلم "2866"، وابن حبان "3130"، والترمذي "1072").

فكان الرسول ﷺ يكثر في دعائه أن يستعيذ من عذاب القبر ويعلِّم أصحابه أن يكثروا من الاستعاذة منه، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: " كَانَ رسول الله ﷺ يستعيذ من عذاب القبر، ومن فتنة الدَّجَّال، وقال: «إنكم تفتنون في قبوركم». (النسائي في الكبرى "2192").

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهّد الآخر فليتعوذ بالله من أربع؛ من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شرِّ المسيح الدَّجَّال». (مسلم "588"، وابن حبان "1967"، والدارمي "1344").

(1) **[سؤال الملكين عند أهل السنة والمعتزلة]**: ورد في حديث ابن حبان والترمذي أن اسم الملكين الذين يسألان الميت في قبره هما المنكر والنكير كما في الترمذي وابن حبان، وعند الطبراني وغيره منكر ونكير، وقال البعض أنَّ اسم اللذين يسألان المذنب منكر ونكير، وأن اسم اللذين يسألان المطيع مبشر وبشير. (فتح الباري، ج3 ص 237).

وأنكر سؤال الملكين ضرار بن عمرو وبشر المريسي وأكثر متأخري المعتزلة، أما الجبائي وابنه والبلخي فأنكروا تسمية الملكين بمنكر ونكير وقالوا بأنَّ المنكر ما يصدر من الكافر عند تلجلجه إذا سئل، والنكير هو تقريع الملكين له. وهؤلاء محجوجون بما صح من الأخبار، وما أجمع عليه السلف الأخيار.

(2) قَالَ في الفواكه الدواني، ج1 ص 98: " يجب بالشرع اعتقاد أن الموتى تُسأل في قبورها، لكن بعد أن تحيا بردِّ الروح إِلَى جَمِيع البدن ورُجِّحَ، وقيل إِلَى النِّصف الأعلى، ويُردُّ إليها ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتَّى معه رَدُّ الجواب من العقل والعلم، لأن تلك الحياة ليست كالحياة المعهودة، ثُمَّ تُسْأَل. . .".

وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي فَيُعَذَّبُ[1]، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(1) روى الترمذي وابن حبان وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إذا قُبِر الميِّت أو قَالَ أحدُكم أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هَذَا الرجل؟ فيقول ما كَانَ يقول: هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنَّا نعلم أنك تقول هذا. ثُمَّ يُفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين، ثُمَّ ينوَّر له فيه، ثُمَّ يقال له نم، فيقول: أرجع إِلَى أهلي فأخبرهم. فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإنْ كَانَ منافقا قَالَ: سمعت الناس يقولون فقلت مثله لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنَّك تقول ذلك. فيقال للأرض التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذَلِكَ». (الترمذي بلفظه "1071"، وابن حبان "3117"، والحارث في مسنده - زوائد الهيثمي - "280"، وصححه الألباني في صحيح الترمذي).

وفي حديث طويل يرفعه البراء بن عازب ﷺ إِلَى النبي ﷺ في العبد المؤمن لما يُقْبر قَالَ: «... فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربِّي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هَذَا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إِلَى الجنة. قَالَ: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره. قَالَ: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثِّياب، طيِّب الرِّيح فيقول: أبشر بالذي يسرّك، هَذَا يومك الذي كنت تُوعد. فيقول له: مَنْ أنت، فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: ربِّ أقم الساعة حتى أرجع إِلَى أهلي ومالي...» وقال في العبد الكافر: «... فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: مَنْ ربُّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هَذَا الرَّجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النَّار، وافتحوا له بابا إِلَى النَّار، فيأتيه من حرِّها وسمومها، ويضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الرِّيح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، =

. . . .

= هَذَا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشرِّ؟ فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: ربِّ لا تقم الساعة». (مسند أحمد، ج4 ص 287، والبيهقي في شعب الإيمان "395"، وابن أبي شيبة في المصنف "12059" وصححه الألباني في المشكاة "1630").

وعن أنس بن مالك ﵁ قَالَ: إن نبي الله ﷺ دخل نخلا لبني النجَّار فسمع صوتا ففزع، فقال: «مَنْ أصحاب هذه القبور؟». قالوا: يا رسول الله، ناس ماتوا في الجاهلية. فقال: «تعوَّذوا بالله من عذاب النَّار، ومن فتنة الدَّجَّال؟». قالوا: وممَّ ذاك يا رسول الله؟ قَالَ: «إنَّ المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك فيقول له: ما كنت تعبد؟ فإن الله هداه قَالَ: كنت أعبدالله. فيقال له: ما كنت تقول في هَذَا الرجل؟ فيقول: هو عبدالله ورسوله. فما يُسأل عن شيء غيرها، فينطلق به إِلَى بيت كَانَ له في النَّار فيقال له: هَذَا بيتك كَانَ لك في النَّار ولكن الله عصمك ورحمك فأبدلك به بيتا في الجنة. فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشِّر أهْلي. فيقال له: اسكن. وإنَّ الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره فيقول له: ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: لا دَرَيْت ولا تَلَيْت. فيقال له: فما كنت تقول في هَذَا الرجل؟ فيقول: كنت أقول ما يقول النَّاس. فيضربه بمِطْراق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين». (أبو داود "4751"، وأحمد "13472"، وصححه الألباني في صحيح أبي داود).

[هل تطال فتنة القبر الكافر؟]: انفرد الإمام ابن عبدالبر - ﵀ - بالقول بأن فتنة القبر لا تطال إلاَّ المؤمن والمنافق، أما الكافر فلا شأن له بذلك وإنما يعذب في قبره. قَالَ في التمهيد، ج22 ص 252: " الآثار الثابتة في هَذَا الباب إِنَّمَا تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق، مِمَّنْ كَانَ في الدنيا منسوبا إِلَى أهل القبلة ودين الإسلام مِمَّنْ حقن دمه بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس مِمَّنْ يُسأل عن ربِّه ودينه ونبيِّه وإنَّما يُسأل عن هَذَا أهل الإسلام والله أعلم ".

وما سبق ذكره من الآثار الصحيحة التي دلَّت على أنَّ المؤمن والكافر والمنافق كلهم يُسْألون في القبر، وهذا كاف في الجواب عن اعتراض الإمام ابن عبدالبرّ والله أعلم.

[عموم عذاب القبر للأمم السالفة]: وهناك مسألة أخرى أثارها بعض أهل العلم، وهو هل سؤال القبر مختص بهذه الأمَّة، أم هو عام في الأمم التي قبلنا؟ =

. . . .

= فذهب الحكيم الترمذي إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مختص بهذه الأمَّة وحدها، قَالَ في نوادر الأصول، ج3 ص 227 ـ 228: " وإنَّما سؤال الميِّت في هذه الأمَّة خاصَّة لأنَّ الأمم قبلها كانت الرُّسل تأتيهم بالرِّسالة، فإذا أبوا كفَّت الرسل فاعتزلت وعوجلوا بالعذاب، فلمَّا بعث الله محمدا ﷺ بعثه بالرَّحمة، وأمانا للخلق، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 107]، فأمسك عنهم العذاب، وأُعطي السَّيف حتَّى يدخل في الإسلام مَنْ دخل لمهابة السيف، ثُمَّ يرسخ في قلبه، فأُمهلوا فمِنْ ههنا ظهر أمرُ النِّفاق فكانوا يُسرُّون الكفر ويعلنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين في سِتْر، فلمَّا ماتوا قيِّض لهم فتَّاني القبر ليستخرجا سرَّهم بالسؤال. . . ".

وقال آخرون منهم عبد الحَقّ الأشبيلي والقرطبي وغيرهم أنَّ سؤال القبر لهذه الأمَّة وغيرها. (العاقبة في ذكر الموت، لعبد الحَقّ الأشبيلي، ص 246).

والذي نراه استخلاصا ممَّا سبق ذكره من صحيح الأخبار وغيرها مما لم نذكره أن السؤال لهذه الأمة وغيرها مِمَّنْ سبقها من الأمم، ودليل ذَلِكَ أنَّ اليهود كانوا يعرفون ذَلِكَ في كتابهم، وقد ذكرنا حديث اليهودية التي أخبرت عائشة بفتنة القبر، وهناك أحاديث أخرى في الصحيحين وغيرهما، وأصرح من ذَلِكَ كلِّه حديث أنس ﷺ الذي سبق ذكره، فقد كانت القبور التي مرّوا عليها مع رسول الله ﷺ وأخبرهم بأنهم يعذَّبون لناس ماتوا في الجاهلية، ثُمَّ حدَّثهم ﷺ عن سؤال الملكين للمؤمن والكافر ليُعْلم أنَّ فتنة القبر عامَّة لمن مات في الجاهلية أو في الإسلام، وتشمل المؤمن والكافر على حدٍّ سواء والله أعلم.

[هل سؤال القبر يقع على الروح والبدن أم على أحدهما؟]: ذهب ابن جرير وجماعة من الكراميَّة إِلَى أنَّ السؤال في القبر يقع على **البدن فقط**، وأن الله ﷻ يخلق فيه إدراكا بحيث يسمع ويعلم ويَلَذُّ ويَأْلَم.

وذهب ابن حزم وابن هبيرة إِلَى أنَّ السؤال يقع على **الرُّوح فقط**، وحجَّتهم أن الميت قد يشاهَد في قبره حال المسألة لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، فالمقبور كالمصلوب. وجوابهم أن كلامهم ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة وهو النائم؛ فإنَّه يجد لذَّة وألمًا لا يدركه جليسه، بل اليقظان قد يدرك ألما أو لذة لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يدرك ذَلِكَ جليسه، وإنما أتى غلط هؤلاء من قياس الغائب على الشاهد، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله. =

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾[1].

= وخالفهم الجمهور فقالوا: تعاد الرُّوح إِلَى الجسد أو بعضه كما ثبت في الحديث، وَلَوْ كَانَ على الرُّوح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص، ولا يمنع من ذَلِكَ كون الميِّت قد تتفرق أجزاؤه لأنَّ الله قادر على أن يعيد الحياة إِلَى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال، كما هو قادر على أن يجْمع أجزاءَه. (بتصرف من فتح الباري لابن حجر، ج3 ص 235، والفواكه الدواني للنفراوي المالكي، ج1 ص 96).

(1) **[يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت]**: سورة إبراهيم، من الآية: 27. روى البُخَارِي وغيره عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «المسلم إذا سُئِل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾». (البُخَارِي "4422").
قال قتادة في تفسير هذه الآية: بلغنا أن هذه الأمة تسأل في قبورها، فيثبِّت الله المؤمن حيث يُسأل. (تفسير الطبري، ج13 ص 217).
والمعنى الذي سبق ذكره مشمول بالآية بلا خلاف، لكن الآية أوسع من أن يُقصر معناها على سؤال القبر، فإذا كَانَ القبر من منازل الآخرة وقد شملته الآية، فما معنى التثبيت في الحياة الدنيا وهو كذلك مذكور في الآية؟ ولا شك أن تثبيت الله ﷻ للمؤمنين في الدنيا إِنَّمَا يَكُون على كلمة التوحيد، والإيمان، والعمل الصالح، وعدم الوقوع في الزلل المهلك، وهذا الثبات يؤول بصاحبه إِلَى الثبات في القبر عند السؤال، وكذا عند الحشر بفضل الله تعالى.
وأمَّا الكافر فلا يوفقه الله ﷻ إِلَى إيمان، ولا عمل صالح في الدنيا، ولا عند سؤال القبر، وفي الآخرة عذاب شديد، نسأل الله الثبات والعافية.
قال ابن جرير - رَحِمَهُ اللهُ - في معنى الآية: " والصواب من القول في ذَلِكَ ما ثبت به الخبر عن رسول الله في ذلك؛ وهو أنَّ معناه ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك تثبيته إيَّاهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد، وفي الآخرة بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله، وأمَّا قوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ فإنَّه يعني أنَّ الله لا يوفِّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عند المسألة في القبر لما هدى له من الإيمان المؤمن بالله ورسوله ".

لاَ بُدَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ تَفَرَّقَ جَسَدُهُ فِي أَمَاكِنَ مُتَبَاعِدَةٍ فَاللهُ قَادِرٌ أَنْ يُذِيقَهُ ذَلِكَ كَيْفَمَا كَانَ[1].

وَقَوْلُ المَلاَحِدَةِ: نَفْتَحُ الْقَبْرَ فَلاَ نَجِدُ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، جَهَالَةٌ، لأَنَّ اللّهُ يَسْتُرُهَا، وَلَوْ بَرَزَتْ أُمُورُ الآخِرَةِ لِلأَحْيَاءِ لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ الْبَارِي تَعَالَى فِي سَعَادَةِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ، وَشَقَاوَةِ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ[2].

---

(1) **[هل تطال فتنة القبر من عُدم جسده في الدنيا؟]**: الله سبحانه وتعالى لا يعجز عنه شيء، وما من أحد إلاَّ وهو وارد على فتنة القبر، والوقوف أمام الربِّ يوم الحشر، وكلّ هَذَا إنما هو من الغيب الذي لا يعلمه إلاَّ علاَّم الغيوب.

فإن قَالَ قائل: نسلِّم هَذَا في دفين القبر، فكيف يحصل هَذَا لمن نهشه الحوت في البحر، أو الحريق الذي استحال غبارًا ذُرَّ في البرِّ؟ قيل بأنَّ من كَانَ هَذَا شأنه فالله أعلم بأمره، فالقدير قادر على جمعه كما قدر على خلقه، أو يحاسبه على ذَلِكَ كَأَنَّهُ مقبور في القبر، ولا شك أنَّه وارد على هَذَا الأمر.

وفي ذَلِكَ ورد خبر صحيح عن حذيفة رضي الله عنه قَالَ: أمر رجل أهله إذا مات أن يحرقوه ثُمَّ يدقُّوه ثُمَّ يذرُّوه في يوم رائح عاصف، ففعلوا فجُمع إِلَى ربِّه - جل وعز - فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: لم يكن لك يا رب عبد أعصى لك منِّي، فرجوت أن أنجو. فقال: تجاوزوا عن عبدي، فغفر له. فقال أبو مسعود: هكذا سمعته مِنْ في رسول الله صلى الله عليه وسلم. (الطبراني في الكبير بلفظه "648"، وأحمد في المسند، ج4 ص 118).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أسرف رجل على نفسه، فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا متُّ فاحرقوني ثُمَّ اسحقوني ثُمَّ أذْروني في الرِّيح في البحر، فوالله لئن قدر عليَّ ربِّي ليعذبني عذابا ما عذَّبه به أحدا. قَالَ: ففعلوا ذَلِكَ به. فقال: للأرض أدي ما أخذتِ، فإذا هو قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا ربِّ، أو قَالَ مخافتك. فغفر له بذلك». (صحيح مسلم "2756"، والطبراني في الأوسط "5363").

(2) **[دحض قول الملاحدة في إنكار عذاب القبر]**: قول **الملاحدة** الذي نقله المصنف - رحمه الله - سخافة لا مرية فيها، فمن احتجَّ بحجَّة كتلك لزمه أن ينكر وجود الموت أصلا، وإلاَّ فكيف يصدق بوجود شيء اسمه الروح أصلا، وإذا قَالَ بوجودها هل لهه أن يرشدنا إليها وأن يخبرنا كيف خرجت ومَنْ أخرجها ولماذا، وما صفتها، =

س ـ مَا الْبَرْزَخُ؟

ج ـ هُوَ عَالَمٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَوْجُودٌ الآنَ[1]، ....

= وما الذي تغيَّر في جسد الميت قبل سكونه وبعده، ولا ريب أنه سيعجز عن الجواب وآل أمره إِلَى أن أقام الحجة على نفسه من غير أن يشعر، فمن كَانَ لا يدرك روح من يمشي معه ويكلمه ويأتمنه ويعامله في الدنيا، فكيف يدركها إذا حجب عنه وصار في عالم الآخرة.

وآفة ذَلِكَ كله هو قياس الغائب على الشاهد، وهذا لا يستقيم من جهة العقل والنقل. وإنما جهل هؤلاء حكمة الباري ﷻ في تغييب هَذَا الأمر؛ فتغييبه لسؤال القبر وعذابه هو من رحمته ﷻ بالخلق لفضاعة الموقف وشدَّته، فلو أسمعهم إيَّاه لما راق لأحد شيء من الدنيا، ولم يطِبْ له شيء منها، ولترهبنّ نفسه من الأمر حتى يَهلك، وقد أشار إِلَى ذَلِكَ نبي الرحمة ﷺ بقوله: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر». (مسلم "2868"، وأحمد "12831"، وأبو يعلى "2996").

وحكمة أخرى وهو أنَّ جعل هَذَا الأمر من الغيبيات اختبار لمدى التصديق عند أهل الحق، وإقامة للحجة على المكذِّب، وخاصة أنَّ أكثر أمور الإيمان اعتقادات باطنة منَّا لأمور غائبة عنَّا، وهي أعلى صفات أهل الإيمان، وذلك غائب عنا في الحياة الدنيا، ونحن نعلمه عن الله علم اليقين، فإذا خرجنا من هذه الدار صار ذَلِكَ الغيب شهادة. (معارج القبول، للحافظ الحكمي، ج2 ص 716 بتصرف).

(1) **[معنى البرزخ]**: البرزخ في اللغة هو الحاجز بين الشيئين، ومنه قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [سورة الرحمن، الآيتين: 19 ـ 20]، وسميت الفترة بعد الموت بالبرزخ لكونها تحجز بين الدنيا والآخرة، قَالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [سورة المؤمنون، الآيتين: 99 ـ 100]، أي من وراء موته حياة برزخية حتى يوم البعث.

وفتنة القبر، وسؤال الملكين، وتنعيم المؤمن، وتعذيب الكافر والمنافق كلّ ذَلِكَ متضمن في فترة الحياة البرزخية، قَالَ ابن القيم ـ رحمه الله ـ: " وأما البرزخ فأوَّل دار الجزاء، فظهر فيها من ذَلِكَ ما يليق بتلك الدار، وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كَانَ يوم القِيَامَة الكبرى، وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما =

وَفِيهِ مُسْتَقَرُّ الأَرْوَاحِ وَمَا شَاءَ اللّهُ[1].

= يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما، فعذاب البرزخ ونعيمه أوَّل عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتقّ منه وواصل إِلَى أهل البرزخ هناك كما دلَّ عليه القرآن والسنَّة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة؛ كقوله ﷺ: «فيفتح له باب إِلَى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها» وفي الفاجر: «فيفتح له باب إِلَى النَّار فيأتيه من حرِّها وسمومها»، ومعلوم قطعا أنَّ البدن يأخذ حظَّه من هَذَا الباب كما تأخذ الرُّوح حظَّها، فإذا كَانَ يوم القِيَامَة دخل من ذَلِكَ الباب إِلَى مقعده الذي هو داخله، وهذان البابان يصل منهما إِلَى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغواشي الحسِّية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه، ولا يحسن التعبير عنه، فوجود الشَّيء غير الإحساس به والتعبير عنه، فإذا مات كَانَ وصول ذَلِكَ الأثر إليه من ذينك البابين أكمل، فإذا بعث كمل وصل ذَلِكَ الأثر إليه، فحكمة الربِّ تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث ". (الروح لابن القيم، ص 74).

(1) **[مستقرّ ارواح الشهداء]**: المتفق عليه عند أهل السنة والجماعة أن ملك الموت يقبض الأرواح بأمر الله ﷻ، وتنفصل هذه الروح عن الجسد الذي كَانَ حيًّا بوجودها فيه، كما اتفقوا بأنّها تستقر في عالم البرزخ بعد قبضها من جسد صاحبها، واتفقوا على أن على أن مستقرَّ أرواح الشهداء في الجنة مع اختلاف طفيف في صورتها:

فعن ابن مسعود ﷺ قَالَ: " أرواح الشهداء عند الله ﷻ كطير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت ". (المعجم الكبير للطبراني "9023").

وذكر معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين؟ فقال: " بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر، معلقة بالعرش، تغدو وتروح إِلَى رياض الجنة، تأتي ربَّها كلَّ يوم تسلم عليه ". (الآيات البينات للألوسي، ص 80).

وقال قتادة: " بلغنا أن أرواح الشهداء في صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة ".

وقال مجاهد: " ليس هي في الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها ". (تفسير مجاهد، ج1 ص 92، وتفسير الطبري، ج2 ص 39، والتمهيد، ج11 ص 63). =

....

= وروى عبدالله ابن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس يقول: " أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة ". (مصنف عبدالرزّاق "9557"، و سنن سعيد بن منصور "2561"، والتمهيد لابن عبدالبر، ج11 ص 63).

وعن ابن عباس ﷺ عن كعب أنَّه قَالَ: " جنة المأوى فيها طير خضر ترتقي فيها أرواح الشهداء ". (الجهاد لابن المبارك "61"، ومصنف ابن أبي شيبة "34116").

وقد صحَّ في هذه الأقوال ما يؤيدها من الحديث المرفوع، أمَّا من قَالَ بأنَّها في **جوف طير** فدليله ما رواه مسروق قَالَ: سألنا عبدالله هو ابن مسعود عن هذه الآيــة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 169]. قَالَ أما إنا قد سألنا عن ذَلِكَ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثُمَّ تأوي إِلَى تلك القناديل...». (رواه مسلم "1887"، وأبو عوانة "7370"، والحميدي "120").

أمَّا من قَالَ بأنَّها في **صورة طير** فدليله رواية ابن ماجة لحديث ابن مسعود السابق فذكر فيه أنَّ «أرواحهم كطير خضر» (سنن ابن ماجة "2801" وصححه الألباني).

ويؤيده ما رواه عبدالرزّاق عن عبدالله بن كعب بن مالك قَالَ: قَالَ النبي ﷺ: «أرواح الشهداء في صور طير خضر معلقة في قناديل الجنة يرجعها الله يوم القِيَامَة». (المصنف "9556"، وهو مرسل، ووصله الترمذي عن عبدالله بن كعب عن أبيه "1641" وصححه الألباني).

لذا قَالَ أبو عمر بن عبدالبر جمعا بين الروايات: " أرواح الشهداء كطير أو كصورة طير في الجنة ". (التمهيد، ج11 ص 64).

[اختلاف أهل السنة في مستقرّ أرواح عامة المؤمنين والكفار]: أمَّا عامة أرواح المؤمنين والكفَّار فقد اختلفوا اختلافا بيِّنًا في مكان مستقرِّها:

فمنهم من قَالَ بأنَّ مستقرّها بالأرض، وهؤلاء اختلفوا في مكانها:

فقالت طائفة من الصحابة والتابعين: إن أرواح المؤمنين **بالجابية** ـ قرية من ناحية الجولان شمالي حوران ـ وأرواح الكفَّار **ببرهوت** ـ بئر بحضرموت ـ. (الآيات البينات، ص 75).

قتادة قَالَ: حدثني رجل عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن عمرو قَالَ: "إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية، وأما أرواح الكفَّار فتجتمع بسبخة بحضرموت =

. . . .

= يقال له برهوت ". خرجه ابن منده، ورواه هشام الدستوائي عن قتادة عن سعيد بن المسيب من قوله ولم يذكر عبدالله بن عمرو. (الأهوال لابن رجب "407").
وفي صحيح ابن حبان "3013" عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن عمرو قَالَ: " أرواح المؤمنين تجمع بالجابيتين، وأرواح الكفَّار تجمع ببرهوت، سبخة بحضرموت ".
وعن شهر بن حوشب إن كعباً رأى عبدالله بن عمرو وقد تكالب الناس عليه يسألونه، فقال لرجل سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفَّار فسأله فقال: "أرواح المؤمنين بالجابية، وأرواح الكفَّار ببرهوت ". (الأهوال "409"، والروح، ص 106).
وعن أبي الطفيل عن علي ﷺ قَالَ: " . . . وشرُّ بئر في الناس بلهوت وهي بئر في برهوت تجتمع فيه أرواح الكفَّار ". (مصنف عبدالرزّاق "9118").
وعن ابن عباس عن علي قَالَ: أبغض بقعة في الأرض واد بحضرموت يقال له: برهوت فيه أرواح الكفَّار، وفيه بئر ماءه في النَّار أسود كَأَنَّهُ قيح تأوي إليه الهوام. (الأهوال "409").
ذكر الأصمعي عن رجل من أهل برهوت ـ يعني البلد الذي فيه هذه البئر ـ قَالَ: " نجد الرَّائحة المنتنة الفظيعة جدًّا ثُمَّ نمكث حينا فيأتينا الخبر بأنَّ عظيما من عظماء الكفَّار قد مات، فنرى أنَّ تلك الرائحة منه ". وقال ابن عيينة: أخبرني رجل أنَّه أمسى ببرهوت فكأنَّ فيه أصوات الحاج. وسألت أهل حضرموت فقالوا: لا يستطيع أحد أن يمسي به. (غريب الحديث لابن قتيبة، ج2 ص 114).
وقالت طائفة : أرواح المؤمنين **ببئر زمزم**، وأرواح الكفَّار **ببئر برهوت**. (الأهوال "412").
قال ابن رجب: " ورجحت طائفة من العلماء أن أرواح الكفَّار في بئر برهوت، منهم القاضي أبو يعلى من أصحابنا في كتابه المعتمد، وهو مخالف لنص أحمد أن أرواح الكفَّار في النَّار. ولعلَّ لبئر برهوت اتصالاً في جهنم في قعرها كما روي في البحر أن تحته جهنم والله أعلم". (الأهوال لابن رجب "412").
وقال صفوان بن عمرو: سألت عامر بن عبدالله اليماني: هل لأنفس المؤمنين مجمَع؟ فقال: يقال إن الأرض التي يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 105] =

= هي الأرض التي تجتمع أرواح المؤمنين فيها حتى يَكُون البعث. قَالَ الحافظ ابن رجب: " خرجه ابن منده وهذا غريب جدًا وتفسير الآية بذلك ضعيف ". (الأهوال "413"، وتفسير الطبري، ج17 ص 105).

والصحيح في تفسيرها قَوْل من قَالَ من المفسرين بأنها الجنَّة أو أرض الجنة، وهو قَوْل سعيد بن جبير ومجاهد وأبي العالية، ورواية عن ابن عباس، واختاره الطبري.

وفي رواية عن ابن عباس: أنها أرض الأمم الكافرة التي أورثها الله أمة محمد ﷺ. واختاره ابن القيم. (تفسير الطبري، ج17 ص 104 ـ 105، والروح، ص 107).

وقال أبو موسى الأشعري: **روح الكافر بوادي حضرموت** في أسفل الثرى من سبع أرضين. (الأهوال "388"، والروح، ص 104).

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: " أرواح الكفَّار في الأرض السابعة ". (التخويف من النَّار لابن رجب، ص 46).

وقال جَمَاعَة : أرواح عامة المؤمنين على **أفنية القبور**، وهو الذي رجحه ابن عبدالبر. (التمهيد، ج14 ص 109).

وقال سلمان الفارسي : " أرواح المؤمنين في **برزخ من الأرض** تذهب حيث شاءت، ونفس الكافر **في سجين** ". (الزهد لابن المبارك "429").

قال ابن القيم: " وكأنَّ سلمان أراد بها في أرض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك تذهب حيث شاءت، وهذا قَوْلٌ قويٌّ، فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة، بل هي في برزخ بينهما ". (الروح، ص 108).

وهذه الأقوال المختلفة كما رأيت منها ما يقوم به الدليل، ومنها ما لا تجد له دليلا ينصره، وليست هذه المسائل من مسائل الاجتهاد حتى يُلتمس التأويل لقائلها.

فأمَّا من قَالَ بأنَّ روح الكافر في سجين في الأرض السفلى فقد أخذه من عدة أحاديث منها حديث البراء رضي الله عنه الطويل الذي سبق ذكره، وفيه أن روح الكافر يقول الله عز وجل لملائكته: «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا». لكن ليس في الحديث دليل على أنَّ روح الكافر ستستقرّ في الأرض السفلى حتى تبعث، إذ في الحديث نفسه بعد ذَلِكَ يقول ﷺ: «فتعاد روحه في جسده»، فدلَّ على أنها لا تبقى في الأرض السفلى. والحديث عند أحمد =

....

= في المسند، ج4 ص 287، والزهد لابن المبارك "1219"، والإيمان لابن منده "1063"، وصححه الألباني في المشكاة "1630".

وأمَّا من قَالَ بأنَّ أرواح المؤمنين على أفنية القبور كما رجح ذَلِكَ ابن عبدالبر مستدلاً بما صحَّ واشتهر عنه ﷺ أنه كَانَ يسلِّم على أهل القبور كلما مرَّ عليهم. فردَّه ابن رجب فقال: " وأمَّا السَّلام على أهل القبور فلا يدل على استقرار أرواحهم على أفنية قبورهم، فإنَّه يسلِّم على قبور الأنبياء والشهداء وأرواحهم في أعلى عليين، ولكنّ مع ذَلِكَ لها اتصال سريع في الجسد، ولا يعلم كنه ذَلِكَ وكيفيته على الحقيقة إلاَّ الله ﷻ ". (الأهوال "400").

وأمَّا من قَالَ بأنَّ أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفَّار ببرهوت، فلا دليل عليه من كتاب ولا سنة، بل نسبه ابن حزم في الفصل، "ج4 ص 57" إِلَى أقوال الرَّافضة، وقال ابن القيم لعله مما أُخذ عن أهل الكتاب. وهو الذي نرجِّحه، ويؤيده سياق ابن رجب في الأهوال لقصة يهودي مات ترجح هَذَا القول.

ومن قَالَ بأنَّ أرواح المؤمنين ببئر زمزم، فلا يدل عليه أي دليل لا من المرفوع ولا من الموقوف. وقال ابن القيم: هَذَا من أبطل الأقوال وأفسدها. (الروح، ص 108).

وقال آخرون بأنَّ الأرواح لا تستقرُّ في الأرض، وهؤلاء أيضاً اختلفوا:

فقال **قائلون** : أرواح المؤمنين عند الله تعالى **في الجنة، شهداء** كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دَيْن، ويلقاهم ربُّهم بالعفو عنهم، وهذا مذهب أبي هريرة وعبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما.(الروح، ص 90، والآيات البينات للألوسي، ص 74).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص في رواية قَالَ: " إنَّ أرواح المؤمنين في طير كالزرازير، يتعارفون يرزقون من ثمر الجنة ". (الزهد لابن المبارك "446" بسند صحيح).

ومثله عن ابن عمر رضي الله عنه. (مصنف ابن أبي شيبة "33978").

وقالت جَمَاعَة: هم - أي أرواح المؤمنين - بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبدالله: أرواح الكفَّار **في النَّار**، وأرواح المؤمنين **في الجنة**. (الروح، ص 91). =

. . . .

= وعن حذيفة قَالَ: إن الأرواح **موقوفة عند الرحمن** ﷻ تنتظر موعدها حتى ينفخ فيها. (الأهوال "418" وضعف إسناده).

وقالت طائفة: أرواح المؤمنين عن **يمين آدم** وأرواح الكفَّار **عن شماله**.

وقال كعب: أرواح المؤمنين في **عليين** في السماء السابعة، وأرواح الكفَّار في **سجين** في الأرض السابعة تحت خد إبليس.

وقال الإمام مالك: " بلغني أن الأرواح **تسرح حيث شاءت** ". (شرح الزرقاني على الموطأ، ج2 ص 115).

فمن قَالَ بأنَّ مستقرّ أرواح المؤمنين في الجنة، فقد سبق ذكر بعض من الأحاديث الصحيحة التي تؤيد ذلك.

ومن قَالَ بأنَّ أرواح المؤمنين على يمين آدم وأرواح الكفَّار عن يساره فدليله ما في الصحيحين من حديث أبي ذرّ ﷺ أنه ﷺ لما عرج به إِلَى السماء رأى نسم (أرواح) أهل الجنة عن يمين آدم، ونسم أهل النَّار عن شماله. (البُخَارِي "342"، ومسلم "163")، وتأوَّله ابن القيم بما لا يحتاج إليه على خلاف الظاهر فانظره في الروح، ص 108.

ومن قَالَ بأنها طير في الجنة، فدليله حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنَّة حتى يرجعه الله إِلَى جسده يوم يبعثه». (الموطأ "568"، وابن حبان "4657"، وأحمد، ج3 ص 455 قَالَ ابن كثير في التفسير، ج1 ص 428: إسناده صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة المتبعة فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عن عبدالرحمٰن بن كعب بن مالك عن أبيه ﷺ).

وقول الإمام مالك فيما بلغه أنَّ الأرواح تسرح حيث شاءت، فلربما قصد الخبر الموقوف عن عبدالله بن عمرو ﷺ: " إن الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن، وانَّما مثل المؤمن حين تخرج نفسه كمثل رجل كَانَ في سجن فاخرج منه، فجعل يتقلب في الأرض ويتفسح فيها " (الزهد لابن المبارك "597").

أما من قَالَ بأنها موقوفة تنتظر البعث فلا دليل عليه، بل الأدلة على خلافه والله أعلم.

وقال ابن حزم الظاهري: **مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها** عند منقطع العناصر. (الفصل، ج4 ص 59). =

....

❀ ❀ ❀

= وهذا ذهابا منه إِلَى أن خلق الأرواح كَانَ قبل الأجساد، فبعد الموت تعود إِلَى المكان التي كانت فيه قبل خلق جسدها، واستدل لقوله بما لا طائل من ورائه، وكلامه أقرب إِلَى كلام المتفلسفة وأبعد ما يَكُون عن كلام واستدلالات أهل الحق.

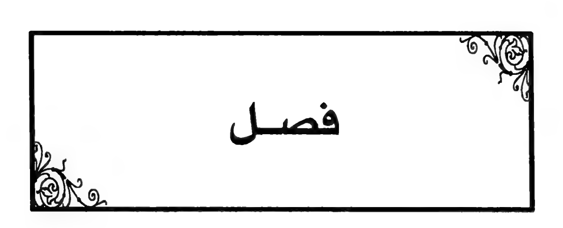
وقد عقد ابن القيم وابن رجب مبحثا في ردِّ كلامه بما يشفي. (انظر الروح لابن القيم، ص 109 ـ 110، وأهوال القبور لابن رجب "421").

وقالت جَمَاعَة : مستقرها العدم المحض، وهو قَوْل الباقلاني وأبي الهذيل. وهذا قَوْل من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته. وهذا قَوْل مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين. (الفصل لابن حزم، ج4 ص 57، والروح، ص 110).

وقريب من قولهم من قَالَ بأنها تموت، واشتهر هَذَا القول عن بعض علماء الأندلس، ونُسب إِلَى عبدالأعلى بن وهب، وابن لبابة والسهيلي وابن العربي، واشتدَّ نكير العلماء لهذه المقولة حتى قَالَ سحنون: هَذَا قَوْل أهل البدع. (الأهوال "422").

وهؤلاء **يستدلون** بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 185]. لكن هَذَا الاستدلال غير وجيه فإن النفس تطلق على مجموع الروح والبدن، كما أنَّ موت النفس لا يعني اضمحلالها وانعدامها بالكلية، وهذا القول تردّه الأحاديث الكثيرة التي تتحدَّث عن أحوال الرُّوح بعد الموت.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إِلَى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح، فتصير النَّفس السبعية إِلَى أبدان السباع، والكلبية إِلَى أبدان الكلاب، والبهيمية إِلَى أبدان البهائم، والدنية السفلية إِلَى أبدان الحشرات. وهذا قَوْل التناسخية منكري المعاد، وهو قَوْل خارج عن أقوال أهل الإسلام كلهم. (الآيات البينات، ص 82). وهذا القول كذلك مشهور عمَّن يقولون بالتَّقمُّص كالدُّروز وغيرهم.



فصل

والسَّاعَةُ حَقٌّ[1]، ولاَ يَعْلَمُ وقْتَهَا إلاَّ اللهُ[2].

---

(1) **[الإيمان بالسَّاعة]**: الإيمان بالساعة هو عين الإيمان باليوم الآخر الذي لا يقبل إيمان المرء ولا عمله إلاَّ لمَّا يوقن بأنه حَقّ آت لا محالة، ومن كفر به وأنكره فقد حقت عليه الضلالة، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء، من الآية: 136].

وقد كَانَ الرسول ﷺ مُدَاوِم على تلقين نفسه حقيقة الإيمان بالساعة لأنَّ الإيمان قَوْل وعمل، ففي الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ﵄ قَالَ: كَانَ النبي ﷺ إذا تهجَّد من اللَّيل قَالَ: «اللَّهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنَّة حق، والنَّار حق، والنبيُّون حق، **والسَّاعة حق**، اللَّهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت». (البُخَارِي "7060"، ومسلم "769"، وابن خزيمة "1151").

(2) **[علم السَّاعة]**: علم الساعة من الغيب الذي استأثر الله ﷻ بعلمه، ولم يُطْلِع عليه لا نبيّ مرسل ولا ملك مقرَّب، قَالَ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [سورة فصلت، من الآية: 47]. وأمر الله ﷻ نبيه أن يوكل علم الساعة إِلَى الله إذا سئل عنها، وإنَّما عليه أن ينذرهم بها لأنها لا تأتي إلاَّ بغتة، قَالَ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: 187]. =

والحَشْرُ وَتَفَاصِيلُهُ التي ذَكَرَهَا الشَّرْعُ العَزِيزُ حَقٌّ(1).

= وقال أيضاً: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [سورة النازعات، الآيات: 42 ـ 45].

ولما سُئل ﷺ عنها أجاب كما أمره الله ﷻ ولم يتعدَّاه، ففي حديث جبريل المشهور لما سأله: متى الساعة؟ قَالَ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل....». (البُخَارِي "50"، ومسلم "9").

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كَانَ رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إِلَى أصغرهم فيقول: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لا يُدْرِكه الهرم حتَّى تقوم عليكم ساعتكم». قَالَ هشام ـ راوي الحديث ـ: يعني موتهم. (البُخَارِي "6146"، ومسلم "2952").

(1) **[الحشر وتفاصيله]**: تحدَّث القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن **الحشر** وما سيلاقي فيه الناس من الهول والفزع الشديد، ما يعقب ذَلِكَ من تنعيم السعداء الذين ابتغوا رضوانه في الدنيا لأجل سعادة الآخرة، وتكريب الأشقياء الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم وخسروا الدنيا والآخرة.

فقال ﷻ واصفا لذلك اليوم ومحذِّرًا من شدَّته وهَوْلِه على عموم الخلق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحج، الآيتين: 1 ـ 2].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة آل عمران، الآيتين: 106 ـ 107].

وقال عنه أيضاً: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النساء، الآية: 42].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة إبراهيم، الآية: 48].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة النحل، الآية: 111].

والآيات كثيرة لا يتسع المقام لسردها جميعا، وإنَّما هي تنبيء عن شدَّة الموقف الذي أذهل المرضعة عن فلذة كبدها، وشاب فيه الولدان، وتمنى الكافر فيه لو =

س ـ هل الحَشْر بِالْجِسْمِ أَمْ بِالْرُّوحِ دُونَ الجِسْمِ؟

ج ـ تُحْشَرُ الأَجْسَامُ بِأَعْيَانِهَا التِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ التِي تُحَاسَب[1].

= كَانَ ترابا، لكن الدار دار جزاء عن عمل سابق فـ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 30]. لكن مَن قدَّم الحسنى وآمن فقال عنه ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [سورة الزمر، الآية: 73]. وأمَّا من قدَّم السوء وكفر بربِّه فقال عنه ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [سورة الزمر، الآية: 71].

(1) **[الحشر عند أهل السنة يكون بالروح والجسد كما في الدنيا]**: وهو الحَقّ الذي يجب اعتقاده ويدين به أهل السنة والجماعة قاطبة، وأقرَّه القرآن الكريم في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية: 104].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 94]. وقد عُلِم أن الخلق الأوَّل إِنَّمَا كَانَ بالروح والجسد، ولم يكن بالروح المنفردة، ولا بالجسد المنفرد، وعلى هذه الشَّاكلة يبعث المرء كما ذكر القرآن. قَالَ في الفواكه الدواني، ج1 ص 72: "والحاصل أن المعاد بمعنى العود الجسماني والرُّوحاني ممَّا أجمع عليه المسلمون، فيعدم الله الذَّوات ثُمَّ يعيدها للجزاء، ولكن اختلف القائلون بالمعاد الجسماني في معناه، فالصحيح وعليه الأكثر أن الله يعدم الذوات بالكلية ثُمَّ يعيدها، وقيل يفرِّق الأجزاء الأصلية ثُمَّ يركِّبها مرة أخرى".

[مذاهب المبتدعة في الحشر]: ورغم الحجج والدلائل اليقينية على المعاد الجسماني والرُّوحاني يكشف الحقُّ عن باطل المبطلين، مِمَّنْ صار دينهم هوى متبعا، ومنابذة للحقِّ، وشقًّا لعصا الجماعة، ويُحسبون على الإسلام والإسلام منهم بريء. فقد ذهب **أبو علي ابن سينا** مقتديا بسلفه من الفلاسفة الإلهيين **كالفارابي** وغيرهم إِلَى **إنكار المعاد الجسماني**، وأنَّ المعاد لا يَكُون إلاَّ بالرُّوح فقط. (معارج القبول للحكمي، ج2 ص 779).

وذكر العطَّار أنَّ ابن سينا يقول في كتبه بالمعاد الجسماني والرُّوحاني. والله أعلم. (حاشية العطار على المحلِّي، ج2 ص 490). =

. . . .

= **وقال بعض المتكلمين النافين للنفس الناطقة بثبوت المعاد الجسماني فقط دون المعاد الرُّوحاني.**

وقال قدماء الفلاسفة الطبيعيين، والمُحْدَثين من أرباب المادية بإنكار المعاد أصلا، لا بالروح ولا بالجسد، ولا هما معا.

وذهب الفيلسوف الشهير جالينوس إِلَى التوقُّف في أمر المعاد، فقال: " لم يتبيَّن لي أنَّ النَّفس هل هي المزاج فينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها، أو هي جوهر باق بعد فساد البنية فيمكن المعاد حينئذ ". (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 478 ـ 479، وبريقة محمودية للخادمي، ج1 ص 175).

وهؤلاء الفلاسفة ومن تبعهم من طوائف المبتدعة إِنَّمَا أعمى الله ﷻ بصرهم وبصيرتهم عن إدراك الحق، وتركوا محكمات القرآن، وتحزَّبوا بحزب الشيطان، والحق في اتباع هدي القرآن والسنة، ومن حاد عنهما فقد احتضنه الشيطان وهو وليّه دون الله.

والقرآن الكريم في مواضع كثيرة أقام الحجة على الغيبيات بالمشاهدات، وفتح للعقل النير باب البصيرة ليلج من المشهود ليدرك صدق من أخبر عن المستور، ومن ذَلِكَ حقيقة البعث الجسماني، فقد أَوْلاَها القرآن الكريم عناية خاصة بإقامة الحجج والبراهين العقلية على تأكيد وقوعها، ومن هذه الأدلَّة:

الأوَّل: قياس الإعادة على الابتداء كما قَالَ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 29]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية: 104]، وقوله أيضاً: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [سورة ق، من الآية: 15].

الثاني: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأَوْلى، قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [سورة يس، من الآية: 81].

الثالث: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [سورة فاطر، الآية: 9].

الرابع: قياس الإعادة على إخراج النَّار من الشجر الأخضر، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة يس، الآيات: 78 ـ 80]، وروى الحاكم وغيره عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففتَّه فقال: يا محمد، أيبعث الله هذا =

س - هَلْ يُسْمَعُ طَلَبُ الدَّلِيلِ فَنِّياً عَلَى عَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أُمُورِ الآخِرَةِ كَالْحَشْرِ بِالأَجْسَامِ وَغَيْرِهِ؟

ج - لاَ يُسْمَع، فَهو طَلَبٌ لاَ يَتَوَجَّهُ أَصْلاً، وَلاَ يَقُولهُ عَاقِلٌ ذُو إِدْرَاكٍ سَلِيمٍ، لأَنَّ الغَيْبِيَّات هِي مِمَّا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ[1].

وقَوَاعِد الفَنِّ مُنْحَصِرَة فِي الطَّبِيعِيَّاتِ.

والعَوَالِم الأُخْرَوِيَّة مِنْ أَحْوَالِ المَوْتِ، فَمَا بَعْدَهُ إِلَى الجَنَّةِ أَوْ النَّارِ لَيْسَتْ مُتَوَلِّدَةً مِنَ الدُّنْيَا تَوَلُّدًا طَبِيعِيًّا بِانْقِلاَبِ الأَطْوَارِ المُتَنَاسِبَةِ، فَيُدْرِكَهُ العَقْلُ بِالْقَوَاعِدِ وَالقِيَاسَاتِ وَالتَّنْظِيرِ بِمَا يَرَاهُ مِنَ المُكْتَشَفَاتِ.

= بعدما أَرِمَ؟ قال: «نعم يبعث الله هذا؛ يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم». قال: فنزلت الآيات ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾... إلى آخر السورة. (المستدرك وصححه على شرطهما "3606"، والحارث - زوائد الهيثمي - "719"). انظر البرهان للزركشي، ج2 ص 26 - 27، وعنه السيوطي في الإتقان، ج2 ص 357 - 358.

(1) **[تعذّر طلب الدليل الفني على عذاب القبر]**: عُلم أنّ الغيبيات جميعها من أحوال الآخرة وعذاب القبر والحشر مدارها على السمع، ولا دخل للنظر العقلي فيها، فإذا كَانَ العقل الذي لو سلمنا بأنّه بلغ الغاية في الإدراك والاكتشاف عاجز عن الإحاطة بكثير من الحوادث والممكنات التي هي بين يديه، فكيف يمكنه أن يدرك ما غاب عنه مما استأثر الله ﷻ بعلمه، ويطلب الدَّلِيل عليه ليقيس الغائب على الشاهد، وحال ما بعد الموت على ما قبله، وأنّى له ذلك، وإنما يكفيه الدَّلِيل على صدق المخبر ﷺ، فذاك هو الدَّلِيل الشاهد على الغائب. قَالَ العلامة الخادمي: " لا يخفى أنَّ مثل هذه المطالب الأخروية كلها إنَّمَا هي بالسمع، ولا مدخل للدِّراية فيها، فإنَّ أحكام عالم الملكوت لا تقاس على أحوال الملك والنَّاسوت فإنَّها تعجز العقول عن الوصول، بل قَالَ بعضهم: إنَّ حقيقة أمور الآخرة ملحقة بالمتشابهات ". (بريقة محمودية، ج1 ص 175).

وقال التفتازاني: " وتحكيم العقول في عالم الملكوت يفضي إِلَى توارد الشبه، ويُوقع في الزَّلل ". (حاشية العطار، ج2 ص 486).

وَكَذَا يُقَالُ فِي سَائِرِ الغَيْبِيَّاتِ التِي أَثْبَتَهَا الشَّرْعُ كَالْمَلاَئِكَةِ، وَالجِنِّ، وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَغَيْرِهَا لَيْسَتْ مُتَوَلِّدَةً مِنَ الأَشْيَاءِ التِي لِلْقَوَاعِدِ بِهَا ارْتِبَاطٌ، وَلِلْعَقْلِ فِيهَا مَجَالٌ.

ثُمَّ إِنَّ السَّاعَةَ تَأْتِي دُفْعَةً وَاحِدَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾[1]، وقال: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾.

وَالعَقْلُ لاَ يَمْنَعُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ دَاخِلاً فِي دَائِرَةِ مَا يُثْبِتُهُ أَوْ يَنْفِيه[2]، وَلاَ يَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ طَرِيقِ القُرْآنِ وَالخَبَرِ النَّبَوِي كَمَا قَدَّمْنَاهُ، فَظَهَرَ أَنَّ

---

(1) **[أمر الساعة كلمح البصر أو أقرب]**: سورة النحل، من الآية: 77. وفي النسخة: وما أمرنا إلا كلمح البصر أو هو أقرب. وهو تصحيف.
فالباري ﷻ لا يعجزه شيء، وإنما أن يقول لشيء كن فيكون بإذنه، وكذا أمر الساعة وحشر الناس للوقوف بين يدي خالقهم للحساب ووضع الموازين كل ذلك كنظرة بالبصر أو أقل من ذلك، والله على كل شيء قدير.
قال قتادة في تفسير الآية: هو أن يقول كن أو أقرب، فالساعة كلمح البصر أو أقرب.
وقال السدّي: كلمح ببصر العين من السرعة أو أقرب من ذلك إذا أردنا.
وعن ابن جريج في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ قال: هو أقرب، وكل شيء في القرآن "أو" فهو هكذا ﴿مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ والله أعلم. (الدر المنثور، ج5 ص 152، وتفسير الطبري، ج14 ص 151).
وروى ابن أبي شيبة وغيره عن وهب بن منبه أنه جلس هو وطاوس ونحوهما من أهل ذلك الزمان فذكروا أيَّ أمر الله أسرع، فقال بعضهم: قول الله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾. وقال بعضهم: السرير حين أتي به سليمان. فقال ابن منبه: أسرع أمر الله أن يونس على حافَّة السفينة إذ أوحى الله إلى نون في نيل مصر، قال فما خرَّ من حافَّتها إلا في جوفه. (مصنف ابن أبي شيبة "35175").

(2) لأن معارف العقل ـ كما هو معلوم ـ مستمدة من الحواس، وما خرج عن نطاق هذه الحواس فليس للعقل معه شأن، فإذا كانت الغيبيات هي مما غاب عن مدارك العقل، ولم يكن للحواس إليها سبيل، وجب أن لا تصنَّف ضمن المعارف التي يتصرف فيها العقل بالاثبات أو النفي، وإنما عليه التسليم والتصديق للوحي الذي أعلمه بها. =

التَّصْدِيقَ بِتِلْكَ الأُمُورِ لاَ يَتَوَقَّفُ عَلَى إِثْبَاتِهَا فَنِّيّاً إِلاَّ عِنْدَ مَنْ لاَ يَرَى لله قُدْرَةً تَامَّةً عَامَّةً، وَلا لِلأَنْبِيَاءِ صِدْقاً[1]، وَهو صَرِيح الكُفْرِ، فَالْعَاقِلُ يَقُولُ: آمَنْتُ بِالله وَبِرُسُلِهِ[2].

= وإذا صنفنا معارف الغيب التي جاء بها القرآن والسنة وجدناها تندرج ضمن الجائزات العقلية، فالعقل لا يحيلها أبدا، وقد علم أنَّ تحكيم العقل في الجائزات غير مقطوع بحكمه فيها لاختلاف مدارك عقول البشر وأحكامهم لا سيما في الجائزات، فوجب صرف النظر العقلي عنها وقصر إثباتها أو نفيها على ما لا يختلف عنده الحكم وهو الوحي: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 36].

(1) لأن طالب الدليل الفني على أمور الغيب كعذاب القبر والحشر والحساب والصراط والميزان يعلم سلفا أنَّ ذلك غير مستساغ في الواقع، فإما أن يصدِّق الوحي الذي جاء بها أو يكذِّبه فيها، وإن كذَّب الوحي فيها فقد كفر؛ لأنه إمّا أن يكذّبه فيها في الأصل أو في الإمكان وكلاهما كفر بواح، فالتكذيب في الأصل كفر بالوحي وبالرسول المخبر، والتكذيب في الإمكان فضلا عن أنه تكذيب للوحي وللرسول فهو كذلك كفر بالقدرة الإلهية ووصم للباري ﷻ بالعجز وقصور القدرة وهو أشد الكفر ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 85].

وحتى من منظور العقل الصريح عُلم أن ذلك من الممكنات التي قطع الوحي بوقوعها، وأوجب العقل تصديقها لسبق دلالة العقل على صدق الوحي الذي جاءت به الرسل.

والعقل كذلك قاطع في التسليم للقدرة الإلهية المطلقة، ولا يناقض ذلك مداركه من أي وجه، فطلب الدليل الفنِّي على الغيبيات فضلا عن مناقضته لصحيح النقل فهو كذلك مناقض لصريح العقل.

(2) بما أنَّه قد عُرف عدم إمكان إيجاد الدليل الفنِّي على المعارف الغيبية التي جاء بها الوحي، وقد سلَّم العقل باتفاق العقلاء على صدق الوحي الذي جاء به الرسول، وجب على العقل أن يؤمن بكلٍّ ما أخبر به الرسول من الغيبيات لسبق القطع بتصديق المرسل، وهذا من أعلى درجات الإيمان لتسليم العقل للوحي بما لا سبيل للحواس إليه، وقد امتدح الوحي أولئك ووعدهم بالفلاح =

س ـ مَا هِيَ عَلامَة السَّاعَةِ الدَّالَة عَلَى قُرْبِهَا؟

ج ـ طُلُوعُ الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِهَا[1]، وَخُرُوجُ الدَّابة مِنَ الأَرْضِ[2]، ....

= فـقـال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [سورة البقرة، الآيات: 3 ـ 5].

(1) **[علامات الساعة]**:

[1 ـ طلوع الشمس من مغربها]: من آخر العلامات التي تنذر بالحدوث الفعلي للساعة، حتَّى إنَّ التوبة لا تُقبل ذلك الحين لأنَّ أمْر الله ﷻ قد قضي فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه». (مسلم "2703"، وابن حبان "629").

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم السَّاعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها آمن النَّاس كلُّهم أجمعون، فيومئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 158]». (مسلم بلفظه "158"، والبخاري "4360"، وابن حبان "6838").

(2) **[2 ـ خروج الدابّة]**: قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [سورة النمل، الآية: 82]. وتخرج الدابة حين يُترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما في أثر ابن عمر رضي الله عنه. (انظر تفسير الطبري، ج20 ص 14).

والأغلب على أنَّ **الدابة تخرج في مكَّة**، وهو المنقول عن ابن عمر وحذيفة بن أسيد الغفاري وعبدالله بن عمرو وحذيفة بن اليمان وغيرهم.

وروي أنها تخرج من صدع الصَّفا، وقيل من جبل أجياد، وكلا القولين عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه. (مصنف ابن أبي شيبة "37286" و"37287").

عن عطاء قال: رأيت عبدالله بن عمرو وكان منزله قريبا من الصَّفا، رفع قدمه وهو قائم وقال: لو شئت لم أضعها حتى أضعها على المكان الذي تخرج منه الدَّابة. (تفسير الطبري، ج20 ص 15).

وقيل بأن الدابة هي الجسَّاسة المذكورة في حديث قصة الدَّجَّال العجيبة التي وقعت لتميم الداري رضي الله عنه (انظر القصة بطولها عند مسلم "2942"، والترمذي "2253"، وأبو داود "4325"، وأحمد "27146" وغيرهم). =

. . . .

= وفي الحديث الصحيح أنَّ هذه الدَّابة تسِم الناس على خراطيمهم فيُعرف المؤمن من الكافر، فعن أبي أمامة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «تخرج الدَّابة فتسِم الناس على خراطيمهم ثم يعمّرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول ممن اشتريته فيقول اشتريته من أحد المخطَّمين». (مسند أحمد "22362"، وصححه الألباني في الصحيحة "322").

[اختلاف أهل العلم في المتقدم في الظهور طلوع الشمس أو الدابة]: والذي يظهر من الأحاديث الواردة في المسألة أنَّ ظهور الدَّابة وطلوع الشمس من مغربها متقاربان في الزَّمن حتَّى إنَّ الرسول ﷺ في الحديث لَمْ يَجْزِمْ بِأُولاهمَا فِي الظُّهُور فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدَّابة على الناس ضحى وأيُّهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثْرِهَا قريبا». (مسلم "2941"، وابن ماجة "4069"، وأبو داود "4310"، وابن أبي شيبة "35970").

وكان عبدالله بن عمرو راوي الحديث يرجِّح بأنَّ أولاهما في الظهور طلوع الشمس من مغربها كما في تعقيبه عن الحديث في رواية أبي داود وابن ماجة وغيرهما.

وكأنَّ عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قد ترجَّح له ذلك مما قرأه من كتب السابقين؛ فعن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدِّث في الآيات أنَّ أوَّلها خروج الدَّجَّال. قال: فانصرف النَّفر إلى عبدالله بن عمرو فحدَّثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات فقال عبدالله: لم يقل مروان شيئا، قد حفظت من رسول الله ﷺ في مثل ذلك حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّل الآيات خروجًا طلوع الشَّمس من مغربها، وخروج الدَّابة ضحى، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أَثَرِهَا». ثم قال عبدالله وكان يقرأ الكتب: وأظنُّ أولاها خروجا طلوع الشمس من مغربها؛ وذلك أنَّها كلَّما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرُّجوع فأذن لها في الرُّجوع حتَّى إذا بَدَا الله أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا فعلت كما كانت تفعل، أتت تحت العرش فسجدت فاستأذنت في الرُّجوع فلم يُرَد عليها شيء ثم تستأذن في الرُّجوع فلا يردُّ عليها شيء ثم تستأذن فلا يردُّ عليها شيء حتى إذا ذهب الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه إنْ أذن لها في الرُّجوع لم تدرك =

وَظُهُورُ الدَّجال الكَذَّاب المُدَّعِي أَنَّهُ الرَّب، وَفِتْنَتهُ أَكْبَرُ فِتْنَةٍ عَلَى المُسْلِمِينَ فَيَنْبَغِي تِكْرَارُ تَنْبِيه النَّاس عَلَى افْتِرَائِهِ[1].

= المشرق قالت: ربِّ ما أبعد المشرق، مَنْ لِي بالنَّاس حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرُّجوع فيقال لها من مكانك فاطْلُعِي فطلعت على الناس من مغربها ثم تلا عبدالله هذه الآية ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَانِهَا خَيْرًاۗ﴾. (مسند أحمد بلفظه "6881"، وابن أبي شيبة "37288"، والحاكم "8645"، وأخرج مسلم شطره الأوَّل "2941").

قال ابن حجر في الفتح: " قال الحاكم أبو عبدالله: الذي يظهر أنَّ طلوع الشمس يسبق خروج الدَّابة، ثم تخرج الدَّابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه. قلت: والحِكْمَة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التَّوبة فتخرج الدَّابة تميِّز المؤمن من الكافر تكميلا للمقصود من إغلاق باب التوبة ". (فتح الباري، ج11 ص 353).

(1) [3 ـ **فتنة الدَّجَّال**]: فتنة الدجال من أكبر الفتن التي تعترض الأمَّة، والأحاديث التي وردت في فتنته ووصفه وقصته كثيرة جدًّا، وعملا بما أمر به رسول الله ﷺ من التحذير من فتنته، وأخذا بما نصح به المصنف تعيَّن أن نُجْلي شيئا من أمره بذكر نبذٍ مفيدة مما صحَّ عن الرسول ﷺ في ذلك، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ إنَّ الأحاديث التي وردت بشأنه كثيرة، وأردنا أن نفصل في مضامينها لنجمع كلَّ طائفة منها على موضوع منفصل:

ـ **إرهاصات قبل خروج الدَّجَّال**: ذكرت الأحاديث الصحيحة بعض الإرهاصات التي تسبق خروج الدَّجَّال، منها؛ أنه يخرج في الناس بعد اشتداد الفرقة والاختلاف بينهم، وخفة من الدين وإدبار من العلم، ولمَّا يُقرأ القرآن ولا يُعمل به، وافتخار الجار على جاره، وقطع الأرحام، واشتداد القوي على الضعيف، ولمَّا يذهل الناس عن ذكره. فعن أبي هريرة ﷺ قال: حدثنا رسول الله أبو القاسم الصادق المصدوق ﷺ: «إن الأعور الدَّجَّال مسيح الضَّلالة يخرج من قبل المشرق في زمان اختلاف من الناس وفرقة.....». (ابن حبان "6812"، والبزار بسند صحيح كما في مجمع الزوائد، ج7 ص 349).

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يخرج الدَّجَّال في خفة من الدين، وإدبار من العلم..». (الحاكم وصححه ووافقه الذهبي "8613"، وأحمد "14997").

وعن عبدالله بن عمرو ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من =

....

= أمتي من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع حتى عدها زيادة على عشر مرات كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدَّجَّال في بقيتهم». (مسند أحمد "6871"، والحاكم "8497" وصححه الهيثمي).

وعن أبي ظبيان أنهم ذكروا الدَّجَّال فسألوا علياً متى يكون ذلك؟ قال: حين يفْخر الجارُ على جارِه، ويأكل الشديد الضَّعيف، وتقطع الأرحام، ويختلفون اختلاف أصابعي هؤلاء. وشبكها ورفعها هكذا..(ابن أبي شيبة "37521").

وعن الصّعب بن جثامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يخرج الدَّجَّال حتَّى يذهل الناس عن ذكره وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر». (عبدالله بن أحمد في زوائد المسند، ج4 ص 71، والطبراني في مسند الشاميين "992"، وصححه في مجمع الزوائد، ج7 ص 335).

ويظهر من بعض الأحاديث أنَّ الدَّجَّال يعقب فتح الرُّوم مباشرة، ففي صحيح مسلم وغيره عن ابن مسعود ﷺ أنَّه بعد فتح الرّوم والناس ملتهون في قتلاهم يجيء الصريخ للمسلمين بأنَّ الدَّجَّال قد خلفهم في ذراريهم. (صحيح مسلم "2899"، والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعا "8469").

قال جابر بن سمرة: ...فما يخرج الدَّجَّال حتى تفتح الرُّوم. (سنن ابن ماجة "4091" وصححه الألباني).

ـ **مكان خروج الدَّجَّال**: اختلفت الآثار الواردة في مكان خروج الدَّجَّال؛ فمنهم من قال يخرج من خراسان؛ ودليله ما صحَّ عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدَّجَّال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان...». (الحاكم وصححه "8608"، والترمذي "2237"، وصححه الألباني).

وفي حديث آخر عن أنس ﷺ مرفوعا أنه يخرج من يهودية أصبهان. (أحمد "13368"، وأبو يعلى "3639"، ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد).

ومثله عن عائشة مرفوعا. (أحمد "24551"، وابن أبي شيبة "37474").

ومنهم من قال من كوثى بالعراق؛ لما روي عن الهيثم بن الأسود أنَّ عبدالله بن عمرو سأله: ممَّن أنت؟ فقلت: من أهل العراق. قال: هل تعرف أرضا قبَلكم كثير السِّباخ يقال لها "كوثى". قال: قلت نعم. قال: منها يخرج الدَّجَّال. (ابن أبي شيبة "37551"، والفتن لنعيم بن حماد "1504"). =

....

= وعن العريان بن الهيثم قال: سمعت عبدالله بن عمرو يقول: يخرج الدَّجَّال من كوثى. (الفتن لنعيم بن حماد "1503"، والجامع لمعمر بن راشد ج11 ص 396).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: يخرج الدَّجَّال من كوثى. (مصنف ابن أبي شيبة "37538"، والفتن لنعيم بن حماد "1500").

ومنهم من قال من خلَّة بين الشام والعراق؛ كما في حديث النواس بن سمعان ﷺ أنه ﷺ قال: «... إنَّه يخرج من خلَّة بين الشام والعراق...». (سنن ابن ماجة "4075"، والطبراني في مسند الشاميين "614"، وعبدالله بن أحمد في المسند، ج4 ص 181، وصححه الألباني).

وكذا في حديث أبي أمامة ﷺ أنه ﷺ قال: «... وإنَّه يخرج من خلَّة بين الشام والعراق...». (ابن ماجة "4077"، والحاكم "6820"، والطبراني في الكبير "7644" وسنده فيه ضعف لا يضر).

ومنهم من قال من جزائر البحرين؛ وحجته حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق همته المدينة حتى ينزل دبر أحد...». (مسلم "1380"، وابن حبان "6810").

وكذلك حديث أبي هريرة ﷺ أيضاً مرفوعا: «يخرج الدَّجَّال من هاهنا، وأشار نحو المشرق» ـ يعني شرق المدينة ـ (ابن حبان "6792"، والطبراني في الأوسط عن فاطمة بنت قيس "2379"). قال أبو حاتم ابن حبان ـ ﷺ ـ: قول أبي هريرة "وأشار نحو المشرق" أراد به البحرين، لأن البحرين مشرق المدينة، وخروج الدَّجَّال يكون من جزيرة من جزائرها، لا من خراسان، والدليل على صحة هذا أنه موثق في جزيرة من جزائر البحر على ما أخبر تميم الداري وليس بخراسان بحر ولا جزيرة.

ـ **أول الأماكن التي يدخلها الدَّجَّال**: الكوفة كما في أثر ابن مسعود ﷺ فعن أبي صادق قال: قال عبدالله: إني لأعلم أهل أبيات يقرعهم الدَّجَّال. قالوا: مَنْ يا أبا عبدالرحمٰن؟ قال: بيوت أهل الكوفة. (المعجم الكبير للطبراني "8509"، وابن أبي شيبة "37539"، والفتن لنعيم بن حماد "1513").

ـ **بنو تميم هم أشدّ الناس على الدَّجَّال**: لما في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «هم أشدُّ أمَّتي على الدَّجَّال...». (البخاري "2405"، ومسلم "2525"). =

. . . .

= وعن ابن فاتك قال: قال كعب: إنَّ أشدَّ أحياء العرب على الدَّجَّال لَقومك، يعني بني تميم. (ابن أبي شيبة "37512").

ـ **طعام المؤمنين زمن الدَّجَّال**: اتفقت الأحاديث الواردة في فتنة الدَّجَّال أنَّ قبل الدَّجَّال تحلّ بالناس سنون عجاف؛ تمسك السماء مطرها، ولا تنبت الأرض زرعها، ويعقب ذلك خروج الدَّجَّال، ويستمرُّ الجهد بالنَّاس إلا من تبع الدَّجَّال فينال مما عنده، لكن الله ﷻ لا يضيِّع أولياءه فيكرمهم بالذكر والتسبيح كفاية لهم عن الطعام، ووجه الكرامة في ذلك أنَّ من صمد في فتنة الدَّجَّال، وأعرض عن دعواه فكأنَّه صار في عداد الملائكة لأنَّ الله عصمه كما عصم الملائكة فكان ذلك من منِّه وفضله على أوليائه. فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ رسول الله ﷺ ذكر جهدا شديدا يكون بين يدي الدَّجَّال، فقلت يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: «يا عائشة العرب يومئذ قليل» فقلت: ما يجزئ المؤمنين يومئذ من الطعام؟ قال: «ما يجزئ الملائكة؛ التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل» قلت: فأيّ المال يومئذ خير؟ قال: «غلام شديد يسقي أهله من الماء، وأمَّا الطَّعام فلا طعام...». (أحمد "24988"، وأبو يعلى "4607"، قال في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في الصحيحة "3079").

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن طعام المؤمنين في زمن الدَّجَّال. قال: «طعام الملائكة». قالوا: وما طعام الملائكة؟ قال: «طعامهم منطقهم بالتسبيح والتقديس، فمن كان منطقه يومئذ التسبيح والتقديس أذهب الله عنه الجوع فلم يخش جوعا». (رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم وعارضه الذهبي "8561").

وفي حديث أسماء أنه ﷺ قال: «... إنه يكفي المؤمن يومئذ ما يكفي الملائكة» قالوا: فإن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولكنها تقدس. فقال رسول الله ﷺ: «طعام المؤمنين يومئذ التسبيح...» (الطيالسي "1633"، وإسحاق بن راهويه "7 و 8"، وأحمد "27620").

ـ **علامات الدَّجَّال**: صِفات الدَّجَّال كما هو موصوف في صحيح السنَّة أنَّه: رجل جسيم، أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية، ممسوح العين اليسرى، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، يقول للناس أنا ربكم، يركب حمارا عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعا، =

....

= معه نهران، نهر يقول الجنة ونهر يقول النّار، وناره جنة وجنته نار، يأمر السماء فتمطر ـ فيما يرى الناس ـ والأرض فتنبت، يسلّط على نفس فيقتلها ثمّ يحييها ولا يسلّط على غيرها، معه جبال من خبز ولحم ونهر والناس في جهد إلا من تبعه، معه شياطين تكلّم الناس وتفتنهم، ينصره سبعون ألفا من يهود أصبهان...

ففي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة... فذهبت ألتفت فإذا رجل أحمر، جسيم، جعد الرأس، أعور عينه اليمنى، كأن عينه عنبة طافية، قلت من هذا؟ قالوا: هذا الدَّجَّال. وأقرب الناس به شبها ابن قطن». (البخاري "3257"، ومسلم "169").

وعن حذيفة رضي الله عنه أنّه ﷺ قال: «الدَّجَّال أعور العين اليسرى...». (مسلم "2934").

وكذا عن سفينة مولى رسول الله ﷺ مرفوعا. (مسند أحمد "21979"، والطبراني في الكبير "6445" وإسناده حسن).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... إن مسيح الدَّجَّال رجل قصير، أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، ليس بناتئه ولا حجراء...». (رواه أبو داود "4320" وصححه الألباني).

وعن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إن الدَّجَّال ممسوح العين اليسرى، عليها ظفرة مكتوب بين عينيه كافر». (أحمد "13103" بسند صحيح).

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «... وإن الدَّجَّال ممسوح العين اليسرى، عليها ظفرة غليظة، وفيه مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب». (أحمد "23486"، وابن منده في الإيمان "1032" وسند صحيح).

وعن جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال عن الدَّجَّال: «... وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعا، فيقول للناس أنا ربكم وهو أعور وإنَّ ربَّكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر "ك ف ر" مهجاة، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب...». (أحمد "14997"، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي "8613").

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «لأنا أعلم بما مع الدَّجَّال منه، معه نهران يجريان؛ أحدهما رَأْيَ العينِ ماء أبيض، والآخر رأْيَ العينِ نار تأجَّجُ، فإمَّا أَدْرَكَنَّ أحدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الذي يَرَاهُ نارا وليغَمِّضْ ثم لِيُطَأْطِئ رأسَه فيشرب منه فإنَّه ماءٌ باردٌ...». (مسلم بلفظه "2934"، وأحمد "23327"). =

....

= وفي رواية أخرى عن حذيفة ﷺ مرفوعا: «إنَّ معه ماء وناراً، فناره ماء بارد، وماؤه نار فلا تهلكوا». (مسلم "2934").

وفي رواية ثالثة عن حذيفة ﷺ مرفوعا: «... معه نار وجنَّة، فناره جنَّة، وجنته نار». (مسلم "2934").

وفي حديث جابر ﷺ المتقدم أنه ﷺ قال عن الدَّجَّال: «... ومعه نهران أنا أعلم بهما منه، نهر يقول الجنة، ونهر يقول النَّار، فمَنْ أُدْخِل الذي يسمِّيه الجنَّة فهو النَّار، ومَنْ أُدْخِل الذي يسمِّيه النَّار فهو الجنَّة...».

ومن علاماته أنه يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويسلط على نفس فيقتلها ثم يحييها، ففي حديث النواس بن سمعان ﷺ المرفوع: «... فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرّا وأسبغه ضروعا وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردُّون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النَّحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك...». (مسلم "2937").

وفي حديث عند أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ مرفوعا أنَّ الدَّجَّال يمطر المطر ولا ينبت الشجر. (مسند أحمد "23735"، وابنه في السنة "1016" وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج7 ص 343، وابن حجر في الفتح، ج13 ص 93).

لكن هل كل ذلك على الحقيقة؟ فالذي يظهر من حديث جابر ﷺ أنَّ ذلك فيما يتراءى للناس وليس من الحقيقة في شيء، ففي حديث جابر المرفوع: «... ويبعث الله معه شياطين تكلِّم النَّاس، ومعه فتنة عظيمة؛ يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس، ويقتل نفسا ثم يحيها فيما يرى النَّاس لا يسلَّط على غيرها من الناس، ويقول أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الربّ ﷻ...».

وعليه فمن ظنَّ أنَّ ذلك يصدر من الدَّجَّال على سبيل الحقيقة فقد وهِم، لأنَّ الإماتة والإحياء، وإنزال المطر وإنبات الزرع من خواص ربِّ الأرباب ﷻ ولا تُمكَّن لأحد إلاَّ بإذنه كما مكَّنه لعيسى ﵇، وما كان يتراءى للناس في فتنة الدَّجَّال إنَّما هو من فعل الشياطين التي ذكرها الحديث تكلم الناس وتفتنهم، =

. . . .

= إذ لو لم تفتن الشياطين الناس في مثل هذا فأين ستفتنهم، ويؤيد هذا الكلام حديث أسماء بنت يزيد: «... وتبعث معه الشياطين على صورة من مات من الآباء والإخوان والمعارف، فيأتي أحدهم إلى أبيه وأخيه وذي رحمه فيقول ألست فلانا ألست تعرفني هو ربك فاتبعه...»، وفي رواية أخرى أن الدَّجَّال يقول للرجل: «أرأيت إن بعثت لك أباك وإبنك ومن تعرف من أهلك أتعلم أني ربّك؟ فيقول نعم. فيمثل له الشياطين على صورهم فيتبعه..» (مسند أحمد "27609"). والله أعلم.

ومن علاماته أنه يأتي ومعه جبال من خبز كما في حديث جابر ﷺ المرفوع: «... ومعه جبال من خبز والناس في جهد إلا من تبعه...».

وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الدَّجَّال قال: قلت إنَّهم يقولون معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء. قال: «هو أهون على الله من ذلك». (مسلم "2939"، والبخاري "6705").

ومن علامات الدَّجَّال أنه ينصره سبعون ألفا من يهود أصبهان، فعن أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدَّجَّال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة». (مسلم "2944"، وابن حبان "6798").

ومن علامات الدَّجَّال أنَّه يَرِدُ جميع الأرض في أربعين صباحا، ولا يمكَّن من دخول مكَّة ولا المدينة، وتحرم عليه أربعة مساجد، فعند أحمد في المسند عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعا: «وإنَّه يمكث في الأرض أربعين صباحا، يبلغ فيها كلَّ منهلٍ، ولا يَقْرَبُ أربعة مساجد؛ مسْجِد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطُّور، ومسجد الأقصى...». (أحمد "23735"، قال في مجمع الزوائد، ج7 ص 343: رجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني).

وفي حديث النواس بن سمعان ﷺ: «... قلنا يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعين يوما؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي هو كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: لا؛ أقدروا له قدره. قلنا يا رسول الله فما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح...». (أحمد ج4 ص 181، والترمذي "2240").

وفي الصحيح عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدَّجَّال إلا مكَّة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافِّين تحرسُها، =

. . . .

= فينزل بالسِّبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق». (مسلم "2943").

ـ **مقتل الدَّجَّال**: اتفقت جميع الأحاديث على أنَّ مقتل الدَّجَّال يكون على يد المسيح ابن مريم عليه السلام، ومكان هلاكه بلاد الشام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق، همَّته المدينة حتى ينزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك». (مسلم "1380"، وأحمد "9897").

وقد عيَّن النبي ﷺ مكان قتل الدَّجَّال عند باب لدّ بفلسطين كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أَنَّ النبي ﷺ قال عن الدَّجَّال: «... حتى يأتي الشام مدينة فلسطين بباب لدّ فينزل عيسى عليه السلام فيقتله...». (مسند أحمد "24511"، وابن حبان "6822"، وابن أبي شيبة "37474"، وصححه في مجمع الزوائد، ج7 ص 383، وصححه الألباني).

وصفة مقتله كما في الأحاديث الصحيحة أن الدَّجَّال إذا رأى عيسى عليه السلام يذوب كما يذوب الملح في الماء، لكن نبي الله عيسى عليه السلام يستعجله بالقتل فيريهم دمه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال عن الدَّجَّال: «فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتَّى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته».(مسلم "2897"، وابن حبان "6813").

ـ **العواصم من فتنة الدَّجَّال**: علَّم النبي ﷺ أمته كيف يتحصنون من الدَّجَّال ويَحْذرون فتنته، وكان هذا شأن الأنبياء قبله، ولعظم فتنته أكَّد رسول الله ﷺ الحذر منها وهو في حجَّة الوداع؛ فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنَّا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا ولا ندري ما حجَّة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدَّجَّال فأطنب في ذكره وقال: «ما بعث الله من نبيٍّ إلا أنذره أمَّته؛ أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم، ليس على ما يخفى عليكم ثلاثا إنَّ ربكم ليس بأعور، وإنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية...». (البخاري "4141"، وأحمد "6185").

وكان ﷺ يكثر الاستعاذة من فتنته في كل حال، ولزم ذلك في صلاته وأمر أمَّته بالاستعاذة منه في صلاتهم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: =

وَنُزُولُ نَبِيِّ اللهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاكِما بِالشَّرْعِ المُحَمَّدِي[1].

= «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع؛ من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شرِّ المسيح الدَّجَّال». (مسلم "588"، والدارمي "1344"، وأبو داود "983").

وعلَّم أمته كذلك أن تحفظ أوائل سورة الكهف فهي معصمة من فتنة الدَّجَّال، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حفظ عشر آيات من أوَّل سورة الكهف عصم من الدَّجَّال». (مسلم "809"، والنسائي في الكبرى "10787").

وفي رواية أخرى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدَّجَّال». (أحمد بلفظه "27556"، ومسلم "809"، والنسائي في الكبرى "10786"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع "5760").

وفي حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه المتقدِّم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «... فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنَّها جواركم من فتنته...».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه موقوفا: من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم أدرك الدَّجَّال لم يسلط عليه، أو لم يكن له عليه سبيل. (النسائي "10790"، وعبدالرزّاق "6023").

(1) [4 ـ **نزول نبيّ الله عيسى** عليه السلام]: سبق الكلام على أنَّ نبي الله عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان، وهو الذي يقتل الدَّجَّال على ما اتفقت عليه الأحاديث الصحاح، ونزوله عليه السلام من الأمارات الدالة على قرب الساعة، ففي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكَمًا مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد». (البخاري "2344"، وابن ماجة "4078").

وفي رواية أخرى: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد». (البخاري "2109"، ومسلم "155"، والترمذي "2233").

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة الدَّجَّال عن مكان نزول عيسى عليه السلام فقال: «ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ، واضعا كفَّيْه على أجنحة ملَكَيْنِ، إذا طَأْطَأَ رأسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَه تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَان كاللُّؤلؤ، فَلا يحلُّ لكافرٍ يَجِدُ ريحَ نَفَسِهِ إلاَّ ماتَ، ونَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طرْفُه...». (مسلم "2937"، وأحمد ج4 ص 181، والحاكم "8508"). =

....

= وكما ذكر المصنف **أنَّ عيسى** عليه السلام لما ينزل إنَّما يأتمُّ بإمام المسلمين، ويقتل الدَّجَّال ويحكم بشريعة محمد ﷺ، ففي صحيح مسلم عن الوليد بن مسلم قال: حدثنا ابن أبي ذئب عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمَّكم منكم» فقلت لابن أبي ذئب: إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة «وإمامكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما "أمَّكم منكم"؟ قلت تخبرني. قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم ـ تبارك وتعالى ـ وسنة نبيكم ﷺ. (مسلم "155").

وزمن نزوله عند السَّحر، وينادي في المسلمين للخروج إلى الدَّجَّال الخبيث، فروى أحمد والحاكم عن جابر في قصة الدَّجَّال: «... ثم ينزل عيسى ابن مريم فينادي من السَّحر فيقول: يا أيها الناس، ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث؟ فيقولون: هذا رجل جنِّي. فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم ﷺ فتقام الصَّلاة فيقال له: تقدم يا روح الله. فيقول: ليتقدم إمامكم فلْيُصلِّ بكم. فإذا صلَّى صلاة الصبح خرجوا إليه». (أحمد "14997" وصححه الهيثمي في المجمع، ج7 ص 343، والحاكم مختصرا "8613" وصححه ووافقه الذهبي).

وإنَّما يأتمُّ عيسى عليه السلام بإمام المسلمين تكرمة لهذه الأمَّة المباركة وتشريفا لنبيها الخاتم ﷺ، ومصداق ذلك ما جاء في الحديث الصحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمَّتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا. فيقول: لا. إنَّ بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة». (مسلم "156"، وأحمد "15167").

قال ابن سيرين: " المهدي من هذه الأمة، وهو الذي يؤمُّ عيسى ابن مريم ". (ابن أبي شيبة "37649").

قال في الفتح: " قال العلماء: **الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء** الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين الله تعالى كذبهم وأنه الذي يقتلهم. أو نزوله لدنوِّ أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها. وقيل إنه دعا الله لمَّا رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددا لأمر الإسلام فيوافق خروج الدَّجَّال فيقتله. والأول أوجه ". (فتح الباري، ج 6 ص 493). =

. . . .

= **واختلفت الرواية في مدة إقامة عيسى** عليه السلام في المسلمين بعد نزوله، **ففي حديث** عبدالله بن عمرو رضي الله عنه الذي يرفعه إلى النبي ﷺ أنه عليه السلام يمكث في الأرض سبع سنين. (مسلم "2940"، وأحمد "6555").

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ عيسى عليه السلام يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون. (أبو داود "4324"، وابن حبان "6821"، والحاكم "4361" وصححه الحافظ في الفتح).

وروى نعيم بن حماد في الفتن أن عيسى عليه السلام لما يقتل الدَّجَّال يرجع إلى بيت المقدس فيتزوج إلى قوم شعيب عليه السلام فيولد له فيهم ويمكث تسعة عشر سنة. (الفتن "1616").

إشكال وجوابه: ورد في بعض الروايات الصحيحة أنَّ عيسى عليه السلام لما ينزل يؤمُّ المسلمين كما عند مسلم "2897"، والحاكم "8486"، وابن حبان "6812" وغيرهم، وقد تأوَّل ابن حبان ما استشكل عنده في الحديث في قوله "فيؤمهم" قال: أراد به فيأمرهم بالإمامة، إذا العرب تنسب الفعل إلى الآمر كما تنسبه إلى الفاعل.

لكن ما تأوله ابن حبان غير وارد، إذ يُحمل قوله "فيؤمهم" بإمامته لهم حقيقة بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ على ما تفسره الأحاديث الأخرى، بل ورد أنه عليه السلام هو الذي يؤم المسلمين ببيت المقدس والله أعلم.

ومما سبق تحقيقه ثبت أن نزول عيسى عليه السلام وقتله الدَّجَّال وحكمه بشريعة محمد حق لا مرية فيه وهو الذي يعتقده أهل السنة والجماعة، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطل ذلك.

وخالف في ذلك بعض المعتزلة والجهمية وزعموا أنَّ الأحاديث التي قرَّرت نزول عيسى عليه السلام مردودة كذلك بالآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: 40]، وقوله ﷺ: «... وإنه لا نبيَّ بعدي...». (البخاري "3268"، ومسلم "1842").

وإجماع المسلمين أنه لا نبيَّ بعد محمد رسول الله ﷺ، وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ.

والجواب: أنَّ ما قاله هؤلاء كله حقٌّ لكنهم وضعوا الأدلَّة في غير موضعها، وقوَّلوا أهل الحق من أهل السنة والجماعة ما لم يقولوه، لأنه ليس المراد =

وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ وَرَاءِ سَدِّ ذِي القَرْنَيْنِ لِيُفْسِدُوا ثُمَّ يُهْلِكهُم الله[1]، ....

= بنزول عيسى عليه السلام كما قرَّرته الأدلَّة أنه ينزل نبيّاً بشرع جديد ينسخ شريعة محمد ﷺ، ولم تورد الأدلة شيئا من هذا، ولا أشارت إلى ذلك بوجه من الوجوه، بل على العكس من ذلك كلِّه فقد أقرَّت بنزوله حكَما عادلا تابعا لما جاء به محمد ﷺ.

(1) [5 ـ **خروج يأجوج ومأجوج**]: خروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم في الأرض حقٌّ، وصحَّ خبر الرسول ﷺ بذلك فضلا عن النص القرآني، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 96].

وعن أبي سعيد الخدري قال قال النبي ﷺ: يقول الله عز وجل يوم القيامة: «يا آدم. يقول: لبيك ربَّنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخْرِج من ذريتك بعثا إلى النَّار. قال: يا ربِّ وما بعْثُ النَّار. قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسع مائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾. فَشَقَّ ذلك عَلَى الناس حتَّى تغيَّرت وجوههم. فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسع مائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد...». (البخاري بلفظه "4464"، ومسلم "222"، ومن حديث عمران بن حصين رواه أحمد، ج4 ص 435، والترمذي "3169"، ومن حديث أنس رواه ابن حبان "7354" بأسانيد صحيحة).

مَنْ هم يأجوج ومأجوج؟: هم خلق من ذرية آدم ـ كما سبق في الحديث ـ يخرجون في آخر الزمان يعيثون في الأرض فسادا، وهم أكثر أهل الأرض، يمرُّ أوائلهم على البحيرة فيشربون ما فيها حتى لا يبقى لآخرهم فيها نصيب، ولم يكونا في شيء إلا كثر بهما كما في رواية عمران بن حصين: «... فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثَّرتاه؛ يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس...».

ومما يدل على كثرتهم ما رواه ابن ماجة عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله رضي الله عنه: «سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين». (ابن ماجة "4076" وصححه الألباني).

وفي حكاية فتنتهم ومهلكهم يروي النواس بن سمعان رضي الله عنه في الحديث المرفوع =

وَغَيْر ذَلِكَ(1).

= أن عيسى عليه السلام بعد قتله الدَّجَّال: «... قال: فيلبث كذلك ما شاء الله، قال ثم يوحي الله إليه أن حرِّز عبادي إلى الطور فإنِّي قد أنزلت عبادا لي لا يَدَان لأحد بقتالهم، قال ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال فيمر أوَّلهم ببحيرة الطَّبَرِية فيشرب ما فيها ثم يمر بها آخرهم فيقول: لقد كان بهذه مَرَّة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل بيت المقدس فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلمَّ فلنقتل مَنْ في السماء، فيرمون بنُشَّابِهم إلى السَّماء فيردُّ الله عليهم نُشَّابَهُم محمرًا دما، ويُحاصَر عيسى بن مريم وأصحابه حتى يكون رأس الثَّور يومئذ خيرا لأحدهم من مائة دينار لأحدكم اليوم، قال فيرغب عيسى بن مريم إلى الله وأصحابه، قال فيرسل الله إليهم النَّغَف في رقابهم فيصبحون فَرْسَى مَوْتَى كموت نفس واحدة، قال ويهبط عيسى وأصحابه فلا يجد موضع شبر إلا وقد ملأته زَهَمَتُهُم ونَتَنُهُم ودماؤهم، قال فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه، قال فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق البُخْتِ، قال فتحملهم فتطرحهم بالمهبل، ويستوقد المسلمون من قِسِيِّهم ونُشَّابِهِم وجِعَابِهِم سبع سنين، قال ويرسل الله عليهم مطرا لا يكَنَّ منه بيت وبر ولا مدر، قال فيغسل الأرض فيتركها كالزَّلَفَة...». (الترمذي بلفظه "2240"، ومسلم "2937"، وابن ماجة "4075"، وأحمد، ج4 ص 181 وغيرهم).

(1) **[علامات صغرى وكُبرى للساعة]**: اقتصر المصنف على ذكر العلامات الكبرى المؤذنة بقيام السَّاعة، ولم يذكر ما اشتهر في كتب السنة من العلامات الصغرى وبعض العلامات الكبرى، لأنه اشتهر عند علماء أهل السنة والجماعة أنَّ علامات الساعة تنقسم إلى علامات صغرى وعلامات كبرى:

العلامات الصغرى: وهذه العلامات تحدث في الناس وتسري فيهم وتكون عندهم في حكم المعتاد من الحوادث والعادات، وأغلب هذه العلامات قد وقع فعلاً، وإنما تقع أغلب العلامات الصغرى في زمن متباعد نسبيا عن السَّاعة، ومنها ما يكون قريبا من العلامات الكبرى، ومن هذه العلامات الصغرى: رفع العِلْم، وظهور الجهل، وفشو الزنى، وشرب الخمر، وذهاب الرجال، وكثرة النساء، واستشراء القتل، وتقارب الزمان، وظهور الفتن، وانتشار الشحّ، وكثرة الزلازل، ويفيض المال، وتصير صحراء العرب مروجا وأنهارا، ويُسند الأمر إلى غير أهله، =

....

= ويتطاول رِعَاء البَهْم في البنيان، وتلد الأمة ربتها، ويُغْبَط مَنْ في القبور..ودلَّت على كل ذلك الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ منها:

عن شعبة قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك ﷺ قال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم أحد بعدي سمعه منه: «إنَّ من أشراط السَّاعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويَفْشُو الزِّنى، ويُشْرَبَ الخمر، ويذهب الرِّجال، وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيِّم واحد». (مسلم بلفظه "2671"، والبخاري "81").

وعن أبي وائل قال: كنت جالسا مع عبدالله وأبي موسى فقالا: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يَدَي الساعة أيَّاما يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل». (مسلم "2672"، والبخاري "6654")

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم السَّاعة حتَّى يُقْبض العلم، وتكثر الزَّلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتْلُ القتْلُ حتى يكثر فيكم المال فيفيض». (البخاري "989"، وأحمد "10875").

وعن أبي هريرة ﷺ يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا». (أحمد "9384"، وابن حبان "6700").

وعن أبي هريرة ﷺ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».(البخاري "6131"، وأحمد "8714").

وفي حديث جبريل المشهور لما سأل النبي ﷺ عن الساعة قال: فأخبرني عن أمارتها؟ قال: «أن تلد الأَمَة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعَاء الشَّاءِ يتطاولون في البُنيان..».(مسلم بلفظه "8"، وابن حبان "168").

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمرَّ الرَّجل بقبر الرَّجل فيقول يا ليتني مكانه». (البخاري "6698").

هذه أهمّ علامات الساعة الصغرى التي اشتهرت في صحيح الأثر، وأغفلنا عن ذكر بعضها.

العلامات الكبرى: وهناك أيضاً علامات كبرى للساعة غير التي ذكرها المصنف، وإن كان ما ذكره المصنف أشهرها لأنَّ فيها غرابة لوقوعها على غير ما اعتاده الناس، وهذه العلامات الكبرى تنذر بالحدوث الوشيك للساعة، ومن العلامات =

وَفِي الأَخِيرِ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الصَّعْقِ فَيَمُوتُ جَمِيعُ الأَحْيَاء، ثُمَّ نَفْخَةَ البَعْثِ فَيَحْيَا جَمِيعُ الأَمْوَات، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ[1].

= التي لم يذكرها المصنف: الدُّخان، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، فعن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: إطَّلَع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر السَّاعة. قال: «إنَّها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات؛ فذكر الدُّخان، والدَّجَّال، والدَّابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خُسُوف؛ خَسْف بالمشرق، وخَسْف بالمغرب، وَخَسْف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تَخْرُجُ من اليمنِ تَطْرُدُ الناس إلى محشرهم». (مسلم "2901"، وأحمد، ج4 ص 6).
وفي رواية أخرى ذكر في الآية العاشرة: «نار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس»، وفي رواية أخرى: «وريح تلقي الناس في البحر». (مسلم "2901").
وتدل أحاديث أخرى على أنَّ من علامات الساعة نار أخرى عظيمة تخرج من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، كما في البخاري "6701"، ومسلم "2902" عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم السَّاعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».
وفي حديث أنس ﷺ عن قصة اختبار عبدالله بن سلام ﷺ للرسول ﷺ لما قدم المدينة عن أول أشراط الساعة فقال النبي ﷺ: «... أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب...». (البخاري "3723"، وابن حبان "7161").
وعلَّقه البخاري (ج6 ص 2605) عن أنس ﷺ مرفوعا بلفظ: «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب».
والذي يظهر من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ أنَّ آخر الآيات "نار من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"، وفي حديث أنس ﷺ أنَّ أول الآيات "نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب"، فاستُخْلص من الحديثين أن من أشراط الساعة الكبرى نار في أوَّلها ونار في آخرها؛ الأولى تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، والثانية نار من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

(1) **[نفخة الصّور والبعث]**: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الزمر، الآية: 68]. =

. . . .

= **والصُّور** هو قرن ينفخ فيه الملكان المكلفان بالنفخ، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ يُنْفَخُ فيه». (الحاكم وصححه "3870"، وابن حبان "7312"، وأحمد "6805"، وأبو داود "4742" وصححه الألباني).

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصُّور قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ» قال: قلنا يا رسول الله فما نقول يومئذ؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل». (ابن حبان "823"، والنسائي في الكبرى "11082"، وأحمد "11714" وصححه الألباني في صحيح الترمذي "2431").

ودلَّ الحديث الصحيح على أنَّ شهداء الله ﷻ لا يصعقون بنفخة الصور، وهم الذين قصدهم الاستثناء في الآية: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾: مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله ﷻ. (الحاكم وصححه "3000"، وصححه الحافظ في الفتح، ج11 ص 371، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب "1387").

وقد يكون سيدنا موسى عليه السلام من الذين يدخلون في هذا الاستثناء كما في الحديث أنَّه ﷺ قال: «لا تخيِّروني على موسى، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون في أوَّل مَنْ يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله». (البخاري "7034"، وأبو داود "4671").

[من الملك الذي ينفخ في الصُّور؟]: اشتهر عند كثير من أهل العلم - كما هو اختيار المصنف - بأنَّ الذي ينفخ في الصور هو "إسرافيل" وذُكر ذلك في عدة أحاديث، ولا يخلو حديث منها من مقال في سنده، بل في بعض الأحاديث التي ذكر فيها "إسرافيل" ليس هو النافخ في الصور كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - لما سألت كعبا أن يخبرها عن إسرافيل فذكر الحديث وفيه: . . . وملك الصور جاثٍ على إحدى ركبتيه، وقد نصبت الأخرى، فالتقم الصور، محني ظهره، شاخص بصره إلى إسرافيل، وقد أُمِر إذا رأى إسرافيل قد ضمَّ جناحه أن ينفخ في الصور. فقالت عائشة: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول. (الطبراني في الأوسط "9283"، وحسَّن الهيثمي إسناده في مجمع الزوائد، ج10 ص 331، =

....

= وكذا المنذري في الترغيب والترهيب "5410"، وقال الحافظ: ورجاله ثقات إلاَّ علي بن زيد ين جدعان ففيه ضعف. الفتح، ج11 ص 369. وقال الألباني: منكر. ضعيف الترغيب والترهيب "2082").

بل الأصح في ذلك ما صحَّت فيه الأحاديث من أن الصور ينفخ فيه ملكان كما عند أحمد عن أبي مرية عن النبي ﷺ، أو عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «النافخان في السماء الثانية رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب أو قال رأس أحدهما بالمغرب ورجلاه بالمشرق ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخان». (أحمد "6804"، وقال الهيثمي: رواه أحمد على الشك؛ فإن كان عن أبي مرية فهو مرسل ورجاله ثقات. وإن كان عن عبدالله بن عمرو فهو متصل مسند ورجاله ثقات. مجمع الزوائد، ج10 ص 330. وقال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد هكذا على الشك في إرساله أو اتصاله. الترغيب والترهيب "5413". وقال الحافظ: رجاله ثقات. الفتح، ج11 ص 369. وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب "2084": منكر. وقال في الصحيحة "1080": صحيح. وهذا من عجائبه ـ رحمه الله ـ).

ويؤيد ذلك ما صحَّ عن كعب موقوفا: " ما من صباح إلاَّ... وملكان موكلان بالصور ينتظران متى يؤمران فينفخان ". (الزهد لابن المبارك "1070"، والزهد لهناد، ج1 ص 339. وصححه الحافظ في الفتح، ج11 ص 369).

وعن عبدالرحمٰن بن أبي عمرة موقوفا: " ما من صباح إلا... وملكان موكلان بالصور ". (الزهد لهناد، ج1 ص 339 وصححه الحافظ أيضا).

فصح مما سبق أن للصور ملكان موكلان بالنفخ، وبيَّن حديث عائشة أن الذي ينفخ في الصور ينتظر متى يضم "إسرافيل" جناحه فينفخ؛ فإسرافيل ملك آمر والآخر ملك نافخ.

أو ينفخ الملك نفخة الصعق وينفخ إسرافيل نفخة البعث ـ كما قال الحافظ ـ.

ولا يمنع من أن يكون لإسرافيل ملائكة أعوان ينفخون في الصور بأمره، كما صحَّ أن لملك الموت ملائكة أعوان وقد سبق كلام المصنف فيه والله أعلم.

[اختلاف العلماء في عدد نفخات الصور]: الأمر الذي دلَّت عليه الآية الكريمة وصحَّت فيه الأحاديث أنَّ للصور نفختان، نفخة الصعق ونفخة البعث، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝﴾ [سورة النازعات، الآيتين: 6 و7]، =

....

= وهو تفسير ابن عباس ﷺ والحسن وقتادة، واختاره الطبري. (تفسير الطبري، ج30 ص 31).

وذهب بعض أهل العلم منهم ابن العربي وابن تيمية إلى أن الصُّور ينفخ فيه **ثلاث نفخات؛** نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث والقيام لرب العالمين، وهؤلاء كأنهم عدُّوا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 87] نفخة ثالثة، والأرجح كما قال القرطبي أنها هي النفخة الأولى المذكورة في سورة الزمر. (تفسير القرطبي، ج13 ص 240، ومجموع الفتاوى، ج4 ص 260).

وهذه النفخات الثلاث مذكورة في حديث طويل عن أبي هريرة ﷺ، رواه إسحاق في مسنده "10"، والطبراني في الأحاديث الطوال "36"، والأصبهاني في العظمة "386"، وصحح ابن العربي هذا الحديث، وضعفه عامة المحدثين منهم البيهقي والأشبيلي وابن كثير وابن حجر. (انظر تفسير ابن كثير، ج2 ص 150، والفتح، ج11 ص 369).

ونقل الحافظ عن ابن حزم بأَنَّ النفخات يوم القيامة أربع؛ الأولى نفخة إماتة يموت فيها من بقي حيّا في الأرض، **والثانية** نفخة إحياء يقوم بها كل ميِّت وينشرون من القبور ويجمعون للحساب، **والثالثة** نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد، **والرابعة** نفخة إفاقة من ذلك الغشي.

وردَّ عليه الحافظ بأَنَّ الذي ذكره من كون الثنتين أربعا ليس بواضح، بل هما نفختان فقط، ووقع التغاير في كل واحدة منهما باعتبار من يستمعها، فالأولى يموت بها كل من كان حيا ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله، والثانية يعيش بها من مات، ويفيق بها من غشي عليه والله أعلم. (فتح الباري، ج6 ص 446).

وكلام الحافظ ـ رحمه الله ـ ليس ببيِّن في ذكره بأَنَّ الصعقة الأولى يموت فيها جميع الأحياء ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله. فكلامه يقتضي بأَنَّ من الأحياء من لا يذوق الموت، وهذا مردود بنص القرآن والسنة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: 185].

وقد فتح الله ﷻ عليَّ بجواب أرجو أن يكون صوابا، وهو أَنَّ النفخة الأولى يموت فيها الأحياء ويغشى على من في القبور، والثانية يبعث فيها الناس جميعا، =

س ـ مَا القَوْلُ فِي سَدِّ ذِي القَرْنَيْنِ؟

ج ـ وهو ثَابِتٌ، وإِنْكَارُهُ تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ[1]، ....

= فالاستثناء في الصعقة الأولى لا يشمل من كان حيّا على وجه الأرض وإلاّ لناقض القرآن، والدليل على أن الصعقة تلحق من في القبور إقرار الرسول ﷺ بأنَّه مشمول بهذه الصعقة وهو في قبره ﷺ وذِكْره موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كذلك لعله مشمول بها، فإذا لحقت الصعقة رسول الله ﷺ وهو في قبره، فأولى أن تشمل عامة المقبورين، فدلَّ على أنَّ الاستثناء محصور فيمن قُبِرَ كشهداء الله ـ كما سبق في الحديث ـ وغيرهم ممن علمهم الله، ولا يشمل من كان حيا على وجه الأرض والله أعلم.

[**كم يفصل ما بين النفختين من الزمن؟**]: لم يصحّ في السنَّة أثر يبيِّن القدر الزمني ما بين نفخة الصعق ونفخة البعث، بل صحَّ الخبر بعدم التعيين، فعن أبي صالح قال سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أربعون». قالوا يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال أبيْت. قال أربعون سنة؟ قال أبيْت. قال أربعون شهرا؟ قال أبيْت. ويبلى كلّ شيء من الإنسان إلا عَجْبَ ذنبه فيه يُرَكَّب الخلق».(البخاري "4536"، ومسلم "2955"، والنسائي في الكبرى "11459").

وقوله "أبيْت" أي امتنعت عن القول بتعيين ذلك لأنه ليس عندي في ذلك توقيف. (الفتح، ج8 ص 552).

(1) [**حقيقة سدّ ذي القرنين**]: قال تعالى في إثبات سدِّ ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [سورة الكهف، الآيات: 93 ـ 98]، **فأثبتت الآيات الكريمة بناء ذي القرنين للسدِّ، وأنَّه فاصل متين يحجز بين يأجوج ومأجوج وغيرهم من البشر.**

وهذا السدَّ كما أثبتت الآيات الكريمة بناه ذو القرنين من زبر الحديد ـ أي قطع الحديد ـ، والقِطْر وهو النحاس كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. (انظر صحيح البخاري، ج3 ص 1220). =

....

= **[قصَّة الصَّحابي الذي رأى سدَّ ذي القرنين]**:

قال رجل من أهل المدينة للنبي ﷺ: يا رسول الله قد رأيت السدَّ الذي بين يأجوج ومأجوج. قال: «كيف رأيتَه؟». قال: مثل البُرْدِ المُحَبَّرِ؛ طريقة حمراء وطريقة سوداء. قال: «قد رأيتَه». (رواه البخاري معلقا، ج3 ص 1220، ووصله الحافظ في تغليق التعليق، ج4 ص 12 وصححه بلفظه).

ورواه البزار في مسنده من وجه أكمل عن يوسف بن أبي مريم الحنفي قال: بينما أنا قاعد مع أبي بكرة إذْ جاء عليه رجل فقال أما تعرفني؟ فقال له أبو بكرة: ومن أنت؟ قال: تعلم رجلا أتى رسول الله ﷺ فأخبره أنَّه رأى الردم؟ فقال له أبو بكرة: وأنت هو؟ قال: نعم. قال: اجلس حدِّثنا. قال: انطلقت حتَّى انتهيت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه، فدخلت بيتا فاستلقيت فيه على ظهري وجعلت رجلي على جداره، فلما كان عند غروب الشَّمس سمعت صوتا لم أسمع مثله ففزعت فجلست، فقال لي ربُّ البيت: لا تذعرن فإنَّ هذا لا يضرّك، قوم ينصرفون هذه السَّاعة من عند هذا السدّ. قال: فيسرّك أن تراه؟ قلت: نعم. قال: فغدوت إليه فإذا لبنة من حديد، أو قال لبنه من حديد كل واحد مثل الصخرة، وإذا كأنه البرد المحبر، فإذا مساميره مثل الجذوع. فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «صفه لي» فقلت: كأنَّه البرد المحبر. فقال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى رجل قد أتى الردْم فلينظر إلى هذا». قال أبو بكرة: صدق. (مسند البزار "3668"، وحسن إسناده الحافظ في تغليق التعليق، ج4 ص 13، وقال الألباني في الضعيفة "1070": ضعيف جدا).

[سدّ ذي القرنين مكين متين]: كما دلَّت الآيات على أنَّ السدَّ مكين متين فقد صحَّ بذلك الخبر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدَّ كلَّ يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا. فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدَّتهم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله ويستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس...». (أحمد بلفظه "10640"، وابن ماجة "4080"، والحاكم وصححه "8501"، وصححه الألباني). =

. . . .

= وهذا الحديث بهذا السياق يعطينا صورتين محتملتين عن السدِّ:
الأولى: أنَّ هذا السدّ فاصل بين ظاهر الأرض وباطنها فيكون يأجوج ومأجوج من ساكني باطن الأرض. والصورة **الثانية**: أنَّ هذا السدّ شاهق في الارتفاع حتى إنَّه ليحجب شعاع الشمس عنهم.
ومثار هذين الاحتمالين أنَّ الحديث ذكر في سياقه أنهم يحفرونه حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، مما يدل على أنه حاجب لهم عن الشمس. والاحتمال الأول مستبعد لأنه سبق ذكر يأجوج ومأجوج بأنهم من ذرية آدم، ولا يمكن لبني البشر العيش في باطن الأرض إلاَّ بتمكين من الباري ﷻ والله أعلم.
[**فُتح من سدّ ذي القرنين فتحة على عهد الرسول ﷺ**]: صحَّ الخبر بأنَّ سدَّ ذي القرنين قد فتحت منه فتحة في عهد رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد السنة الخامسة للهجرة لأنَّ راوية الحديث وهي زينب بنت جحش إنما تزوجها رسول الله ﷺ في السنة الخامسة للهجرة على المشهور ففي الحديث الصحيح عن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه، وحلَّق بإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ والتي تليها» قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله أَفَنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قالَ: «نعم إذا كثر الخبث». (البخاري بلفظه "6716"، ومسلم "2880").
وفي رواية أخرى قالت أنَّ رسول الله ﷺ استيقظ من النوم محمرًّا وجهه وهو يقول. . . .(البخاري "6650"، ومسلم "2880").
وهذه الرواية الثانية تدلُّ على أن رسول الله ﷺ قد رأى الردم في منامه، وهذا يفسر قوله للرجل الذي رأى الردم ووصفه له "قد رأيتَه"، أي أنَّ الرجل قد وصف الردم على الصورة التي رآها رسول الله ﷺ في حديث زينب والله أعلم.
[**اختلاف في نبوة ذي القرنين**]: جاء الخبر عن النبي ﷺ أنه لم يأته علم في ذلك فلم يدر أهو نبي أم لا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري تُبَّع أنبيا كان أم لا، وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا». (رواه الحاكم "104" وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علَّة ولم يخرجاه". لكن الحديث رواه البيهقي في سننه الكبرى، ج8 ص 329، من طريق الحاكم وذكر عن البخاري أنه صحَّح إرساله وقال لا يثبت هذا عن النبي ﷺ لأن النبي ﷺ قال الحدود كفارة). =

....

= وقال عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: ذو القرنين نبي. (مصنف ابن أبي شيبة "31911").
وقال ابن عباس رضي الله عنه: ذو القرنين نبي. (الدر المنثور للسيوطي، ج5 ص 436).
وقال علي رضي الله عنه: لم يكن نبيا ولا ملكا. (الأحاديث المختارة للمقدسي "555").
وعليه لا يمكن الجزم بشيء في نبوته وعدمها لأن أمر النبوَّة لا يثبت إلاَّ بنقل صحيح من الوحي.
[اختلاف في شخصية ذي القرنين وزمانه]: وَقَعَ جدلٌ كبير بين أهل العلم في شخصية ذي القرنين؛ فاشتهر عند الكثير بأنه الإسكندر بن فيليبس اليوناني، ودليلهم بأن ذا القرنين كما حكى عنه القرآن بلغ ملكه أطراف الأرض، والثابت في التاريخ أنه لم يتمكن لأحد أن يملك أطراف الأرض إلا الإسكندر بن فيليبس اليوناني. (تفسير الرازي، ج21 ص 139).
والجواب على ذلك من وجوه:
الأوَّل: أنه قد عُرف بالقطع أن التاريخ لم يستقريء جميع الدُّهور التي عاشها البشرية من لدن آدم عليه السلام حتَّى مرحلة التدوين والكتابة في التَّاريخ، بل إنَّ هناك حقبا كثيرة في التَّاريخ لا يُدرى ماذا جرى فيها وما حصل، بل الكثير من الوقائع التَّاريخية التي وصلتنا لا يقطع بصحَّتها، وإذا الأمر كذلك فلو سلمنا صحَّة مُلْك الإسكندر اليوناني لأطراف الأرض فهذا لا يعني أنه لم يملكها غيره.
ثم الثابت في التاريخ أن الإسكندر اليوناني لم يصل إلى السدِّ ولم يعرف عنه ذلك، بل لم يصل حتى إلى الصين، وإنما كان أقصى ما بلغ بلاد فارس، وكان بينه وبين المسيح نحو ثلاثمائة عام، وبين الإسكندر وذي القرنين قرون كثيرة. (الجواب الصحيح لشيخ الإسلام، ج1 ص 345، وإغاثة اللهفان لابن القيم، ج2 ص 264).
بل ورد من وجوه عدَّة أنَّ ذا القرنين كان على عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام منها:
عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال: إن ذا القرنين حجَّ ماشيا فسمع به ابراهيم عليه السلام فتلقاه. (أخبار مكة "835"، والعظمة للأصبهاني، ج4 ص 1479).
وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنَّ ذا القرنين دخل المسجد الحرام فأتى ابراهيم عليه السلام وصافحه ابراهيم ـ عليه السلام ـ. (أخبار مكة "836"، وتاريخ واسط، ص 247).
وعن محمد بن سلام قال حدثني بعض أصحابنا: ... وأوَّل مَنْ صافح بيده إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقيه ذو القرنين عند البيت وقد حجَّ ماشيا فصافحه. (أخبار مكة "2008"). =

. . . .

= وعن وهب بن منبه أنَّ إبراهيم عليه السلام لما حفر البئر غلبه عليها ذو القرنين، وأظن أن ذا القرنين كان سأل ابراهيم عليه السلام أن يدعو الله له فقال: كيف وقد أفسدتم بئري فقال ذو القرنين: ليس عن أمري كان، ولم يخبرني أحد أن البئر بئر إبراهيم فوضع السلاح وأهدى إبراهيم إلى ذي القرنين بقرا وغنما. . .(أخبار مكة "1055").

وعن علياء بن أحمر: أن ذا القرنين قدم مكة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال لهما: مالكما ولأرضي؟ فقالا: نحن عبدان مأموران أُمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا البينة على ما تدعيان؟ فقامت خمسة أكبش، فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أُمرا ببناء الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت ثم مضى. (تفسير ابن أبي حاتم "1231").

قال الحافظ: " فهذه الآثار يشدُّ بعضها بعضا، وتدل على قدم عهد ذي القرنين". (الفتح، ج6 ص 382).

وقد وقفت على بيت شعري لابن الرومي فرَّق فيه بين ذي القرنين والإسكندر، مما يرجِّح أنَّهما مختلفان قال:

يا زوجة الأعمى المباح حريمه　　　يا عرس ذي القرنين لا الإسكندر

الثاني: أنَّ الثابت في القرآن والسنة أنَّ ذا القرنين كان رجلا صالحا موحِّدا، والثابت لدى المؤرخين أن الإسكندر اليوناني كان مشركا يعبد الأصنام هو وقومه، وكان أرسطو معلمه ومشيره، فالفرق بينهما واضح، لأنه لم يقل أحد بأن أرسطو الفيلسوف كان وزيرا ومشيرا لذي القرنين.

الثالث: أنه من المسلَّم به أن الإسكندر بن فيليبس هو مقدوني يوناني، واشتهر ذو القرنين بأنَّه عربي صرف، والدليل على ذلك أن كثيرا من الشعراء العرب ذكروه في أشعارهم على أنه عربي كقول الشاعر تبَّع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما　　　ملكا علا في الأرض غير مفندي

بلغ المشارق والمغارب يبتغي　　　أسباب ملك من كريم سيد

وقال الشاعر أعشى بن ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاويا　　　بالحنو في جدث هناك مقيم

والحِنْو ـ بكسر المهملة وسكون النون ـ في ناحية المشرق. =

= وقال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عمَّر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رميما

وقال قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا باللَّحد بين ملاعب الأرواح

وقال أحد شعراء اليمن يفتخر بكون ذي القرنين من اليمن ويخاطب قوما من مضر:

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذي القرنين يقبله أهل الحجى وأحقُّ القول ما قبلا

وقال النُّعمان بن بشير الأنصاري الصَّحابي ابن الصَّحابي:

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منَّا وحاتم

وقال حسان بن ثابت:

لنا ملك ذي القرنين هل نال ملكه من البشر المخلوق خلق مصوَّر

وقال طرفة بن العبد:

إذا الصعب ذو القرنين أرخى لوائه إلى مالك ساماه قامت نوادبه

وقال عنترة بن شداد:

أيا عزَّنا لا عزَّ في الناس مثله على عهد ذي القرنين لن يتهدما

وغير هؤلاء من الشعراء كثير ممن ذكروا ذا القرنين في أشعارهم، مما يرجِّح بأنَّ ذا القرنين من عرب اليمن، وأنَّ اسمه الصَّعب كما وقع في شعر بعضهم، ويعضِّد ذلك أنَّ الأذْواء كانوا من اليمن، وهم الذين لا تخلو أساميهم من "ذي كذا" كذي النَّادي وذي نوَّاس وذي النُّون وغير ذلك والله أعلم.

(انظر تفسير الفخر الرازي، ج21 ص 140، وفتح الباري، ج11 ص 384 ـ 385 مع إضافات من دواوين الشعراء).

[سبب تلقيبه بذي القرنين]: وردت أقوال كثيرة في سبب تلقيبه بذي القرنين، فقيل لقب بذلك لأنه بلغ قرني الأرض المشرق والمغرب، وقيل لأنه ملك فارس والروم، وقيل كان على رأسه قرنان ـ أي ذؤابتان ـ، وقيل كان له قرنان من ذهب، وقيل كانت صفحتا رأسه من نحاس، وقيل كان على رأسه قرنان صغيران تواريهما العمامة، وقيل إنه ضرب على قرنه فمات ثم بعثه الله فضربوه على قرنه الآخر، وقيل لأنه كان كريم الطَّرفين، وقيل لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس =

وَمَوْقِعُهُ فِي جِهَةِ القُطْبِ الشِّمَالِي كَمَا يَدُلُّ لَهُ سِيَاقُ الوَاقِعَةِ وَتَفَاسِيرُهَا العَتِيقَةُ[1]، وَالمُنْكِرُونَ لِوُجُودِهِ اسْتِنَاداً عَلَى عَدَمِ العُثُورِ عَلَيْهِ مَعَ كَثْرَةِ

= وهو حيٌّ، وقيل لأنه إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا، وقيل لأنَّه أُعْطي علم الظاهر وعلم الباطن، وقيل لأنَّه دخل النور والظلمة، وقيل لتاجه قرنان، وقيل رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها وجانبيها فسمي لهذا السبب بذي القرنين. (تفسير القرطبي، ج11 ص 48، والإتقان للسيوطي، ج2 ص 381، وتفسير الرازي، ج21 ص 140).

وأصح هذه الأقوال ما رواه المقدسي في أحاديثه المختارة بسند صحيح عن أبي الطفيل قال: سمعت ابن الكواء يسأل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذي القرنين. فقال علي: " لم يكن نبيا ولا ملكا، كان عبدا صالحا أحبَّ الله فأحبَّه وناصح الله فناصحه الله، بُعث إلى قومه فضربوه على قرنه فمات فبعثه الله فسمِّي ذي القرنين". (الأحاديث المختارة "555"، وصححه الحافظ في الفتح، ج6 ص 383).

(1) **[موقع سدّ ذي القرنين]**: الذي ذكره المصنف ـ رحمه الله ـ من كون **سدّ ذي القرنين واقع في جهة القطب الشمالي هو المتبادر من سياق قصة ذي القرنين وبنائه السدّ،** وهو المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك، وهو الذي عليه جمهور المفسِّرين. (تفسير الطبري، ج16 ص 16 و25، وتفسير البيضاوي، ج3 ص 522، وتفسير القرطبي، ج11 ص 55 وغيرها).

واختلط الأمر على كثير من المتأخرين ممَّن لم يتأمَّل في سياق قصة بناء السدّ:

فذهب بعضهم إلى أنّه سدّ مأرب في اليمن، ومعلوم أنَّ سدّ مأرب إنما هو سدّ مياه الهدف منه حجز مياه السيول للزراعة لا لصدّ شيء من الأمم المتوحشة، بل ما وراءه إنما أمم متحضرة متمدنة من العرب والآشور والقبط والكلدان...، وليس في هذا السدّ كذلك شيء من زبر الحديد أو النحاس.

وذهب آخرون إلى أنه سور الصين العظيم، وهذا كذلك باطل في سياق القصة، وإنما سور الصين مصنوع من الحجر والتراب على خلاف سد ذي القرنين، وسور الصين كذلك إنما يعلو الهضاب والسهول وليس في مضيق بين جبلين كما تفيد قصة السد، ولا يصدّ سور الصين شيئا مما وراءه لمن أراد اختراقه على خلاف سدّ ذي القرنين.

والذي يترجَّح مما توصَّل إليه الباحثون، ويؤيِّده سياق القصَّة أنَّه السدّ الواقع في جمهورية جورجيا عند مضيق "**داريال**"، ويسمَّى بـ"**باب الحديد**"، =

السِّيَاحَاتِ، **فَأَوَّلاً**: لَمْ يَقْطَعُوا تِلْكَ الجِهَةِ بِاعْتِرَافِهِمْ.

وثانياً: قَبْلَ الأَوَانِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَحْجِبَ الله الأَعْيُنَ عَنْهُ وَعَمَّا وَرَاءَهُ، هُوَ القَادِرُ جَلَّ جَلَالُهُ.

س ـ بَعْدَ البَعْث مِنَ القُبُورِ مَاذَا؟

ج ـ الحَشْرُ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[1]، ....

= وتنطبق عليه جميع أوصاف سدّ ذي القرنين التي سردتها القصة، فهو سدّ مصنوع من الحديد والنحاس، وواقع في جهة الشمال، وممتدّ بين جبلين في سلسلة جبال القوقاز الشاهقة والطويلة التي تمتدّ من بحر قزوين شرقا إلى البحر الأسود غربا بطول (1200 كلم)، ولا يوجد ممرّ بين هذه الجبال في السلسلة الطويلة سوى مضيق "داريال" الذي يفصل بين طرفيه سدّ كبير مصنوع من كتل كبيرة من الحديد والنحاس، وهذا السدّ لقوّته وشموخه بحيث لا يمكن لأيّ إنسان أن ينقبه أو يعلوه، ويصدّق هذا قوله ﷻ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة الكهف، الآية: 97]. (انظر: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني للدكتور عبدالعليم خضر، ص 312 وما بعدها).

(1) **[يوم تُبدل الأرض غير الأرض]**: الآية في سورة إبراهيم، من الآية: 48، ففي يوم الحشر يبدِّل الله الأرض والسموات على غير ما كانتا عليه في الدنيا، فلا الأرض أنذاك نفسها التي عُرفت في الدنيا ولا السموات أيضا، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر النَّاس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرْصة النَّقي ليس فيها علم لأحد». (مسلم بلفظه "2790"، والبخاري "6156").

وقوله "عفراء" من الأعفر وهو الأبيض ليس بشديد البياض، "وقرصة النَّقي" الحُوَّاري، سمِّي لنقائه من النُّخالة، وقوله "ليس فيها علم" من العلامة والمعلم وهو الأثر.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: "يُجَاء بأرض كأنها سبيكة فضة؛ لم يسفك عليها دم، ولم تعمل عليها خطيئة، فأوَّل ما يحكم بين الناس فيه في الدِّماء". (الطبراني في الكبير "9001"، وقال الهيثمي إسناده جيد). =

ثُمَّ الشَّفَاعَةُ الكُبْرَى المُحَمَّدِيَّة[1] ....

= وتبديل الأرض والسموات قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، وكلا الوجهين تحتملهما الآية الكريمة، لكن الوجه الأول أقوى، وهو الذي يؤيِّده قول ابن مسعود ﷺ، ويشهد له القرآن في قوله تعالى بعد حكايته لنفختي الصور وهولهما: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر، من الآية: 69].

[أين يكون الناس يوم تبدل الأرض والسموات]: قد يطرح السؤال فيقال: أين يكون الناس في حال تبديل الأرض والسموات؟ وجوابه أنَّ عائشة ـ ﷺ ـ قد سألت رسول الله ﷺ هذا السؤال؛ قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله. فقال: «على الصراط». (مسلم "2791"، وابن حبان "7380"، والترمذي "3121").

وسأل يهودي رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تُبَدَّل الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». (مسلم "315"، والطبراني في الكبير "1414"، وابن حبان "7422").

والجسر هو الصراط.

(1) [الشفاعة المحمديَّة]: الشفاعة المحمَّدية من الخصائص التي خُصَّ بها النبيُّ ﷺ على سائر الأنبياء، فعن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي...وأُعطيت الشفاعة». (البخاري "427"، ومسلم "521").

وقد أخبر ﷺ أنه أُعطي دعوة فادخرها شفاعة لأمته يوم القيامة رحمة بها ورأفة منه على هذه الأمة المباركة ببركته ﷺ فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ نبيّ دعوة يدعوها، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». (مسلم بلفظه "198").

وفي رواية أخرى: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي فهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئا». (ابن ماجة "4307"، وصححه الألباني).

ونبينا ﷺ أوَّل من يشفع يوم القيامة فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوَّل الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا». (مسلم "196"). =

العُمُومِيَّة[1]، ....

= [الشفاعة المحمَّديَّة تنال كلَّ موحّد]: وهذه الشفاعة تنال كلَّ موحِّد مهما عظمت ذنوبه بكبائرها وصغائرها، فعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي». (أبو داود "4739"، والترمذي "2435" وصححه الألباني).

ويخرج قوم من النَّار بهذه الشفاعة العظمى، فعن عمران بن حصين ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليخرجن قوم من أمتي من النَّار بشفاعتي يسمون جهنميون». (الترمذي "2600"، وابن ماجة "4315" وصححه الألباني).

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّا أهل النَّار الذين هم أهلها فإنَّهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النَّار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية. (مسلم "185"، وابن ماجة "4309").

(1) [عموم الشفاعة المحمَّديَّة]: وشفاعته ﷺ هي أُمُّ الشفاعات وأعظمها، وتنال الأمم كلَّها فكلُّ من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فإنَّها تناله، ومن قال لا إله إلاَّ الله فإنَّها تناله، ويعتذر أولو العزم من الأنبياء جميعا أن يشفعوا لأحد من الناس حتى ينتهي الأمر إلى النبي الخاتم ﷺ فيشفع ويشفع ويشفع ويشفع يشهد لذلك الحديث الصحيح عن معبد بن هلال العنزي: قال انطلقنا إلى أنس بن مالك ﵁ وتشفَّعنا بثابت، فانتهينا إليه وهو يصلِّي الضُّحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه وأجلس ثابتا معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة، إنَّ إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماجَ الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك. فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم ﵇ فإنَّه خليل الله. فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى ﵇ فإنَّه كليم الله. فيُؤتى موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى ﵇ فإنَّه رُوح الله وكلمته. فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ. فأوتى فأقول: أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربِّي فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله، ثم أخرُّ له ساجدا. فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقُلْ يُسْمع لك، وَسَلْ تُعْطَهْ، واشفع تُشفَّع. =

....

= فأقول: ربِّ أمتي أمتي. فيقال: انطلق فمَنْ كان في قلبه مثقال حبَّة من بُرَّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها. فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربِّي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجدا. فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: أمتي أمتي. فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها. فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجدا فيقال لي: يا محمَّد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تُعْطه، واشفع تشفَّع. فأقول: يا ربِّ أمتي أمتي. فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النَّار. فأنطلق فأفعل». هذا حديث أنس الذي أنبأنا به، فخرجنا من عنده فلمَّا كنَّا بظهر الجَبَّان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلَّمنا عليه، وهو مُسْتخفٍ في دار أبي خليفة. قال: فدخلنا عليه فسلَّمنا عليه، فقلنا: يا أبا سعيد، جئنا من عند أخيك أبي حمزة، فلم نسمع مثل حديث حَدَّثَنَاه في الشفاعة. قال: هيه. فَحَدَّثْنَاه الحديث فقال: هيه. قلنا: ما زادَنا. قال: قد حَدَّثَنا به منذ عشرين سنة، وهو يومئذ جَمِيعٌ، ولقد ترك شيئا ما أدري أنسيَ الشيخ أو كره أن يحدِّثكم فَتَتَّكِلوا. قلنا له: حَدِّثْنَا. فضحك وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه: «ثم أرجع إلى ربِّي في الرَّابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجدا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفَّع. فأقول: يا ربِّ ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك ـ أو قال ليس ذاك إليك ـ ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجِبْريائي لأُخرجن من قال لا إله إلا الله». قال فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قال قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميع. (مسلم بلفظه "193"، والبخاري "7072").

[أحاديث الشفاعة بلغت التواتر]: وأحاديث الشفاعة بلغت حدَّ التواتر كما قال الحافظ، ومع ذلك فقد أنكر المعتزلة والخوارج الشفاعة المحمدية لأهل الكبائر يوم القيامة أخذا من ظواهر بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة المدثر، الآية: 48]، وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الانفطار، الآية: 19]، وقوله أيضاً: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 48]، وقوله أيضاً: =

= ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 254]، وغيرها من الآيات التي في معناها، وغاية ما عندهم في الشفاعة أن يُزاد المؤمنون في منازلهم من باب التفضيل. (انظر مقالات الإسلاميين للأشعري، ص 474، والفصل لابن حزم، ج4 ص 53).

وكأنَّ المعتزلة ومن معهم من منكري الشفاعة اقتصروا على التمسك ببعض الكتاب وتركوا بعضه الآخر، وأخذوا بالمطلق، وتجاهلوا المقيّد، وانكبوا على مجمل الكتاب، وأعرضوا عن بيان السنَّة، ولو أنَّهم أمعنوا النظر في الكتاب، وساحوا في حدائق السنَّة لوجدوا أن الشفاعة ثابتة بنص القرآن فضلا عما تواتر وتظافر من السنَّة.

وأجيب عن استدلالهم بالآيات التي ذكرنا بعضها بأنَّها واردة في الكفَّار، والسياق ظاهر في بعضها لا غبار عليه، ولا يختلف أحد بأن الشفاعة لا تنفع الكفَّار والمشركين، أما الآيات الأخرى فهي محمولة على أنَّه لا شفاعة أبدا قبل أن يأذن الله ﷻ فيها، وقد سبق في حديث أنس ﵁ المرفوع كيف أنَّه ﷺ يستأذن ربَّه في الشفاعة، وعلى هذا المعنى ظواهر الآيات القرآنية الكثيرة التي أثبتت الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 255]، وقوله أيضاً: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [سورة يونس، من الآية: 3]، وقوله أيضاً: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سورة سبأ، من الآية: 23]، وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة طه، الآية: 109]، وغيرها من الآيات فكلها تثبت الشفاعة لمن رضي له الله ﷻ أن يشفع، وأذن له بالشفاعة، وليس هناك أحد أفضل وأولى من محمد ﷺ، فهو أفضل من يرتضيه الله ﷻ للشفاعة، وأولى الناس بالإذن فنسأل الله ﷻ أن يشفعه فينا يوم القيامة، والله مجيب الدعاء.

وتَنَطَّع الروافض فقالوا إنَّ للرسول ﷺ ولعلي - ﵇ - شفاعة من غير أمر الله تعالى ولا إذنه حتى لو شفعا في الكفَّار قبلت. (تبيين كذب المفتري، ص 151).

(1) **[الناس يُحشرون يوم القيامة حفاة عراة]**: صحَّ في الأثر عن النبي ﷺ بأنَّ النَّاس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا كما خلقوا أوَّل مرَّة، فعن ابن عباس - ﵄ - قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: «إنَّكم تحشرون حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾...». (البخاري "6161"، ومسلم "2860"، والترمذي "2423"). =

وَهي المَقَامُ المَحْمُودُ المَوْعُودُ بِهِ فِي القُرْآنِ[1]، ....

= وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلا» قالت عائشة: فقلت يا رسول الله، الرِّجال والنِّساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشدُّ من أن يهمّهم ذاك». (البخاري "6162"، ومسلم "2859"، والنسائي في الكبرى "2211").

(1) **[الشفاعة المحمَّدية هي المقام المحمود]**: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [سورة الإسراء، الآية: 79]، **وجمهور أهل السنة والجماعة على أنَّ المقام المحمود الذي وعده الله ﷻ** به في القرآن هو الشفاعة العظمى لأهل الموقف، فقد سبق في الحديث الصحيح أنَّ أهل الموقف جميعا يطوفون بأولي العزم من الرسل يستشفعونهم فيُكْبِر كل واحد منهم ذلك ويرتضيها محمد ﷺ من بين الخلائق أجمعين.

قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: " إنَّ النَّاس يصيرون يوم القيامة جُثًا كلُّ أمَّة تتبع نبيَّها، يقولون يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النَّبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود ". (البخاري "4441"، والطبري في تفسيره، ج15 ص 146).

ومما يدلُّ على أنَّ المقام المحمود هو الشفاعة المحمدية لأهل الموقف حديث الدُّعاء عقب سماع الأذان، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النِّداء: "اللَّهم ربَّ هذه الدعوة التَّامة، والصلاة القائمة، آت محمَّدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته" حلَّت له شفاعتي يوم القيامة». (البخاري "589"، وابن خزيمة "420"، وابن حبان "1689").

وكذلك حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ فإنَّه من صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشرًا ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنَّها منزلة في الجنَّة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشَّفاعة». (مسلم "384"، وأبو داود "523"، وابن خزيمة "418").

ومحلّ الشاهد في الحديثين أنَّه ﷺ رتَّب استحقاق شفاعته يوم القيامة بسؤال الوسيلة والمقام المحمود له من الله جلَّ جلاله، فدلَّ على أن المقام المحمود هو شفاعته ﷺ للخلائق عند الله جلَّ جلاله.

وأصْرَحُ من ذلك حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ في =

= الشَّفاعة أنَّه ﷺ لمَّا يشفع للناس عند الله ويدخلهم الجنَّة حتَّى ما يبقى في النَّار إلاَّ من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود. قال ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال: «وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَه نبيُّكم ﷺ».

وأصرح من ذلك كلِّه ما رواه أبو هريرة ﷺ قـال: قال رسـول الله ﷺ: «المقام المحمود الشفاعة». (أحمد "10203"، والترمذي "3137"، وصححه الألباني في صحيح الجامع "6721").

ولا يعارض كلُّ هذا ما صحَّ إسناده من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يُبْعث النَّاس يوم القيامة، فأكون أنا وأمَّتي على تلٍّ، فيكسوني ربِّي حلَّة خضراء، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود». (ابن حبان "6479"، والحاكم وصححه على شرط الشيخين "3383").

إذْ يُحمل قوله "فأقول ما شاء الله أن أقول" على شفاعته لأهل الموقف عند الله ﷻ وهو الأولى والأقرب والله أعلم.

والقول بأنَّ المقام المحمود هو الشفاعة العظمى هو الذي عليه الجماعة من الصحابة ومن بعدهم وسبق ذكر الحجَّة في ذلك حتى قال بعضهم بأن الإجماع واقع على أنَّ المقام المحمود هو الشفاعة.

[من قال غير ذلك]: روي عن مجاهد أنه قال في تفسير المقام المحمود: يوسِع له على العرش فيجلسه معه. (ابن أبي شيبة "31652"، والسنة للخلَّال "282"، والتمهيد لابن عبدالبر، ج7 ص 158).

قال ابن عبدالبر بأنَّ تفسير مجاهد لهذه الآية على هذا المعنى منكر عند أهل العلم.

وبالغ الواحدي في تفسيره في ردِّ هذا القول وتزييفه.

ولم يستبعده الطبري في تفسيره حيث ذهب إلى القول بأنَّ المقام المحمود هو الشفاعة وإن كان هذا هو الصحيح من القول لتظافر الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين على هذا المعنى إلاَّ أنَّ ما قاله مجاهد غير مدفوع من جهة الخبر والنَّظر. (انظر تفسيره ج15 ص 147).

وكلام الطبري فيه نظر، فقول مجاهد في تفسير المقام المحمود وإن قُبل من جهة النظر فهو مردود من جهة الخبر، إذْ ليس لأحد مع تفسير رسول الله ﷺ وقوله تفسيرٌ وقوْلٌ، لا من صاحب ولا من تابع، كيف وقد استفاضت الأخبار =

ثُمَّ الحِسَابُ[1]، ....

= الصحيحة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ﷺ بأن المقام المحمود هو الشفاعة فيُقبل قول على خلاف قول رسول الله ﷺ.
ووقفت في بعض كتب التفسير وأصول الدين على جدل في قبول قول مجاهد وردِّه، لكن الأولى أن يوجَّه ردّ قول مجاهد على تفسير المقام المحمود في الآية بأن يجلس نبينا ﷺ على العرش، لا أن يُنكر جلوسه ﷺ على العرش على الإطلاق لأنَّ ذلك لا يحيله العقل، وقد قال بذلك أساطين أهل السنة والجماعة رحمهم الله أجمعين. (انظر مجموع الفتاوى، ج4 ص 374).
وقد قال ابن عبدالبرّ أن قول مجاهد هذا هو أحد القولين المهجورين في تفسيره. (التمهيد، ج7 ص 158).
بل صحَّ عن مجاهد من طريق أبي نجيح عنه أنَّه فسَّر المقام المحمود بشفاعة محمد ﷺ. (التمهيد، ج19 ص 64).
فكأن الإجماع انعقد بهذا القول على أنَّ المقام المحمود هو الشفاعة المحمدية.

(1) **[الحساب]**: هو سؤال الله ﷻ لعباده يوم القيامة عمَّا بدر منهم من القول والعمل في الدنيا سواء كان خيرا أم شرًّا.
ومنه سمِّي يوم القيامة بيوم الحساب لما يقع في من المحاسبة من الله ﷻ لعباده.
ودليل المحاسبة قوله تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم، الآية: 41]، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص، من الآية: 26]، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الغاشية: الآيتين: 25 ـ 26].
وفي الحديث الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسَب إلاَّ هلك» قالت: قلت يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ قال: «ذاك العرض يُعْرضون، ومن نوقش الحساب هلك». (البخاري بلفظه "4655"، ومسلم "2876").
ففي الحديث إثبات الحساب، وإثبات منِّ الله ﷻ على عباده الصالحين المؤمنين بعفوه عن السيئات وإكرامهم بمباركة الحسنات، لأنَّ كلَّ عبد لو أوقفه الله ﷻ على ذنوبه لخاب وخسر، قال العلاَّمة النووي ـ رحمه الله ـ في معنى الحديث: =

وَالمِيزَانُ[1]، ....

= "ومعناه أن التقصير غالب في العباد، فمن استقصي عليه ولم يسامَح هلك ودخل النَّار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء ". (انظر: شرح النووي على مسلم، ج17 ص 108 ـ 109).

(1) **[الميزان]**: ميزان الأعمال ثابت بنصوص الكتاب والسنة لا ريب فيه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 47]، وقال أيضاً: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة المؤمنون، الآيتين: 102 ـ 103]، فثبت أنَّ الميزان حقٌّ وأنَّ له كفَّتان كما دلَّت الأحاديث؛ كفة للعمل الصَّالح وأخرى للعمل السيِّء، فمن غلبت حسناته فاز وربح، ومن غلبت سيِّئاته خاب وخسر إلاَّ أن يعفو الكريم المنَّان.

[إنكار المعتزلة والجهميَّة للميزان]: وأنكر جهم والمعتزلة على آخرهم الميزان، إلاَّ أنَّ منهم من أحاله عقلا وهو قول جمهورهم، ومنهم من جوَّزه عقلا ولم يحكم بثبوته كالعلاَّف وابن المعتمر.

وقالوا: يجب حمل ما ورد في القرآن والسنَّة من الوزن والميزان على رعاية العدل والإنصاف، بحيث لا يقع فيه تفاوت أصلا، لا على آلة الوزن الحقيقي، وذلك لأن الأعمال أعراض قد عدمت فلا يمكن إعادتها، وإن أمكن إعادتها فلا يمكن وزنها إذْ لا توصف الأعراض بالخفَّة والثِّقل، بل هما مختصَّان بالجواهر، وأيضا فالوزن للعلم بمقدارها، وهي معلومة لله تعالى بلا وزن، فلا فائدة فيه، فيكون قبيحا تنزَّه عنه الربُّ تعالى. (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 525).

وقول جهم والمعتزلة من أقبح القول في حق الكتاب والسنة، إذْ رَدُّوا بعقولهم ما أثبت الكتاب والسنة وجوده، ولم يُعيروا لقدرة الباري ﷻ حقها من التعظيم، ومنشأ الانحراف عند هؤلاء إنَّما وقع من استصحابهم لأحوال الدنيا إلى عالم الآخرة، وقاسوا الغائب على الشاهد فردُّوا بالعقل ما ثبت بالنقل، مع أنَّ العقل معضِّد للنقل، وكما هو معلوم بأنَّ النقل هو الحاكم في أمور الغيب، والعقل مسلِّم بما قضى به النقل فيها ولا اعتراض.

وظواهر النصوص تردُّ قول جهم والمعتزلة، وأشهرها حديث البطاقة المشهور عن عبدالله بن عمرو بن العاص ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله سيخلِّص =

وَتَطَايُرُ الصُّحُف المُحْتَوِيَةِ عَلَى الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَلاَ تُخْطِىءُ صَحِيفَةٌ صَاحِبَهَا، فَالسَّعِيدُ يُعْطَاهَا بِيَمِينِهِ، وَالشَّقِيُّ يُعْطَاهَا بِشِمَالِهِ(1): ﴿فَمَن يَعْمَلْ

= رجلاً من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كلّ سجلّ مدّ البصر، ثمّ يقول له: أتنكر شيئا من هذا؟ أظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ. فيقول: أَفَلَكَ عُذْر أو حسنة؟ فيبهت الرجل ويقول: لا يا ربّ. فيقول: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلْم عليك اليوم، فيخرِج له بطاقة فيها "أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدا عبده ورسوله" فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنَّك لا تُظْلم. قال: فتوضع السجلاَّت في كفَّة، والبطاقة في كفَّة، فطاشت السجلاَّت، وثقلت البطاقة. قال: فلا يثْقل اسم الله شيء». (رواه ابن حبان "225"، والحاكم وصححه على شرط مسلم "9 و1937"، والترمذي وحسَّنه "2639").

فثبت بهذا النصِّ صراحة وجود ميزان بكفَّتين، توزن به الأعمال يوم القيامة، ونعتقده وندين لله به.

(1) [تطاير الصّحف]: الصُّحف التي تُنشر للعبد يوم القيامة هي سجلاَّت أعماله التي كان عملها في الحياة الدنيا، وكتبها له الكتبة من الملائكة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [سورة الانفطار، الآيتين: 10 ـ 11]، وتنشر هذه الصحائف بما فيها من أعمال حسنها وسيِّئها ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [سورة التكوير، الآية: 10]، فمن حسن عمله فهو السَّعيد الذي سُرَّ بكتابه، ويُسِّرَ حسابه، وطاب مآبه، وتلقَّف باليمين كتابه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [سورة الحاقة، الآيات: 19 ـ 24]، وقال أيضاً: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [سورة الانشقاق، الآيات من: 7 ـ 9].

وأما الذي ساء عمله فهو الشَّقي الذي شَقِي بكتابه، وعَسُرَ حسابه، وخاب مآبه، وتلقَّف من وراء ظهره بالشمال كتابه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾ [سورة الحاقة، الآيات: 25 ـ 29]، وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [سورة الانشقاق، الآيات: 10 ـ 12].

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[1].

وَمَنْ أَنْكَرَ ذُنُوبَهُ يَوْمَئِذٍ تَنْطِقُ أَعْضَاؤُهُ شَاهِدَةً عَلَيْهِ[2] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ

---

(1) سورة الزلزلة، الآيتين: 7 ـ 8. عن صعصعة بن معاوية رضي الله عنه عمُّ الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ قال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها. (رواه أحمد في المسند، ج5 ص 59، والطبراني في الكبير "7411". وقال في مجمع الزوائد ج7 ص 141: رجاله رجال الصَّحيح).

فالذي يؤخذ من كلام صعصعة رضي الله عنه أنَّ هاتين الآيتين قاضيتان في باب القول والعمل، فلا يحقرنَّ عامل ما دقَّ من الخير، فقد يبارك الله جل جلاله في ثواب القليل حتى لا يسعه ما بين السموات والأرض. ولا يستصغر سوء عمل فقد لا يدري لعلَّه يُختم له به ويبعث على ذلك. وحسبك أيها المؤمن بخبر الصادق المصدوق ﷺ في المرأة التي دخلت النَّار في هرَّة حبستها حتى ماتت، وفي الرجل الذي دخل الجنة في كلب سقاه فشكر الله له. وتأمَّل في أثر سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه قال: في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الإنسان، الآية: 8] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التَّمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك. (تفسير ابن أبي حاتم "19440").

واتَّعِظ بحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي سمعه من النبي ﷺ يقول فيه: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى بها بأسا يهوي بها في النَّار سبعين خريفا». (صحيح ابن حبان "5706"، والترمذي "2314"، وابن ماجة "3970").

(2) **[شهادة الجوارح والأعضاء على العبد يوم القيامة]**: إنما يُنْطق الله عز وجل أعضاء الإنسان لإقامة الحجَّة على المنكِر، لأنَّه جل جلاله هو أعلم العالمين، ولا اعتراض على حكمه وقضائه، وليس لأحد معه كلام ولا جدال، تعالى الله عن كل ذلك علوًّا كبيرا. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النور، الآية: 24].

وقال أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا =

﴿أَحَدًا﴾(1).

= ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [سورة فصلت، الآيات: 19 ـ 22]، فمن أنكر شيئا من العمل السابق كذبته أعضاؤه، فاللسان يقول قلت وشتمت واغتبت... واليد تقول سرقت وضربت... والرجل تقول جئت وذهبت، والعين تقول نظرت وحدّقتُ، والأذن تقول سمعت... فيبهت أمام رب العزة ﷻ ويبكم عند شهادة الشهود من الأعضاء والكتبة البررة والأنبياء المرسلين. ويشهد لذلك أيضاً الحديث الصحيح عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك. فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟». قال: قلنا الله ورسوله أعْلم. قال: «من مخاطبة العبد ربَّه. يقول: يا ربِّ ألم تُجِرْني من الظُّلْم؟ قال يقول: بلى. قال فيقول: فإنِّي لا أجيز على نفسي إلاَّ شاهدا منِّي. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي. قال فتنطق بأعماله. قال: ثمَّ يُخَلَّى بينه وبين الكلام. قال فيقول بُعْدًا لكُنَّ وَسُحْقًا فعنْكنَّ كنت أُنَاضِل». (مسلم "2969"، وأبو يعلى في مسنده "3977"، وابن حبان "3758").

وفي حديث الرؤية عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال في المنافق لمَّا يسأله ربُّه يوم القيامة فيجيب: «... فيقول: يا ربِّ آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصلَّيت وصمت وتصدَّقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا إذًا. قال: ثمَّ يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه مَنْ ذَا الذي يشهد عليَّ. فيُختم على فيه ويُقال لفخذه ولحمه وعظامه: أنطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه». (مسلم "2968"، وابن حبان "4642").

(1) سورة الكهف، من الآية: 49. فالله ﷻ حكم على نفسه أنه لا يظلم أحدا مما خلق، بل حرَّم الظلم على نفسه وحرَّمه على عباده كما في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّما فلا تظالموا» (مسلم، "2577"، وابن حبان "619"). بل منَّ ﷻ على عباده بالعفو والصَّفح الجميل والمغفرة ومضاعفة الحسنات ومحق السيِّئات، والظلم عن كل ذلك بعيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾ [سورة يونس، الآية: 44]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [سورة النساء، الآية: 40].

وَهُنَاكَ الحَوْضُ المُحَمَّدِيُّ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لاَ يَظْمَأُ أَبَدًا[1].

---

(1) **[الحوض المحمَّدي]**: هذا الحوض هو مصبُّ نهر الكوثر المذكور في كتاب الله ﷻ والذي وعد الله به نبيَّه ﷺ قال أنس بن مالك ﵁: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذْ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مُتَبسِّما فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أُنزلت عليَّ آنفا سورة؛ فقرأ بـ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [سورة الكوثر] ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنَّه نهر وعدنيه ربِّي ﷻ عليه خير كثير؛ هو حوض ترد عليه أمَّتي يوم القيامة، آنيته عدد النُّجوم، فيُخْتلج العبد منهم فأقول: ربِّ إنَّه من أمَّتي. فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك». (مسلم بلفظه "400"، وأبو داود "4747").

وهو النَّهر الذي رآه النَّبي ﷺ لمَّا عُرج به إلى السَّماء؛ فعن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدُّرِّ المُجَوَّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّك. فإذا طينُه أو طيبه مِسكٌ أذْفَر». (البخاري بلفظه "6210"، وأبو داود "4748").

ونبينا محمد ﷺ هو السابق إلى الحوض كما في حديث جندب ﵁ قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: «أنا فَرَطُكُمْ على الحوض». (البخاري "6217"، ومسلم "2289").

[وصف الحوض المحمدي]: وصف النبي ﷺ حوضه وصفا مفصلا لما سأله أبو ذر ﵁ قال: قلت يا رسول الله، ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السَّماء، وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية آنية الجنة، من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشْخَبُ فيه ميزابان من الجنة، مَنْ شرب منه لمْ يظمأْ، عرضه مثل طوله ما بين عَمَّان إلى أَيْلَة ماؤه أَشَدُّ بياضا من اللَّبَن وأحْلى من العسل». (مسلم "2300"، والترمذي "2445").

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص ﵁ قال رسول الله ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرة شَهْرٍ، وزواياه سَوَاء، وماؤه أبيض من الوَرِقِ، وريحه أطيب من المسك، وكِيزَانُه كنجوم السَّمَاء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعْدَه أبدًا». (البخاري "6208"، ومسلم بلفظه "2292").

وقال ﷺ يصوّر عظمة حوضه كما في حديث أنس ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بين ناحيتيْ حوضي كما بين صنعاء والمدينة». (مسلم "2303"، وابن حبان "6448"، والبخاري عن حارثة بن وهب "6219"). =

. . . .

= **[حوض النبيّ ﷺ لا يرده المُحْدِثون]**: وحوض النبي ﷺ لا يرد عليه المحْدِثون في الدين، والمنكصون على أعقابهم، ولا من صدَّق الكاذبين وأعان الظالمين؛ قالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهرانَيْ أصْحابِهِ: «إنِّي على الحوض أنتظر مَنْ يَرِدُ عليَّ منكم، فوالله ليُقْتَطَعَنَّ دوني رجال فلأقولنَّ: أيْ ربِّ مِنِّي ومِنْ أمَّتي. فيقول: إنَّك لا تدري ما عملوا بعدك؛ ما زالوا يرجعون على أعقابهم». (مسلم "2294"، وأحمد "24945").

وعن ابن أبي مليكة عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: قال النبي ﷺ: «إنِّي على الحَوْض حتى أنظر مَنْ يَرِد عليَّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يا ربِّ منِّي ومن أمَّتي، فيقال: هل شَعَرْتَ ما عملوا بعدك؛ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم» فكان ابن أبي مليكة يقول: " اللَّهم إنَّا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا ". (البخاري "6220"، ومسلم "2293").

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّه يكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس منِّي ولست منه وليس بوارد عليَّ الحوض، ومن لم يصدِّقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو منِّي وأنا منه وهو وارد عليَّ الحوض». (ابن حبان "279"، والترمذي "2259"، وأحمد ج4 ص 243).

قال ابن عبدالبرّ - رحمه الله -: " **وكلُّ من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه والله أعلم. وأشدّهم طردا من خالف جماعة المسلمين واتبع غير سبيلهم مثل الخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدِّلون، وكذلك الظَّلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، أهل الزيغ والأهواء والبدع، كلّ هؤلاء يُخاف عليهم أن يكونوا عنوا بهذا الخبر** ". (التمهيد، ج20 ص 262).

وبالتَّأمُّل في الأحاديث الصحيحة في هذا الباب نجد أن الكوثر المذكور في القرآن وصحيح السنة، هو غير الحوض الذي يرد عليه أتباع الرسول ﷺ يوم القيامة، لأنَّ حقيقة النَّهر غير حقيقة الحوض في اللغة، ويؤيد كلامنا الرواية الأخرى عند مسلم وأبي داود عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ لما وصف نهر الكوثر قال: «عليه حوض» وعقب على ذكر الحوض بأوصافه التي ذكرتها الأحاديث، ففرَّقت الرواية بين =

وَالصِّرَاطُ؛ وَهُوَ جِسْرٌ رَقِيقٌ عَلَى جَهَنَّمَ[1]، ....

= النَّهر والحوض وكلُّ ذلك زيادة خير للنبيِّ ﷺ ولأمته، فكما خصَّه الله تعالى بالحوض خصَّه كذلك بالكوثر والله أعلم.

وممَّا يؤيد قولنا أنَّ أهل العلم لم يختلفوا في معنى الحوض لأنَّ معناه مقطوع به، لكنهم اختلفوا في تفسير الكوثر المذكور في السورة على مذاهب شتى؛ فقيل الكوثر هو حوضه. وقيل نهر في الجنة. وقيل الخير الكثير. وقيل الشفاعة. وقيل المعجزات الكثيرة. وقيل النبوَّة.وقيل القرآن، وقيل المعرفة. (انظر الشفا للقاضي عياض ص 19، والدر المنثور للسيوطي، ج8 ص 646 وما بعدها).

ولمَّا حقَّقت في هذه المسألة وذكرتُها وقفت على ذكر الحافظ لها في الفتح، وذلك من فضل الله ومنِّه. (انظر الفتح، ج11 ص 467).

وعلى كلٍّ فثبت قطعا بأنَّ لنبينا ﷺ حوض يرد عليه أتباعه يوم القيامة، ولا إشكال في كونه هو نهر الكوثر نفسه أو مصبُّ نهر الكوثر، وهو اعتقاد أتباع النبيِّ ﷺ من أهل السنة والجماعة.

[إنكار المعتزلة والخوارج للحوض المحمدي]: زاغ بعض المعتزلة والخوارج عن السبيل وأنكروا الحوض وضربوا صفحا عن الأحاديث التي بلغت التواتر في الحوض، ولستَ تدري متمسكهم، فإن كان متمسكهم العقل فالعقل لا يحيل ذلك، والنقل بلغ التواتر، والذي يظهر أنهم استصحبوا حال أحواض الدنيا ليقيسوا عليه حوض نبينا ﷺ فوجدوا أنَّ وصف حوض الجنة الذي أخبرنا به الصادق المصدوق لا يشابه أحواض الدنيا فأنكروه لذلك والله أعلم، **لكننا نقطع بوجوده على الوصف الذي أخبرنا به ﷺ ونسأل الله ﷻ** أن يسقينا منه بحضرة نبينا ﷺ، ومن أنكره لا نَصِيب له منه، ولا يستوي المقرُّ والمنكر.

وكان عبيد الله بن زياد أحد أمراء العراق ينكر الحوض، وحاجَّه بعض الصحابة في مذهبه، فممَّن عارضه أبو برزة، وزيد بن أرقم، وأبو سبرة، وأنس بن مالك ﷺ ولكلٍّ منهم قصة معه. (انظر الفتح، ج11 ص 467 ـ 468، والإبانة ص 245).

(1) **[حقيقة الصراط]**: تعريف المصنف للصراط هو الذي مشى عليه أهل الحق من أهل السنة والجماعة. وزاد بعضهم بأنه أحدُّ من السيف وأدقُّ من الشعرة. (قواعد العقائد لأبي حامد الغزالي، ص 223، وأصول الدين للغزنوي، ص 238).

هكذا رواه مسلم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: بلغني أنَّ الجسر أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف. (مسلم "183"، وابن حبان "7377"). =

= ومما هو مشتهر عند الحفاظ والمحدِّثين أن بلاغ الصَّحابي مما لا مجال فيه للرأي والاجتهاد له حكم الرَّفع.

وثبت في صحيح السنة أنَّ الصراط على الوصف المذكور يضرب يوم القيامة على جهنم ويمرُّ عليه الناس جميعا، وأوَّل من يجتازه هو رسولنا ﷺ مع أمَّته، فعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا: «... فيضرب الصِّراط بين ظهراني جهنَّم فأكون أوَّل من يجوز من الرسل بأمَّته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرُّسل، وكلام الرُّسل يومئذ "اللهم سلِّم سلِّم" وفي جهنَّم كلاليب مثل شوك السَّعدان، هل رأيتم شوك السَّعدان؟ قالوا: نعم. قال: فإنَّها مثل شوك السَّعدان غير أنَّه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تَخْطَف الناس بأعمالهم؛ فمنهم مَنْ يُوبِقُ بعمله، ومنهم من يخرْدِل ثم يَنْجُو...». (البخاري "773"، ومسلم "182"، وأحمد "7914").

وقيل بأنَّ الصراط هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة مريم، الآيتين: 71 ـ 72]، وثبت عن بعض الصحابة أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَارِدُهَا﴾ بالمرور على الصراط منهم ابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وابن زيد ﷺ ورجحه الطبري. (انظر تفسير الطبري، ج16 ص 110 ـ 112).

[إنكار المعتزلة للصراط]: وأنكر جمهور المعتزلة الصِّراط واختلف فيه قول الجبائي فنفاه تارة وأثبته أخرى. وذهب أبو الهذيل وبشر بن المعتمر إلى جوازه دون الحكم بوقوعه.

واحتجَّ المنكرون بأنَّ من أثبته بالمعنى المذكور وَصَفَه بأنَّه أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف، وعلى تقدير كونه بهذا الوصف لا يمكن عقلا العبور عليه، وإنْ أمْكن العبور لا يمكن إلا مع مشقة عظيمة، ففيه تعذيب المؤمنين، ولا عذاب عليهم يومَ القيامة. (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 525).

وقد سبق في عدة مواضع ردّ مثل قياسات المعتزلة لعالم الغيب على عالم الشهادة. وأفسد من ذلك تحكيم العقل في أمور الآخرة فهو من أعظم الجهل. ومن عظائم الإثم ردُّ حديث الصادق المصدوق ﷺ في ذلك.

وقدرة الباري ﷻ لا يعجزها شيء، فكما يهدي الصالحين في الدنيا إلى طريق الحق أهون عليه أن يمكِّنهم من عبور الصراط ويسهله عليهم، وكما شقي أهل الباطل في الدنيا فهم أشقى عند المرور على الصراط ويصعِّبه عليهم.

وَالمُرُورُ عَلَيْهِ مُخْتَلِفٌ، فَمِنْ ناجٍ وَمِنْ عَاطِبٍ، ثُمَّ إِلَى الجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ[1].

---

(1) [اختلاف مرور الناس على الصراط]: هذا الذي ثبت في صحيح السنَّة النبوية من أنَّ الناس يختلف مرورهم على الصراط بحسب أعمالهم، فعن عبدالله بن مسعود ﷺ في حديث طويل يرفعه إلى النبي ﷺ في وصف هول الموقف وفيه أن الله ﷻ لما يتمثل للنَّاس من أمَّة محمد ﷺ: «... فيعطون نورهم على قدر أعمالهم. قال فمنهم من يُعْطَى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعْطَى نوره فوق ذلك، ومنهم من يُعْطَى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يُعْطَى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر ذلك مَنْ يُعْطَى نوره على إبهام قدمه يضيء مرَّة ويطفىء مرَّة، فإذا أضاء قدَّمه وإذا طفىء قام. فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السَّيف دَحْضٌ مَزِلَّة. فيقال انجوا على قدر نوركم؛ فمنهم من يمرُّ كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرُّ كالطَّرف، ومنهم من يمرُّ كالرِّيح، ومنهم من يمرُّ كشدِّ الرَّحْل ويرمل رملا، فيمرُّون على قدر أعمالهم حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدمه. قال يجرُّ يدا ويعلق يدا، ويجر رجلا ويعلق رجلا، وتضرب جوانبه النَّار. قال فيخلصوا، فإذا خلصوا قالوا الحمد لله الذي نجَّانا منك بعد الذي أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدا...». (الحاكم بلفظه "3424" وصححه على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير "9463"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب "3591").

وصحَّ كذلك عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال في حديث الرؤية الطويل: «... ثم يضرب الجسر على جهنَّم وتحلُّ الشفاعة، ويقولون اللَّهم سلِّم سلِّم. قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دَحْضٌ مَزِلَّة فيه خَطَاطِيفُ وكَلالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يقال لها السَّعْدَان فَيَمُرُّ المُؤْمِنُونَ كطرْفِ العيْنِ وكَالبَرْقِ وكالرِّيحِ وكَالطَّيْرِ وكَأجاويدِ الخيل والرِّكاب فَنَاجٍ مسلَّم ومخْدوشٌ مرسلٌ ومكْدوسٌ في نار جهنَّم...».(مسلم بلفظه "183"، وأحمد "11143").

[ترتيب أمور الآخرة المذكورة]: الذي يظهر من صنيع المصنف ـ رحمه الله ـ في عبارته الأخيرة أنَّ الحشر تعقبه الشفاعة ثم الحساب والميزان على الترتيب المذكور لأنَّه ربط بينها بـ"ثُمَّ" ليفيد التعقيب، ثم قال: "وهناك الحوض المحمَّدي...والصِّراط" دون أن يفيد الترتيب والتعقيب بين الحوض والصِّراط، ولا بين الحوض والصراط وما قبلهما من الأحوال، وهذا يفيد ميل المصنف للتوقف في مسألة الحوض والصِّراط أيهما أسبق في الورود. =

....

= والخلاف بين أهل العلم واقع في هذه المسألة، فالظاهر من كلام بعض المالكية أنَّ الحوض قبل الوزن والحساب والصراط، واختاره العدوي والنفراوي من المالكية. (حاشية العدوي، ج1 ص 98، والفواكه الدواني، ج1 ص 91).

وذهب أبو حامد الغزالي إلى أن ورود الحوض يكون بعد الميزان والمرور على الصراط، وقبل دخول الجنة، وهذا مقتضى مذهب البخاري في صحيحه. (الإحياء، ج1 ص 92، والفتح، ج11 ص 466).

وقال أبو الحسن القابسي بأنَّ الحوض قبل الميزان.

وقال القرطبي الصحيح بأنَّ للنبي ﷺ حوضين؛ أحدهما في الموقف قبل الصراط، وآخر داخل الجنة، وكلٌّ منهما يسمى "كوثرا". وتعقَّبه ابن حجر في الفتح.

فمن قال بأنَّ الحوض بعد الصراط استدلَّ بحديث أنس ﷺ أنه قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة. فقال: «أنا فاعل» قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: «اطلبنى أوَّل ما تطلبني على الصِّراط» قال: قلت فإن لم ألقك على الصِّراط؟ قال: «فاطلبنى عند الميزان» قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فاطلبني عند الحوض فإنِّي لا أخطىء هذه الثلاث المواطن». (الترمذي "2433"، وأحمد "12848"، وصححه الألباني في صحيح الترمذي).

فالحديث صريح في أنَّ الحوض بعد الصراط والميزان.

وقالوا كذلك بأنَّ الحوض لا يرده إلاَّ من نجا من النَّار، فوجب أن يكون بعد الصراط وبعد الميزان.

ومن قال بأنَّه قبل الصراط استدل بحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا أنا قائم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمَّ. فقلت: أين؟ قال: إلى النَّار والله. قلت: وما شأنهم؟ قال: إنَّهم ارتدُّوا بعدك على أدبارهم القهقري. ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلمَّ. قلت: أين؟ قال: إلى النَّار والله. قلت: ما شأنهم؟ قال إنَّهم ارتدُّوا بعدك على أدبارهم القهقري فلا أراه يخلص منهم إلا مثلُ هَمَلِ النَّعَمِ». (البخاري "6215").

فدلالة الحديث قوية على أنَّ الحوض قبل الصراط، لأنَّ قوله "بينا أنا قائم" المقصود قيامه على الحوض، وأدرجها بعضهم في الحديث حتَّى ليظنُّ أنها منه =

س ـ مَا الأَعْرَافُ؟

ج ـ الأَعْرَافُ(1) سُورٌ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ(2)، ....

= وليست كذلك كما فعل في زاد المعاد، ج3 ص 682، والمنذري في الترغيب والترهيب "5482".

والأرجح في هذه المسألة ترك الأمر على إطلاقه مع وجوب الاعتقاد بأنَّ الميزان حقٌّ والصراط حقٌّ والحوض حقٌّ، ولا يضرُّ الجهل بالمتقدِّم والمتأخِّر منها، قال ابن العربي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ عن البحث في هذه المسألة مِن قَفْو ما لا سبيل إلى علمه لأنَّ هذا أمر لا يدرك بنظر العقل، ولا بنظر السَّمع، وليس فيه خبر صحيح، فلا سبيل إلى معرفته. (انظر أحكام القرآن، ج3 ص 201).

(1) **[معنى الأعراف]**: الأعراف جمع عُرْف وهو كلُّ عال مرتفع، يقال عُرْف الأرض، ما ارتفع منها، وجبل أعرف أي مرتفع، وأعراف الرياح والسحاب؛ أوائلها وأعاليها. (لسان العرب لابن منظور، ج9 ص 241 ـ 242).

قال الطبري: وإنَّما قيل لعُرْفِ الديك عرْف لارتفاعه على ما سواه من جسده. (تفسير الطبري، ج8 ص 188).

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الأعراف الشيء المشْرف. وقال أبو مجلز: مكان مرتفع. (تفسير ابن أبي حاتم "8493"، وسنن سعيد بن منصور "957").

(2) وهذا التعريف هو المشتهر عند أئمة السلف، ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 46]، أي حجاب بين الجنَّة والنَّار، وهو سور يفصل بين أهل الجنة وأهل النَّار. قال ابن عباس: والأعراف السُّور الذي بين أهل الجنَّة وأهل النَّار وهو الحجاب. (تفسير ابن أبي حاتم "8489").

وبمثل قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال حذيفة ومجاهد والسدِّي والضحاك وقتادة وأبو جعفر وغيرهم. (تفسير ابن أبي حاتم "8491"، وتفسير الطبري، ج8 ص 189).

وعلى هذا المعنى اتفق جماعة المسلمين من أهل السنة والجماعة، وهذا السور هو المذكور في القرآن فيما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يعني بالأعراف السور الذي ذكر الله في القرآن وهو بين الجنة والنَّار. (تفسير الطبري، ص 189، والدر المنثور، ج3 ص 461).

ويقصد ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة الحديد، من الآية: 13]. =

وَأَصْحَابُهُ مُطِلُّونَ عَلَى الجَمِيعِ[1]، ....

= وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج أنه قال عن الأعراف: زعموا أنّه الصراط. (تفسير ابن أبي حاتم "8496").
وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الأعراف تلٌ بين الجنة والنَّار. (تفسير الطبري، ج8 ص 189).
والقول الأول أصح الأقوال وعليه الاتفاق.

(1) [أهل الأعراف مُطلون على أهل الجنة والنار]: أي مطلُّون على أهل الجنة وأهل النَّار، ويعرفون كلاًّ منهم بأمارات وعلامات تدلّ عليهم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ قال أهل التأويل بأنهم يعرفون أهل الجنَّة ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليها، ويعرفون أهل النَّار بسواد وجوههم وزرقة أعينهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: يعرفون أهل النَّار بسواد الوجوه، وأهل الجنة ببياض الوجوه.
وبمثل قول ابن عباس قال مجاهد والضحاك والسدِّي وقتادة. (انظر تفسير الطبري، ج8 ص 194 ـ 195).
فإذا اطلعوا على أهل الجنة عرفوهم ببياض وجوههم ونادوا عليهم: ﴿أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أهل النَّار عرفوهم بسواد وجوههم والتجأوا إلى الله عز وجل ضارعين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.
والقول المشتهر عند أهل السنة والجماعة أنَّ أصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيِّئاتم فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم ولا سيئاتهم على حسناتهم فوقفوا على السور الذي بين الجنة والنَّار.
وعلى المعنى الذي ذكرناه قول جمهور المفسرين، وهو المنقول عن ابن عباس وحذيفة وابن مسعود وسعيد بن جبير وأبي علقمة والضحاك وغيرهم. (انظر تفسير الطبري، ج8 ص 192 ـ 193، والدر المنثور، ج3 ص 467 وما بعدها).
وقال مجاهد: أصحاب الأعراف قوم صالحين فقهاء علماء. (تفسير ابن أبي حاتم "8506"، والطبري، ج8 ص 193).
وقال الحسن: هم قوم كان فيهم عجب. (تفسير ابن أبي حاتم "8508").
وقال مسلم بن يسار: هم قوم كان عليهم ديْن. (تفسير ابن أبي حاتم "8504").
وقال عبدالله بن الحارث بن نوفل: هم فقراء أهل الجنة. (تفسير ابن أبي حاتم "8503").
وقال أبو مجلز: هم الملائكة. (تفسير الطبري، ج8 ص 193). =

وَعَاقِبَتُهُمْ دُخُولُ الجَنَّةِ[1].

= وأرجح الأقوال والله أعلم هو القول الأوَّل، لأثر حذيفة ﷺ قال: " أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النَّار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النَّار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فبينما هم كذلك إذا طلع عليهم ربك قال: قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم ". (الحاكم وصححه على شرط الشيخين "3247"، والطبري في تفسيره، ج8 ص 190).

(1) **[عاقبة اهل الأعراف دخول الجنة]**: تقدَّم في أثر حذيفة ﷺ أنَّ الله ﷻ يطَّلع على أهل الأعراف ويأمرهم بدخول الجنة.

وأشار القرآن إلى أنَّ أهل الأعراف لما يحيُّون أهل الجنة بالسلام وفي أنفسهم طمع في دخولها، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 46]، أي يطمعون في دخول الجنة.

قال ابن عباس ﷺ: فأدْخَل الله أصحاب الأعراف الجنة. (الطبري، ج8 ص 196).

وعن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 49]، قال: كان رجال في النَّار قد أقسموا بالله لا ينال أصحاب الأعراف من الله رحمة فأكذبهم الله، فكانوا آخر أهل الجنة دخولا فيما سمعناه عن أصحاب النبي ﷺ. (الدر المنثور، ج3 ص 468).

وعن الحسن تلا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا الكرامة يريد بهم. (تفسير ابن أبي حاتم "8517").

قال مجاهد في أصحاب الأعراف: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم على سور بين الجنة والنَّار، وهم على طمع في دخول الجنة وهم داخلون. (معاني القرآن للنحاس، ج3 ص 40).

[مقتضى مذهب المعتزلة في أهل الأعراف]: قد اشتهر من مذهب جمهور المعتزلة أنَّ المعصية الواحدة تحبط جميع الطاعات، فمن باب أولى أن تحبط المعصية ما يساويها من الطاعة، فمقتضى مذهبهم استحالة أن يكون هناك أهل الأعراف على المعنى المشتهر الذي قدمناه عن أهل السنة والجماعة.

أمَّا الجبائيان وأتباعهما من المعتزلة على فقالوا بعدم إمكان تساوي الثواب والعقاب؛ أي لا يتساوى الطاعات والزلات وإلا تساقطا؛ إذ لا يجوز بقاؤهما معا لما مرَّ من التنافي بين الثواب والعقاب وبين استحقاقيهما أيضا، ولا يجوز =

س ـ هل الجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ؟

ج ـ نَعَمْ مَخْلُوقَتَانِ الآنَ[1]، وَفِيهِمَا مَا قَالَهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ.

= إسقاط أحدهما بالآخر لتساويهما فرضا، وإذا تساقطا معا فلا يكون ثمَّة ثواب ولا عقاب وهذا من المحال.

فعند أبي علي الجبائي إنما تكون استحالته من جهة العقل لأن إبطال كلّ منهما للآخر إما معا أو على التَّعاقب، وكلاهما محال.

وعند ابنه أبي هاشم الجبائي أنَّ العقل لا يدلُّ على امتناع التَّساوي؛ إذْ ما من مرتبة من مراتب الطاعات إلا ويُجَوِّز العقل بلوغ المعاصي إليها، وبالعكس، ولا استحالة من جهة العقل في تساقطهما أيضاً لأن كل واحد من العملين يؤثر في استحقاق الآخر. وإنما استحالته عند أبي هاشم للإجماع على أن لا خروج للمكلف عنهما، بل كل مكلف إما من أهل الجنَّة أو النَّار، ولا بدَّ له من الخلود في إحديهما، ولا يتصور وقوع أحد الخلودين مع التساوي في الموجب.

والجواب أنَّه على تقدير تساوي الحسنات والسيِّئات وتساقطهما معا لا يلزم خلو المكلف عن الثواب والعقاب لجواز التفضل بالثواب. ويجوز أيضاً أن لا يثاب ولا يعاقب، ولا يكون من أهل الجنة ولا النَّار، بل يكون ممن استوت طاعاته ومعاصيه، وهم أهل الأعراف، وعاقبتهم الجنة بفضل من الله ورحمة كما سبق تفصيله وصحَّت فيه الآثار. (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 504 ـ 505 مع التصرف والإضافة).

وإسراف المعتزلة في استعمال النظر العقلي في علوم الآخرة حجبهم عن معاني الأسماء العلا للباري ـ جل وعلا ـ فحَجَبَهم العقل عن معنى "العفو" الذي يعفو عن المذنبين بمضاعفة الحسنات ومَحْق السيئات، وحجبهم عن معنى "الغفور" الذي يغفر الذنوب جميعاً، ويُبْقِي على الثواب كلِّه، وحجبهم عن معنى "الرحيم" الذي يتغمد برحمته من يشاء، وحجبهم عن معنى "الرؤوف" الذي يرأف بمن يشاء من عباده، وحجبهم عن معنى "الكريم"، وعن معنى "الحليم"، وعن معنى "التوَّاب"... ولا حجَّة من النقل ولا من العقل تدلُّ على أنَّه يُحرم من كل هذا من استوت حسناته وسيِّئاته كأهل الأعراف، بل على العكس دلَّ الدليل، والله أعلم.

(1) **[الدليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن]**: نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية =

= الشريفة طافحة بالأدلة القاطعة بأنَّ الجنة والنَّار مخلوقتان ومعدَّتان لأهلهما، ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى عن خلق الجنة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [سورة آل عمران، الآية: 133]، وقال عن خلق النَّار: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [سورة آل عمران، الآية: 131]، والشيء المعدُّ لا يكون إلاَّ مخلوقا موجودا، وإلاَّ لم يكن هناك معنى لقوله: ﴿أُعِدَّتۡ﴾.

كما أنَّ في قوله ﷻ عن الجنة ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ دليل على أنَّها موجودة مخلوقة ولها عرض لأنَّ المعدوم لا عرض له.

ودليل آخر على خلق الجنة قوله ﷻ في قصة أبينا آدم عليه السلام: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [سورة البقرة، الآيتين: 35 ـ 36]، ففي الآيتين دليل صريح في أنَّ الجنة مخلوقة، وقد سكنها أبونا آدم وأُمُّنا حواء، وأُخرجا منها بسبب الأكل من الشجرة، لأنَّ المعدوم لا يُسْكن، كما أنَّ المتبادر في لفظ الجنة هو الجنة المعدَّة للمتقين، لأنه لا دليل يصرف المعنى إلى غير حقيقته الشرعية المعروفة، بل المعنى الشرعي هو الأصحّ والأولى بالحمل.

والأدلَّة من السنَّة كثيرة جدًّا من أصرحها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لمَّا خلق الله الجنَّة والنَّار أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة فقال: أنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمَر بها فحُفَّتْ بالمكاره. فقال: اذهب إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فنظر إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره فقال: وعزَّتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب فانظر إلى النَّار وإلى ما أعددت لأهلها فيها فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضا فرجع فقال: وعزَّتك لا يدخلها أحد. فأمر بها فحُفَّت بالشهوات. فقال: ارجع فانظر إليها. فنظر إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالشهوات فرجع وقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها». (النسائي بلفظه "3763"، والترمذي "2560" وصححه الألباني).

وكذلك حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، إنْ كَانَ من أهل الجنة فمن أهل الجنَّة، وإنْ كَانَ من أهل النَّار فمن أهل النَّار، فيقال: هَذَا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القِيَامَة». (البُخَارِي "1313"، ومسلم "2866"، وابن حبان "3130"، والترمذي "1072"). =

....

= وقد عُرف في بداهة العقول أنَّ المعدوم لا يُعرض لأنَّه لم يخلق.
وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل شهر رمضان فُتحت أبواب الجنة، وغُلقت أبواب النَّار وصُفدت الشياطين». (البخاري "1799"، ومسلم "1079"، والنسائي "2097").
والمعدوم لا تطرأ عليه الأعراض من الفتح والغلق.
ومما ذكرناه من الأدلَّة كفاية وحصرها شاق لكثرتها في الكتاب والسنَّة.
وعلى القول بأنَّ الجنة والنَّار مخلوقتان جرى مذهب السلف والخلف من أهل السنة والجماعة قبل أن ينبغ المبتدعة بباطلهم، فصار أهل السنة بعد ذلك يجاهرون بهذا القول في عقيدتهم لظهور المخالف من أهل البدع، قال محمد بن وضاح: سألت يحيى بن معين عن الجنة والنَّار فقال: مخلوقتان لا تبيدان. (التمهيد لابن عبدالبر، ج19 ص 112).
[مذهب بعض المعتزلة والخوارج في خلق الجنة والنار]: شذَّ الخوارج وفريق من المعتزلة منهم عباد الضيمري، وضرار ابن عمرو وأبي هاشم وعبدالجبار فقالوا بأن الجنة والنَّار لم تخلقا بعد وإنما تخلقان يوم الجزاء.
وتهافتوا في إقامة الحجة لقولهم، فأما عبَّاد فاستند لدليل العقل، وقال لو وجدتا فإمَّا في عالم الأفلاك أو العناصر أو في عالم آخر، وهذه الثلاثة لا تصحّ؛ لأنَّ عالم الأفلاك لا يقبل الخرق والإلتئام فلا يخالطه شيء من الكائنات، ولو قلنا في عالم العناصر لاستلزم القول بالتناسخ وهو باطل، ولو قلنا في عالم آخر لكان كرويا وافترض بينهما الخلاء سواء تماسا أو تباينا، وهذا كذلك باطل.
والجواب أنَّ امتناع الخرق على الأفلاك غير مسلَّم ولا دليل على الامتناع، والقول بأنَّها في عالم آخر لا يقتضي القول بالتناسخ، كما أنَّ القول بوجود عالم آخر غير محال.
واستند أبو هاشم لدليل السمع من وجهين؛
الأول: قوله تعالى في وصف الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [سورة الرعد، من الآية: 35]، أي مأكولها دائم.
والثاني: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [سورة القصص، من الآية: 88]، قال أبو هاشم: فلو كانت الجنة مخلوقة وجب هلاك أكلها لاندراجه حينئذ فيما حكم عليه بالهلاك فلم يكن دائما، وهو باطل بالآية الأولى، فتعين أنها ليست مخلوقة الآن فكذا النَّار. =

= **والجواب** أنَّ أُكلها دائم بدلا؛ أي كلَّما فني منه شيء جيء ببدله فإنَّ دوام أكل بعينه غير متصور، لأنَّه إذا أُكل فقد فني فدوام أكله على سبيل البدل لا ينافي هلاكه. (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 487، والفصل لابن حزم، ج4 ص 68).
[بيان قول من قال بأنَّ الجنَّة الموعودة ليست التي سكنها آدم عليه السلام]: نقل أبو محمد ابن حزم عن القاضي منذر بن سعيد أنه كان يقول بأن الجنة والنَّار مخلوقتان لكنَّ الجنة الموعودة للمتقين ليست التي كان فيها آدم وحواء. **واحتج بعدة حجج منها**: أنها لو كانت جنة الخلد لما أكل من الشجرة رجاء أن يكون من الخالدين.
وأجيب بأنَّه قد علمنا أنَّ أكْله من الشجرة لم يكن ظنّه فيه صوابا ولا أكله لها صوابا، وإنَّما ظنًّا ولا حجة فيما كان هذه صفته، والله عز وجل لم يخبره بأنَّه مخلَّد في الجنة بل قد كان في علم الله تعالى أنه سيخرجه منها فأكل عليه السلام من الشجرة رجاء الخلد الذي لم يضمن ولا تيقن به لنفسه.
واحتجَّ أيضا بأنَّ جنَّة الخلد لا كذب فيها وقد كذب فيها إبليس، وقال من دخل الجنة لم يخرج منها، وآدم وامرأته ـ عليهما السلام ـ قد خرجا منها.
وأجيب بأنَّ هذا لا حجة فيه، ولا نصَّ ولا إجماع يؤيد قوله، وإنَّما تكون كذلك إذا كانت جزاء لأهلها كما أخبر عز وجل عنها.
واحتجَّ أيضا بقول الله عز وجل لآدم عليه السلام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ قال: وقد عريَ فيها آدم عليه السلام.
وأجيب بأنَّ هذا حجة عليه لا له، لأنَّه ما من مكان في السموات والأرض إلاَّ ويُجاع فيه ويُعرى، ويُظمأ فيه ويُضحى إلاَّ الجنَّة فدلَّ على أنَّ الآية إنما فيها وصف الجنَّة وإنَّما عري آدم حين أكل من الشجرة فأُهبط عقوبة.
ومن أكبر البراهين على أنَّ الجنة التي سكنها آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ إنما هي الجنة المعروفة المعهودة بدليل قوله تعالى لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فأشار بـ"ال" العهدية على الجنَّة المعهودة المعروفة.
والأدلَّة التي تدلُّ على أنَّ الجنة التي سكنها آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ هي الجنة الموعودة للمحسنين كثيرة، اكتفينا بما ذكرنا. (انظر الفصل لابن حزم، ج4 ص 68 ـ 69).
واختلف قول مَنْ ذهب إلى قول منذر بن سعيد في مكان الجنَّة التي أُخرج منها =

وَالنَّعِيمُ وَالعَذَابُ مَحْسُوسَانِ حَقِيقَةً لاَ مَجَازًا[1].

= **آدم** عليه السلام وزوجه، فمنهم من قال بأنَّها في السماء لأنهما أُهبطا منها. ومنهم من قال في الأرض لأنَّ الله امتحنهما فيها بالأمر والنهي. (أعلام النبوة للماوردي، ص 79).

(1) **[النعيم والعذاب حقيقي وليس مجازي]**: هذا الذي يدلُّ له صريح القرآن الكريم والسنة الصحيحة من أنَّ العذاب والنعيم في الآخرة حقيقة محسوسة تقع للروح والجسد معا، فكل ما ورد من الآيات والأحاديث إنما تحمل على المعنى الذي ذكرناه، ولا ضرورة تدعو لتخصيص الروح دون الجسد، أو لتخصيص الجسد دون الروح بالنعيم والعذاب، لأنه لا معنى لجسد دون روح ولا لروح دون جسد، فوجب أن يُحمل كل ما ورد في النعيم والعذاب من النصوص على الحقيقة الشرعية المعروفة، لأنه من العدل أن يشترك الروح والجسد في الجزاء كما اشتركا في العمل.

ومغزى المصنف ـ رحمه الله ـ من هذه العبارة هو دفع ما نبغت به بعض الطوائف من المبتدعة وغلاة المتصوفة والفلاسفة الإلهيين من أنَّ العذاب والنعيم في الآخرة إنما هو روحاني لا جسماني بمعنى أنَّ الجسد لا يتعذب وإنما تتعذب الروح فقط.

وهذا من أفسد القول والأدلة كلها على خلافه، قال عن ابن عباس رضي الله عنه: ما زالت الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى خاصم الروح الجسد؛ فقال الجسد: يارب إنَّما كنت مثل الخشبة النَّخرة ليس لي يد أبطش بها، ولا عين أبصر بها، ولا أذن أسمع بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عقل أعقل به، حتَّى جاء هذا فدخل فيَّ فنجِّني منه، وخلِّد عليه العذاب اليوم. وقالت الروح: يا ربِّ منك الرُّوح وأنت خلقته، إنَّما كنت كالشِّهاب لم يكن لي يد أبطش بها، ولا عين أبصر بها، ولا أذن أسمع بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عقل أعقل به، حتى جئت فدخلت في هذا الجسد فخلِّد عليه العذاب، ونجِّني منه اليوم. فقيل يُضرب لكما مثل مثلكما؛ كمثل أعمى ومُقْعد دخلا حائطا دانية ثمارها، فالأعمى لا يبصر الثمار فيتناول منها، والمُقْعد يبصرها ولا ينالها، فدعى المُقْعد الأعمى فقال احملني حتى أسددك فآكل وأطعمك، فحمله وسدده فأدركا وهما كذلك، فعلى أيّهما يقع العذاب؟ قال: عليهما جميعا. قال: فالعذاب عليكما. (الإيمان لمحمد بن يحي العدني "71").

فَفِي النَّارِ: نَارٌ مُوقَدَةٌ، وَسَلاسِلُ وَأَغْلالٌ وَغَيْرِهَا عَلَى صُورَةِ المُسَمَّيَاتِ بِتِلْكَ الأَسْمَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَتِ الأُخْرَى أَكْبَرُ وَأَفْظَعُ وَأَشَدُّ وَأَخْزَى[1].

وَفِي الجَنَّةِ: اللِّبَاسُ وَالطِّيبُ وَمُبَاشَرَةُ النِّسَاءِ، وَالأَكْلُ وَالشُّرْبُ، وَنَحْو ذَلِكَ مِثْلَ صُورَةِ الذِي فِي الدُّنْيَا، لَكِنْ هُنَاكَ أَجْمَلُ وَأَنْقَى، وَأَكْمَلُ وَأَبْقَى[2].

---

(1) **[بعض أحوال النار في الكتاب والسنة]**: اقتضى أسلوب الترهيب في القرآن والسنة وصف حقيقة المآل لأهل الكفر والعناد على نحو رهيب قد لا يصل العقل إلى إدراكه فظاعة الهول وشدته، وتجسَّد ذلك في آيات كثيرة تتوعَّد من ضل عن الحق بالخزي في العاقبة؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة، من الآية: 81]، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية: 127]، وقوله أيضاً: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، من الآية: 26]، وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [سورة فصلت، من الآية: 16]، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [سورة الإنسان، الآية: 4]، وليست السلاسل والأغلال كالتي نعرفها في الدنيا وإنما هي أفظع وأشدُّ وأخزى كما قال المصنف، والقرآن لا ينطق إلاَّ بالحقِّ ولا مبالغة فيه: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية: 55]، فلو علموا فعلا ماذا ينتظرهم من عذاب السموم، وعذاب الجحيم، وعذاب السعير لآمنوا بالحق الذي جاءهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم» قيل يا رسول الله إنْ كانت لكافية. قال: «فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءا كُلُّهن مثل حرِّها». (البخاري "3092"، ومسلم "2843"، وابن حبان "7462").

(2) **[بعض أحوال الجنة في الكتاب والسنة]**: وكما توعَّد القرآن أهل الضلال بالخزي وسوء العاقبة وصوَّر لهم فضاعة المستقرّ، كذلك وعد أتباع الرسل وأهل الإيمان والطاعة بحسن العاقبة والمآل الطيِّب وما يتبع ذلك من أنواع النعيم المقيم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فاطر، الآية: 33]، وقال يصف تنعّمهم وفضله عليهم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ =

فَبَيْنَ أَشْيَاءِ الدُّنْيَا وَأَشْيَاءِ الآخِرَةِ فَرْقٌ كَبِيرٌ لاَ يُحْصَى مِقْدَارُهُ[1].

= رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الطور، الآيات: 17 ـ 24].

وهذا النعيم الموعود دائم أبدي لا مقطوع ولا ممنوع، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [سورة الرعد، من الآية: 35]، وقال أيضاً: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الواقعة، الآيتين: 32 ـ 33].

(1) **[اختلاف أشياء الآخرة عن أشياء الدنيا]**: فقد ذكر القرآن والسنة بأنَّ في الجنة أنهار تجري بماء غير آسن، وأنهار من لبن وعسل وخمر، وأشجار من كل صنف، وثمار من كل لون وطعم، ولحم طير مما يُشتهى، والحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. . .

كما ذكر القرآن والسنة بأنَّ في النَّار السلاسل والأغلال، ونهر الخبال يجري بصديد أهل النَّار، وشجر الزقوم طعام الأثيم، وطعامهم من الحميم والغساق وهو ما يسيل من صديد أهل النَّار وغسالتهم. . . فكما رأيت أنَّ الأسماء على هو معهود في الدنيا لكنَّ المسميات تختلف أشد الاختلاف، فأشياء أهل الجنَّة تفوق أشياء الدنيا في الحسن والجودة بما يفوق التصوّر من شدَّة الحسن، وأشياء أهل النَّار أشدّ سوءا وإيذاء من نظائرها في الدنيا بما يفوق التصوّر، وإن اتفقت الأسماء.

وروي عن عبدالله بن عباس ﷺ أنه قال: " ليس في الجنَّة مما في الدنيا إلاَّ الأسماء ". (رواه ابن حزم في الفصل وقال سنده في غاية الصحَّة، ج2 ص 86، والضياء المقدسي في المختارة، ج10 ص 16، وذكره المنذري في الترغيب، ج4 ص 316 وقال رواه البيهقي موقوفا بسند جيد).

قال المناوي في تعليقه على أثر ابن عباس ﷺ: " ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء، وأما المسمَّيات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر فمطاعم الجنَّة ومناكحها وسائر أحوالها إنَّما يشارك نظائرها الدنيوية في الاعتبارات وتسمى بأسمائها على منهج الاستعارة والتمثيل، ولا يشاركها في تمام حقيقتها، لا يقال هذا يناقضه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [سورة البقرة، من الآية: 25]، لأن التماثل هو التشابه في الصفة، =

. . . .

= لأنا نقول التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون القدر والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه، والمراد التشابه في الشرف والمزية وعلو الطبقة ". (فيض القدير، ج5 ص 373).

[عدد الجنان الموعودة في الآخرة]: دل الكتاب والسنة على أنَّ عدد الجنان أربعة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الرحمن، الآية: 46]، ثم وصفهما ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الرحمن، الآية: 62]، فأثبت أنَّ الجنان أربعة. وصدَّق ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «جنَّتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». (البخاري "7006"، ومسلم "180"، وابن ماجة "186").

نقل الحافظ في الفتح (ج8 ص 624) عن الحكيم الترمذي قال في قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ المراد بالدّون أي وقربهما جنتان، أي هما أدنى إلى العرش وأقرب وزعم إنَّهما أفضل من اللَّتين قبلهما.

وقال غيره معنى دونهما بقربهما وليس فيه تفضيل.

وذهب الحليمي إلى أنَّ الأُولَيين أفضل من اللتين بعدهما، ويدلُّ عليه تفاوت ما بين الفضة والذهب كما في حديث أبي موسى.

وقول الحليمي أظهر، ويدلُّ له رواية الحاكم وابن أبي شيبة عن أبي موسى رضي الله عنه موقوفا في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قال: جنَّتان من ذهب للسابقين وجنَّتان من فضة للتابعين. (الحاكم "3772"، وابن أبي شيبة "34814").

وفي رواية أخرى عنه من طريق حماد بن سلمة ـ قال حماد لا أعلمه إلا رفعه ـ قال: «جنَّتان من ذهب للمقربين ـ أو قال للسابقين ـ وجنَّتان من ورِق لأصحاب اليمين». (تفسير الطبري، ج27 ص 146).

[عدد أبواب الجنان وأبواب النَّار]: صحت الآثار بأنَّ للجنان ثمانية أبواب كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريَّان لا يدخله إلاَّ الصائمون». (البخاري "3084"، والبيهقي "8295").

وللنار سبعة أبواب كما دلَّ على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى عن أتباع الشيطان من الغاوين: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحجر، الآيتين: 43 ـ 44]. =

وَأَعْلَى نَعِيمُ الجَنَّةِ: رُؤْيَةُ العَبْد رَبَّهُ بِالْبَصَرِ[1].

= **[أبواب النَّار بعضها فوق بعض]**: من الأسفل إلى الأعلى، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " أتدرون كيف أبواب النَّار؟ قالوا: نعم، نحو هذه الأبواب. قال: لا ولكنها هكذا، فوصَفَ أطباقا بعضها فوق بعض ". (ابن أبي شيبة "34127"، وأحمد في فضائل الصحابة "890").

وفي رواية أخرى قال: " أبواب النَّار بعضها فوق بعض، يبدأ بالأسفل فيملأ، فهو أسفل السافلين، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يملأ النَّار ". (ابن أبي شيبة "34126").

(1) **[رؤية الباري سبحانه وتعالى في الآخرة]**: رؤية المؤمنين لربّهم عز وجل في الآخرة هو معتقد أهل السنة والجماعة كافة، وقطعت الأدلة من الكتاب والسنة برؤية أهل الجنة لربِّهم جل جلاله عيانا يوم القيامة، وهو أعلى النعيم ومنتهى الثواب، قال تعالى تقريرا لذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة القيامة، الآيتين: 22 ـ 23]، واتفق المفسرون على أنَّ الآية نص في أنَّ أهل الإيمان يرون ربَّهم يوم القيامة بالأبصار، فالوجوه يومئذ حسنة مشرقة بالنظر إلى الله جل جلاله، فإضافة النَّظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة "إلى" الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه، حقيقة موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الربّ جل جلاله، **فالنظر له عدة استعمالات بحسب صِلاته وتعدِّيه بنفسه**:

فإن عُدِّي بنفسه فمعناه التَّوقف والانتظار كما في قوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [سورة الحديد، من الآية: 13].

وإن عُدِّي بـ "في" فمعناه التَّفكر والاعتبار والتأمُّل كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 185].

وإن عُدِّي بـ "إلى" فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية: 99]، فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر. (انظر شرح العقيدة الطحاوية، للشيخلي، ص 204 ـ 205).

وتفسير الآية على هذا المعنى منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال من التابعين: الحسن، وعكرمة، ومجاهد، ومحمد بن علي بن الحسين، وزيد بن علي بن حسين، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، ومن الفقهاء مالك، والشافعي وأحمد وغيرهم من الأئمة ـ رحمهم الله أجمعين ـ. (انظر: أقوالهم بأسانيدها في: اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 464 وما بعدها، والسنة لعبدالله بن أحمد، ج1 ص 260 وما بعدها). =

= ومن قال في تفسير الآية بأنَّها تنظر ثواب ربها فقد أخطأ المعنى، قال أبو حفص سمعت مالك بن أنس يقول في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قوم يقولون إلى ثوابه. قال مالك: كذبوا فأين هم عن قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾. وقال: الناس ينظرون إلى الله ﷻ يوم القيامة بأعينهم. (حلية الأولياء لأبي نعيم، ج6 ص 326).

ومن حجج القرآن التي تدلُّ على رؤية المؤمنين لربِّهم في الآخرة قوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة المطففين، الآية: 15]، قال المزني سمعت ابن هرم القرشي يقول: سمعت الشافعي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في معنى الآية: فلما حجبهم في السّخط كان هذا دليلا على أنَّهم يرونه في الرضا. (الاعتقاد للبيهقي، ص 131).

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [سورة يونس، من الآية: 26]، عن صهيب أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنَّة، وأهل النَّار النَّار ناد منادٍ يا أهل الجنة إنَّ لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجرنا من النَّار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه. قال: فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ بأعينهم». (رواه مسلم "181"، وأحمد في مسنده بلفظه، ج4 ص 333، وابن ماجة "187"، والترمذي "2552").

وجمهور الصحابة والتابعين وأئمة أهل السنة والجماعة على أنَّ الزيادة هي النظر إلى وجه الباري ﷻ، والنقل عنهم مستفيض في ذلك. (انظر: اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج3 ص 455 وما بعدها، والسنة لعبدالله بن أحمد، ج1 ص 257 وما بعدها).

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة ق، الآية: 25]. قال أنس بن مالك رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: يظهر لهم الرب ﷻ في كل جمعة. (تفسير ابن أبي حاتم "18645").

وكتب السنة طافحة بالأحاديث والآثار التي تقطع بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارُّون في القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فهل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فإنكم ترونه كذلك..». (البخاري "7000"، ومسلم "182"، وأحمد "7914"). =

. . . .

= وعن جرير بن عبدالله ﷺ قال: كُنَّا جلوسا عند النَّبي ﷺ إذْ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «إنَّكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا». (البخاري "6997"، وأبو داود "4729"، وابن ماجة "177").

وعنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ: «إنَّكم سترون ربَّكم عيانا». (البخاري "6998"، والطبراني في الكبير "2233"، وعبدالله في السنَّة "415").

وعن عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه ربُّه ليس بينه وبينه تُرجُمان ولا حجاب يحجُبُهُ». (أخرجه بهذا اللفظ البخاري "7005"، والطبراني في الكبير "225").

[ردّ مذهب بعض الطوائف الضالة المنكرة لرؤية الرب ﷻ في الآخرة]: وذهب جمهور المعتزلة خلا ضرار بن عمرو، وطوائف من الخوارج والزيدية والجهمية إلى أنَّ الله ﷻ لا يُرى في الآخرة.

واستدلوا بقوله تعالى لما سأله موسى عليه السلام أن ينظر إليه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 143]، قالوا: فقد أبَّد نفي الرؤية بـ"لن"، فأفاد امتناع الرؤية في الدنيا وفي الآخرة، لأنَّ "لن" تفيد التأبيد في كلام العرب.

والجواب عن هذا الاستدلال من وجوه:

أوَّلا: القول بأنَّ "لن" تفيد التأبيد فاسد، فحتَّى لو قيِّدت بالتأبيد لا يدلُّ ذلك على دوام النفي في الآخرة فكيف إذا أطلقت، بل دلَّ القرآن نفسه على بطلان هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله تعالى عن الكفَّار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 95]، فلو كانت "لن" تفيد التأبيد المطلق لما احتاج إلى تحديد الفعل بعدها بقوله "أبدا"، وإلاَّ لكانت حشوا في الكلام، وحاشا الله ﷻ من ذلك، ومع ذلك لو كانت "لن" تفيد التأبيد في الآية لما صح قوله تعالى عن الكفَّار في جهنم: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [سورة الزخرف، الآية: 77]، فدلَّت هذه الآية على أنَّ "لن" في الآية السابقة لم تكن للتأبيد.

ويُبْطل هذا الاستدلال كذلك قوله تعالى: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ [سورة يوسف، من الآية: 80]، فلو كانت "لن" للتأبيد لما صحَّ =

= تقييد المعنى بعدها. قال إمام النحويين جمال الدين ابن مالك ـ رحمه الله ـ:

ومن رأى النَّفي بـ"لن" مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

ثانيا: بل هذه الآية التي استدلَّ بها المعتزلة ومن ذهب مذهبهم تدلُّ على جواز رؤية المؤمنين للمولى جل جلاله في الآخرة من وجوه عدَّة منها:

أحدها: أنَّه لا يُظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم النَّاس بربِّه في وقته، وقد ألبسه الله جلباب النبيين، وعصمه مما عصم منه المرسلين أنْ يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو من أعظم المحال حتى عند المعتزلة.

الثاني: أنَّ الله جل جلاله لم ينكر عليه سؤاله مما يدلّ على جواز حصول المطلوب في الآخرة، إذ لو كان محالا لأنكره الله عز وجل عليه، ألا ترى أنَّ سيدنا نوحا عليه السلام لمَّا سأل ربَّه نجاةَ ابنه أنكر الله عز وجل عليه سؤاله وقال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة هود، من الآية: 46].

الثالث: أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ولم يقل: "إنِّي لا أُرى" أو: "لا تجوز رؤيتي" أو: "لست بمرئي"، والفرق بين الجوابين ظاهر؛ ألا ترى أنَّ من كان في كمِّه حَجَر فظنَّه رجل طعاما فقال أطعمنيه. فالجواب الصَّحيح أن يقول: إنَّه لا يؤكل. أمَّا إذا كان طعاما صحَّ أن يقول: إنَّك لن تأكله. وهذا يدلُّ على أنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ مرئي، ولكنّ موسى عليه السلام لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدَّار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى، فإذا كان الجبل مع قوته وصلابته اندكَّ لمّا تجلَّى له المولى عز وجل فما بالك بالبشر الذي خلق ضعيفا.

الرابع: أنَّ الله جل جلاله قادر على أن يجعل الجبل مستقرا عند تَجَلِّيه عز وجل له، وذلك مُمكن، وقد علَّق عز وجل به الرؤية، وقد عرف في بداهة العقول أنه لا يصحُّ تعليق وقوع المحال بحصول الممكن، إذ لو كانت الرؤية من المحال لما جاز أن يُعلَّق وقوعها بحصول الاستقرار للجبل.

الخامس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فإذا جاز أن يَتَجلَّى جل جلاله للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب في هذه الدار الفانية، فكيف يمتنع أن يتجلَّى لرسوله وأوليائه في دار كرامته الباقية، ولكن الله أعلم موسى عليه السلام أنَّ الجبل إذا لم يَثْبت لرؤيته في هذه الدَّار فالبشر أضعف.

السادس: أنَّ الله عز وجل كلَّم موسى عليه السلام وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطَبه كلامه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، =

....

= **ولهذا لا يتمُّ إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه وقد جمع بينهما المعتزلة.**
واستدلَّ المعتزلة **كذلك** بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأنعام، الآية: 103]، **فقالوا** : إنَّه وصف نفسه ﷻ بأنَّ الأبصار لا تدركه بالرؤية، وهذا ينطبق على الدنيا والآخرة على السواء، لأنّه لو كان يُرَى في الآخرة لاقتضى التغيُّر في صفاته ﷻ وهذا ممتنع.
وقالوا كذلك : لو كانت الأبصار تدركه وتراه لاقتضى ذلك تحديد الجهة للمولى ﷻ لأنَّ من شرط المرئي أن يكون في جهة، والمولى ﷻ منزَّه عن الجهة.
والجواب على ذلك من وجوه؛ وهو أنَّ هذا المعنى الذي فسَّر به المعتزلة هذه الآية الكريمة لم يُؤثر عن أحد من صحابة رسول الله ﷺ ولا عن أحد من التابعين ولا الأئمة المقبولين، وهؤلاء هم أعلم الناس بالتنزيل. (أنظر تفسير السلف لهذه الآية عند الطبري في تفسيره، ج7 ص 299 وما بعدها).
وإنما دلَّت الآية الكريمة على أنَّه لا تدركه أبصار المؤمنين في الدنيا دون الآخرة، ولا تدركه أبصار الكافرين مطلقا.
كما أنَّ نفي الإدراك لا يقتضي نفي الرؤية، لأنَّ الرَّائي قد يرى الشيء ولا يدركه بالإحاطة، فالإحاطة قدر زائد على الرؤية، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [سورة يس، من الآية: 40]، فنَفَى أن تكون الشمس مدركة للقمر، ولا يُنكر جواز رؤية الشمس للقمر.
ولأنَّ الادراك ينبئ على الإحاطة بالمرئي والوقوف على كنهه وكيفيته، والباري تعالى يتقدَّس عن التحديد والكيفية، فلا تحصل الإحاطة، فهو ﷻ يُرى ولا يُدرك كما يُعلم ولا يُحاط به علما.
والآية نفسها تدلُّ من وجه على جواز رؤية المؤمنين لربِّهم ﷻ في الآخرة، وبيان ذلك أنَّ الله تعالى إنَّما ذكرها في سياق التمدّح، ومعلوم أن المدح إنَّما يكون بالصِّفات الثُّبوتية، وأمَّا العدم المحض فليس بكمال فلا يُمدح به، وإنّما يمدح الربُّ تعالى بالنَّفي إذا تضمَّن أمرا وُجوديا؛ كمدحه بنفي السِّنة والنَّوم المتضمّن كمال القيوميّة، ونفي الموت المتضمّن كمال الحياة، ونفي الشَّريك والصَّاحبة والولد والظهير المتضمّن كمال الرُّبوبية والألوهية... ولهذا لم يمتدح بعَدَم محض لم يتضمن أمرًا ثبوتيا فإنَّ المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فانَّ المعنى أنه يُرى ولا يُدرك ولا يُحاط به، =

وَالمُؤْمِنُ العَاصِي إِذَا مَاتَ بِلاَ تَوْبَةٍ فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ إِلَى اللّهِ[1]؛ ....

= وهذا من كماله ﷻ فقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدل على كمال عظمته وأنَّه أكبر من كلِّ شيء، وأنَّه لكمال عظمته يُرى ولا يُدرك بحيث يُحاط به.

نسألك ربِّي النظر إليك في جنات النعيم. (بتصرّف من: شرح العقيدة الطحاوية، ص 206، والتمهيد لابن عبدالبر، ج7، ص 153، والاعتقاد للبيهقي، ص 122 وما بعدها، والغنية في أصول الدين لأبي سعيد النيسابوري، ص 143 وما بعدها، والفصل لابن حزم، ج3 ص 2).

(1) **[تفويض أمر المؤمن العاصي إذا لم يتب لمشيئة الله ﷻ]**: لأنَّ المشيئة الإلهية قاضية بذلك، فالله ﷻ هو صاحب القول الفصل، يغفر لمن يشاء من المذنبين ويعفو عن خطاياهم، ويؤاخذ من يشاء بسابق عمله، وليس لأحد أن يفصل في أمر هؤلاء، ولم يوكل الله ﷻ أحدا بالفصل، وإنما نقول بما ورد في الكتاب والسنة في أنَّ كبائر الذنوب لا يخلِّد صاحبها في النَّار إذا مات على التوحيد، وأدلَّة ذلك كثيرة في الكتاب والسنة، والآية التي ذكرها المصنف من أقوى ما يستدلّ به على هذا القول.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي». (أبو داود "4739"، والترمذي "2435" وصححه الألباني).

وقال أيضاً: «لكلِّ نبيٍّ دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي فهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئا». (ابن ماجة "4307"، وصححه الألباني).

وكذلك في حديث الشفاعة المشهور زاد فيه الحسن عن أنس بن مالك ﷺ: «ثم أرجع إلى ربِّي في الرَّابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجدا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسَلْ تُعْط، واشفع تشفَّع. فأقول: يا ربِّ ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك - أو قال ليس ذاك إليك - ولكن وعزَّتي وكبريائي وعظمتي وجِبْريائي لأُخرجنَّ من قال لا إله إلا الله». (مسلم بلفظه "193"، والبخاري "7072").

فدلَّت هذه الأدلة وغيرها على أنَّ أهل الذنوب تشملهم شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة فلا يخلدون في النَّار إذا ماتوا على التوحيد مهما عظمت ذنوبهم.

[مذهب بعض الطوائف في أمر المؤمن العاصي]: قد سبق تحقيق مذهب الخوارج والمعتزلة في إنكارهم للشفاعة، فاقتضى قولهم ألا ينتفع أهل الكبائر بشيء =

. . . .

= من شفاعة النبي ﷺ فقالوا بتخليده في النَّار، إلاَّ أن الخوارج حكموا بكفره، والمعتزلة حكموا بفسقه، وهو أصل قولهم بالمنزلة بين المنزلتين.

أما المرجئة فعلى قولهم الفاسد بأنَّه لا يضرُّ مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة فلا يبالي مرتكب الذنوب كبائرها وصغائرها بغضب الربِّ ﷻ فكل ذنب مغفور لأنه على الإيمان، فنسفوا نصوص الوعد والوعيد نسفا.

وقول الخوارج من أفسد المقالات، إذ لو كان مرتكب الكبيرة كافرا لما أحتيج إلى إقامة الحدّ على الزاني والقاذف وشارب الخمر.. لأنهم كفروا بكبيرتهم وارتدوا عن دينهم فوجب قتلهم بحكم الردَّة.

أما المعتزلة فقد تحكموا على الله ﷻ في مشيئته وإرادته فقالوا بامتناع عفوه ﷻ عن مرتكب الكبيرة لوجهين؛

الأول: أنه تعالى أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به أي بالعقاب عليها؛ فلو لم يعاقب على الكبيرة وعفا عن مرتكبها للزم الخلْف في وعيده، والكذب في خبره، وكل ذلك محال.

والجواب عن ذلك أنَّ غاية الوعيد والإخبار عنه وقوع العقاب دون وجوبه، ولا شبهة في أنَّ عدم الوجوب مع الوقوع لا يستلزم خلفا ولا كذبا.

الثاني: أنه إذا عَلم المذنب ـ أي المرتكب للكبيرة ـ أنه لا يعاقب على ذنبه بل يُعفى عنه لم ينزجر عن الذَّنب بل كان ذلك تقريرا له على ذنبه وعدم التوبة عنه، وكان إغراء للغير عليه، وهذا قبيح مناف لمقصود الدعوة إلى الطاعات وترك المنهيات.

وجوابه أنَّ شمول الوعيد وتعريض الكل للعقاب وظن الوفاء بالوعيد فيه من الزجر والردع ما لا يخفى، واحتمال العفو عن البعض احتمالا مرجوحا لا ينافي ذلك؛ يعني أن الوعيد عام يتناول كل واحد من المذنبين بظاهره الذي يقتضي ظن الوفاء به في حقه، فيحصل لكل منهم الظن بكونه معاقبا بذنبه، وذلك كاف في زجر العاقل عن ارتكاب الذنب بعدم التوبة عنه، وفي ردع غيره عن اقترافه.

وأما توهم العفو الناشىء من عدم وجود العقاب فاحتمال بعيد لا يعارض ظن العقاب المقتضي للانزجار فقد ظهر أن المذنب لا علم له بأنه لا يعاقب، بل ولا يظن ذلك ظنا لكون ذلك في علم الغيب الذي لا يطلع عليه.

[ردّ مذهب المعتزلة بأنَّ مرتكب الكبيرة مخلَّد في النار]: اقتضى مذهب المعتزلة في امتناع العفو عن مرتكب الكبيرة القول بتخليده في النَّار، واستندوا في مقولتهم =

....

= إلى بعض النصوص المشعرة بالخلود منها قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [سورة البقرة، الآية: 81]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [سورة النساء، الآية: 14]، وغيرها من الآيات، **فقالوا** والخلود حقيقة في الدوام لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية: 34]، والفاسق الذي ارتكب الكبيرة هو من الذين كسبوا السيئات، وأحاطت به الخطايا، وعصى الله ورسوله، وتعدَّ حدوده، فاستحق الخلود في جهنَّم بموجب النصوص التي توعَّدته، والخلود حقيقة في المكث المؤبَّد.

والجواب أنَّه لا يُسلَّم أنَّ مَنْ كانت له حسنات من الإيمان والطَّاعات فقد أحاطت به خطيئته، بل من أحاطت به خطيئته لا يكون له حسنة أصلا، ومن كانت له حسنات كانت خطيئته من بعض جوانبه لا محيطة به من كلِّ جانب، وكذلك لا يُسلَّم أنَّ من اكتسب كبيرة فقد تعدى حدوده، بل تعدى بعض حدوده، والخلود المذكور في الآيات إنَّما المقصود به المكث الطويل لا المكث المؤبَّد، والقول بأنَّه حقيقة في الدَّوام معارض بما يقال في الاستعمال الشَّائع "خلَّد الله ملكه" و "حبس مخلده"، والمراد طول المدَّة بلا شبهة.

واحتجوا من النصوص كذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [سورة الانفطار، الآيات: 14 ـ 16]، **فقالوا**: ومرتكبوا الكبائر من الفجار، ولو خرجوا عنها لكانوا غائبين عنها، وهذا ممتنع.

والجواب أن لفظ الفجَّار لا يتناول إلاَّ من هو كامل في فجوره، ولا كامل في الفجور إلاَّ الكافر، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ [سورة عبس، الآية: 42].

ولو تأمَّل المعتزلة في كتاب الله ﷻ لوجدوا أنَّ نصوصه صريحة في أنَّ أهل الكبائر يثابون على إحسانهم إذا كانوا موحِّدين كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [سورة الزلزلة، الآية: 7]، وقوله أيضاً: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ وقوله أيضاً: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [سورة الرحمن، الآية: 60]، ولا شبهة في شمول هذه الآيات لصاحب الكبيرة، فيثبت له الثواب بإيمانه وما قدَّم من الحسنى. (انظر المواقف للإيجي، ج3 ص 493 وما بعدها).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

وَأَهْلُ الجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ [فيها][2]، ....

---

(1) سورة النساء، من الآية: 48، وهذه من أصرح الآيات في ردِّ مذهب الخوارج والمعتزلة ومن نحا نحوهم، فلا يُختلف في أنَّ مرتكب الكبيرة ليس بمشرك، وإذا تقرَّر ذلك ثبت أنَّه داخل في عموم المشيئة التي قرّرتها الآية، ومعلوم أنَّ من قُطع بكفره وخلوده في النَّار على قول الخوارج، وخلوده على قول المعتزلة يمتنع أن تشمله المغفرة، فثبت بطلان قولهم وتهافت أدلَّتهم.

(2) **[خلود أهل الجنة في الجنة]**: دلَّ القرآن الكريم على ذلك في آيات كثيرة قرن فيها الخلود بالتأبيد في ثمانية مواضع فضلا عن غيرها من النصوص القاطعة بدوام النعيم غير المنقطع لأهل الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [سورة النساء، الآية: 57]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة ص، الآية: 54]، وقال أيضاً: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ [سورة الرعد، من الآية: 35]، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: 48]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة هود، الآية: 108]، وغير ما ذكرنا من الآيات كثير، أكَّدت في مجملها الخلود الأبدي لأهل الجنة، يُرزقون فيها برزق دائم لا ينفد ولا ينقطع، ولا يخرجون من الجنة أبدا بمشيئة الله ﷻ.

ومن السنة الشَّريفة أحاديث كثيرة تعضد ما دلَّت عليه الآيات، منها: حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه». (مسلم "2836"، وأحمد "8813").

ومن طريق آخر عند الترمذي وابن حبان: «... من دخلها يَنْعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم...». (الترمذي "2526"، وابن حبان "7387"، وأحمد "8030").

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة - ﭬ - عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسْقَمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أنْ تحيَوْا فلا تموتُوا أبدًا، وإنَّ لكم أنْ تشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أنْ تَنْعَمُوا فَلا تبأَسُوا أبدًا، فذلك قوله ﷻ: =

وَأَهْلُ النَّارِ مُخَلَّدُونَ فِيهَا إِذَا مَاتُوا كُفَّارًا[1]، ....

= ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 43]». (مسلم "2837"، وأحمد "11924"، والترمذي "3246").

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهل النَّار النَّار ثم يقوم مؤذِّنٌ بينهم: يا أهل النَّار لا موْتَ، ويا أهل الجنَّةِ لا موْتَ خُلُودٌ». (البخاري "6178").

فما ذكرنا من آيات وأحاديث كاف في القطع بدوام الخلود والنعيم الأبدي لأهل الجنَّة، وعلى هذا القول جرى السلف والخلف من أهل السنَّة والجماعة، وقال به معظم أهل الفرق الأخرى، وخالف في ذلك الجهمية وبعض المعتزلة فقالوا بفنائها أو بفناء حركات أهلها، وسيأتي تفصيله.

(1) **[جمهور أهل السنّة على أن أهل النار مخلدون فيها]**: جرى المصنف - رحمه الله - على المذهب المشهور عند أهل السنة والجماعة القائل بالخلود الأبدي للكفار الذين يموتون على كفرهم في نار جهنَّم، وهو القول الذي تنصره ظواهر النصوص من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [سورة الجن، من الآية: 23]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الأحزاب، الآيتين: 64 - 65]، والتأبيد المذكور في الآيتين إنما يقصد منه الخلود الدائم في السعير.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة المائدة، الآية: 37]، فقد قرَّرت الآية عدم خروج الكفَّار من النَّار، وإقامتهم فيها، إذْ لو فنيت النَّار لعدَّ الكفَّار خارجين منها وهو ممتنع بنص الآية، ولَمَا كان لذكر الإقامة فيها معنى، لأنَّ المقيم هو المستقرّ الدائم الذي لا يتحوَّل ولا يزول.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة العنكبوت، الآية: 23]، فلو فنيت النَّار أو خرج منها الكفَّار لكان ذلك من الرحمة بهم، وقد دلت الآية على خلافه.

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج، الآية: 22]، وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [سورة السجدة، من الآية: 20]، ولفظة ﴿كُلَّمَآ﴾ في كلام العرب =

....

= تفيد التكرار على الدوام، ولو فنيت النَّار أو خرج منها الكفَّار لانقطع التكرار والدوام الذي دلت عليه الآية، وهو ممتنع.
وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة فاطر، الآية: 36]، فلو فنيت النَّار وأهلها لكان ذلك من القضاء عليهم والموت، ولو أخرجوا منها لكان ذلك من التخفيف عنهم وكلاهما مناف لمنطوق الآية الكريمة.
[اختلاف أقوال الطوائف في فناء الجنة والنار]: سبق تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في دوام نعيم الجنة الأبدي لأهلها، وخالف الجهم بن صفوان في ذلك وقال بفَناء الجنة وأهلها معتمدا على أصله الفاسد القاضي بامتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث؛ فما يَمْنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنعه في المستقبل، فدوام الفعل عنده على الربِّ في المستقبل ممتنع كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي، وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل لكن قال: إنَّ هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة.
وتصور هذا الدليل كاف في فساده، وهذا المذهب مما كفَّر به أهل السنة الجهم وأتباعه.
والقول بأبديَّة النَّار وخلود أهلها فيها هو مشهور مذهب أهل السنة والجماعة، وبه قال جمهورهم.
ولأهل السنة قول آخر خلاف المشهور يقول بفَناء النَّار وخروج أهلها منها، ونقل هذا القول عن عمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهم، ومال إليه بعض المتأخرين من أهل السنة كابن برهان وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم - رحمهم الله -.
فعن عمر رضي الله عنه قال: " لو لبث أهل النَّار في النَّار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه ".
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: " ليأتين على جهنَّم زمان ليس فيها أحد ".
ونصر ابن القيم هذا القول في مواضع من كتبه، وردَّ ابن حجر هذا القول ونقل عن السبكي الكبير أنَّه أطنب في دحضه وبيان وهائه.
فمما استدلَّ به هؤلاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النبأ، الآيات: 21 - 23]، فمفهوم العدد يقتضي بأنَّ =

....

= هناك أحقاب لا يلبثون فيها في جهنم، إذ لا يصحّ تقدير الأبدي بمدة الأحقاب.
وهذا استدلال ضعيف ومردود على قائله من وجوه:
أوّلها: أنّه استدلال بمفهوم العدد، وهو من أضعف المفاهيم عند أهل الأصول، كما أنّه معارض لمنطوق التأبيد الذي صرَّحت به آيات كثيرة، ولا يصار إلى المفهوم مع وجود المنطوق.
ثانيها: أنَّ فيه ذهولا عما عقب به بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [سورة النبأ، الآية: 30]، أي فلن نزيدكم بعد لبثكم أحقابا إلاَّ عذابا، فلم يقتصر العذاب على الأحقاب، بل قال مقاتل بن حيان بأنَّ هذه الآية نسخت آية: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، وردَّه الطبري.
ثالثها: أنَّ الكثير من السلف قالوا بأنَّ هذه الأحقاب متتابعة لا انقضاء لها ولا انقطاع، قال قتادة والربيع بن أنس: إنَّ هذه الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع.
وقال الحسن: أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النَّار.
وقد يذيقهم الله ﷻ في كلِّ حقب نوعا من العذاب، قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة ص، الآيات: 55 ـ 58]. (انظر تفسير الطبري، ج30 ص 11 ـ 12، وتفسير ابن كثير، ج4 ص 465).
وقالوا كذلك: بأنه قد ورد في القرآن الكريم أنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذَكر جزاء أهل رحمته وأهل غضبه معا، أبَّد جزاء أهل الرَّحمة، وأطلق جزاء أهل الغضب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [سورة البيِّنة، الآيات: 6 ـ 8]، وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة آل عمران، الآيتين: 106 ـ 107].
والجواب: إنَّ عدم ذكر تأبيد العذاب للكافرين في هاته الآيات لا يعني عدم خلودهم وتأبيد عذابهم في جهنَّم، إذْ كيف لا يُحكم بتأبيده وقد أبَّده لهم الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة النساء، الآيتين: 168 ـ 169]، =

....

= وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الأحزاب، الآيتين: 64 ـ 65]، وقوله أيضاً: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [سورة الجن، من الآية: 23].

وقالوا بأنَّه قد قال تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 156]، وقال تعالى أيضاً حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر، من الآية: 7] فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذَّبين، فلو بقوا في العذاب لا الى غاية لم تسعهم رحمته.

وقالوا كذلك: إنَّ النَّار موجب غضبه، والجنَّة موجب رحمته، لكن رحمته سبقت غضبه فشملت عدم تأبيد نار جهنَّم، فعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق؛ إنَّ رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش». (أخرجه البخاري بلفظه "7115"، ومسلم "2751").

والجواب : إنَّه لو حُمل مفهوم الآيتين على ما ذكرتم لما عُذِّب أحد من الكفَّار بالنَّار، لأنَّ التعذيب ولو كان يسيرا منافٍ للرحمة وهذا ممتنع. لكن صدَّر ﷻ الآية الأولى بما يدل على أنَّه ﷻ يصيب بعذابه من يشاء فيخلِّد الكافرين في جهنَّم بمشيئته.

وجواب آخر: وهو أنَّ في الآيتين ما يدلُّ على أنَّ رحمته تعالى إنَّما تَسع من يستوجبها؛ وهم الذين اتقوا وتابوا واتبعوا سبيل الحق، لذلك عقَّب في الآية الأولى على أنَّ هذه الرحمة كتبها للمتقين ولم يكتبها للكافرين: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الآية الثانية نجد الملائكة الذين وصفوا رحمته ﷻ بأنَّها وسعت كلَّ شيء إنَّما سألوها لمن تاب واتبع سبيل الهدى لا لمن ضلَّ وألحد: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾، فالمعنى في الآيتين على الإجمال مخالف للمعنى الذي أخذتموه من جزئيهما.

أما الحديث فيدلّ دلالة قوية على تأبيد الكافرين في جهنَّم؛ لأنَّه مما لا يختلف فيه أنَّ إرسال الرسل بالشرائع من أعظم الرحمة من الله ﷻ بالخلق، فهذه الرَّحمة سبقت غضبه ﷻ على الكافرين الذين ألحدوا بالرسالات، وقاتلوا الرسل، فاستحقوا الخلود في جهنَّم، فسبقت رحمته غضبه كما دلَّ الحديث. =

= وقالوا: والله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر عن العذاب أنَّه عذاب يوم عظيم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 135]، وعذاب يوم أليم: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الزخرف، من الآية: 65]، وعذاب يوم عقيم: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الحج، من الآية: 55]، ولم يخبر ﷻ ولا في موضع واحد في كتابه الكريم عن النَّعيم أنَّه نعيم يوم، مما يدلّ على أنَّ العذاب ليس بمؤبَّد كما هو شأن النَّعيم.

والجواب: أنَّ ذكر اليوم لا يعني عدم خلود النار وأهلها، وإلا لاقتضى استدلالهم أن الكافر لا يعذب في النار إلاَّ يوما واحدا، وهذا لا يقولون به، وإنما قُصد باليوم هو اليوم الذي يتغير فيه الحال ويعقبه الخلود على تلك الحال كما هي حال المؤمن في يوم الخلود: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة ق، الآية: 34]، كما أخبر ﷻ عن تنعيم المؤمن: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 111]، ومعلوم أنَّ جزاء المؤمن بالنَّعيم مخلَّد باتفاق وليس جزاء يوم واحد.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:128]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة هود، الآيات: 106 ـ 108]، فقالوا: ولم يأت بعد الاستثناء لأهل النَّار ما أتى بعد الاستثناء لأهل الجنة وهو قوله ﷻ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، فدلَّ على أنَّ الاستثناء الأوَّل عائد إلى الكفَّار بفناء النَّار، والعصاة الموحِّدين بالخروج منها.

والجواب: أنَّ السلف ـ رحمهم الله ـ لهم مذاهب في هذا الاستثناء المذكور؛ فالذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك أنَّ الاستثناء المذكور في أهل الشقاوة يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله ﷻ النَّار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها ويدخلهم الجنة، فهؤلاء مستثنون من الخلود بخلاف الكفَّار، وأما الاستثناء المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدَّة لبث هؤلاء في النَّار قبل دخولهم الجنة، فكان الاستثناء في الحالين عائدا على قوم من المؤمنين أصابوا ذنوبا عوقبوا عليها بدخول النَّار ولبثوا فيها على قدر ما اقترفوا، ثم أُخرجوا منها وأدخلوا الجنة. =

فَإِنْ كَانُوا مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ[1].

س ـ مَا القَوْل فِي الدُّعَاء، هَلْ يَنْفَع؟

ج ـ نَعَمْ يَنْفَع، وَالبَلَاء يَدْفَع[2].

= **وقيل كذلك**: إنَّ الاستثناء راجع إلى أهل السعادة بخلودهم في الجنة، وأهل الشقاوة بخلودهم في النَّار إلاَّ مقدار لبثهم في الدنيا وفي البرزخ وعند الحساب فلا خلود لكليهما في هذه الأوقات لا في الجنة ولا في النَّار.

وجواب آخر: وهو أنَّ الاستثناء ـ كما هو مسلَّم به ـ من جملة مفاهيم المخالفة، وتسقط دلالة المفهوم إذا خالفت دلالة المنطوق، وقد نطق القرآن الكريم بالتأبيد والخلود للكفار في جهنَّم، فلا يُصار إلى المفهوم الموحي بعدم الخلود لأنَّه خالف المنطوق.

فتبيَّن بأنَّ خلود الكفَّار في جهنَّم هو أرجح المذهبين عند أهل السنة والجماعة.

ولبعض الفرق مذاهب أخرى حادوا بها عن مذهب أهل السنَّة؛ فقال إمام الاتحادية محي الدين ابن عربي بأنَّ أهلها يعذبون فيها ثمَّ تنقلب طبيعتهم نارية فيتلذذون بها لموافقتها لطبعهم.

وقال الخوارج والمعتزلة بأنَّ من دخلها لم يخرج منها إلى أبد الآباد حتى ولو كان من أهل التوحيد.

وقال الجهم بن صفوان بفنائها بنفسها كقوله في فَناء الجنَّة. (انظر ـ مع إضافات من عندنا ـ: شفاء العليل لابن القيم، ص 257 وما بعدها، وحادي الأرواح، ص 244 وما بعدها، وفتح الباري، ج11 ص 421 ـ 422، وفيض القدير، ج1 ص 40، وشرح العقيدة الطحاوية، ص 482، ورفع الأستار للصنعاني، ص64 وما بعدها).

(1) وعلى هذا القول إجماع أهل السنة والجماعة، وقد سبق تأصيل هذه المسألة عند الكلام عن الشفاعة المحمدية فلينظر.

(2) **[نفع الدعاء]**: **الدعاء في اللغة**: **الطلب**، يقال: دعا الله ﷻ أي طلب منه حاجته.

وفي الاصطلاح: سؤال العبد ربَّه ﷻ حاجة مشروعة بطلب خير أو دفع شرٍّ.

والابتهال هو الاجتهاد والإلحاح في الدعاء. =

= والدعاء من أحبِّ الأعمال إلى الله ﷻ لأنَّ فيه تتجلَّى مظاهر العبودية عند العبد والخشوع لله تعالى، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قـال رسول الله ﷺ: «ليس شيءٌ أكرَمَ على الله تعالى من الدعاء». (الترمذي "3370"، وابن ماجة "3829" وحسنه الألباني).
ويغضب الله ﷻ من العبد إذا لم يسأله حاجته، لأنَّ العبد إذا لم يسأل الله ﷻ صار كأنَّه مستغنٍ عنه وهو من أفقر الناس إليه، قال أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «منْ لم يَسألِ الله يَغْضَبْ عليهِ». (الترمذي "3373" وأحمد "9699"، وأبو يعلى "6655" وحسنه الألباني).
وصدق الشاعر إذ يقول:

لا تَسـألَـنَّ بُـنَـيَّ آدم حـاجـةً   وسـلِ الـذي أبـوابـه لا تـحـجـبُ
اللّهُ يغضبُ إنْ تركت سؤاله   وبُنيَّ آدم حين يُسأل يغضبُ

ومما لا يُختلف فيه أنَّ الدعاء إذا توفرت فيه شروط القبول من الله ﷻ ينفع صاحبه بالاستجابة لمطلوبه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة غافر، الآية: 60]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 186]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [سورة النمل، من الآية: 62]، فيجيب المضطرَّ الذي دعاه فيرفع عنه البلاء، ويَكشف السوء بإظهاره ليحتاط منه الداعي ولا يقع فيه.
ونفع الدعاء عظيم جدًا، فهو سبب لنزول الرحمة وإسباغ النعمة، ويرفع البلاء الحاصل، ويردّ البلاء النازل، فعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء». (الحاكم "1815"، والترمذي "3548"، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب "1634").
وعن عائشة ـ ﷺ ـ قالت قال رسول الله ﷺ: «لا يُغني حذر من قدر، والدّعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإنَّ البلاء لينزل فيتلقاه الدُّعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة». (الحاكم وصححه "1813"، والطبراني في الأوسط "2498"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع "7739").
وقد يسأل السائل فيقول: إنَّ البلاء الحاصل أو النازل إنما هو واقع بقضاء الله ﷻ المُقدّر في الأزل، وليس لأحد أن يردّ قضاء الله ﷻ فما فائدة الدعاء مع قضاء قدَّره الله سبحانه؟ =

= **والجواب**: بما أنَّك قد أقررت بأنَّ ما قدَّره الله ﷻ في الأزل سيحصل بقضائه، فعليك أن تقرَّ كذلك بأنَّه قد يكون في سابق علم الله تعالى أنَّ ذلك البلاء سينزل بذاك العبد وسيرفعه عنه بدعائه وتضرُّعه، فالله ﷻ هو الذي قدَّر ذلك البلاء، وقدَّر رفعه بالدعاء، وذلك هو معنى ردّ القدر بالقدر، ففي حديث ثوبان ﵁ يرفعه إلى النبي ﷺ: «لا يزيد في العمر إلا البر ولا يردّ القدر إلا الدُّعاء» (ابن ماجة "90"، وابن حبان "872"، والحاكم وصححه "1814" وحسنه الألباني).

وجواب آخر: وهو أنَّ الله ﷻ هو الذي أنزل البلاء ووصف للعبد دواءه وهو الدّعاء، فمَنْ أعلم بالدَّواء؛ طالب الدواء أم خالق الداء والدواء؟! والله هو اللطيف الخبير.

والمؤمن من طبعه ذكر الله ﷻ في كل آن وحين، فيسأل الله في الرخاء كما يسأله في الشدة، قال أبو الدرداء ﵁: " من يُكثر الدُّعاء في الرخاء يستجاب له عند البلاء، ومن يُكثر قرع الباب يفتح له ". (شعب الإيمان للبيهقي "10002").

ولأنَّ من كفران النعمة والفضل أنْ يُذكر الله ﷻ عند البلاء والشدة، ويُنسى عند الرخاء والسِّعة، وقد ذمَّ الله ﷻ أمثال هؤلاء في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الزمر، من الآية: 8].

[شروط قبول الدعاء]: للدعاء شروط عدَّة يجب أن تتوافر فيه حتى يكون أهلا للقبول، أهمّها:

أوّلا: الإخلاص والمتابعة؛ فيُخْلص المؤمن الدعاء لله تعالى بألاّ يُدخل فيه شائبة شرك أو رياء، ولا مخالفة لضوابط نصوص الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة غافر، الآية: 14].

ثانيا: العزم والجدُّ في الدعاء، فلا يستثني العبد في دعائه، وإنما يجزم مسألته ويطلب حاجته مهما عظمت، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليَعْزم المسألة وليُعظِّم الرغبة فإن الله لا يتعاظمُهُ شيءٌ أعطاه». (مسلم بلفظه "2679"، والبخاري "5980").

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني فإن الله لا مُسْتَكْرِهَ لهُ». (رواه البخاري بلفظه "5979"، ومسلم "2678"). =

= **ثالثا**: الثقة بالله والخشوع له عند المسألة؛ فعلى العبد أن يوقن بأنّ الله سميع لدعائه ومجيب لمطلوبه، وليبالغ في الطلب ولا يستكثر فالله أكثر، وعنده خزائن كلّ شيء، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: 21]، وعليه كذالك أنْ يسأل الله ﷻ وقلبه حاضر وخاشع عند الدعاء؛ فغفلة القلب حجاب يمنع الدعاء من القبول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ». (الترمذي "3479"، والحاكم وقال صالح الإسناد "1817"، والطبراني في الأوسط "5109"، وحسنه الألباني).

رابعا: إرضاء الله ﷻ قولا وعملا، فالله تعالى لا يجيب دعاء الفاجر الذي يتعدّى حدوده، وينتهك حرماته، فعلى العبد أن يُرضي ربَّه بالطاعة حتى يرضيه ربُّه بالإجابة كلما دعاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيّبٌ لا يقبلُ إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 51]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 172]. ثم ذَكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك». (رواه مسلم "1015"، والترمذي "2989"، وأحمد "8330").

فكما رأيت كيف حَجَبت المعاصي إجابة دعاء الرجل، فلمّا لمْ يُرضِ الله ﷻ ردّهُ اللّهُ خائبا.

خامسا: عدم الاستعجال في الإجابة، فالعبد يدْعو الله تعالى ما استطاع، ولْيلحّ في المسألة، وليوقن بأنّ الله تعالى عند حسن ظنّه، فقد يؤخِّر الله الإجابة لخير يريده بعبده وهو أعلم العالمين، فإذا استعجل العبد ترك الدعاء فقد أغلق عن نفسه أبواب الخير، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ أنه قال: «لا يزالُ يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعةِ رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: «يقول قد دعوتُ، وقد دعوتُ فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسر عند ذلك ويدعُ الدعاءَ». (مسلم "2735"، وابن حبان "881").

وفي رواية أخرى: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجلْ فيقول: قد دعوتُ فلم يُستجَبْ لي». (البخاري "5981"، ومسلم "2735"). =

وَالاسْتِعَاذَةُ بِاللّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ نَافِعَةٌ نَفْعًا وَاضِحًا[1]، وَمَعَ ذَلِكَ لاَ يُتْرَكُ تَعَاطِي أَسْبَابِ المَنَافِعِ، وَتَجَنُّب أَسْبَابِ المَضَارِّ[2]، ....

= والاستعجال داء لا يقاومه إلاَّ الصبر والاحتساب، فالداعي إمَّا أن تُعجَّل له دعوته، أو تدَّخر له في الآخرة، أو يصرف الله عنه من السوء مثلها، فالشكر في الأولى، والطمع في الثانية، والرجاء في الثالثة، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو الله بدعوةٍ ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجَّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها». قالوا: إذاً نكثِر. قال: «الله أكثر». (أحمد "11149"، والحاكم وصححه "1816"، وأبو يعلى "1019" وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب "1633").

(1) وقد أمر الله ﷻ في كتابه الكريم بدعائه بالأسماء الحسنى، إذ هي مفاتح أبواب الإجابة، ولا تُدخل البيوت إلا من أبوابها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف، من الآية: 180]، وقال أيضاً: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء، من الآية: 110]، ومن سأل أو استعاذ بغير أسماء الله وصفاته العليّة فقد أخطأ مطلوبه، واستعاذ من غير معيذ. وكان هدي المصطفى ﷺ أنّه كلما سأل أو استعاذ أو سبَّح وقدَّس ربَّه ﷻ دعاه بأسمائه وصفاته العليَّة، ونبينا ﷺ هو أعرف الناس بربه ﷻ فوجب أن يقتدى به في الذكر والدعاء.

(2) وهذا تنبيه وجيه من المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ فبعد بيانه لنفع الدعاء نبَّه على عدم التعويل على الدعاء بترك الأسباب وانتظار الإجابة، فالدعاء مُعِين للسبب على تحقيق المطلوب، وليس وحده كفيل بتحقيق البغية دون اتخاذ الأسباب الموصلة إليها.

والقرآن الكريم، والسنة الشريفة طافحة بالنصوص الداعية لاتخاذ الأسباب المحققة للمصالح، والابتعاد عن الأسباب الموصلة إلى المفاسد والمضار، بل عُدَّ ذلك تحقيق للغاية التي جاءت الشريعة لتحقيقها، واتخاذ الأسباب هو معنى التوكل الذي أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية: 23].

ومجَّد الله ﷻ المتوكلون الذي يأخذون بأسباب الرزق والنصر: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة المزمل، من الآية: 20]. =

وَإِعْدَادِ القُوَّةِ لِدَفْعِ البَلَاءِ بِقَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ وَالقَلْبُ مَسْتَعِينٌ بِاللّهِ[1]؛ فَالْيَدُ تَعْمَلُ، وَالقَلْبُ عَلَى اللهِ يَتَوَكَّلُ، وَاللِّسَانُ يَدْعُو اللّهَ فِي أَوْقَاتِهِ، فَالْشُّغْلُ الوَاحِدُ يَخْدِمُهُ الأَعْضَاءُ الثَّلَاثَةُ، وَلا تَنَافِي بَيْنَ وَظَائِفِهَا الثَّلَاث[2]، هَذَا

= وعن عكرمة عن ابن عباس ـ ﷺ ـ قال: كان أهل اليمن يحجُون ولا يتزوَّدون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدِموا مكة سألوا النَّاس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة، من الآية: 197]. (البخاري "1451"، أبو داود "1730").

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «أعقلها وتوكل». (الترمذي "2517"، والبيهقي في شعب الإيمان "1212"، وحسنه الألباني).

والحذر كل الحذر من الاعتقاد بأنَّ الأسباب هي الكفيلة بتحقيق المطلوب دون حاجة لتوفيق الله ﷻ، فهذا من أعظم الشرك، بل توفيق الله ﷻ هو الأساس، وهو الذي يقدِّر في السبب لأن يوصل إلى المطلوب أو لا يقدر، والله على ما يشاء قدير.

(1) **[ضرورة إعداد القوَّة لاستجلاب النصر]**: هذه المسألة في الحقيقة مندرجة ضمن ما سبقها من الكلام، وإنما خصَّها المصنف ـ رحمه الله ـ بالذكر لأنَّها من أعظم الأحوال التي يتجلَّى فيها فضل الدّعاء وفضل اتخاذ الأسباب فالنَّصر لا يهبه الله ﷻ للعباد هكذا دون عناء وتدبير منهم، وإنما أمرهم الله تعالى بالإعداد له، وأخذ الحذر من الأعداء، ويستعينوا على كلِّ ذلك بالتضرّع والدعاء، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال، من الآية: 60]، وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء، من الآية: 71].

وهذه الإشارة من المصنف لها مدلولها في السياق التاريخي لهذا التأليف، فقد أَلَّف هذه الرسالة والدولة العثمانية يتكالب عليها الأعداء من كلِّ جانب، وتُكاد لها المكائد من الداخل والخارج، فكان في مقام المسؤولية فجزاه الله خير الجزاء.

(2) وهذه العناصر الثلاثة هي أسس العمل الصالح المحمود، فاليد تباشر العمل واتخاذ الأسباب، والقلب يعزم التوكّل على الله ﷻ وأنه لا معطي ولا مانع إلاَّ بأمره وقضائه، واللسان يدعوا الله تعالى بتحقيق المبتغى. =

هُوَ الشَّرْعُ الكَامِلُ وَبِهِ يَتِمُّ المَأْمُولُ للآمِلِ.

في ذي الحجَّة سنة 1326 هِجْرِيَّة. حرَّرَهُ محمد المكِّي ابن عزُّوز(*).

❀ ❀ ❀

وإنما الحذر من افتتان القلب ببراعة الأسباب في تحقيق المطلوب، فيعتقد في السبب وينسى خالق السبب، فهذا من أعظم الإشراك بالله ﷻ، فالقلب إذا غفل عن الله كان محجوبا عنه، فإذا تداوى أو طلب المعاش وتحقق مطلوبه افتتن بالسبب وتعلق به.

ولا تظنَّنَّ أنَّ في التسبب ترك للتوكّل، ولا في التَّوكل ترك للتسبب، فلكل واحد منهما اعتماده، فالأوّل تباشره اليد، والثاني يباشره القلب، والثاني هو الأساس.

روى البيهقي عن الجنيد أنَّه قال: " ليس التوكّل الكسب ولا ترك الكسب، التوكل إنَّما هو سكون القلب إلى موعود الله ﷻ ".(شعب الإيمان "1271").

قال البيهقي - رحمه الله - معلقا على كلام الجنيد: " وعلى هذا ينبغي أن لا يكون تجريد هذا السكون عن الكسب شرطا في صحة التوكّل بل يكتسب بظاهر العلم متعمدا بقلبه على الله تعالى كما قال بعضهم: "اكتسب ظاهرا وتوكَّل باطنا". فهو مع كسبه لا يكون متعمدا على كسبه، وإنَّما يكون إعتماده في كفاية أمره على الله ﷻ ".

والدّعاء في كلِّ ذلك هو الذي يبارك في وظيفة اليد والقلب، فالدعاء يعين اليد على تحقيق ما تمتهنه، ويعين القلب على التوكل والتعلق بالله ﷻ وحسن الظن به، وبهذا تكتمل الوظائف الثلاث التي هي أساس العمل الصالح المحمود.

والله أعلى وأعلم.

(*) جاء في آخر النصّ: **على يد العبد الفقير إلى الله عبْده محمد المكي بن علي القڤون القسنطيني غفر الله ذنوبه، وستر عيوبه، ويسَّر أمره ووالديه، وجميع المسلمين الأحياء منهم والميِّتين.**

في شعبان عام 1327هـ.

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه والتَّابعين وسلَّم تسليما.

العقائد الصُّغْرى

للعلاّمة محمّد المكّي بن عزُّوز



عقيدة التوحيد الصغرى

لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾.

وَاحِدٌ لاَ شَرِيكَ لَهُ **قَدِيمٌ** لاَ أَوَّلَ لِوُجُودِهِ، **بَاقٍ** لاَ نِهَايَةَ لِبَقَائِهِ، **جَلَّ** أَنْ يَلْحقَهُ تصوُّرٌ، **أَوْ** يُشَخِّصَهُ فِكْرٌ، **فَكُلُّ** مَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ فَرَبُّنَا مُخَالِفٌ لِذَلِكَ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

كَانَ العَالَمُ، وَهوَ جَمِيعُ مَا سِوَى الله فِي العَدَمِ، والله هُوَ الَّذِي أَوْجَدَهُ بِمَشِيئَتِهِ، فَكلُّهُ مُلْكُهُ يَتصَرَّفُ فِيهِ كَمَا شَاء، ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾، **غَنِيٌّ** عَن كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَجَمِيعُ مَا عَدَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، **يُعْطِي** مَنْ يَشَاءُ، **وَيَمْنَعُ** مَنْ يَشَاءُ، إِنْ أَنْعمَ فَبِفَضْلِهِ، وإِنْ مَنَعَ فَبِعَدْلِهِ، **يَهْدِي** مَنْ يَشَاءُ، **وَيُضِلُّ** مَنْ يَشَاءُ، أَفْعَالُهُ وَأَحْكَامُهُ كُلُّهَا لِحِكْمَةٍ، لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا عَبَثًا، **أَحَاطَ** بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، **وَأَحْصَى** كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ **قَدِير**، فَعَّالٌ لِمَا **يُرِيدُ**، لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلاَ رَادَّ لقضائه، بِقُدْرَتِهِ قَالَ لِلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[1]، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[2] وَالطَّيْر فِي الْجَوِّ مَا يُمْسِكُهنَّ إِلاَّ اللَّهُ.

---

(1) سورة فصلت، من الآية: 11.

(2) سورة الأعراف، من الآية: 54.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1].

هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا.

هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ المَطَرَ وَيُنْزِلُهُ، وَيُنْبِتُ النَّبَاتَ، وَلَوْ لَمْ يَشَأْ لَمْ تَنْزِلْ قَطْرَةٌ، أَو يُنْزِلُ المَاءَ وَلاَ يَنْبُتُ نَبَاتٌ.

هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الصَّاعِقَةَ بِسَبَبٍ أَوْ بِلاَ سَبَبٍ، وَيُسَلِّطهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهَا عَمَّنْ يَشَاءُ بِسَبَبٍ أَوْ بِلاَ سَبَبٍ.

وَهوَ الذِي يُمرض مَنْ يَشاءُ، ويشْفي منْ يَشَاءُ بِسَبَبٍ أَوْ بلاَ سَبَبٍ.

فَهُوَ خَالِقُ الأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ لاَ يُؤَثِّر سَببٌ فِي مُسَبِّبٍ مَا أَثَّرَ.

إِذَا أَرَادَ شَيْئا أَنْ يَقُولَ له كُنْ فَيَكُون.

وَهُـو رَازِقُ مَـنْ أَرَادَ، مَتَـى أَرَادَ، وَأَيْـنَ أَرَادَ، بِـمَـا أَرَادَ مِـنَ الـمَـالِ أَو الْعِلْم أَوالجَاهِ أَو الأَخْلاَقِ أَوْ غَيْرِهَا.

قَـالَ تَـعَـالَـى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[2].

خَلَقَ العَرْشَ، وَالعَرْشُ مُحِيطٌ بِالْعَالَم، وَفِي جَوْفِهِ الكُرْسِيّ، وَفِي جَوْفِ الكُرْسِيّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض.

خَلَقَ اللَّوْحَ وَالقَلَمَ، وَخَلَقَ المَلاَئِكَةَ وَالجِنَّ وَالإِنْسَ.

س ـ لأَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُمْ؟

ج ـ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوه، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًا مِنْهُمْ اخْتارَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِالشَّرَائِعَ.

جَعَلَ المَلاَئِكَةَ سُفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَشَرَطَ فِي قَبُولِ عِبَادَتِهِمْ الإِيمَان.

---

(1) سورة يونس، من الآية: 22.

(2) سورة الحجر، الآية: 21.

س ـ الإِيمَانُ بِمَاذَا؟

ج ـ الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ كُلِّهِ.

س ـ مَا مَعْنَى الإِيمان الشَّرْعِي؟

ج ـ الإِيمَانُ هُو مَجْمُوع ثَلاَثَة أُمُور؛ تَصْدِيق القَلْبِ، وَنُطْق اللِّسَان، والعَمَل الصَّالِح.

وَالإِيمانُ يَزِيدُ بالطَّاعاتِ، وَيَنْقص بالْمَعَاصِي، لكنْ لاَ يَسْلب عَن العاصِي مُطْلَق وَصْف المُؤْمِن إلاَّ إذَا شَكَّ بِقَلْبِهِ، أوْ نَطَقَ كُفْرًا بِلِسَانِهِ.

س ـ مَا وَظِيفَةُ الْعَقْلِ فِي هَذَا العِلْمِ؟

ج ـ الْعَقْلُ تَابعٌ لِلْنَّقْلِ ـ أَعْنِي الشَّرْع ـ وَخَادِمٌ لَهُ.

الْعَقْلُ لاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْحُكْمِ فِي المَبَاحِثِ الإِلَهِيَّةِ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا إِلاَّ بِتَلَقِّي عِلْمهَا مِنَ النُّبُوَّةِ.

وَكَذَلِكَ الأُمُور الأُخْرَوِيَّة وَمَا غَابَ عَنِ الْعَيَانِ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الشَّرْعُ فَلَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهِ وَظِيفَةٌ إِلاَّ التَّعَقُّل وَالتَّفَهُّم لِلْمُرَادِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

حَافِظُواْ عَلَى هَذَا الأَسَاسِ الكُلِّي فَهوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَبَيْنَ الْخَطَأ وَالصَّوَابِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَهَذِهِ إِحْدَى النُّقْطَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا مَنْبَعُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ.

وَالنُّقْطَة الثَّانِيَة: اعْتِقَادُ قُدْرَةِ اللّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ: مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وَفَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ زَالَ عَنْ فِكْرِهِ أَكْثَر الإِشْكَالاَت الْمُضِلَّة؛ لأَنَّهُ بِقُدْرَةِ اللّهِ تَنْخَرِقُ الطَّبِيعَة لِحِكْمَةٍ، وَالطَّبِيعَة أَصْلُهَا مِنْ خَلْقِهِ.

فَمَن اعْتَقَدَ وُقُوعَ شَيْء بِغَيْرِ فِعْلِ اللّهِ ولاَ تَوَقّف عَلَى مَشِيئَتِهِ وَلَوْ غَمْزَةِ أُو لَحْظَةٍ فَهوَ كَافِر.

مَنْ حَافَظَ عَلَى هَاتَيْنِ النُّقْطَتَيْنِ بَقِيَ إِيمَانهُ مَحْفُوظًا بِإِذْنِ اللهِ.

س ـ كَمْ السَّمَوَاتِ؟

ج ـ السَّمَوَاتُ سَبْعٌ، وَهِيَ طِبَاقٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَكُلّهَا فَوْقَ عَالَمِ الْكَوَاكِبِ.

س ـ فِي كَمْ خُلِقَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟

ج ـ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ؛ خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ، وَخَلَقَ مَا عَلَيْهَا مِنْ جِبَالٍ وَمَاءٍ وَأَقْوَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي يَوْمَيْنِ.

س ـ مَا مِقْدَارُ تِلْكَ الأَيَّامِ؟

ج ـ مِقْدَارُ أَيَّامِ الدُّنْيَا الْمَعْرُوفَةِ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهَا فِي لَحْظَةٍ.

س ـ مَتَى تَكْتُبُ المَلاَئِكَةُ قِسْمَةَ الإِنْسَانِ السَّابِقَة فِي عِلْمِ اللّهِ الْقَدِيمِ؟

ج ـ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، يَكْتُبُ الْمَلَكُ بِأَمْرِ اللّهِ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، وَمَا هُوَ لاَقِيه فِي مُسْتَقْبَلِهِ.

س ـ هَلْ لِلإِنْسَانِ مَدْخَلٌ فِي أَفْعَالِهِ؟

ج ـ نَعَمْ فَالإِنْسَانُ لَهُ اخْتِيَارٌ، لِلْفَرْقِ الضَّرُورِيِّ بَيْنَ حَرَكَةِ الارْتِعَاشِ وَحَرَكَةِ الْبَطْشِ.

فَبِقَصْدِهِ وَتَعَمُّدِهِ يُثَابُ وَيُعَاقَبُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]،

وَالتَّفْرِيطُ اعْتِمَادًا عَلَى سَابِقِ الْقَدَرِ جَهْلٌ وحمْقٌ، فَالإِنْسَانُ يَسْعَى، مُسْتَعِيناً باللهِ، ولا يَقَعُ إلاَّ ما شَاءَ اللهُ.

س ـ مَا الاعْتِقَادُ فِي حَقِّ الأَنْبِيَاءِ؟

ج ـ الأَنْبِيَاءُ صَادِقُونَ، أُمَنَاءُ، مَعْصُومُونَ، فُطَنَاء، لاَ يَكْتُمُونَ شَيْئًا مِمَّا

---

(1) سورة البقرة، من الآية: 286.

أَمَرَهُمْ اللّهُ بِتَبْلِيغِهِ، مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَاتِ لِلْعَادَةِ عَلاَمَةً عَلَى صِدْقِهِمْ.

وَمَنْ كَذَّبَ نَبِيًّا **وَلَوْ فِي كَلِمَةٍ** فَقَدْ كَفَرَ.

س ـ مَا الَّذِي يَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ؟

ج ـ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الأَحْوَالُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي لاَ نَقِيصَةَ فِيهَا؛ كَالْجُوعِ وَالتَّعَبِ وَالنِّكَاحِ، وَالْمَرَضِ الَّذِي لاَ تَنْفرُ مِنْهُ النُّفُوسُ.

س ـ مَا خَصَائِصُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ـ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ؟

ج ـ هُوَ خَاتمهُمْ، رَسُولاً لِجَمِيعِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ، جَاءَ مِنَ اللّهِ بِالْقُرْآنِ كَلاَم الله نَفْسه فَبَلَّغَهُ للأُمَّةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، ومُنزل الوَحْي عَلَيْهِ مِنَ اللّهِ جبْريل بالْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ، وَشَرْعُهُ مُصَدِّقٌ لِشَرَائِعِ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَرَافِعٌ لِحُكْمِهَا بِأَمْرِ اللهِ، فَلاَ شَرِيعَةَ بَعْدَ بِعْثَتِهِ إلاَّ شَرِيعَتهُ، وَهيَ أَجْمَعُ الشَّرَائِعِ وَأَخَفُّهَا.

س ـ مَا الْقَوْلُ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيل؟

ج ـ هُمَا مِنْ كَلاَمِ اللّهِ مِثْل القُرْآن وَ كَذَلِكَ الزَّبُورُ وَغَيْرُه مِنَ الصُّحُفِ الإِلَهِيَّةِ إِلاَّ الكَلِمَات الَّتِيَ حَرَّفُوهَا.

وَحَصْرُهَا مَجْهُولٌ **فَنَقُولُ فِي تِلْكَ الكُتُبِ** إِجْمَالاً: آمَنَّا بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ.

س ـ مَا الْحُكْمُ فِي مَنْ قَالَ كَلِمَةَ تَحْقِيرٍ فِي بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ أَوْ المَلاَئِكَةِ أَوْ الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ؟

ج ـ يُكفَّر بِذَلِكَ.

س ـ مَا حُكْمُ نَصب الْخَلِيفَةِ فِي الإِسْلاَمِ؟

ج ـ حُكْمُهُ الْوُجُوبُ عَلَى الأُمَّةِ، وَلاَ يَجُوزُ خَلْعُهُ وَالْخُرُوجُ عَنْ بَيْعَتِهِ مَا دَامَ مُؤْمِنًا يُصَلِّي.

س ـ مَا الْقَولُ فِي الكَرَامَاتِ؟

ج ـ كَرَامَاتُ الأَوْلِيَاء حَقٌّ، يَخْرِقُ اللّٰهُ لَهُمْ العَادَةَ، وَلاَ إِشْكَالَ فِيهَا.

المَوْتُ بِالأَجَلِ المَحْدُودِ وَلَوْ مَقْتُولاً.

وَعِزْرَائِيلُ هُوَ مَلَكُ الْمَوْتِ قَابِضُ الأَرْوَاحِ بِإِذْنِ اللهِ.

س ـ مَاذَا يُفْعَلُ بِالْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ؟

ج ـ إِمَّا فِي نَعِيمٍ وَإِمَّا فِي عَذَابٍ.

وَسُؤَالُ المَلَكَيْنِ حَقٌّ بَعْدَ أَنْ تَرْجِعَ لَهُ حَيَاةٌ يَفْهَمُ بِهَا الخِطَابَ، وَيَرُدُّ الْجَوَابَ.

وَقَوْلُ أَهْلِ الضَّلاَلِ: نَفْتَحُ الْقَبْرَ فَلاَ نَجِدُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، جَهَالَةٌ، لأَنَّ اللّٰهُ يَسْتُرُهَا، وَلَو انْكَشَفَتْ لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ الْبَارِي تَعَالَى فِي سَعَادَةِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ، وَشَقَاوَةِ مَنِ يَكْفُرُ بِهِ.

س ـ مَا البَرْزَخُ؟

ج ـ هُوَ عَالَمٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَوْجُودٌ الآنَ، وَفِيهِ مُسْتَقَرُّ الأَرْوَاحِ وَمَا شَاءَ اللهُ.

والسَّاعَةُ حَقٌّ، والحَشْرُ وَتَفَاصِيلُهُ التي ذَكَرَهَا الشَّرْعُ العَزِيزُ حَقٌّ.

س ـ هل الحَشْر بِالْجِسْمِ أَمْ بِالْرُّوحِ؟

ج ـ تُحْشَرُ الأَجْسَامُ بِأَعْيَانِهَا التِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ التِي تُحَاسَب، ولاَ يَمْنَعهُ العَقْلُ لأَنَّ الله لاَ يَعْجزُ عَنْ ذَلِكَ.

س ـ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ مَا هِيَ؟

ج ـ الدَّابَةُ، وَالدَّجَّالُ صَاحِبُ الفِتْنَةِ، وَنُزُولُ عِيسَى عليه السلام حَاكِمًا بِالشَّرْعِ المُحَمَّدِي، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَغَيْر ذَلِكَ.

وَفِي الأَخِيرِ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الصَّعْقِ فَيَمُوتُ جَمِيعُ الأَحْيَاء، ثُمَّ نَفْخَةَ البَعْثِ فَيَحْيَا جَمِيعُ الأَمْوَات، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ.

س ـ بَعْدَ البَعْث مَاذَا؟

ج ـ الحَشْرُ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، ثُمَّ الشَّفَاعَةُ الكُبْرَى المُحَمَّدِيَّة العُمُومِيَّة لِفَصْلِ النَّاسِ بَعْدَ طُولِ وُقُوفِهِمْ حُفَاةً عُرَاةً إلاَّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ اللّهُ لِمَنْ شَاءَ فِي الشَّفَاعَة، ثُمَّ الحِسَابُ وَالمِيزَانُ، وَحُضُورُ الصَّحَائِف المُحْتَوِيَةِ عَلَى الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وَهُنَاكَ الحَوْضُ المُحَمَّدِيُّ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لاَ يَظْمَأُ أَبَدًا.

وَالصِّرَاطُ؛ وَهُوَ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّمَ، وَالمُرُورُ عَلَيْهِ مُخْتَلِفٌ، فَمِنْ ناجٍ وَمِنْ عَاطِبٍ، ثُمَّ إِلَى الجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ.

س ـ هل الجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ الآن؟

ج ـ نَعَمْ مَخْلُوقَتَانِ الآنَ، وَفِيهِمَا مَا قَالَهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ.

وَالنَّعِيمُ وَالعَذَابُ مَحْسُوسَانِ حَقِيقَةً لاَ مَجَازًا.

وَأَعْلَى نَعِيمُ الجَنَّةِ: رُؤْيَةُ العَبْد رَبَّهُ بِالْبَصَرِ.

وَالمُؤْمِنُ العَاصِي إِذَا مَاتَ بِلاَ تَوْبَةٍ فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ إِلَى اللهِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1].

وَأَهْلُ الجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ [فيها]، وَأَهْلُ النَّارِ مُخَلَّدُونَ فِيهَا إِنْ مَاتُوا كُفَّارًا، فَإِنْ كَانُوا مِنْ عُصَاةِ المُؤْمِنِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَيدْخُلُونَ الجَنَّةَ.

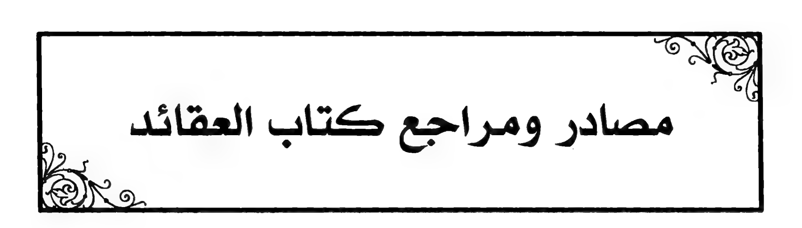
انتهى في ذي الحجَّة سنة 1326 هجريَّة. حرَّره محمد المكّي بن عزّوز[*].

❁ ❁ ❁

---

(1) سورة النساء، من الآية: 48.

(*) جاء في أسفل الورقة الأخيرة: على يد كاتبه عبده محمد المكّي ابن الفقون القسنطيني، غفر الله له ولجميع المسلمين آمين.



مصادر ومراجع كتاب العقائد

* ابن الأزرق، أبو عبدالله، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، العراق، ط1، وزارة الإعلام.

* الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، الرياض، ط5، مكتبة المعارف.

- صحيح الكلم الطيب، بيروت، ط3، المكتب الإسلامي. 1977م.
- صحيح السيرة النبوية، عمان - الأردن، ط1، المكتبة الإسلامية.
- صحيح وضعيف الجامع الصغير، بيروت، المكتب الإسلامي.
- ضعيف الترغيب والترهيب، الرياض، مكتبة المعارف.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الرياض، مكتبة المعارف.

* الآلوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

* الآلوسي، نعمان بن محمود، الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، حلب، ط2، مطبعة أوفست، 1399هـ.

* الأندلسي، أبو محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ-1993م.

* الأصبحي، أبو عبدالله مالك بن أنس، الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، مصر، دار إحياء التراث العربي.

* الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، حلية الأولياء، بيروت، دار الكتاب العربي، ط4، 1405 هـ.

* الأصبهاني، إسماعيل بن الفضل، دلائل النبوة، تحقيق محمد محمد الحداد، الرياض، ط1، دار طيبة، 1409هـ.

* الأصبهاني، أبو محمد عبدالله، العظمة، الرياض، ط1، دار العاصمة، 1408هـ.

* الإسفراييني، أبو المظفر طاهر بن محمد، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، ط1، عالم الكتب، 1989م.

* الإشبيلي، أبو محمد عبدالحق، العاقبة في ذكر الموت، تحقيق خضر محمد خضر، الكويت، ط1، مكتبة دار الأقصى، 1406هـ- 1986م.

* الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة، القاهرة، ط1، دار الأنصار، 1397هـ.

- مقالات الإسلاميين، بيروت، ط3، دار إحياء التراث العربي.

* الإيجي، عضد الدين عبدالرحمٰن، المواقف، بيروت، ط1، دار الجيل، 1997م.

* الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، بيروت، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، 1987م.

* البجيرمي، سليمان بن عمر بن محمد، حاشية البجيرمي، تركيا - ديار بكر، المكتبة الإسلامية.

* البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، ط3، دار البشائر الإسلامية، 1409هـ- 1989م.

- صحيح البخاري، راجعه ووضع فهارسه الدكتور مصطفى ديب البغا، عين مليلة، الجزائر، دار الهدى، 1992م.

* البخاري، علاء الدّين عبدالعزيز بن أحمد، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، ضبط وتعليق وتخريج محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت، ط1، دار الكتاب العربي، 1411هـ-1991م.

* البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي، قواعد الفقه، كراتشي، ط1، الصدف ببلشزر، 1407هـ- 1986م.

* البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو، المسند، بيروت - المدينة، ط1، مؤسسة علوم القرآن - مكتبة العلوم والحكم، 1409هـ.

* البصري، أبو الحسين محمد بن علي، المعتمد في أصول الفقه، تحقيق خليل الميس، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1403هـ.

* البغدادي، أبو بكر أحمد بن الخطيب، تاريخ بغداد، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، د ت.

* البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دمشق، دار الفكر، 1982م.

- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بغداد، مكتبة المثنى، تصوير بالأوفست عن طبعة استانبول 1951م.

* البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، بيروت، ط2، دار المعرفة، 1407هـ- 1987م.

* البستي، أبو حاتم محمد بن حبان، الصحيح بترتيب ابن بلبان، راجعه وحققه شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1414هـ-1993م.

* البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دمشق، ط9، دار الفكر، 1411هـ.

* البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار الفكر، 1416هـ-1996م.

* البيهقي، أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، بيروت، ط1، دار الآفاق الجديدة، 1401هـ.

- السنن الكبرى، دار الفكر، د ت.

- شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1410هـ.

* الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، بيروت، ط2، دار الفكر، 1402هـ.

* الترمذي، أبو عبدالله الحكيم، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق د. عبدالرحمٰن عميرة، بيروت، ط1، دار الجيل، 1992م.

* التفتازاني، سعد الدِّين مسعود بن عمر، شرح التّلويح على التّوضيح لمتن التّنقيح في أصول الفقه، بيروت، دار الكتب العلمية.

* الثعالبي، عبدالرحمٰن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

* الجرجاني، عبد القاهر، التعريفات، القاهرة، دار الرشاد، 1991م.

* الجزري، أبو السعادات المبارك بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1399هـ-1979م.

* الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي، أحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1405هـ.

* ابن الجوزي، عبدالرحمٰن جمال الدين، تلبيس إبليس، تحقيق د. سيد الجميلي، بيروت، ط1، دار الكتاب العربي، 1405هـ- 1985م.

- زاد المسير في علم التفسير، بيروت، ط3، المكتب الإسلامي، 1404هـ.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ط2، دار الكتب العلمية، 1415هـ - 1995م.

- غريب الحديث، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1985م.

* الجويني، أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف، البرهان في أصول الفقه، تحقيق د. عبد العظيم محمود الديب، المنصورة -مصر، ط4، دار الوفاء، 1418هـ.

- غياث الأمم والتياث الظلم، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم ود. مصطفى حلمي، الأسكندرية، ط1، دار الدعوة، 1979م.

* ابن الحاج، المدخل، بيروت، دار الفكر العربي، 1985م.

* الحراني، تقي الدين عبدالحليم بن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الرياض، ط1، دار العاصمة، 1414هـ.

- درء تعارض العقل والنقل، الرياض، دار الكنوز الأدبية، 1391هـ.

- دقائق التفسير، دمشق، ط2، مؤسسة علوم القرآن، 1404هـ.

- مجموع الفتاوى، جمع عبدالرحمٰن قاسم، مكتبة ابن تيمية، د ت.

- منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط1، مؤسسة قرطبة، 1406هـ.

- النبوات، القاهرة، المطبعة السلفية، 1386هـ.

- الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق محمد عمر الحلواني ومحمد كبير شودري، بيروت، ط1، دار ابن حزم، 1417هـ.

- العقيدة الواسطية، تحقيق محمد بن عبدالعزيز بن مانع، الرياض، ط2، الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء، 1412هـ.

* الحكمي، حافظ بن أحمد، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق عمر بن محمود، الدمام، ط1، دار ابن القيم، 1410هـ- 1990م.

* الحموي، أحمد بن محمد الحنفي، غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1405هـ- 1985م.

* الحنبلي، أبو الفرج عبدالرحمٰن بن رجب، أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، تحقيق محمد سعيد زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، 1405هـ.

- التخويف من النار، دمشق، ط1، مكتبة دار البيان، 1399هـ.

- جامع العلوم والحكم، بيروت، ط1، دار المعرفة، 1408هـ.

* الحنظلي، أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن المبارك، الجهاد، تحقيق نزيه حماد، تونس، الدار التونسية، 1972م.

* الحضرمي، عبدالرحمٰن بن خلدون، المقدمة، بيروت، ط5، دار القلم، 1984م.

* حسين، محمد الخضر، خواطر الحياة -ديوان شعر-، دمشق، الدار الحسينية للكتاب، ط4، 1410هـ.

- دراسات في الشريعة الإسلامية، دمشق، ط1، 1395هـ.

* ابن حيدرة، أبو الحسن شيث بن إبراهيم، حز الغلاصم في إفحام المخاصم، بيروت، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، 1405هـ.

- الزهد، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية.

* الخادمي، محمد بن مصطفى، بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية، دار إحياء الكتب العربية.

* الخلال، أبو بكر أحمد بن محمد، السنة، تحقيق د. عطية الزهراني، الرياض، ط1، دار الراية، 1410هـ.

* خضر، د. عبدالعليم، مفاهيم جغرافية في القصص القرآني.

* الدارمي، أبو محمد عبدالله، السنن، بيروت، ط1، دار الكتاب العربي، 1407هـ.

* الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، السنن، بيروت، ط4، عالم الكتب، 1404هـ-1984م.

* الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، دار المعارف، د ت.

- تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الفكر، 1401هـ.

* الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، غريب الحديث، تحقيق د. عبدالله الجبوري، بغداد، ط1، مكتبة العاني، 1397هـ.

* الدمشقي، علي بن الحسن بن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، بيروت، ط3، دار الكتاب العربي، 1404هـ.

* الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد شمس الدين، العلو للعلي الغفار، الرياض، ط1، مكتبة أضواء السلف، 1995م.

- سير أعلام النبلاء، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، بيروت، ط1، مؤسسة الرسالة، 1401هـ-1981م.

* الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، 1415هـ-1995م.

* الرازي، أبو محمد عبدالرحمٰن بن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكة المكرمة - الرياض، ط1، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1417هـ- 1997م.

* الرازي، فخر الدين محمد بن ضياء الدين، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، بيروت، ط3، دار الفكر، 1405هـ-1985م.

* الرملي، محمد بن أحمد، شرح زبد ابن رسلان، بيروت، دار المعرفة.

* رضا، محمد رشيد، الخلافة، تقديم محمد بن عيسى، الجزائر، موفم للنشر، 1992م.

* الزاهري، محمد الهادي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، تونس، ط1، 1344هـ- 1936م.
* الزجاج، إبراهيم بن محمد، تفسير أسماء الله الحسنى، دمشق، ط1، دار الثقافة العربية، 1974م.
* الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط7، دار العلم للملايين، 1987م.
* الزركشي، محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه، القاهرة، دار الكتبي.
- البرهان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة، 1393هـ.
* الزرعي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، 1973م.
- بدائع الفوائد، مكة المكرمة، ط1، دار الباز، 1416هـ-1996م.
- تحفة المودود بأحكام المولود، دمشق، ط1، دار البيان، 1391هـ- 1971م.
- الروح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1395هـ- 1975م.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1412هـ- 1992م.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، الدمام، ط2، دار ابن القيم، 1414هـ- 1994م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بيروت، ط2، دار الكتاب العربي، 1393هـ-1973م.
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، حلب، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1403هـ.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، الرياض، ط3، دار العاصمة، 1418هـ- 1998م.

- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الفوائد، بيروت، ط2، دار الكتب العلمية، 1393هـ- 1973م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، بيروت دار الفكر، 1398هـ- 1978م.

* الزرقاني، محمد بن يوسف، شرح الموطّأ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411 هـ.

* الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، 1404هـ- 1983م.
- المعجم الأوسط، القاهرة، دار الحرمين، ط1، 1415 هـ.
- مسند الشاميين، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، بيروت، ط1، مؤسسة الرسالة، 1405هـ- 1984م.

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1407هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، دار الفكر، 1405هـ.

* الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود، المسند، بيروت، دار المعرفة.

* الظاهري، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، القاهرة، ط1، دار الحديث، 1404هـ.
- المحلّى، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، مكتبة الخانجي.

* الكتاني، عبدالحي، التراتيب الإدارية، بيروت، دار الكتاب العربي.
- فهرس الفهارس والأثبات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ.

* الكسي، أبو محمد عبد بن حميد، المسند، القاهرة، ط1، مكتبة السنة، 1408هـ- 1988م.

* الكوفي، هناد بن السري، الزهد، تحقيق عبدالرحمٰن الفريواني، الكويت، ط1، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، 1406هـ.

* اللالكائي، أبو القاسم هبة الله بن الحسن، اعتقاد أهل السنة، الرياض، دار طيبة، 1402هـ.

- كرامات أولياء الله ﷻ، تحقيق د. أحمد سعد الحمان، الرياض، ط1، دار طيبة، 1412هـ.

* الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، مصر، ط1، المكتبة التوفيقية.

- أعلام النبوة، بيروت، ط1، دار الكتاب العربي، 1987م.

* المخزومي، مجاهد بن جبر، تفسير مجاهد، تحقيق عبدالرحمٰن السورتي، بيروت، المنشورات الإسلامية.

* مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دارالفكر، د ت.

* المرتضى، المهدي لدين الله أحمد بن يحيى، البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، بيروت، مؤسسة الرسالة.

* المروزي، إسحاق بن منصور، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط1، 1425هـ- 2002م.

* المروزي، أبو عبدالله نعيم بن حماد، الفتن، تحقيق سمير أمين الزهيري، القاهرة، ط1، مكتبة التوحيد، 1412هـ.

* المناوي، عبدالرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، مصر، ط1، المكتبة التجارية الكبرى، 1356هـ.

* ابن منده، محمد بن إسحق، الإيمان، تحقيق د. علي بن محمد الفقيهي، بيروت، ط2، مؤسسة الرسالة، 1406هـ.

* المنذري، أبو محمد عبد العظيم، الترغيب والترهيب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1417هـ.

* ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار المعارف، د ت.

* ابن منصور، سعيد، السنن، كتاب السنن، الهند، الدار السلفية، ط1، 1982 م.

* المعافري، أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي، أحكام القرآن، تحقيق محمد علي البجاوي، بيروت، دار الفكر.

* ابن معين، أبو زكريا يحيى، تاريخ ابن معين -رواية الدوري-، مكة المكرمة، ط1، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، 1399هـ- 1979م.

* ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، الرياض، ط1، مكتبة الرشد، 1990م.

* ابن مفلح، شمس الدين أبو عبدالله محمد، كتاب الفروع، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، ط4، عالم الكتب، 1404هـ-1984م.

* المقدسي، محمد بن عبدالواحد، فضائل بيت المقدس، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دمشق، ط1، دار الفكر، 1405هـ.

* المقدسي، مرعي بن يوسف، رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر، مكة المكرمة، ط1، دار حراء، 1410هـ.

* المقدسي، أبو عبدالله موفق الدين ابن قدامة، ذم التأويل، الكويت، ط1، الدار السلفية، 1406هـ.

* المقدسي، أبو شامة عبدالرحمٰن، مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول، تحقيق صلاح الدين مقبول، الكويت، مكتبة الصحوة الإسلامية، 1403هـ.

* المقّري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388هـ- 1968م.

* المواق، أبو عبدالله محمد بن يوسف، التاج والإكليل لمختصر خليل، بيروت، دار الفكر، ط3، 1412هـ.

* الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى، المسند، حققه وخرج أحاديثه حسين سليم أسد، دمشق، ط1، دار المأمون للتراث، 1404هـ-1984م.

* النحاس، أبو جعفر، معاني القرآن الكريم، تحقيق محمد علي الصابوني، مكة المكرمة، ط1، جامعة أم القرى، 1409هـ.

* النفراوي، أحمد بن غنيم، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، بيروت، دار الفكر، 1415هـ.

* النسائي، أبو عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب، المجتبى، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، حلب، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1406هـ-1986م.

- السنن الكبرى، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1411هـ- 1991م.

* النووي، شرف الدين يحيى بن زكريا الدمشقي، تهذيب الأسماء واللغات، بيروت، دار الكتب العلمية، د ت.

- روضة الطالبين، بيروت، دار الكتب العلمية، د ت.

- المجموع شرح المهذب، بيروت، دار الفكر، ط1، 1417 هـ.

- شرح صحيح مسلم، بيروت، ط2، دار إحياء التراث العربي، 1392هـ.

* النيسابوري، أبو عبدالله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار الكتاب العربي، د ت.

* النيسابوري، أبو سعيد عبدالرحمٰن بن محمد، الغنية في أُصُول الدين، بيروت، ط1، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية، 1987م.

* الصنعاني، أبو بكر عبدالرزّاق بن همام، تفسير القرآن، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، الرياض، ط1، مكتبة الرشد، 1410هـ.

- المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الهند، المجلس العلمي، د ت.

* الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، ط1، المكتب الإسلامي، 1405هـ.

* ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار، بيروت، ط2، دار الفكر، 1386هـ.

* العبسي، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، الكتاب المصنف، تحقيق كمال يوسف الحوت، الرياض، ط1، مكتبة الرشد، 1409هـ.

* العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقيق أحمد القلاش، بيروت، ط4، مؤسسة الرسالة، 1405هـ.

* العجمي، محمد بن ناصر، الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي – جمع وتحقيق–، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1422 هـ– 2001م.

* العدني، أبو عمر محمد بن يحيى، الإيمان، تحقيق حمد بن حمدي الجابري الحربي، الكويت، ط1، الدار السلفية، 1407هـ.

* العطار، أبو السعادات حسن بن محمد، حاشية العطّار على شرح الجلال المحلّي على جمع الجوامع، بيروت، دار الكتب العلمية.

* عليش، أبو عبدالله محمد أحمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، بيروت، دار المعرفة.

* العمادي، أبو السعود محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

* العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1997م.

- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق محمد علي البجاوي، بيروت، ط1، دار الجيل، 1412هـ.

- تغليق التعليق، بيروت - عمان، ط1، المكتب الإسلامي - دار عمار، 1405هـ.

- لسان الميزان، بيروت، ط3، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1406هـ- 1986م.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ.

* عياض، أبو الفضل عياض بن موسى، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، بيروت، دار الفكر.

* الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، جواهر القرآن، بيروت، ط1، دار إحياء العلوم، 1985م.

- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، قبرص، ط1، دار الجفان والجابي، 1407هـ-1987م.

- المستصفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413 هـ.

- قواعد العقائد، بيروت، ط2، عالم الكتب، 1985م.

* الغزنوي، جمال الدين أحمد بن محمد، أصول الدين، تحقيق عمر وفيق الداعوق، بيروت، ط1، دار البشائر الإسلامية، 1998م.

* الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحق، أخبار مكة، تحقيق د. عبدالملك دهيش، بيروت، ط2، دار خضر، 1414هـ.

* الفراهيدي، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1986م.
* القاسمي، محمد بن إبراهيم بن علي، إيثار الحَقّ على الخلق، بيروت، ط2، دار الكتب العلمية، 1987م.
* القدسي، كمال الدين بن أبي شريف، المسامرة بشرح المسايرة، مصر، ط2، مطبعة السعادة.
* القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، ط2، دار الشعب، 1373هـ.
* القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالبر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد بن عبدالكريم البكري، المغرب، مطبعة فضالة، 1387هـ.
* القرشي، عبدالله بن وهب، كتاب القدر، مكة المكرمة، ط1، دار السلطان، 1406هـ.
* القزويني، أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة، سنن ابن ماجة، فهرسة محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار الفكر، د ت.
* قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين، بيروت، دار الشروق.
* قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط17، 1412هـ.
* القنوجي، صديق حسن خان، أبجد العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978م.
  - يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار، القاهرة، ط1، مكتبة عاطف- دار الأنصار، 1398هـ- 1987م.
* القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
* القشيري، عبدالكريم، الرسالة القشيرية، تحقيق معروف زريق وعلي عبدالحميد بلطه جي، بيروت، ط1، دار الجيل، 2001م.

* القيسراني، محمد بن طاهر، تذكرة الحفاظ، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، الرياض، ط1، دار الصميعي، 1415هـ.

* السبكي، تاج الدين عبدالوهّاب، الإبهاج في شرح المنهاج، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1404هـ- 1984م.

- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبدالفتاح الحلو، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1976م.

* السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، دار الفكر، د ت.

* السلمي، أبو إسحق ابن خزيمة، الصحيح، بيروت، المكتب الإسلامي، 1390هـ- 1970م.

* السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق محمد حسن الشافعي، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1997م.

* السفاريني، لوامع الأنوار البهية شرح الدرة المضية، بيروت، ط3، المكتب الإسلامي، 1411هـ.

* السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة.

- تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، 1389هـ- 1969م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الفكر، 1993م.

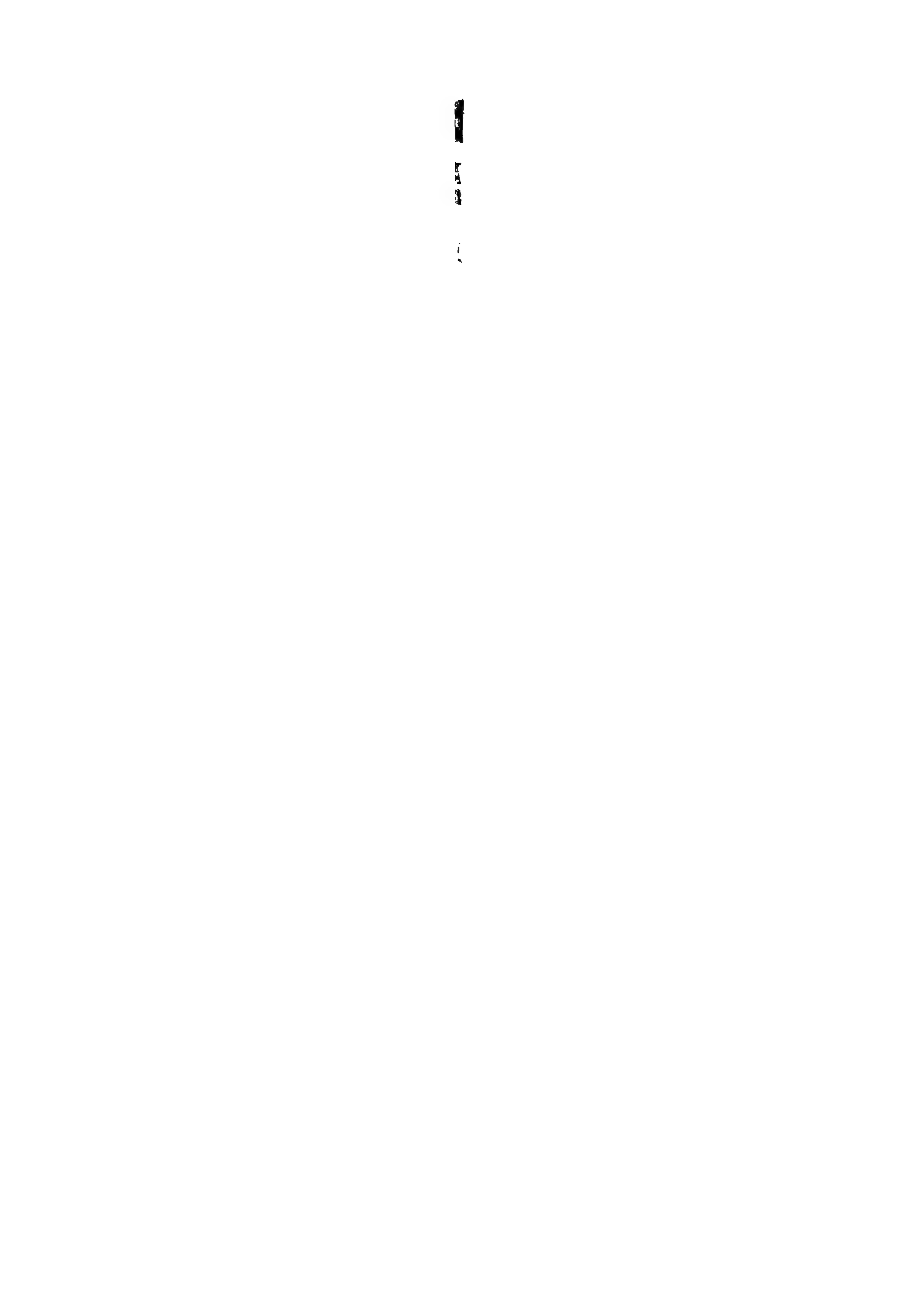
* الشاطبي، أبو إسحاق بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبدالله دراز، بيروت، دار المعرفة، د ت.

* الشافعي، أبو عبدالله محمد بن إدريس، الأم، بيروت، دار المعرفة، د ت.

* الشرواني، عبدالحميد، حواشي الشرواني، بيروت، دار الفكر.

* الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار، بيروت، دار الجيل، 1973م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بيروت، دار الفكر.
* الشيباني، أبو عبدالله أحمد بن حنبل، المسند، مصر، مؤسسة قرطبة.
- العقيدة -برواية مسدد بن مسرهد-، دمشق، ط1، دار قتيبة، 1408هـ.
- فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، بيروت، ط1، مؤسسة الرسالة، 1403هـ- 1983م.
* الشيباني، عبدالله بن أحمد بن حنبل، السنة، الدمام، ط1، دار ابن القيم، 1406هـ.
* الشيباني، عمرو بن أبي عاصم الضحاك، الآحاد والمثاني، تحقيق د. باسم الجوابرة، الرياض، ط1، دار الراية، 1411هـ- 1991م.
* الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة، مكتبة القدسي، د ت.
- السنة، بيروت، ط1، المكتب الإسلامي، 1400هـ.
* الواسطي، أسلم بن سهل الرزاز، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، بيروت، ط1، عالم الكتب، 1406هـ.
* اليعمري، إبراهيم بن محمد بن علي بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة، دار التراث، وطبعة بيروت، دار الكتب العلمية.





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

